جمهورية العراق

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية

قانون التوازن في القرآن الكريم

دراسة تفسيرية

رسالة تقدَّمت بها الطالبة

(فاطمة علي حسن الشاوي)

إلى مجلس كلية العلوم الإسلامية / جامعة كربلاء، وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في الشريعة والعلوم الإسلامية.

بإشراف

أ.د. محمد حسين عبود الطائي

١٤٤٢هـ ٢٠٢١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ سورة القمر: ٤٩

صدق الله العليُّ العظيم

ترشيح رسالة للطبع

نظرا لإنجاز فصول ومباحث (الرسالة) الموسومة بـ (قانون التوازن في القرآن الكريم دراسة تفسيرية) لطالبة الماجستير **(فاطمة علي حسن عبد الله)** فاني أرشحها للطبع .

التوقيع:

المشرف: د. محمد حسن عبود

مكان العمل : كلية العلوم الإسلامية

التاريخ: ٢٠٢١/٦/٢

إقرار المشرف

أشهد ان الرسالة الموسومة بـ ((قانون التوازن في القرآن الكريم دراسة تفسيرية)) للطالبة (**فاطمة علي حسن عبد الله**) قد تم اعدادها تحت إشرافي في جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في العلوم الاسلامية.

التوقيع:

المرتبة العلمية : استاذ مساعد دكتور

الاسم : د. محمد صاحب عبود

مكان العمل : كلية العلوم الإسلامية

التاريخ: ١٢/ ٦/ ٢٠٢١م

بناء على توصية المشرفين والمقوم العلمي أرشح هذه الرسالة:

التوقيع:

الاسم : ا.م.د. محمد ناظم محمد

التاريخ: ١٣/ ٦/ ٢٠٢١م

شهادة الخبير اللغوي

اطلعت على رسالة الطالب/ـــة (فاطمة علي حسن إسماعيل) الموسومة بـ (**قانونُ التوازنِ في القرآن الكريم دراسةٌ تفسيريةٌ**)

وقومتها لغوياً وأجدُ أنّها صالحة للمناقشة .

التوقيع:

المرتبة العلمية : أستاذ مساعد دكتور

الاسم : حازم عبدالرزاق عبيد

مكان العمل : جامعة تكريت - كلية العلوم الإسلامية

التاريخ: ١٥/٧/٢٠٢١

إقرار لجنة المناقشة

نشهد نحن رئيس وأعضاء لجنة المناقشة بأننا اطلعنا على هذه الرسالة الموسومة بـ (**قانون التوازن في القرآن الكريم دراسة تفسيرية**) وناقشنا الطالبة (**فاطمة علي حسن عبدالله**) في محتواها وفيما له علاقة بها ونعتقد أنها جديرة بالقبول بتقدير (امتيـــاز) لنيـــل درجـــة الماجستير في الشريعة والعلوم الإسلامية.

التوقيع:
الاسم: أ.م.د ليث عباس عباسم
المنصب في اللجنة: عضواً
التاريخ:

التوقيع:
الاسم: أ.م.د ليلى سعدالله ناجي
المنصب في اللجنة: عضواً
التاريخ:

التوقيع:
الاسم: أ.د محمد حسين عبود الطائي
المنصب في اللجنة: عضواً ومشرفاً
التاريخ:

التوقيع:
الاسم: أ.د محمد كاظم حسين الفتلاوي
المنصب في اللجنة: رئيساً
التاريخ:

صدقت في عمادة كلية العلوم الإسلامية

التوقيع:

أ.د ضرغام كريم كاظم الموسوي
العميد وكالة

التاريخ: 2024/7/15

الإهداء

إلى سادتي أئمة الهدى ومصابيح الدجى وأعلام التقى محمد ﷺ وأهل بيته الطيبين الطاهرين عليهم السلام...

إلى من شرفني بحمل اسمه وكان اصلا لكل نعمة انا عليها من بذل الغالي والنفيس في مسيرتي العلمية ورحل قبل ان يرى ثمرة غرسه والدي رحمه الله تعالى...

إلى نور عيني وضوء دربي ومهجة حياتي من كانت دعواتها وكلماتها رفيق الألق والتفوق أمي العزيزة أدامها الله لي...

إلى من عاندوا الظلم والطغيان وجادوا بأغلى ما يملكون لنصرة الحق والدين حتى تناثرت أجسادهم ولم يحوها قبر ولا كفن ..أخوتي الشهداء السعداء...

إلى السند والعضد والساعد إخوتي وأخواتي...
أزف لكم الإهداء حباً ورفعةً وكرامةً

الباحثة
فاطمة علي حسن الشاوي

الشكر والعرفان

الحمد لله الذي وفقني وأنعم عليَّ بإتمام هذه الرسالة، وأشكر الفضل لأهله.
وأتقدم بالشكر الجزيل لكل من مدَّ لي يد العون في إتمامها.
وأخصُّ بالذكر منهم الأستاذ الدكتور(محمد حسين عبود الطائي)، صاحب القلب الطيب ودماثة الاخلاق لقبوله الأشراف على رسالتي ، وما أبداه من رعاية كريمة للبحث، وما أسداه من نصح جميل وملاحظات قيَّمة أغنت الرسالة، فجزاه الله عني خير جزاء المحسنين.
وعرفاناً بالجميل أتقدّم بالشكر الجزيل لعميد كلية العلوم الإسلامية الاستاذ المساعد الدكتور
(ضرغام كريم الموسوي) الذي كان له الفضل في تزويدي بعنوان الرسالة ، وما غمرني به من وقته وفكره الثمين في مناقشات علمية للموضوع وملاحظات سديدة، وهذا هو دأبه مع جميع طلبته في نشر علمه، أسال الله العلي القدير أن يجازيه خير الجزاء وأن يكتب صنيعه في موازين حسناته، والشكر موصول للأستاذ الدكتور مسلم الأسدي المعاون العلمي لكلية العلوم الإسلامية الذي مدّ لي يد العون والمساعدة.
وأتقدم بوافر الشكر لجناب الشيخ الدكتور (فاضل الصفار) الذي قدم لي المشورة والدعم المعنوي طيلة مدة البحث.
ويدعوني واجبُ الوفاء والعرفان بالجميل أن أتذكّر جميل صنع من علمني في مرحلة الماجستير العلوية الفاضلة الاستاذ المساعد الدكتورة (ناهدة الغالبي)، فكانت خير عون لي في التوجيه والنصح، ولا يفوتني أن أذكر الاستاذ المساعد الدكتورة (إقبال وافي نجم) التي فتحت لي آفاقاً في علوم القرآن، فشكراً لكل ما قدماه لي.
كما أتقدم بالشكر الجزيل لأساتذة قسم الدراسات القرآنية ابتداءً من رئيس قسمها الاستاذ الدكتور(محمد ناظم المفرجي) وجميع من تولاني بالرعاية العلمية والأبوية من مرحلة البكلوريوس والماجستير، وأتمنى لهم دوام التوفيق والسداد في القول العمل.

الخلاصة

تحاول هذه الدراسة البحث في التوازنات المتوافرة في القرآن الكريم وفق الوجهة التفسيرية التي خرج بها المفسر القرآني وجعلها إحدى السبل التي يصل من خلالها إلى المضان القرآنية. فحوادث العالم وجرياته لاتقع صدفة ولا خبط عشواء وإنما وقوع الحوادث يكون وفق قانون خاص دقيق وثابت فكل فعل له ردة فعل والمخلوقات بما فيها الانسان تخضع لهذا القانون . فكتاب الله الكريم يمتاز بصورة إجمالية بالتوازن في جميع جوانبه . تتبلور منهجية البحث في الفصل التمهيدي الذي تضمن الاطار النظري لقانون التوازن ، أما الفصل الأول فتضمن قانون التوازن في النظم القراني (المفردة القرآنية الحذف والذكر التقابل والتوازن في السورة) ، أما الفصل الثاني فقد تضمن مستويات التوازن القرآني توازن عقدي – عبادي- والتعايش السلمي وغيرها . وكان الفصل الثالث مشتملاً على التوازن ضابطة الاعجاز القرآني ، أما الخاتمة فقد تضمنت جملة من النتائج كان أهمها يكون قانون التوازن قائماً على التوازنات في اعطاء كل طرف حقه من الاستحقاق بلا افراط وتفريق دون زيادة او نقصان .

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١
الفصل التمهيدي: الإطار النظري لقانون التوازن	٧
المبحث الأول: مفاهيم البحث	٧
المطلب الأول: القانون في اللغة والاصطلاح	٧
المطلب الثاني: التوازن في اللغة والاصطلاح	٨
المبحث الثاني: مصطلحات ذات صلة بالتوازن	١٢
المطلب الأول: الوسطية والاعتدال	١٢
المطلب الثاني: الفارق بين الوسطية والاعتدال والتوازن	١٨
المبحث الثالث: التوازن في الكون وفي المفهوم الإسلامي	٢٠
المطلب الأول: التوازن قانون كوني	٢٠
المطلب الثاني: التوازن في المفهوم الإسلامي	٢١
المبحث الرابع: التوازن عند المفسّرين وفي الأدب العربي وعلاقته بالنظام والجمال	٢٤
المطلب الأول: التوازن عند المفسّرين	٢٤
المطلب الثاني: التوازن في الآدب العربي والفارق بينه وبين التوازن في القرآن الكريم	٢٦
المطلب الثالث: التوازن وعلاقته بالنظام والجمال	٢٨
المبحث الخامس: أركان قانون التوازن وخصائصه	٣٠
المطلب الاول: أركان قانون التوازن	٣٠
المطلب الثاني: خصائص قانون التوازن	٣٤
المبحث السادس: فوائد قانون التوازن	٣٧
الفصل الاول: قانون التوازن في النظم القرآني	٤٤
تمهيد: معالم التوازن اللغوي في القرآن الكريم	٤٥
المبحث الأول: قانون التوازن في المفردة القرآنية	٤٦
المطلب الأول: التوازن بين المعنى وصفات الحروف الصوتية في المفردة القرآنية	٤٧
المطلب الثاني: التوازن بين معنى المفردة القرآنية والحدث الصوتي	٤٠
المطلب الثالث: التوازن في دقة اختيار المفردة القرآنية	٥٠
المطلب الرابع: قانون التوازن في قوة اللفظ لقوة المعنى	٥٣
المبحث الثاني: قانون التوازن في الحذف والذكر	٥٦
المطلب الأول: تعريف الحذف وفائدته	٥٦
المطلب الثاني: شروط الحذف	٥٧
المطلب الثالث: اشكال الحذف	٥٨

المبحث الثالث: التوازن في المتقابلات ٦١
المطلب الأول: مفهوم التقابل ٦١
المطلب الثاني: العلاقة بين التقابل والتناسب والتوازن ٦٢
المطلب الثالث: أنواع المقابلات ٦٤
المطلب الرابع: قوانين متوخاة من توازن المتقابلات ٦٦
المبحث الرابع: التوازن في السورة الواحدة ٦٨
المطلب الاول: التوازن بين اسم السورة ومضمونها ٦٨
المطلب الثاني: التوازن في سورة الرحمن ٧٠
المطلب الثالث: التوازن بين الآيات في السورة الواحدة ٧٣
المبحث الخامس: التوازن في القصة القرآنية ٧٥
المطلب الأول: مفهوم الاقتران القصصي في اللغة والاصطلاح ٧٥
المطلب الثاني: التوازن بين قصتي زكريا ومريم عليهما السلام ٧٧
المطلب الثالث: قانون التوازن في المتشابه اللفظي في القصة القرآنية ٨١
المبحث السادس: التوازن في الفاصلة القرآنية ٨٣
المطلب الأول: بين يدي الفاصلة القرآنية ٨٣
المطلب الثاني: توازن الإيقاع الصوتي وتصوير المعنى في الفاصلة ٨٧
المطلب الثالث: توازن في دقة معنى الفاصلة مع السياق ٨٩
المطلب الرابع: التوازن في التقديم والتأخير ٩٤
الفصل الثاني: مستويات التوازن القرآني ١٠٠
تمهيد في الترابط بين مستويات التوازن ١٠١
المبحث الاول: التوازن العقدي ١٠٢
المطلب الأول: التوازن العقدي في توحيد الله ١٠٢
المطلب الثاني: التوازن في النبوة ١٠٨
المطلب الثالث: التوازن في الامامة ١١٢
المبحث الثاني: التوازن العبادي ١١٦
المطلب الاول: التوازن في عبودية الأنسان ١١٧
المطلب الثاني: التوازن في فريضة الصلاة ١٢٠
المطلب الثالث: التوازن في فريضة الصوم ١٢٢
المطلب الرابع: التوازن في الزكاة ١٢٤
المطلب الخامس: التوازن في الحج ١٢٦
المبحث الثالث: التوازن في المعاملات ١٢٩
المطلب الأول: التوازن في العلاقات الاجتماعية ١٢٩
المطلب الثاني: التوازن في المعاملة التعاقدية ١٣١
المطلب الثالث: التوازن في القصاص ١٣٦
المطلب الرابع: التوازن في نصيب الذكر والأنثى ١٣٩
المبحث الرابع: التوازن في القيم الأخلاقية ١٤١
المطلب الاول: التوازن في اخلاق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ١٤٢
المطلب الثاني: التوازن في الفضائل ١٤٤

المطلب الثالث: التوازن في الآداب التربوية الأخلاقية ١٤٧
المبحث الخامس: التوازن في التشريع ١٥٠
المطلب الاول: تشريع الأحكام الثانوية ١٥١
المطلب الثاني: رفع الحرج بجعل البدائل ١٥٢
المطلب الثالث: التوازن في ثبات ومرونة الشريعة ١٥٦
المبحث السادس: التوازن في التعايش السلمي والتوازن العسكري ١٥٧
المطلب الأول: التوازن في التعايش السلمي ١٥٧
المطلب الثاني: التوازن العسكري ١٦٢
الفصل الثالث: التوازن ضابطة الإعجاز القرآني ١٦٦
تمهيد في بيان مفاهيم الفصل ١٦٧
المبحث الاول: التوازن الخلقي ١٦٩
المطلب الأول: التوازن في آيات خلق الإنسان ١٧٠
المطلب الثاني: التوازن في خلق الأعضاء الظاهرية في البدن ١٧٤
المطلب الثالث: التوازن في التعدد والاختلاف في خلق الله وفي سنة التغيير ١٧٨
المبحث الثاني: التوازن الكوني ١٨٣
المطلب الأول: التوازن في خلق الكون ١٨٣
المطلب الثاني: التوازن في خلق السماوات والأرض ١٨٦
المطلب الثالث: التوازن بين الشمس والقمر ١٨٧
المطلب الرابع: التوازن في الليل والنهار ١٨٩
المبحث الثالث: التوازن البيئي ١٩٠
المطلب الأول: نظرة القرآن للبيئة ١٩٢
المطلب الثاني: التوازن المنظم في موارد اليابسة والماء ١٩٤
المبحث الرابع: التوازن بين السنن الكونية والطبيعية والإنسان ٢٠٢
المطلب الاول: السنن في اللغة والاصطلاح وعلاقتها بقانون التوازن ٢٠٣
المطلب الثاني: توازن خلق السماوات والأرض مع السنن الكونية ٢٠٥
المطلب الثالث: توازن الظواهر الطبيعية مع السلوك الإنساني ٢٠٨
المبحث الخامس: التوازن التمكيني ٢١١
المطلب الاول: التوازن في التسخير للإنسان ٢١١
المطلب الثاني: التوازن في تمكين الإنسان ٢١٥
المطلب الثالث: التوازن في الاستخلاف والنصر ٢٢١
الخاتمة ٢٢٨
المصادر ٢٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتنال الخيرات، وتجلب المسرات، وتدفع المضرات، والصلاة والسلام على محمدٍ نبيه وأمينه على وحيه وعلى آله الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

أما بعد:

إنَّ حوادث العالم ومجرياته لا تقع في هذا العالم صدفة، ولا خبط عشواء، وإنما وقوع الحوادث على وفق قانون عام، ودقيق، وثابت، لا يخرج عن أحكامه، هو قانون التوازن، والمخلوقات بما فيها الإنسان تخضع لهذا القانون في وجودها المادي وجميع الحوادث المادية، فخلق الإنسان والأطوار التي يمر بها في رحم أمه، وما يطرأ عليه في نموه وحركة أعضائه ومرضه وهرمه ولوازم بقائه في الحياة يخضع في ذلك إلى هذا القانون، والظواهر الكونية في آيات القرآن الكريم الآفاقية، دالة على خالق هذا الكون، وهي خاضعة في حركتها وأبعادها المنتظمة لهذا القانون الثابت.

إنَّ كتاب الله الكريم يمتاز بصورة إجمالية بالتوازن من جميع جوانبه، كيف لا وهو كلام الله سبحانه، والناظر لسور القرآن وآياته يدرك ذلك جليا فيه، فهو ميزان منضبط متزن، لا يكبو البتة، يمنح كل شيء قدراً مقدراً، وقد وضع كل حرف وكل كلمة وكل آية في مكانها، لتؤدي دورها، لا تتقدم ولا تتأخر ولا تتغير، فالكلمة في مكانها ملتحمة مع سياقها حتى تغدو جزءاً لا ينفصل عنه فليس في القرآن حرف زائد أو ناقص، وليس فيه حركة أو سكون بلا دلالة أو معنى، وكذلك الزمان والمكان والإنسان وغير الإنسان، كل شيء مقدَّر بقدر موزون، فمن الناحية اللفظية يحتوي القرآن على إبداع هندسي دقيق من الألفاظ والكلمات، وقد تناول البحث قانون التوازن بصفته سالماً من الإفراط والتفريط، والشطحات والمبالغة، وقد تتجاذب هذا القانون متقابلات عدة في آنٍ واحد، وقد تكون هذه المتقابلات بعضها أقوى من بعض، فنقطة التوازن بينهما ليست في متناول الجميع، بل قد لا تصيبه اجتهادات الإنسان، ويراعي المتقابلات في اتزانه بحيث يتخذ موقعه في نقطة يمنحه هذا الموقع أفضل تأثير بهذه المتقابلات، ويؤمنه من أكبر قدر من المحترزات.

إنَّ مما لا شك فيه أنَّ المتبادر إلى الذهن عند قراءة العنوان (قانون التوازن) ينسكب فيه معنى المعيار الدقيق في الوزن الذي يمتنع أن يزاحمه معنى أخر أو الجنوح إلى جهة دون أخرى، فتكون كفتا الميزان حال استوائهما حاضرة في الذهن، وقد شاع في الوقت الحاضر تغلغل مصطلح التوازن في جميع مجالات الحياة الإنسانية المختلفة المادية والمعنوية، فإذا أريد وصف شيء بالمثالية قيل أنه متوازن.

إنَّ القرآن يصيب نقطة التوازن دائما؛ لأنه كلام العليم الحكيم، فألفاظه ومعانيه وما يتصل به، وما يتفرع عن ذلك كله متوازن بأدق درجات التوازن .

إنَّ التوازن الذي بحثته بين آيات القرآن الكريم ليس له علاقة بمفهوم الوسطية أو الاعتدال، بأنّه منتصف المسافة بين المتقابلات دائما، وقد تصدّق أن يكون التوازن في منتصف متقابلاته في نقطة معينة، ولكنه لا يعني وسطية هذه المتقابلات أو اعتدالها، فالتوازن نقطة بين متقابلين أو أكثر، وهذه النقطة تحقق الفائدة المرجوة منها وهي أنفعها، لكنها ليست في المنتصف، بل في الكثير تكون أقرب إلى أحد المتقابلات، ولو انتصفت لاختلَّ التوازن.

أهمية البحث:

إنَّ من أهم غايات القرآن الكريم هو احداث تحول عالمي في الإنسان، وهذا التحول الشامل لا يكون إلا في ظل قانون إلهي شامل وكامل يستوعب الزمان والمكان والإنسان، فهو بيّنة من بيّنات القرآن في إثبات ربانية القرآن والدالة على صحة نسبته إلى الله تعالى، إذ يستحيل على البشر الإتيان بكلام يبلغ حد الكمال في توازنه، فكلُّ شيء في توازن وتقدير مقدَّر سواء في نظمه أم في مستوياته التشريعية والتكوينية، وصحة مطابقته للحقائق العلمية الحديثة يمثل دليلا من أدلة التوحيد، كما يسترعي قانون التوازن انتباه العلماء في مختلف التخصصات العلمية، والذي بموجبه استفادت البشرية في تسخير كثير من سنن الكون والتمكين في مجالات حياتها المختلفة، ودفعت عنها كثيراً من الشرور والمفاسد، كما لا يخفى ما للجوانب الفنية والجمالية في التوازن اللغوي لألفاظ القرآن واساليبه وتراكيبه، آسرة للألباب وجاذبة للنفوس.

من هنا تأتي أهمية هذه الدراسة التي تمثل خطوة في بيان قانون التوازن وإبراز المضامين القرآنية لدستور حياة ونظام يرسم طريقها في جميع النواحي والميادين والذي أصبح العمل على إبرازها وتطبيقها ضرورة من ضرورات الحياة، ويترتب على قانون التوازن صلاح الكون والمخلوقات، والحصول على ثمرات فوائده العاجلة في الدنيا، والآجلة في الآخرة، ويترتب على تركه الفساد والعقوبات في الدنيا والآخرة .

أسباب اختيار الموضوع:

من هنا فقد تم اختيار البحث للأسباب الآتية:

١- إيمان الباحثة بأن موضوع هذا البحث من أجلَّ ما يصرف فيه طالب العلم وقته وجهده؛ ذلك أنّه مرتبط بكلام الله عزّ وجلّ .

٢- يقين الباحثة بأنَّ القرآن الكريم هو خير مجال للكشف عن قانون التوازن بكل أركانه وخصائصه ومستوياته وفوائده، إذ يُعدّ المشرع الأول في جميع جوانب الحياة والمنظم لها .

٣- إبراز مظهر من مظاهر الإعجاز الذي ميّزَ كلام الله من غيره من الكلام والمتعلق بإظهار قانون التوازن وأهميته في حياة الناس، وعن تأثير اتباعه أو تركه، واظهار هذا التوازن من حالة الوعي إلى حالة السعي.

فرضية البحث:

وتكمن في الإشارات الآتية:

١- هل هناك قانون توازن في القرآن الكريم، وما مدى انعكاسه على الكون والمجتمع والفرد الإنساني؟.

٢- ما مدى توافق قانون التوازن بين النصوص القرآنية وقواعد التشريع العامة ؟.

٣- ما هي الأركان والخصائص التي بُني عليها قانون التوازن في القرآن الكريم؟.

٤- ما الآثار المترتبة على العمل بقانون التوازن أو مخالفته أو تركه في ضوء الآيات القرآنية؟.

مشكلة البحث :

مما لا شك فيه إنَّ دلائل مصدر القرآن الكريم لصيقة بموضوع الإعجاز القرآني؛ لأنّها تؤدي في النهاية إلى نتيجة واحدة؛ هي إثبات ربانية القرآن الكريم، وأنه معجزة دالة على صدق الرسول ﷺ وهذه الدلائل تضاف إلى مظاهر تفوق القرآن الكريم على سائر الكلام، فكان لزاماً على كل من يجد دليلاً يدل عليه أن يشير إليه ، فإنَّ في ذلك تعزيزاً لهذه الدلائل وتعضيداً لها، ولقد حرص أعداء الإسلام كعادتهم أن يجردوا الإسلام من صفة التوازن ويرموه بتهم التطرف والغلو، ونسبوا إليه كل وصف لا يمت إلى التوازن بصلة، وامتدَّ هذا التجريد والتشكيك إلى القرآن الكريم، فكانت هذه الدراسة لتسليط الضوء على هذا الموضوع المهم، الذي غاب عن مصنفات الباحثين قديماً وحديثاً، إلاّ بعض الإشارات التي لا ترقى إلى ما يستحقه هذا الموضوع المتجذر في ثنايا سور القرآن الكريم، فكان ذلك آية عظيمة أسفرت عن عظمة القرآن الكريم وإعجازه في كونه كلام فوق طاقة البشر.

الدراسات السابقة:

وجدت الباحثة دراستين في موضوع التوازن هما :

١- أطروحة دكتوراه بعنوان (التوازن في ضوء القرآن الكريم) للباحث عبد السلام محمد عبد الله اليحيصي ، مقدمة إلى جامعة أم درمان الإسلامية في سنة ١٤٣١هـ، تناول الباحث فيها مفهوم التوازن وعدَّه ضمن مفاهيم لألفاظ قرآنية عدة قاربت خمساً وخمسين مصطلحاً لغوياً.

٢- كتاب (التوازن القرآني في الألفاظ والتراكيب والأسلوب) للدكتور عماد محمود الزقيلي، وهو في الأصل أطروحة دكتوراه بعنوان: (التوازن في ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه واسلوبه)، مقدّم إلى جامعة العلوم الإسلامية العالمية سنة ١٤٣٥هـ، عرف فيه الباحث التوازن بأنه: وفاء القرآن الكريم بمقتضى المتقابلات، بما يحقق مقاصده النبيلة، وغاياته الشريفة بأحسن ما يكون .

وتجدر الاشارة إلى أن الباحثين قد حشدا الموضوع بالآيات القرآنية ولم يتبين التوازن بدقة المفردة التي يرام بحثها، ويبدو للباحثة أن سبب ذلك يعود إلى اعتماد تعريف التوازن عند كلا من الباحثين فكان الخوض في التوازن بما يناسب تعريفه عندهم، وحددوا بحثوهم بتفاسير أهل السنة فقط، وكان الأجدر الاطلاع على كتب التفاسير عند الإمامية؛ لما تحويه من كنوز تفسيرية تخدم طالب العلم وترتقي ببحثه، في حين تحرّت الباحثة وبحسب طاقتها

جانب الحيادية في رسالتها قانون التوازن في القرآن الكريم من خلال استقصاء المعلومات من كتب التفاسير السنية والأمامية على حد سواء.

الصعوبات:

لا تخلو مسيرة العلم من صعوبة، ومن الصعوبات التي واجهت البحث الآتي:

١- جدة الموضوع وسعته، وتشعب أطرافه، وتشابك موضوعاته .

٢- قلة المصادر والمراجع التي تبحث في التوازن .

٣- تناثر المادة العلمية في مختلف التخصصات.

منهج البحث:

أما منهج الدراسة فلم يقتصر البحث على منهج واحد؛ لأنَّ مجال التوازن يتيح استعمال عدداً من مناهج البحث العلمي، وبما أنَّ طبيعة الموضوع الذي تقوم الباحثة بدراسته هي التي تفرض المنهج المناسب، فإنه بالإمكان اعتماد المنهج الوصفي التحليلي الذي يهدف "إلى وصف الأشياء أو الظواهر أو الأحداث وبيان العلاقات التي تربط بينها وتفسيرها ودراستها وتحليلها وأخذ العبرة منها وتوقع تأثيراتها المستقبلية "[1]، ونظرت الباحثة إلى الأقوال فقامت بتحليلها وسبر أغوارها وتدوين ما يخدم الموضوع، وناقشت بعضها، وجانبت ما ينبغي قبوله بما يثري البحث ويغنيه، كما كان المنهج الاستقرائي حاضراً في البحث عن طريق التركيز فيه على استنطاق النصوص القرآنية وتولدّ الأفكار منها لقانون التوازن؛ لأنَّ النصوص لم تنص عليه نصاً ظاهراً، وذلك بهدف استخراج توازن مدعم بالأدلة الواضحة، وعملية انتقاء الأفكار من النصوص لم تقم على هوى، ولا تعصب، ولا اعتداد بنفس أمّارة بالسوء، إنما هو تتبع الحق بقدر السعة والاجتهاد، فإن الحق أحق أن يُتَّبع، ومن حق العلم المرتبط بكتاب الله سبحانه تعالى أن تسلم الباحثة فيه من المجاملة على حساب حقائقه وعلومه، وقد بذلت الباحثة الوسع في استقراء الآراء والأقوال المتعلقة بالتوازن، سواء في هذا اللفظ أم في غيره، فبحثت في المعاجم اللغوية وكتب اللغة وعلوم القرآن والعقائد والأخلاق، القديمة منها والحديثة، واستعملت الباحث الإلكتروني في تقصي الموضوع من مظانه.

خطة البحث:

تبلورت منهجية البحث في الآتي: الفصل التمهيدي الذي تضمّن (الإطار النظري لقانون التوازن) في ستة مباحث، تناولت مفاهيم البحث في تعريف مفردات العنوان في اللغة والاصطلاح، واهم المصطلحات ذات صلة بالتوازن، والتوازن في الكون والمفهوم الإسلامي، وعند المفسّرين والآدب العربي وعلاقته بالنظام والجمال، وأركان قانون التوازن وخصائصه، وأهم الفوائد المتوخاة من قانون التوازن.

([1]) أبو سليمان، عبد الوهاب ابراهيم ، البحث العلمي ومصادر الدراسات الاسلامية ، دار المعارف، ١٤٠٧هـ ، ٢٥، وينظر: الفتلاوي، محمد كاظم حسين، المنظور القرآني في بناء الانسان، اطروحة دكتوراه جامعة الكوفة/ كلية الفقه، ١٤٣٣هـ،١١.

وأما الفصل الأول فتضمّن (قانون التوازن في النظم القرآني) في ستة مباحث واشتملت على المفردة القرآنية، والحذف والذكر، والمتقابلات، والتوازن في السورة الواحدة، وفي القصة القرآنية، والفاصلة القرآنية.

فيما تناول الفصل الثاني (مستويات التوازن القرآني) في ستة مباحث استوعبت التوازن العقدي، والتوازن العبادي، والتوازن في المعاملات، والتوازن في القيم الأخلاقية، والتوازن في التشريع، والتوازن في التعايش السلمي والعسكري.

وكان الفصل الثالث في (التوازن ضابطة الإعجاز القرآني) في خمسة مباحث، وقد اشتملت على التوازن الخلقي، والتوازن الكوني، والتوازن البيئي، التوازن بين السنن الكونية والطبيعية والإنسان، التوازن التمكيني، واختتم البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة، وتثبيت المصادر والمراجع التي استعملتها في البحث .

وفي الختام أسال الله تعالى القبول، فإن أحسنت فمنه سبحانه تعالى، وإن قصرت – والتقصير حاصل – فمن نفسي، فأستغفر الله وأتوب إليه، وعزائي أني بذلت وسعي، وأخلصت نيتي، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين.

الفصل التمهيدي: الإطار النظري لقانون التوازن

المبحث الأول: مفاهيم البحث

المبحث الثاني: مصطلحات ذات صلة بالتوازن

المبحث الثالث: التوازن في الكون وفي المفهوم الإسلامي

المبحث الرابع: التوازن عند المفسّرين وفي الأدب العربي وعلاقته بالنظام والجمال

المبحث الخامس: أركان قانون التوازن وخصائصه

المبحث السادس: فوائد قانون التوازن

الفصل التمهيدي : الإطار النظري لقانون التوازن

ويتكون الفصل من المباحث الآتية:

المبحث الأول : مفاهيم البحث

يستلزم بيان قانون التوازن -ابتداءً- إيضاح المراد منه في اللغة والاصطلاح عبر المطالب الآتية :

المطلب الأول: القانون في اللغة والاصطلاح:

ولكي يقف البحث على مفهوم التوازن، لابد له من التطرق إلى الآتي:

أولاً : القانون في اللغة: لم تجد الباحثة بحسب تتبعها في المعاجم اللغوية القديمة، كمعجم العين للفراهيدي (ت١٧٠هـ)، وتهذيب اللغة للازهري (ت٣٧٠هـ) والصحاح للجوهري (ت٣٩٣هـ)، ومقاييس اللغة لابن فارس (ت٣٩٥هـ)، معنىً للفظة القانون؛ بل ورد أن "القوانين الأصول، والواحد قانون وليس بعربي "[١].

وجاء في لسان العرب لابن منظور(ت ٧١١هـ): وقانون كل شيء: طريقه ومقياسه، وهي دخيلة[٢]، وإن لفظة القانون من أصل يوناني وعُرّبت لفظيا للكلمة اليونانية kanon والتي تعني العصا المستقيمة، وتستعمل مجازا للدلالة على الاستقامة في المبادئ القانونية[٣]، وقيل: إنها تعني القاعدة أو المسطرة، وأن الفرنسيين اقتبسوا الكلمة وأطلقوها على قرارات مجامع الكنسية، كما ذهب البعض إلى أنها من أصل رومي أو فارسي[٤]، ويطلق القانون أيضاً على كل قاعدة أو قواعد مطّردة يحمل اطّرادها معنى الاستمرار والاستقرار والنظام[٥].

وبهذا تكون لفظة القانون لها اطلاقات هي: الأصل، مقياس كل شيء وطريقه، الاستقامة، وهذه المعاني تتسم بالعموم والشمولية.

ثانياً: القانون في الاصطلاح: عرّفه الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ) بأنّه: "أمرٌ كليٌ منطبقٌ على جزئياته، التي يتعرف احكامها منه، كقول النحاة: الفاعل مرفوع، والمفعول به منصوب، والمضاف إليه مجرور"[٦].

وينصرف لفظ القانون في هذا العصر إلى العلاقة المطردة بين ظاهرتين أو أكثر تؤدي إلى نتيجة ثابتة[١].

---

(١) الرازي ، محمد بن ابي بكر (ت٦٦٠هـ)، مختار الصحاح ،(د ط)، اخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان ، ١٤١٠ هـ ، مادة قنن، ٤٨٧ .

(٢) ينظر: ابن منظور ، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ) ، لسان العرب، ط٣ ، دار صادر ، بيروت،(د ت) ، مادة قنن ، ١٣/ ٣٤٩.

(٣) ينظر: بوضياف ، عمار (معاصر) ، المدخل للعلوم القانونية ، ط٢، دارريحانة،الجزائر ، ١٤٤٢هـ، ١٤، وينظر: بدوي، عمرو طه ، نظرية القانون، محاضرات كلية الحقوق جامعة القاهرة ،١٤٢٩هـ ، ١٤، https://boubidi.blogspot.com.

(٤) ينظر : عالية ، سمير، علم القانون والفقه الاسلامي ، ط٢، مجد ، بيروت – لبنان ، ١٤١٧هـ ، ٣٨.

(٥) ينظر: كيرة، حسن ، المدخل الى القانون، (د ط)، منشأة المعارف ، الاسكندرية- مصر ، ١٤٢١هـ ، ١١.

(٦) الجرجاني ، علي بن محمد (ت٨١٦هـ) ، التعريفات ، تحقيق محمد صديق المنشاوي ،(د ط)، دار الفضيلة للنشر والتوزيع ، مصر، ١٤٢٥هـ ، باب القاف ، ١٤٣.

والقانون مفهوم عام له تطبيقاته فهو يدخل في مختلف مجالات العلوم، للدلالة على كل أصل مستقر تترتب عليه آثار محددة، فيكون المعنى الاصطلاحي قريب من المعنى اللغوي في قول: إنَّ قانون كل شيء هو طريق كل شيء ومقياسه[٢]، ويراد منه الصلة، أو الترابط العميق، والأساس، والثابت، والمنتظم بين الظواهر الطبيعية، أو بين أوجه الظاهرة الواحدة نفسها، كما في مجال العلوم الكونية مثل: (قانون الجاذبية) و(قانون طفو الأجسام)؛ المنطبق على جميع الأجسام، و(قانون التوازن الكيميائي)؛ الذي ينطبق على جميع الذرات والجزيئات والعناصر الكيميائية وقانون(العرض والطلب) في العلوم الاقتصادية وقوانين علم الرياضيات[٣]، والقانون مفهومه هنا علمي يسجل الواقع ويعبر عن ظواهره تعبيراً مسلماً به لا يعتريه الشك .

وبذا فالقانون مفهوم عام يمكن أن ينطبق على كل كلي منطبق على جزئيات عديدة.

ومن هنا فإن المعنى اللغوي لا يبتعد عن الاصطلاحي من كونه مقياس كل شيء فهو أمر كلي، ويتمثل بالاستقامة والنظام وهو أصل لمجموعة من القواعد تأخذ أحكامها منه، فـإنَّ المعنى اللغوي والاصطلاحي يتسمان بالعموم والشمولية بما يجعله ينطبق على مختلف العلوم.

إنَّ هذه المعاني في إطلاقها العام تستعمل معياراً لرسم معالم الطريق المستقيم وتحديدها وبيانها، وإنَّ أي خروج عنه يشكّل انحرافاً عن هذا الطريق، أما معانيه فإنها تختلف باختلاف المعيار أو التخصص والفن المتداول داخله على كل المستويات العلمية والاجتماعية [٤].

المطلب الثاني: التوازن في اللغة والاصطلاح:

أولاً: التوازن في اللغة:

لفظ التوازن من الأصل الثلاثي (وَزَنَ) ، وله استعمالات عند العرب بمعانٍ عدة وباشتقاقات مختلفة، فالوزن: " ثقل شيء بشيء مثله، كأوزان الدراهم، ويقال: وزن الشيء إذا قدَّره، ووزن النخل اذا خرَصه، ووزنت الشيء فاتّزن، والميزان ما وزنت به"[٥]، قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): " الواو والزاي والنون: بناء يدل على تعديل واستقامة، وقام ميزان النهار إذا انتصف النهار، وهذا يوازن ذلك أي هو محاذيه، ووزين الرأي: معتدله وهو راجح الوزن إذ نسبوه إلى رجاحة الرأي وشدة العقل "[٦]، ومنه الوزن: معرفة قدر الشيء[٧]،

---

(١) ينظر: مصطفوي ، محمد ، الاصول العامة لنظام التشريع / دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون الوضعي ، ط١ ، مركز الحضارة للتنمية الاسلامية ، مكتبة مؤمن قريش ، ١٤٢٩هـ ، ٣٠.

(٢) ينظر: حسني، عباس حسني، خصائص التشريع الاسلامي، ط١، مجلة الشريعة الاسلامية ، الكويت، ١٤١٥هـ، مج٩،ع ٢٤، ٤٤.

(٣) ينظر: عبد المهدي، عادل وحسين الهموندي،الموسوعة الاقتصادية ، ط١، دار ابن خلدون، ١٤٠٠هـ ،٣٨٠.

(٤)ينظر: النيه ، بشرى ، القانون وخصائص القاعدة القانونية ، كلية العلوم العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية ، فاس المغرب ، موقع https: elearning.univ ، ١٤٣٨هـ.

(٥) الفراهيدي، الخليل بن احمد (ت١٧٠هـ) ، العين ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ،ط١، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العالمية ، بيروت ، لبنان ،١٤٢٤هـ،مادة وزن، ٣٦٨/٤.

(٦) ابن فارس ، ابو الحسين احمد ،باب الواو ، مادة وزن ،١٠٧/٦.

(٧) ينظر :الرازي ،مختار الصحاح، ٦٣٥.

وتزن أي تعدِلُ وتساوي[١]، وأُشتُق لآلة الوزن لفظة ميزان، والكتاب الذي فيه أعمال الخلق، والمقدار، والعدل[٢].

وعليه فإنَّ التوازن في اللغة يأتي لمعانٍ عدة هي: التقدير، العدل، الاستقامة، الانتصاف، الاعتدال، المساواة.

وقيل: إنَّ هذا التعدد في معاني مصطلح التوازن يعود إلى الاختلاف في أنَّ الأصل الواحد في المادة: هو" تقدير ثقل الشيء وخفته وتعيين مقداره ماديا ومعنويا، والثقل والخفة والميزان بحسب العوالم والموضوعات، فالمادة توزن بميزان مادي كالحديد وغيرها وما وراء المادة توزن بما يجانسها من مراتب الحق وتطبيقها على الأعمال والوزن الأخير في الأمور الروحانية توزن الموضوعات الروحانية والعقلية كما في المقامات المعنوية الإلهية التي توزن بالمعارف والنور، وهذه الأوزان الثلاثة مجتمعة في الإنسان إثباتاً أو نفياً"[٣].

وترجح الباحثة من هذه المعاني اللغوية معنى (التقدير)، فهو الأقرب إلى مصطلح التوازن؛ لأن تقدير الشيء هو إعطاؤه حقه بالمقدار الدقيق لا زيادة ولا نقصان، فلا هو انتصاف ولا هو تساوٍ.

ثانياً: التوازن في الاصطلاح:

لم تجد الباحثة تعريفا محدداً للتوازن فله تعريفات عدة تبعا لنوع العلم أو الموضوع الذي اختص به التوازن، وقد حُصرت التعريفات التي تخص موضوع دراستنا فكانت على النحو الآتي :

١- عرّفه الدكتور سائد عبد المجيد البرغوثي تعريفين هما :" المحافظة على تكافؤ النقيضين بحيث لا يتغلب أحدهما على الآخر فيطغى عليه "[٤] وعرَّفه أيضا بأنه: "المحافظة على التعادل بحيث لا يميل الميزان إلى جانب أحد الكفتين دون الآخر"[٥].
الآخر"[٥].

٢- التوازن هو:" تعادل الشيء وتكافؤه وتكامله مع غيره مما يقابله أو يتضاد معه بالقسطاس المستقيم الذي تقتضيه الحاجة من دون زيادة أو نقصان "[٦].

٣- وورد أيضاً أنَّ التوازن هو:" إعطاء كل شيء حقه من غير زيادة ولا نقص أو النظرة المعتدلة للأمور بين أطراف متناقضة "[٧] .

---

(١) ينظر: الراغب الاصفهاني ، الحسين بن محمد بن المفضل (ت٤٢٥هـ) ،مفردات الفاظ القرآن ، تح صفوان داوودي ،ط٣، دار القلم ، ٨٦٨،(د ت).

(٢) ينظر: ابن منظور ، فصل الواو ، ١٥/٢٩٠ – ٢٩١.

(٣) مصطفوي ،حسن محمد رحيم (ت١٤٢٦هـ) ، التحقيق في كلمات القرآن،ط١،مركز نشر اثار العلامة المصطفوي، طهران، ١٤٣٥هـ ، ١٣/١٠٦-١٠٧.

(٤) البرغوثي، سائد عبد المجيد، روعة التوازن في الاسلام ، موقع وقفية الامير غازي للفكر القرآني QuranicThought.com ، ص ١٠.

(٥) المصدر نفسه، ١٠.

(٦) اليحيصي ، عبد السلام محمد عبدالله ، التوازن في ضوء القرآن الكريم ، اطروحة دكتوراه ، جامعة ام درمان الاسلامية، الاسلامية، كلية اصول الدين قسم التفسير وعلوم القران ، ١٤٣١هـ ، ٨.

(٧)عثمان،سمية السيد ،التوازن في الاسلام ،مكتبة عين الجامعة المعارف الاسلامية،كتاب الكتروني،(د ت)،٨.

٤- عرّفه الدكتور عبد الكريم محمد الحسن فقال: " أما التوازن فيعني إعطاء جوانب الحياة وجوانب الشخصية على - وجه الخصوص- حقها من الرعاية والتنمية والاهتمام، من غير إفراط في جانب على حساب جانب آخر"[١].

٥- والتوازن عند محمد بن حسن بن عقيل هو: " إعطاء كل شيء حقه من غير زيادة ولا نقص وهو ينشأ من معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه ومعرفة حدودها وغاياتها ومنافعها "[٢].

٦- الشيخ محمد علي التسخيري (ت١٤٤١هـ) عرّف التوازن بأنه :" ملء الواقع بالشكل العادل بحيث يوضع الشيء في محله دون أنَّ يتحقق حيف بأجزاء الواقع، وبحيث يشكل هذا الملء أفضل حالة لصالح الكمال "[٣]، وأضاف أنَّ المقصود بالتوازن ليس مثل ما يتبادر الى الاذهان من إنّه التساوي من الجانبين وأسماه بالتوازن الحكيم أو التوازن العادل[٤].

٧- التوازن هو:" وفاء القرآن الكريم بمقتضى المتقابلات ، بما يحقق مقاصده النبيلة ، وغاياته الشريفة بأحسن ما يكون "[٥].

يتضح بعد عرض التعريفات الاصطلاحية للتوازن أَنه من المصطلحات المعاصرة، ومع أن معناه حاضر في الأذهان؛ لم تجد الباحثة تعريفاً للتوازن عند العلماء السابقين، ولم يتفق المعاصرون في تحديد تعريف واحد محدد المعنى، بل إنَّ كل تعريف كان أما وصف الامور بالاعتدال أو المساواة بين الأطراف المتقابلة أو المتناقضة أو تكافؤ نقيضين وعدم طغيان أحد الأطراف على الآخر، ومراعاة عدم الإفراط والتفريط وهذا خلط لمفهوم التوازن مع مفاهيم الوسطية والعدالة والمساواة، فليس جميع التوازنات خاضعة أن تكون منتصفاً بين أمرين أو تتوفر مبدأ العدالة بين أطرافها وعدم طغيان أحدهما على الآخر، وكذلك إعطاء كل من طرفيها القدر المساوي لهما.

ويبدو أن التعريف الأنسب للتوازن هو: (**المقابلة بين أمرين لموضوع ما وإعطاء كل أمر حقه من الثبات والاستقرار وهذا ناشئ من معرفة حقائق الأمور وحدودها وغاياتها ومنافعها على ما هي عليه**).

ويمكن استخلاص إشارات من تعريف التوازن وهي:

أ- وجود أكثر من طرف للتقابل، تقوم بينهما علاقة التقابل، وهو قائم على مراعاة المتقابلات، مع ضمان عدم طغيان أحدها على الأخرى، ولا يعني بالضرورة انتصاف المسافة بين الاطراف المتقابلة، أو إعطاء كل منها القدر المساوي للطرف المتقابل،

---

(١)بكار،عبد الكريم محمد الحسن،مقال النمط العزيز،موقع أ.دعبدالكريم محمد الحسن بكار،http//www.drbakar.com.

(٢) موسى ، محمد بن حسن بن عقيل ، التنازع والتوازن في حياة المسلم ، (د ط)، مؤسسة الطباعة والصحافة للنشر ، المملكة العربية السعودية – جده ، (د ت)،١٣.

(٣) التسخيري ، محمد علي (ت١٤٤١هـ)، من الظواهر العامة في الاسلام، ط٢، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب – المعاونية الثقافية ، مكتبة نرجس، ايران – طهران ، ١٤٣٠هـ ،٥٣.

(٤) ينظر: المصدر نفسه ، ٥٣.

(٥) الزقيلي ، عماد محمود ، التوازن القرآني في الألفاظ والتراكيب والأسلوب ، ط١، الذخائرلنشر الثراث والدراسات العلمية، ١٤٤٠هـ ، الاردن – عمان ، ٢٤.

فالتوازن قد يقتضي في بعض الاحيان الاقتراب من أحد المتقابلات بشكل أكثر، أو منح احد الاطراف حصة أكبر؛ ومن أمثلتها التوازن في توزيع تركة الميراث لا يعني التساوي، بل التساوي يؤدي إلى اختلال بين حصتي الذكر والانثى[1].

ب-أن يكون للمتقابلات حقها من الثبات والاستقرار، هو القدر الذي تقيّمه طبيعة الأطراف المتقابلة كلُ بحسبه، فمن الممكن أن يكون أحد الاطراف راجحاً على الأخرى، وهذا هو التوازن الذي يتميز من الاعتدال والوسطية، فكل اعتدال هو توازن وليس كل توازن هو اعتدال أو وسطية فالأخيران يجب أن تتوفر فيهما الانتصاف والتوسط عند المتقابلات.

وإذا أرادت الباحثة أن تصوغ تعريفا مبسطا لعنوان قانون التوازن المخصوص بالتوازن لا مطلق القانون والذي عن طريقه نستكشف مبادئ التوازن في القرآن الكريم فعليه يمكن أن يكون التعريف الآتي: **(هي كبريات الامور الكلية التي تنطبق على مصاديق في القرآن الكريم تستخرج من نصوصه الكريمة في متقابلات مستوياته اللغوية، وآياته التكوينية، والتشريعية؛ لإعطاء كل ذي حق حقه، لتحقيق أهداف القرآن وغاياته الشريفة بأحسن ما يكون)**، وذلك بعرض الأمور العلمية بصورة متزنة عن طريق إعطاء كلِّ ذي حقً حقه ، واتفاق الحدث القرآني لفظاً ومعنىً، وعدم وجود تنافر بين تلك الحقائق، فجودة النسق العلمي والفني غاية في الدقة والتصوير والجمالية.

وأخيراً، يمكن القول إن "القرآن هو كتاب الله التشريعي الذي فيه قوانين الطبيعة والحياة، وهو مصنوع من عناصر الكلمات وتخضع لقوانين وحسابات ونسب دقيقة جداً، فالشجرة المثمرة نراها تخضع لقوانين طبيعية ونسب كيمياوية دقيقة، كذلك كلمات القرآن وأجزاؤه منسقة علميا وفنيا ضمن هذه القوانين"[2].

ونفهم مما تقدم ان قانون التوازن هو قانون إلهي عام في صيغته التنفيذية في معاني الآيات التي تؤكد أن كلمات الله هي المهيمنة على كل شيء، لأنها تتسم بوصفها قدراً مقدوراً، وهذا القانون قادر على أن يتجسد ويقع تطبيقه على أرض الواقع .

المبحث الثاني : مصطلحات ذات صلة بالتوازن

ورد التوازن في اللغة في مجالات كثيرة، وغالباً ما كان يستعمل بمعنى الوسط والاعتدال، وقد جنح كثير ممن كتب في التوازن إلى ذكر هذين المصطلحين بعنوان الوسطية والاعتدال كألفاظ بديلة للتوازن أو مرادفة له، وقد وجدت الباحثة أن طبيعة البحث تحتم تسليط الضوء على مصطلحي الوسطية والاعتدال، ويمكن بيان ذلك عبر المطالب الآتية:

المطلب الاول : الوسطية والاعتدال:

قبل البدء ببيان العلاقة بين التوازن والوسطية والاعتدال لا بد من بيان هذين المفهومين وكما يأتي:

أولاً: الوسطية في اللغة والاصطلاح:

([1]) ينظر: الزقيلي ، التوازن القرآني في الألفاظ والتراكيب والأسلوب ، ٢٤.

([2]) العاملي ، محمد حسن القبيسي ، تفسير البيان الصافي لكلام الله الوافي ،(د ط)، مؤسسة البلاغ ، لبنان –بيروت ،(د ت)، ١٨/١.

إن مفهوم الوسطية من المفاهيم التي تداولها الباحثون في المنظور الاسلامي، وفي ضوء القرآن الكريم، فكانت موجودة في جميع المراتب الإيمانية، كالعدل والعقيدة والعبادات والمعاملات، ونظم العلاقات الإنسانية ابتداءً من العلاقة مع خالق الخلق، ومع الأنبياء وأهل البيت عليهم السلام، ومع الأسرة والأبناء والمجتمع بكافة أفراده، ومفهوم الوسطية في أغلب موارده التي جاء فيها عند الباحثين وبعض المفسّرين يقترن بلفظ التوازن ويكون مرادفا له، وهذا الخلط وقع فيه بعضهم عند ذكر الوسطية أو التوازن، وفي الأصل إن لكل من المفهومين دلالات لغوية واصطلاحية تختلف إحداهما عن الأخرى وهذا ما سيتطرق له هذا المبحث؛ وذلك لأهمية تحديد المصطلحين معا ، وبيان الفارق بينهما، وتحديد اوجه الالتقاء إن وجدت كما في الآتي:

١- الوسطية في اللغة :

الوسطية لفظ مشتق من الأصل الثلاثي (وسط) وفيها معان عدة منها:

أ- التوسيط ان تجعل الشيء في الوسط، وقطع الشيء نصفين، ووسط الشيء وأوسطه أعدله، يقال جلست وسط القوم أي بينهم[١].

ب-وسط الشيء ماله طرفان متساويا القدر، والوسط تارة يقال فيما له طرفان مذمومان[٢].

ت-اسماً لما بين طرفي الشيء وهو منه، فنقول: قبضت وسط الحبل.

ث-صفة بمعنى (خيار) وأفضل وأجود، كوسط المرعى أي: خيار منه وتسمى بالخيرية، فاذا سَكَّنْتَ السين من وسْط صار ظرفا بمعنى (بين)، فنقول جلست وسْط القوم، وتسمى بالبينية[٣].

ج- وتأتي بمعنى الشيء بين الجيد والرديء[٤].

وتستعمل كلمة (وسط) بمعان متعددة منها:" العدل والخير، المكان الذي يعدل المسافة منه إلى أطرافه، التوسط بين المقصر والغالي، الوسط بين الناس وانبيائهم إلا أن لكل تلك المعاني جامعاً، وتستعمل الكلمة أكثر الأحيان في المكان الذي يعدل المسافة منه إلى أطرافه، ولهذا يُعّبر عن ذلك بتعبير؛ المعتدل، والأعدل، والأفضل، والخير"[٥].

٢-الوسطية في الاصطلاح:

إن مفهوم الوسطية من المفاهيم المعاصرة، فلم يرد تعريف لها عند السابقين وسيقف البحث على بعض منها وكالآتي :

أ- الوسطية عند الشيخ محمد عبده (ت١٣٢٣هـ): " الوسط هو العدل، وذلك أن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط والنقص عنه تفريط وتقصير، وكل من الإفراط والتفريط ميل

---

(١) ينظر: ابن فارس ، مقاييس اللغة ، مادة وسط ١٠٨/٦.

(٢) ينظر: الراغب ، مفردات الفاظ القرآن ، ٨٦٩.

(٣) ينظر: ابن منظور، لسان العرب ، مادة وسط ن ٤٢٦/٧.

(٤) ينظر: الفيومي ، احمد بن محمد بن علي المقري (ت ٧٧٠هـ) ، المصباح المنير، تح الشناوي ، عبد العظيم ، ط٢، دار المعارف ، القاهرة ، ٦٥٨.

(٥) الاملي ، عبد الله الجواد ي الطبري ، تفسير تسنيم في القرآن الكريم ، تعريب محمد حسين حكمت ، ط١ ، دار الاسراء للنشر، مكتبة مؤمن قريش ، بيروت – لبنان ، ١٤٣٧هـ ، ٧/ ٣٤٢.

عن الجادة القويمة فهو شر ومذموم، فالخيار: هو الوسط بين طرفي الأمر؛ أي: المتوسط بينهما"[١]، وقد اختار لفظ الوسط على الخيار مع انه هو المقصود عنده، فقال: " إن الشاهد على الشيء لابد ان يكون عارفاً به، ومن كان متوسطاً بين شيئين فإنه يرى أحدهما من جانب وثانيهما من الجانب الأخر، وأما من كان في أحد الطرفين فلا يعرف حقيقة حال الطرف الآخر ولا حال الوسط أيضا"[٢].

ب- الوسطية:" هي استقرار شيء في ما بين شيئين أو أشياء، سواء كانت مادية أو معنوية، متصلة أو منفصلة، من الموضوعات الخارجية او محلاً"[٣].

ت- وعرّفها السيد السبزواري (ت١٤١٣هـ): بأنها صيرورة الشيء بين شيئين أو عدة أشياء سواء كانت هذه الأشياء مادية أو معنوية، فإذا أضيف إلى ما هو متصل كالأجسام أو ما هو منفصل كالأعداد يكون معياراً لتعيين الطرفين، أما إذا أضيف للمعنويات فإنه يكون معياراً للتمييز بين مرتبتي الإفراط والتفريط[٤].

ث- وعُرِّفت بأنها:" الحد الأوسط الذي يقوم على أساس الإنصاف والعدل والتسوية بعيدا عن الغلو والتقصير والإفراط والتفريط، مراعيا ظاهرة التوازن ومبدأ القسمة الحقة والمنهج المستقيم، والوسطية تعتمد الاعتدال والتوازن قاعدة لها في الحكم على سائر الأطراف على حدٍ سواء من غير جنوح إلى الغلو، ومن هنا كانت الوسطية صفة الأمة الإسلامية"[٥].

وتعتقد الباحثة أن هذا المزج والخلط بين المفاهيم أدّى إلى عدم وضوح التعريف وبيان مقصده، فلا يمكن تعريف الشيء بما فيه (الوسطية هي الحد الأوسط) واعتبارها أساس الإنصاف الذي هو إعطاء النصف وأصل الإنصاف أن تعطيه نصف الشيء، وتأخذ نصفه من غير زيادة ولا نقصان[٦].

من هنا يتضح أن المعنى اللغوي لا يبتعد عن المعنى الاصطلاحي، إلا أنه مظهر لشيء واحد في الواقع الحقيقي، وهو التوسط بين شيئين أو أكثر أو وسطاً بين مرتبتين لجانبي الإفراط والتفريط.

ثانياً: مادة وسط في الاستعمال القرآني:

وردت كلمة (وسط) في القرآن الكريم خمس مرات: هي (وسطاً، أوسط وقد تكررت مرتين، أوسطهم، الوسطى) وبيانه في الآتي:

---

(١) رشيد، رضا محمد (ت١٣٥٣هـ)، تفسير المنار، ط٢ ، مطبعة دار المنار ، مصر – القاهرة ،١٣٦٦هـ ، ٤/٢ – ٥.
(٢) رشيد ، تفسير المنار، ٥/٢.
(٣) مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن ، ١٠٩/١٣.
(٤) ينظر: السبزواري، عبد الاعلى الموسوي (ت ١٤١٣هـ)، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ط٥، نكين، منشورات دار التفسير، قم،١٤٣١هـ، ١١٤/٢ ، وينظر الآملي ، تسنيم ، ٧/ ٣٤١.
(٥) الشمري، ثائر ابراهيم، الوسطية في العقيدة الاسلامية، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٦هـ،٢٠.
(٦) ينظر: العسكري ، ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥هـ)، الفروق اللغوية والحاوي جزءا من كتاب السيد نور الدين الجزائري، معجم الفروق اللغوية ، تح مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم ،ط٦ ، مؤسسة النشر الاسلامي ، ١٤٣٣هـ ، ٨٠.

١- كلمة (وسطاً) في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾[١]، إن هذه الآية اختلف في تفسيرها الفريقين وانقسمت فيها الآراء وكثر فيها الحديث في كتب التفاسير وكالآتي:

أ- الرأي الأول: قيل إن المراد من ﴿**أُمَّةً وَسَطاً**﴾ هي الأمة الوسط العدل، وإن المسلمين خيار وعدول؛ لأنهم وسط ،وليسوا أرباب غلو في الدين، ولا من أرباب التعطيل المفرطين، وهم الشهداء على كافة الناس الواقعة بين الأطراف، والأمة هي ميزان يوزن به حال الناس، والمرجع الذي يعود عليه طرفا الإفراط والتفريط في وسطية الأمة بين الجسدية كاليهود والمشركين، والروحانية الخالصة والمسيحية[٢].

ب-الرأي الثاني: وقيل ان هذا المعنى في نفسه صحيح، إلا أنه لا ينطبق على لفظ الآية، فكون الأمة وسطاً كونها مرجعاً يرجع إليه الطرفان، وميزاناً يوزن به الجانبان، لا كونها شاهدة تشهد على الطرفين ولا يترتب عليه شهادة الرسول ﷺعلى الامة جعلها وسطاً[٣]، وقيل: أيضاً إذا كان في الأمة من ليس هذه صفته ؛ ولأنَّ كل عصر لا يخلو من جماعة هذه صفتهم[٤].

وروى بريد بن معاوية العجلي عن الباقرعليه السلام: **(نحن الأمة الوسط و نحن شهداء الله على خلقه وحجته في أرضه)**[٥] .

فالوسط في الآية هي إشارة إلى الأسوة والقدوة والنموذج الكامل لسائر الأمم، وقوله: ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ**﴾، أي الشاهد ينتخب من بين أزكى الناس وأفضلهم، كما أن أهل العصمة عليهم السلام من مصاديق قوله سبحانه: ﴿ **أُمَّةً وَسَطاً**﴾، وقوله: ﴿**شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾فهم الذوات النورانية والمصداق الكامل والبارز للمؤمنين في الآية، وكما ورد في الروايات[٦].

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٣.

(٢) ينظر: الرازي ، محمد فخر الدين ضياء الدين عمر(ت٦٠٤هـ)، مفاتيح الغيب، ط٣، دار الفكرأحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ ، ٨٤/٤، وينظر :الاندلسي ، محمد بن يوسف ابي حيان (ت ٧٤٥هـ)، تفسير البحر المحيط ، تح عادل احمدعبد الموجود ،علي محمد عوض ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٣١هـ ،٥٩٥/١، وينظر: رشيد ، المنار٤/٢ – ٥.

(٣) ينظر: الطباطبائي، محمد حسين (ت١٣٤٤هـ) ،الميزان في تفسير القرآن، ط٥، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسي في الحوزة العلمية، قم، ١٤١٧هـ ،٣٢٠/١.

(٤) ينظر: الطبرسي الفضل بن الحسن (ت٥٤٨هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، تح محمد جواد البلاغي، ط٣، منشورات ناصر خسرو، طهران- ايران، ١٤١٣هـ ، ٤١٥/١ ، وينظر: الحويزي ، عبد علي بن جمعه (ت ١١١٢هـ)، تفسير نور الثقلين، تح هاشم رسولي محلاتي، ط٤، منشورات اسماعيليان، قم ، ١٤١٥هـ ، ١٣٥/١ ،وينظر: البلاغي،محمد جواد بن حسن بن طالب (ت١٣٥٢هـ)، الآء الرحمن في تفسير القرآن،ط١ ، مؤسسة البعثة، قم ،١٤٢٠هـ، ١/ ١٣٣، وينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٣٢١/١ ، وينظر: السبزواري ، مواهب الرحمن ، ١٢٠/٢ ، وينظر :الاملي ، تسنيم ، ٣٥٢/٧.

(٥) الصدوق ، ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، الهداية ، ط١، اعتماد ، مؤسسة الامام الهادي (ع)، قم ، ١٤١٨هـ ، ٣٢.

(٦) ينظر: الشيرازي ، ناصر مكارم ، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ط١ ، منشورات الامام علي بن ابي طالب عليه عليه السلام ،ايران - قم ، ١٤٢١هـ ، ٤١١/١.

٢- كلمة (أوسط) في قوله تعالى:﴿ **فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ**﴾[١]، قيل:" إنه الأوسط في المقدار أي تعطيهم كما تعطي أهلك في العسر واليسر"[٢].

٣- كلمة (أوسط) في قوله تعالى: ﴿ **قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ**﴾[٣]، قيل : أعدلهم ، أفضلهم وأعقلهم وقيل أوسطهم في السن[٤].

٤- كلمة (الوسطى) في قوله تعالى:﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ**﴾[٥]، قيل:" أي داوموا على الصلوات المكتوبات في مواقيتها بتمام أركانها"[٦]، واختلفت فيها الآراء الآراء بأنها صلاة الظهر، كما جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام، أو أنها صلاة العصر كما ذهب أغلب فقهاء السنة[٧].

٥- كلمة (وسطن) في قوله تعالى:﴿ **فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا**﴾[٨]، قيل وسط وتوسَّط بمعنى، وقت الصبح في وسط جمع[٩].

ثالثاً: الاعتدال في اللغة والاصطلاح:

الاعتدال من المصطلحات ذات الصلة بمفهوم التوازن وكثيراً ما تستعمل مقترنه بالتوازن والوسطية عند ذكر أيٍّ منهم، فهل الاعتدال مرادف للتوازن ؟ وما العلاقة بينهما في حالة الاختلاف ؟.

١- الاعتدال في اللغة :

إن الاعتدال من الفعل (عدل) ، وهو المساواة في المكأفاة إن خيراً فخير وإن شرا فشر[١٠]، والمساواة: أن يكون المقداران لا يزيد أحدهما عن الآخر ولا ينقص، والتساوي؛ التكافؤ في المقدار[١١].

ويأتي العدل بمعنى الاستقامة، يقال: عدل في أمره، أي استقام، ويقال هذا عدل، أي مستقيم، أو ما قام في النفوس أنه مستقيم، مِن عَدَلَ يَعْدِلُ فهو عادل من عُدولٍ وعَدْلٍ، يقال: عَدَلَ عليه في القضية فهو عادِلٌ، وبسط الوالي عَدْلَهُ[١٢]، والاستقامة؛ الاستمرار على سنن واحد ونقيضها الاعوجاج، وطريق مستقيم لا اعوجاج فيه[١٣].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨٩.
(٢) الطبرسي ، مجمع البيان، ٣٦٨/٣.
(٣) سورة القلم : الآية ٢٨.
(٤) ينظر: الطبرسي ، مجمع البيان، ١٠/ ٥٠٦.
(٥) سورة البقرة: الآية ٢٣٨.
(٦) الطبرسي ، مجمع البيان ، ٢ / ٥٩٩.
(٧) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ٢/ ١٩٥.
(٨) سورة العاديات : الآية ٥.
(٩) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٢٠/ ٣٤٦.
(١٠) ينظر : الراغب ، مفردات الفاظ القرآن ، مادة عدل ، ٥٥٢.
(١١) ينظر: العكسري ، معجم الفروق اللغوية ، ٤٩٤.
(١٢) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة عدل ، ٤٢٠/١١.
(١٣) ينظر: العكسري ، الفروق اللغوية ، ٣٢٤.

والعَدْل: القصد في الأمور، وهو خلاف الجَوْر، والتعادل: التساوي، وعدلته تعديلاً فاعتدل سويته فاستوى، وعدلت الشاهد نسبته إلى العدالة ووصفته بها[١].

نستنتج مما تقدم أن العدالة في اللغة هي: المساواة (التسوية بين الشيئين)، والاستقامة، القصد في الامور وهو خلاف الجور.

٢- العدل في الاصطلاح:

عرف العدل بعدة معانٍ وهي كالآتي:

أ- العدل:" عبارة عن الامر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط "[٢].

ب- وعُرَّف بأنه: "ملكة راسخة تبعث على فعل الواجبات وترك المحرمات والابتعاد عن منافيات المروءة"[٣]، وقيل هي:" ملكة إتيان الواجبات وترك المحرمات"[٤].

ت- وعرف السيد الطباطبائي (ت١٣٤٤هـ) العدل في قوله تعالى:﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ**﴾، بأنه: المساواة في المكافاة إن خيراً فخير وإن شراً فشر، والإحسان أن يقابل الخير بأكثر والشر بأقل منه[٥].

ث- وقيل في تعريفها أيضاً: "هي الاستواء والاستقامة في جميع الأمور على منهاج الشرع، إلاّ أنّه حيث يعتبر في صدقها الاستمرار فهو أي الاستمرار ملازم للملكة والحالة الراسخة في النفس غالباً"[٦].

رابعاً : مادة العدل في الاستعمال القرآني:

ورد مفهوم العدل في القرآن الكريم في آيات عدة وسيعرض البحث بعض هذه الآيات وبيان معنى العدل فيها وكما يأتي:

١- قوله تعالى:﴿**وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ**﴾[٧]، والعدل هنا (القسط) و(الإنصاف)، كما قيل قيل في تفسيرها " كاتب بالقسط والإنصاف والحق، لا يزيد فيه ولا ينقص منه في صفة ولا مقدار ولا يستبدل ولا يكتب شيئا يضر بأحدهما إلا بعلمه ﴿**وَ لا يَأْبَ كاتِبٌ**﴾، أي ولا يمتنع كاتب من ﴿**أَنْ يَكْتُبَ**﴾ الصك على الوجه المأمور به"[٨].

٢- قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾[٩]، والعدل هنا النصفة من الإنصاف والحق كما في تفسيره أمر الله الولاة والحكام أن يحكموا بالعدل والنصفة[١٠]

---

(١) ينظر :الفيومي ، المصباح المنير ، ٣٩٧/٢.

(٢) الجرجاني ، التعريفات ، ١٢٤ ، وينظر: مصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم ، ٦٤/٨.

(٣) فتح الله ، احمد، معجم الفاظ الفقه الجعفري ، ط١، مطابع المدوخل ، الدمام ، ١٤١٥هـ ،١٧٠٨.

(٤) الحكيم ، محسن (ت ١٤١٤هـ)، القواعد الاصولية والفقهية في المستمسك ، تح مهدي النيازي الشاهرودي ، ط١ ، مؤمن قريش ، قدس ، قم ١٣٨٢هـ ، ٢٠٧.

(٥) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٣٣١/١٢.

(٦) المعلم ، محمد علي صالح ، العدالة في فقه اهل البيت (ع)،تقرير مسلم الداوري، تح حسن العبودي ، ط١، سرور ، مدين ، ايران – قم ، ١٤٢٥هـ ، ١٢٨.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

(٨) الطبرسي ، مجمع البيان ، ٦٨٢/٢.

(٩) سورة النساء : الآية ٥٨.

(١٠) ينظر:الطبرسي ، مجمع البيان ،٣ / ٩٩.

٣- ونظيره قوله: ﴿**يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ**﴾[١].

٤- قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [٢]، ويُقصد بالعدل هنا الحد الوسط أي الوسطية بأنه:" التزام الحد الوسط في الأعمال واجتناب الإفراط والتفريط، فإن الأمر بالعدل إذا جرى على حقيقته كان لازمه، وأن يتمكن الصلاح من نفس الإنسان ثم ينبسط على أعماله فيلتزم الاعتدال في الأمور ثم يحب انبساطه على أعمال غيره من الناس فيأمرهم بالعدل وهو- كما عرفت- مطلق التجنب عن الإفراط والتفريط أي العمل الصالح أعم من العدل في الرعية" [٣].

٥- قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**﴾ [٤]، وفُسِّر العدل هنا بالمساواة وكذلك الوسط في" إن العدل هو لزوم الوسط والاجتناب عن جانبي الإفراط والتفريط في الأمور وهو من قبيل التفسير بلازم المعنى، فإن حقيقة العدل هي إقامة المساواة والموازنة بين الأمور بأن يعطى كل من السهم ما ينبغي أن يعطاه فيتساوى في أن كلا منها واقع موضعه الذي يستحقه، فالعدل في الاعتقاد أن يؤمن بما هو الحق، والعدل في فعل الإنسان في نفسه أن يفعل ما فيه سعادته ويتحرز مما فيه شقاؤه باتّباع هوى النفس، والعدل في الناس وبينهم أن يوضع كل موضعه الذي يستحقه في العقل أو في الشرع أو في العرف فيثاب المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته، و ينتصف للمظلوم من الظالم ولا يُبعّض في إقامة القانون ولا يستثني"[٥].

٦- قوله تعالى: ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ**﴾[٦] قيل في تفسيرها بأنه:" تعليل يفيد تأكيدا على تأكيد كأنه قيل: أصلحوا بينهما بالعدل واعدلوا دائما وفي جميع الأمور لأنَّ الله يحب العادلين لعدالتهم"[٧]؛ لأنها عطفت على الإقساط في قوله: ﴿ **أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ من عطف المطلق على المقيد للتأكيد[٨].

من هنا يتجلَّى لنا أن للعدل معاني هي: (القسط، والإنصاف، والحد الوسط، والمساواة) ولم يبتعد تفسيرها عن معناها اللغوي والاصطلاحي.

المطلب الثاني : الفارق بين الوسطية والاعتدال والتوازن:

هناك عوامل تعتمد على التعريفين اللغوي والاصطلاحي في تحديد الفرق بين المصطلحين وهي كالآتي :

١- الوسطية تعني البينية أي توسط بين شيئين أو أمرين، والوسطية تعني الخيرية والأفضلية ولكل واحد من هذه المفاهيم دلالات تختلف عن التوازن، فالخيرية هي ما تكون؛ "خير

---

(١) سورة ص : الآية٢٦.
(٢) سورة النحل : الآية ٧٦.
(٣) الطباطبائي ، الميزان ، ١٢ / ٣٠٢.
(٤) سورة النحل : الآية ٩٠.
(٥) الطباطبائي ، الميزان ، ١٢/ ٣٣١.
(٦) سورة الحجرات، الآية ٩.
(٧) الطباطبائي ، الميزان ، ١٨/ ٣١٥.
(٨) ينظر: المصدر نفسه، ٣١٥/١٨.

الخيرين أو خيرا بين شرين أو خيرا بين أمرين متفاوتين"[1]، والأفضلية من الفضل وهو: الزيادة، ويأتي بمعنى الخير، ويدل على زيادة في شيء[2]، وهو الزيادة على ما هو اللازم المقرّر، ويطلق على الخير والباقي والإحسان والشرف[3].

٢- أما الاعتدال فهي من العدل: وهي القصد في الأمور، والحكم بالاستواء، والتعادل: التساوي[4]، ومن معانيه الإنصاف مع مراعاة ما بينها من عموم وخصوص فالعدل يستعمل في مواطن النزاع والخصام وصلاحية الحكم والتصرف في الأمر، وغيرها، فالعدل أعم وأوسع؛ لأن الإنصاف يشمل إنصاف الإنسان مع ربه ولنفسه ومع غيره والإنصاف بين الناس، بينما العدل يكون في هذه الأحوال وغيرها.

وعليه فإن خيرية الوسطية قد تكون إحدى مصاديق مفهوم العدالة، فالخير في زيادة الإحسان والفضل من مقومات عدالة الإنسان اذا توفرت فيه.

٣- اما التوازن فهو ليس مرادفا لمفهوم الوسطية، لأن التوازن ليس فيه من هذه المعاني من وسطية البينية والخيرية، وعليه تذهب الباحثة إلى أن الوسطية تصلح للمفاضلة بين شيئين ، كالإيمان خيرٌ من الشر، والكرم خير من البخل، والخير أفضل من الشر، والشجاعة افضل من الجبن، والتوازن لا يكون بأفضلية الشيء أو بينيته أو خيريته.

ولكنه قد يلتقي مع الوسطية والعدالة في النتيجة النهائية والحتمية التي وصل اليها التوازن، فنقول ان التوازن هو الأفضل والأخيار والأعدل والأنصف بإعطاء كل شيء حقه من غير زيادة أو نقصان، فاستحق التوازن هذه الصفات.

والتوازن هو الوصول إلى نقطة الاستقرار بين المتقابلين وإن أدى هذا الى الميل إلى أحد المتقابلين على حساب الآخر، وقد جاء في الروايات أنَّ أبا عبد الله عليه السّلام تلا هذه الآية: ﴿**وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً**﴾؛ **(قال: فأخذ قبضة من حصى وقبضها بيده، فقال: هذا الإقتار الذي ذكره الله عزّ و جلّ في كتابه، ثمّ قبض قبضة أخرى فأرخى كفّه كلّها، ثمّ قال: هذا الإسراف، ثمّ أخذ قبضة أخرى فأرخى بعضها وأمسك بعضها وقال: هذا القوام)**[5]، والقوام:" أي كان إنفاقهم بين ذلك، لا إسرافا يدخل في حد التبذير، ولا تضييقا يصير به في حد المانع لما يجب "[6]، وهناك من المفسّرين من قال:" قال:" إن القوام بالفتح هي العدل والاستقامة، وقيل: إن القوام من العيش ما أقامك وأغناك"[7].

---

(1) المصراتي ،علي محمد الصلابي ،الوسطية في القرآن الكريم، ط١، مكتبة الصحابة، الامارات – الشارقة ، ١٤٢٢هـ ،٨١.

(2) ينظر:ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ٥٠٨/٤.

(3) ينظر:مصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن ، ١١٦/٩.

(4) ينظر: ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ٤ / ٢٤٦، وينظر: الفيومي ، المصباح المنير،٣٩٦.

(5) الكليني ، محمد بن يعقوب (ت٣٢٩هـ) ، الكافي ، تصحيح وتعليق : علي أكبر الغفاري ، ط٤ ،مطبعة الحيدري ، دار الكتب الاسلامية ، طهران،١٣٦٧هـ ، ينظر: البحراني ، هاشم بن سليمان (ت ١١٠٧هـ) ، البرهان في تفسير القرآن ، ط١، مؤسسة البعثة ، طهران ، ١٤١٦هـ ، ٤/ ١٤٧.

(6) الطوسي ، ابي جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القرآن ، ط١، تح احمد قصير العاملي ، دار احياء التراث العربي، بيروت، (د ت) ، ٧/ ٥٠٧.

(7) الطبرسي ، مجمع البيان ، ٧/ ٢٨٠.

وهذا التطبيق العملي للآية الذي قام به الامام عليه السلام هو تصوير للتوازن في حالة الإنفاق ما بين الإسراف والقتر؛ " الإنفاق بذل المال وصرفه في رفع حوائج نفسه أو غيره، والإسراف الخروج عن الحد ولا يكون إلا في جانب الزيادة ، والقتر هو التقليل في الإنفاق "[1].

وقيل: إن معاذ سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن معنى الآية فقال: **(من أعطى في غير حق فقد أسرف، ومن منع عن حق فقد قتر)**[2]، عن الصادق عليه السلام قال عن معنى الإسراف: **(إنما الإسراف فيما أفسد المال وأضرَّ بالبدن قيل: فما الإقتار؟ قال: أكل الخبز والملح وأنت تقدر على غيره، قيل: فما القصد؟ قال: الخبز واللحم واللبن والخل والسمن مرة هذا ومرة هذا)**[3].

وتذهب الباحثة إلى أنَّ مبدأ الإنفاق بين الإسراف والتقتير يكون مرتبطاً بالمواقف، ولا يمكن تحديده بالاعتدال أو الاستقامة لجانبي الإفراط والتفريط فقط، فمن الممكن أن يكون الإنفاق بإسراف هو حالة التوازن الدقيقة، وليس وسطية الإنفاق، فمثلا صرف المال في موقف من وجوه الخير والبر، لدفع ضرر حتمي واقع لا محالة؛ في هذه الحالة وإن كان الصرف كثيرا لا يعد تبذيرا، وهنا أصبح صرفُ المال الكثير هو نقطة التوازن، وفي غير الموقف والمقام يعد إنفاق جلّ المال تبذيرا ومنافيا للتوازن المطلوب، وبذلك فإن التوازن الذي يقتضيه المقام أو الموقف قد لا يتحقق بالوسطية والاعتدال والمساواة.

المبحث الثالث: التوازن في الكون وفي المفهوم الإسلامي

يتضح هذا المبحث عبر المطالب الآتية:

المطلب الأول : التوازن قانون كوني:

إنَّ كلَّ شيءٍ في هذا الكون قائم على حالة توازن من عالم الذرّة إلى عالم المجرّة، وهو توازن متنّوع وشامل، فهناك توازن في عملية الخلق والإبداع، ابتداءً من خلق النطفة في الرحم وكيفية خلقها مروراً بالأطوار الخلقية إلى تكامل الإنسان إلى أكبر عنصر في الكون، وتطورات التوازن الحاصلة فيها، ثم النشور، وعملية التوازن التقابلي بين البدء بالخلق وإعادة الخلق قائمة إلى يوم القيامة.

والتوازن هو المبدأ الأساس الذي يقوم عليه هذا الكون الشاسع في نظام حركته واستمراره؛ لذا قيل فيه: " يجب أن تعرف أن التوازن جزئية من حقيقة كلية مطلقة من القانون الإلهي العام الاعظم للكون تشمل جميع الوجود كله، فالكون بمجرَاته ونجومه وأرضه وكواكبه، وتشمل الحياة والحركة والفناء ، فكلٌ شيء عنده موزون"[4].

وتذهب الباحثة إلى أن التوازن هو حقيقة كلية مطلقة من القانون الإلهي وليس جزئية؛ لأن كل قانون في الكون يخضع إلى التوازن، ولا يتم عمله بالشكل المتكامل مالم يخضع إلى

---

(1) الطباطبائي ، الميزان ، ٢٤٠/١٥.

(2) المجلسي، محمد باقر(ت١١١٠هـ) ، بحار الانوار، ط٣ ، دار احياء التراث العربي ، بيروت - لبنان،١٤٠٣هـ،٢٦١/٦٦.

(3) المجلسي، بحار الانوار،٢٦١/٦٦.

(4) خضر،عبد العليم عبد الرحمن ، الظواهر الجغرافية، بين العلم والقرآن ، ط١، الدار السعودية للنشر والتوزيع، السعودية السعودية – جدة، ١٤٠٤هـ ،١٥٤.

قانون التوازن في تحديد مقداره وتحديد زمانه، وتحديد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء وتأثيره فيها؛ لأن الذي خلق الكون ، خلق فيه القدرة على حفظ التوازن في كل نوع من أنواع الحياة فيه .

والتوازن له مستويات، إذ إنّ هناك التوازن في النفس الإنسانية التي أودع الله تعالى فيها نوازع الخير ونوازع الشر ليتحمَّل الإنسان مسؤولية الاختيار لأطراف النزاع.

وهناك توازن في عناصر الكون لحركة الأجرام السماوية في أفلاكها، وعناصر التنسيق والاتزان التي تتجلّى فيها قدرة الخالق جلَّ وعلاَ، وتوازن آخر يُعنى بالتسليم والشكر لله تعالى.

ولو دققنا في حقيقة الوجود لَتبيَّن لنا أنه منضبط بتوازن فاعل، ومتفاعل، ومتجدد ولتوازن الحياة محرِّكها وأسبابها، وغايتها، فهو ليس توازناً عشوائياً ولا فوضوياً، إنه منضبط بقوانين حاكمة سواء على المستوى الحسي المادي والمتمثل بالجانب المنظور والمسموع منه، أو على المستوى المعنوي الاعتباري المتمثل بالجانب العقلي والنفسي والروحي.

وفي مستهل تعرضنا إلى قانون التوازن في القرآن الكريم، لابد من بيان قيمته العلمية والجمالية والبيانية في الوجود وفي نظام الكون عند القدماء، وفي المنظور الإسلامي، فقد أدرك حكماء اليونان منذ القدم جوانب من أَسرار التوازن في نظام الكون وفي بناء الإنسان الروحي والمعنوي، وبيَّن أفلاطون أَنَّ عناصر الكون ما كان لها أن تأتلف وتمتزج لولا التوازن، إذ أن " تنسيق العالم وإنشاءه قد استوعب كلا من العناصر الأربعة بجملته؛ لأنَّ مُنشئه قد انشأه من النار بأسرها، ومن الماء برُمَّته، وكذلك الهواء والتراب لكي يكون العالم حيّاً شاملاً متكاملاً في غاية التكامل "[1] وسُمِيت بنظرية الأضداد، على أن كل ضد إنما يأتي أو يتولد من ضِدِّه؛ إذ يأتي الضعيف من القوي والأسرع من الأبطأ، وما ينفصل، وما يتصل وما يبرد وما يسخن وهذه الأركان الأربعة عندهم أضداد، كما في مسألة الحياة والموت، وكل منهما يتولدَّ من الآخر فالحياة تبعث من الموت ولو لم تكن كذلك لكانت الأشياء قد انتهت إلى السكون المطلق[2]، ولهذه العلة وبسبب هذا التفكير تجلَّت الإرادة الإلهية للعالم وجعله فريدا شاملا ومتكاملا عن جميع أجزاء العناصر طرا لا يهرم ، ولا ينتابه داء وقد أعطاه الشكل الملائم المتجانس[3] ، وبذلك فإن مفهوم التوازن عند حكماء اليونان في الأضداد في عملية تجديد وتكوين مستمر لعناصر الكون، فلا يطرأ عليها الهرم ولا تنتهي إلى السكون المطلق، وسنراه يقترب من مفهوم التوازن في القرآن الكريم بنسبة معينة عند مسألة الأضداد ووجوب الحركة بينهما حتى يستمر الكون ولا يتلاشى كما سيجئ بيانه.

---

(1) النشار، مصطفى ، فكرة الإلوهية عند أفلاطون وأثرها في الفلسفة الاسلامية والغربية ،(د ط)، دار روابط للنشر وتقنية المعلومات ودار الشقري ، ١٤٣٩هـ ، ١٣٩.

(2) ينظر: كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة اليونانية ،(د ط)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، مصر ، ١٤٣٦هـ ،١٠٩.

(3) ينظر: النشار، مصطفى، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، دار قباء للطباعة والنشر ١٤٢١هـ ، ٢٢٧/٢.

المطلب الثاني :التوازن في المفهوم الاسلامي:

تتزاحم كثير من التساؤلات في فكر الانسان في مسألة النظرة الإسلامية للكون، خلاصتها تتمحور في سبب الوجود وغايته، وما دواعي بعثة الانبياء عليهم السلام بالرسالات .

وقد قيل في الإجابة عن هذه التساؤلات" إن هدف بعث الانبياء لا ينفصل عن الهدف الحياتي لأولئك الذين بُعث إليهم الأنبياء ليرشدوهم وليقودوا البشرية ويوصلوها الى هدفها النهائي"[١]، وهنا لابد من ان نقف عند نقطة مهمة وهي ماهية الانسان وما هي الإمكانات الكامنة في الوجود الإنساني والكمالات الممكنة له؟ عندها تكمن الغاية من بعث الانبياء في تكميل الإنسان وإيصاله إلى غاية خلقته وإعانته والأخذ بيده إلى الكمال، وهذا الأمر مُسَلَّم به عند الكل[٢].

فلو أن الإنسان اتّبع نِداءَ قلبهِ وفطرته التي فطرها الخالق عليها، وأجال فيها نظره وأبصر عظمة الخلق والمخلوقات وتنظيمها، لوجد التوازن حاضراً في هذا الكون الفسيح، والتوازن الذي جعله بهذا الانتظام والترتيب، ولو تمعَّن في كلمات القرآن؛ لوجد ضالته في أي تساؤل يتدفق إلى خاطره، فنظرة الإسلام إلى التوازن نظرة شاملة وعامة تنال كل الوجود ولا يتخلف منها شيءُ يختزلها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾[٣].

والإسلام دين التوازن الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، ولا يقبل منهم سواه كما في قوله سبحانه: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾[٤]، هو خطاب لأشرف خلق الله جل وعلا باتباع الشريعة الحقّة ونبذ ما سواها، فبعد أن هدى الله الإنسان إلى الصراط المتوازن الذي لا اعوجاج فيه ولا اشتباه، ولا تخلف ولا اختلاف، فهو دين قائم على التوازن بين المعاش والمعاد، وبين جلب السعادة لخلق الله تعالى مع الدنيا والآخرة[٥].

وقوله تعالى: ﴿**ديناً قيماً**﴾أبلغ من المستقيم بوزنه وهيئته؛ لأنَّ فيه مبالغة في حسن قيامه على مصالح العباد والبلاد، وإعمار الأرض والنفوس، فهو دين توازن لجميع وجوه الصلاح في وضع تشريعاته واحكامه وتعاليمه، فلا إفراط فيها كاليهودية التي تركت العمل مع ما تحمله من علم، ولا تفريط كالنصرانية التي غالت في العمل وتركت العلم، والإسلام يتجلّى فيه التوازن بين العلم والعمل، والروح والجسد[٦]، وفي قوله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ** ﴾[٧] دلالة على شمول التوازن لكل الوجود، إذْ قيل: وضع الميزان: لقياس الحق من الباطل، والعدل من الظلم، ولتقدير القيم، قيم الأشخاص والحقوق والأحداث

---

(١) مطهري،مرتضى محمد حسين (ت ١٣٩٩هـ)،الهدف السامي للحياة الإنسانية،ط١،مكتبة الفقيه، الكويت،١٤٠٦هـ،٩-١٠.
(٢) ينظر: المصدر نفسه ،١٣.
(٣) سورة القمر : الآية ٤٩.
(٤) سورة الانعام : الآية ١٦١.
(٥) ينظر: السبزواري، مواهب الرحمن،١٤/٥٠٤ – ٥٠٥.
(٦) ينظر: المصدر نفسه، ١٤/٤٠٥-٥٠٦.
(٧) سورة الرحمن : الآية ٧.

والأشياء حتى لا يختل تقويمها، ولا يضطرب وزنها في المراحل الاجتماعية المختلفة، والميزان يشمل كل نظام تكويني ودستور اجتماعي ، ويشمل كل وسيلة للقياس ؛ بما في ذلك القوانين التشريعية والتكوينية[1]، ومنها تنبثق توازنات عدة، كالتوازن العقدي المتمثل في علاقة الانسان بخالقه وفطرته التي فطرها عليه، والتوازن العبادي في علاقة الإيمان بالعمل الصالح والممارسات العبادية المكلف بها الإنسان من الصلاة والصيام والزكاة والحج.

والتوازن في الفضائل الأخلاقية التي يستلهم التوازن فيها من الأسوة والقدوة في التطبيق؛ شخصية الرسول الأكرم ﷺ في موازنته للعبادة والصلاة وبين المراعاة والاهتمام في إدارة شؤون المسلمين وبين مراعاة زوجاته وأهل بيته، والتوازن السلوكي في شخصيته الكريمة بين القول والفعل، وهكذا بقية الانبياء الذين ركزّوا على جانب إعطاء الحكمة للناس؛ لتنسجم حياتهم مع الحكمة التكوينية، فيتحقق التوازن بين الحكمة من التكوين التي تعمل من دون اختيار الإنسان، والحكمة التشريعية التي يحققها الإنسان باختياره عند تطبيقه لأحكام الله سبحانه وتعالى، وتكون النتيجة إنّ إحداث التوازن التكويني يقابله توازن تشريعي والتوازنان متوازنان ومنسجمان كما في قوله تعالى:﴿ **الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۞ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۞ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۞ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**﴾[2]، الآيات تتحدث عن التوازن التكويني في خلق الرحمن، مع التوازن التشريعي العادل الذي يصنعه الإنسان بإرادته[3] في قوله تعالى: ﴿**أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**﴾،أنّ المقصود بالميزان هو (القرآن الكريم)، أو (العدل)، أو (الشريعة)، أو (المقياس)، ففي الحقيقة إنّ كلّ واحدة من هذه المعاني مصداق لهذا المفهوم الواسع الشامل، ويستفاد من بعض الرّوايات أنّ (الميزان): قد فسّر بوجود (الإمام)، وذلك لكون الوجود المبارك للإمام المعصوم هو وسيلة لقياس الحقّ من الباطل، ومعيار لتشخيص الحقائق وعامل مؤثّر في الهداية[4]، وجاء في الرواية عن سعد بن عبد الله، الله، عن إبراهيم بن هاشم، عن علي بن معبد، عن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: **سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَ وَضَعَ الْمِيزَانَ﴾؟ قال: (السماء: رسول الله ﷺ، رفعه الله إليه، و الميزان: أمير المؤمنين عليه السلام، نصبه لخلقه)**[5].

والانسان مدعو إلى المحافظة على هذا التوازن، فإن لم يفعل اختلَّ قانون التوازن في حياته.

---

(1) ينظر: الشيرازي ، الامثل،٣٧٣/١٧.
(2) سورة الرحمن : الآيات ١- ٩.
(3) ينظر: فضل الله، من وحي القرآن، محمد حسين (ت ١٤٣١هـ)، ط٢،دار الملاك ، بيروت –لبنان ، ١٤١٩هـ، ٣٠٦/٢١.
(4) ينظر: الشيرازي، الأمثل، ٣٧٥/١٧.
(5) ينظر: المجلسي، بحار الانوار،١٧٢/٣٦.

ولا يمكن إغفال مستوى التوازن الاجتماعي وضمان حقوق الوالدين ، كما في قوله سبحانه: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**﴾[1]، والتوازن في اقتران عبادة الله سبحانه وتعالى مع الإحسان للوالدين، فلا اكتمال للعبادة إلا في إطاعة الوالدين وبرهما.

فالخالق جلّ وعلاّ خلق الكون كله من عناصر مجتمعة بعضها ببعض تقوم على التوازن، ولا تحيد عنه ضمن انظمة وقوانين متنوعة تُلبِي حاجة الموجودات فيه لديمومة الحركة والاستمرار للكون، والإنسان من ضمن مخلوقاته فأعطاه" وجودا منفتحا على حركة الواقع وعلى انطلاقة الهدى في عقله وروحه وموقفه، مما يجعل كل تجربة بيانية داخلية في حالة الاستعداد له أو خارجية في حالة الفعلية، مصدر إحساس بالرحمة الإلهية في كل لحظات الفكر والتواصل البياني مع الآخرين، وهذا واقع الإنسان في وجوده الذاتي والحركي"[2]، كما في قوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[3]، وقيل:" لا تعني أنّ الله سبحانه قد أودع عوامل الفجور والتقوى في نفس الإنسان، كما تصوّر بعضهم، واستنتج من ذلك دلالة الآية الكريمة على وجود التضاد في المحتوى الداخلي للإنسان! بل تعني أنّ الله تعالى علّم الإنسان هاتين الحقيقتين وألهمه إيّاهما، وبيّن له طريق السلامة وطريق الشرّ إنّ الله سبحانه قد منح الإنسان قدرة التشخيص والعقل، والضمير اليقظ الذي جعله يستطيع أن يميّز بين (**الفجور**) و (**التقوى**) عن طريق العقل والفطرة ومن بين النعم الطائلة التي أسبغها الله على الإنسان لأنها من أهم المسائل المصيرية التي تواجه حياة الإنسان"[4].

مما لا ريب فيه أن قانون التوازن في هذا العالم" يتقوّم بترتب العلل والمعلولات المتتالية وغيرها، وهذه السلسلة لا بد أن تنتهي إلى الله تعالى، الذي تكون أزمّة الأمور تحت إرادته، والإنسان مسخّر ومقهور تحت قوى فعّالة، منها قدرة الله تعالى وإرادته التامّة، فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ومنها قوى الطبيعة التي قلّ ما يسلم أحد من آفاتها وعاهاتها، ومنها النفس الأمّارة بالسوء والشيطان الرجيم الذي لا يسلم منه أحد، فالإنسان قرين هذه القوى وإن كانت جميعها مقهورة تحت قدرة العزيز الجبّار"[5].

وبهذا فالتوازن في المفهوم الإسلامي لا يلغي أحد الشيئين أو يمزج بينهما لاستخلاص وجودٍ ثالثٍ؛ لأنَّ الإلغاء تقييدٌ ومصادرة للحرية والحركة، بل هو مرهون بطاقات الإنسان الكامنة وقدرته على المقاومة التي توجه انضباط حركته نحو الأشياء.

---

(1) سورة الاسراء : الآية ٢٣.
(2) فضل الله ، من وحي القرآن، ٣٠٤/٢١.
(3) سورة الشمس : الآيات ٧-٨.
(4) الشيرازي ، الامثل ، ٢٣٦/٢٠.
(5) السبزواري، مواهب الرحمن ، ٥/ ٢٢٩-٢٣٠.

وإن رصدَ التوازن في القرآن الكريم من الصعب الإحاطة بكل مفاهيمه؛ لأنها تعددت ضمن تفرعات ثانوية أخرى تكاد تشمل كل حرف وكل كلمة في القرآن الكريم، فهو مفهوم شامل للتوازن بين البنية النصية مع المعاني والدلالات.

المبحث الرابع: التوازن عند المفسرين وفي الأدب العربي وعلاقته بالنظام والجمال

إنَّ قانون التوازن في النظم القرآني يتجلى في أمور عدة منها، إيجاز اللفظ توازنا للمعنى وتناسباً معه، وجودة السبك وأحكام السرد، وتعدد الأساليب واتحاد المعنى، والإجمال والبيان، والدقة في تصوير المعاني، وهولا يعلو عن أفهام العامة[١]، ومن هنا كان للمفسّرين وقفة في بيانها، كما كان لأهل اللغة والأدب وقفة أخرى، ويمكن أن تنطلق الباحثة للكشف عن مراد المبحث عبر المطالب الآتية:

المطلب الأول: التوازن عند المفسّرين:

لم يرد مصطلح التوازن عند المفسّرين القدامى إلا قليلاً كما في تفسير الكشاف لقوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ** ﴾ وقوله تعالى:﴿ **وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ**﴾[٢]، وكيف يُعدّ توازنا ؟ فقيل: "وحق التوازن ان يتقابل الواقعان بعد أَمَّا وأَمَّا، تقول أَمَّا الانسان فكفور، وأَمَّا الملك فشكور"[٣]، واعاد السمين الحلبي(ت٧٥٦هـ) في الدر المصون ما ذكره الزمخشري(ت٥٣٨هـ) في الكشاف[٤]، ولم تتوسع لفظة التوازن بأكثر من ذلك.

وكانت انطلاقة مصطلح التوازن بقوة في العصر الحديث، ومن تتبع كتب التفاسير الحديثة التأليف وجدت المصطلح حاضراً بقوة عند سيد قطب(١٣٨٦هـ) في كتابه (في ظلال القران)، فإنه تناول التوازن بشكل كبير، وكأنه لفظه المفضل فأضاف إليه طاقة وحيوية تصويرية كما في أسلوبه الأدبي المعروف، فتناوله في تسعة وأربعين موضعاً من أجزاء تفسيره الست؛ كالتوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة، وتوزان المنهج الرباني في العقوبة والتوبة، والتوازن في النظام الإسلامي توازن الأخلاق، وتوازن الأحكام، وبين التكليف والطاقة، والأوامر والزواجر، والترغيب والترهيب، والتوازن في ملكوت السماوات والأرض، وبين الأحياء والأشياء، والتوازن في التربية والتشريع، وتوازن شخصية الرسول الاكرم ﷺ مقابلة للعقيدة التي اختير له لتتوازن مع حقيقة الرسول ﷺ وشخصيته[٥]

---

(١) ينظر: الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان،، خصائص القرآن الكريم،ط ٩، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية-الرياض، ١٤١٧هـ، ٣٩ – ٥٠.

(٢) سورة الفجر : الآيات ١٥ – ١٦.

(٣) الزمخشري ، ابو القاسم محمود بن عمروبن احمد (ت٥٣٨هـ) ،الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل ، تح خليل مامون شيحا ، ط٣ ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ١٤٣٠هـ ١٢٠١.

(٤) ينظر: الحلبي، السمين ابو العباس شهاب الدين احمد بن يوسف (ت ٧٥٦هـ)، ،الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح احمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، (د ت)، ١٠/ ٧٨٨.

(٥) ينظر: الشاذلي، سيد قطب بن ابراهيم (ت١٣٨٦هـ)، في ظلال القرآن ، ط١٧، دار الشروق ، بيروت، ١٤١٢هـ ، ٤٧٩/١، ٦٠٤/١ ، ٧٣٤/٢ ، ٦٤١/٢ ،١٤٠٦/٣ ، ٥/ ٢٥٧٨ ، ٦/ ٣٦٠٩.

وغيرها من التوازنات التي أوردها في كتابه خصائص التصور الإسلامي ومقوماته فأورد له فصلا كاملا[1].

كما يلاحظ هذا في مؤلفات الشيخ الشعراوي(ت١٤١٩هـ)، إذ كانت له وقفات عدة مع مصطلح التوازن بأنَّ الله تعالى جعل الكون يقوم على التوازن حتى لا يطغى احد على أحد، والتوازن العقابي الجنائي في المجتمع في تشريع العقاب والعلانية؛ ليستقر التوازن في النفس البشرية ، والتوازن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوازن السلمي الذي يحفظ العالم من الوقوع في المعارك، وغيرها كثير[2].

ولم يكن مفسّرو الامامية بمنأى عن ذكر هذا المصطلح فنجده حاضراً في تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي (ت١٣٤٤هـ)، إذ يذكر التوازن في بعض الآيات كآية الربا في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[3]، فقال في تفسيرها: إن الربا يضاد التوازن الاجتماعي ويفسد الانتظام الحاكم، وقرن التوازن بالتعادل[4] في قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ**﴾[5]، ومعادلة التوازن بين اليتيم الضعيف والولي القوي، وبين الغني المثري والفقير المعدوم، وكل ناقص وتام[6].

وكذلك كانت هناك وقفات للسيد محمد حسين فضل الله(١٤٣١هـ)، في بيان إنَّ التوازن في الاسلام قانون الحياة، والتوازن بين التكوين والتشريع، وتوازن الوعي عند الإنسان لصور الخير والشر[7]، وغيرها كثير.

والشيخ مكارم الشيرازي في تفسيره الأمثل كانت له وقفات، ولكن بأقل من سابقيه، مؤكدا أن المنهج الإسلامي في كل أبعاده قائم على اساس التوازن، وربط العدل القائم عليه الكون بأكمله، والسماوات والأرضين في ظل حالة من توازن القوى الفاعلة فيها والاستقرار، فلو انحرفت عن هذا التوازن لحظة واحدة أو بمقدار قيد أنملة لحكمت على نفسها بالفناء والزوال، والتوازن التشريعي بين الصيام وإطعام المسكين، والتوازن العسكري والسياسي لنتائج حرب الأحزاب[8].

وفي ضوء استعراض لفظة التوازن عند المفسّرين نلحظ التطور الحاصل في إطلاق دلالتها، واتساعها لتشمل المدركات الذهنية والحسية في اللفظ والمضمون، فأصبح لفظا مميزا حينما يراد نفي خلل أو شطط أو إفراط أو تفريط، وغيرها في أمر من الأمور فظهر

---

(١) ينظر: الشاذلي، سيد قطب ابراهيم حسين (ت ١٣٨٦هـ)، خصائص التصور الاسلامي ومقوماته، دار الشروق، (د ت)، ١١٩ – ١٥٠.

(٢) ينظر: الشعراوي، محمد متولي (١٤١٩هـ)، تفسير الشعراوي، (د ت)، منشورات اخباراليوم، ١٤١١هـ، ٤٩٤/١ ، ٧٥٤/٢، ١٥٧٠/٣، ٤٧٧٩/٨.

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٣٠.

(٤) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٢/ ٤١١.

(٥) سورة الانفطار : الآية ٧.

(٦) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ١٩٨/٢.

(٧) ينظر: فضل الله، من وحي القرآن، ٩٦/١٠، ٣٠٦/٢١، ٤٠/١٣.

(٨) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ٤٠٧/١ ، ٣/ ٦٣٤ ، ٤/ ١٥٢ ، ١٣/ ٢١٣.

لدينا مجالات كثيرة للتوازن تتداول في عصرنا الحاضر كالتوازن البيئي،والتوازن الاجتماعي،والاقتصادي، والثقافي، والنفسي، والصحي، وغيرها كثير،بتفاصيل توازنية ادق.

المطلب الثاني: التوازن في الآدب العربي والفارق بينه وبين التوازن في القرآن الكريم:

إنَّ أسلوب القرآن يجري على نسق وتوازن بديع لا يخرج عن نظام كلام العرب، ولكنه يختلف عنه بأنه قائم على القصدية، وقد اعتمد طرائقهم ولكنه فاقهم بالإبداع، أما " الفنون التعبيرية عند العرب، لا تعدو أن تكون نظماً أو نثراً، وللنظم أعاريض وأوزان محددة معروفة، وللنثر طرائق من السجع والإرسال وغيرها مبينة ومعروفة "[١].

وعند تتبع ورود مصطلح التوازن في كتب الأدب نجد إنَّ أول من استعمله أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ) في كتابه الصناعتين؛ حينما قال: "وينبغي أن تعرف أقدار المعاني، فتوازن بينها، وبين أوزان المستمعين، وبين أقدار الحالات، فتجعل لكل طبقة كلاما ولكل حال مقاما"[٢]، وفي معرض كلامه على الفواصل قال:"فهذا الكلام جيد التوازن "[٣]، والتوازن عنده من ألوان السجع وقد جمع بينهما فقال:" والسجع على وجوه: فمنها أن يكون الجزآن متوازنين متعادلين، لا يزيد أحدهما على الآخر، مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه"[٤].

وأفرد له الثعالبي(ت٤٢٩هـ) في كتابه (فقه اللغة وسر العربية) فصلا عنوانه: فصل في حفظ التوازن، إذ قال: العرب تزيد وتحذف حفظا للتوازن وإيثارا له؛ أما الزيادة فكما قال تعالى: ﴿**وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾، وقوله تعالى: ﴿**فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا**﴾، وأما الحذف فكما قال جل اسمه: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**﴾، وقال: ﴿**الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**﴾ و﴿**يَوْمَ التَّنَادِ** ﴾ و﴿**يَوْمَ التَّلَاقِ**﴾[٥]، **التَّلَاقِ**﴾[٥]، وبذا يكون مصطلح التوازن في بداية استعماله منحصرا في التوازن اللفظي الصوتي لانسجام فواصل الكلام بحروف متقاربة، إذا لم تكن متجانسة.

ويرد مصلح التوازن في المعاجم اللغوية والكتب البلاغية، بمفهوم (الموازنة) كما ذكره ابن الاثير(ت ٦٣٧هـ) في كتابه المثل السائر، وعرّفها فقال: "هي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في أوزانها، وأن يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساويي الالفاظ وزناً؛ ومتى كان الكلام في المنظوم والمنثور خارجاً على هذا المخرج كان متسق النظام رشيق الاعتدال، والموازنة، أحد أنواع السجع"[٦]، وذكر قوله تعالى:﴿ **وَنَمَارِقُ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۞ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ**﴾[٧].

---

(١) شرشر ، محمد حسن ، البناء الصوتي في البنيان القرآني ، ط١ ، دار المحمدية ، القاهرة ، ١٤٠٨هـ ، ١٤.

(٢) العسكري،ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥هـ)،الصناعتين الكتابة والشعر، تح محمد امين الحانجي، ط١، مطبعة محمود بك ، ١٣١٩هـ ، ١٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ٢٠٢.

(٤) العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر ، ٢٦٢.

(٥) ينظر: الثعالبي ، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ابو منصور (ت ٤٢٩هـ) ، فقه اللغة وسر العربية، تع خالد فهمي ، تصدير: رمضان عبد التواب ، ط١ ، مكتبة الخانجي ، مطبعة المدني ، مصر ، ١٤١٨هـ ، ٥٧٩/٢.

(٦) ابن الاثير ، نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٣٧هـ) ، المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ، تح احمد الحوفي، وبدوي طبابة ، ط٢ ،دار النهضة ، مصر،(د ت) ، ٢٩١/١ .

(٧) سورة الغاشية : الآيات١٥ - ١٦

من ثمَّ يتضح أنَّ مفهوم التوازن في النصوص الأدبية هو أن تكون كلمات الشطر الاول متوازنة مع ما يقابلها في الشطر الثاني وهو نوع من السجع دارج استعماله في الشعر والنثر العربي، وإن" الشعر في الغالب وليد الخيال، ومعبّر عن الأحاسيس الجياشة في النفوس، والعواطف الملتهبة، ولهذا فإنّه يجسّد حالة عدم الاستقرار وعدم التوازن صعودا ونزولا، شدّة وانخفاضا، في الوقت الذي نلاحظ أنّ القرآن الكريم، وهو يمثّل قمّة الروعة والجاذبية، فإنّه كتاب استدلالي ومنطقي في عرضه للمفاهيم، وعقلاني في محتواه، وما فيه من التنبّؤ المستقبلي لا يشكّل قاعدة أساسية للقرآن الكريم، بالإضافة إلى أنّها صادقة جميعا بخلاف ما عليه تنبّؤ الكهنة"[١].

وهذه إشارة واضحة لبيان الفارق بين الشعر وأوزانه، وبين توازن القرآن الكريم في جميع مفاهيمه اللغوية والاستدلالية، وإنَّ اختلاف مصطلح التوازن بين القرآن الكريم والأدب العربي؛ "إنَّ القرآن ليس على أعاريض الشعر في رجزه، ولا في قصيره، وهو ليس على سنن النثر المعروفة في إرساله، ولا في تسجعيه، إذ هولا يلتزم الموازين المعهودة، في هذا ولا ذاك ولكنك مع ذلك عندما تستمع أو تقرأ بضع آيات منه، تشعر بتوقيع موزون ينبع من تتابع آياته، بل يسري في صياغته، وتآلف كلماته، وتجد في تركيب حروفه تنسيقا عجيبا"[٢]، وقد عدّ الرافعي(ت١٣٥٥هـ) إعجاز القرآن في نظمه غير خاضع لوزن الشعر، بل خاضع لوزن الوجدان والنفس وتحت مسمى الطريقة النفسية في الطريقة اللسانية[٣] فقال: " أن يسمع يسمع ضربا خالصاً من الموسيقى اللغوية في انسجامه واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس، مقطعا مقطعا، ونبرة نبرة، كأنّها توقعه توقيعاً ولا تتلوه تلاوة"[٤]، ويبدو للباحثة أنَّ هذا تقييد للإعجاز القرآني بصورة عامة وللتوازن خاصة، فهو قاصر عن إعطاء حق الاثنين معا فقد حدده بإعجاز توازنه اللفظي والنفسي متّبعا نهج القدماء، ولكنه ربط التوازن الصوتي بالحالة النفسية التي يعيشها مستمع القرآن أو قارئه، والقرآن متوازن في أدق تفاصيله من رصف حروفه وفي كلماته وفي اتساق حركاته وائتلافها وفي معانيه، وليس فقط في الإيقاع الصوتي والنفسي.

المطلب الثالث: التوازن وعلاقته بالنظام والجمال:

إنَّ التوازن هو حالة من الموازنة التي تقع في أي نظام لأحداث توازن بين أجزائه ومركباته المتناسقة، وبيان تناسب بعضها ببعض، والنظام يقوم على المحاسبة والتقدير والتوازن والانسجام، والكلام لا يمكن فهمه إلا بالاطلاع على المراد من معاني الأجزاء لأي نظام، فنعرف أن المقصود في هذا النظام هو توازن اجتماعي أم أخلاقي أم اقتصادي أم سياسي، وأنَّ القرآن الكريم قائم على الترتيب والنظام من أوله لأخره في توازنات غاية في

---

(١) الشيرازي ، الامثل ، ١٨ / ٦٠٢.
(٢) شرشر ، محمد حسن ، البناء الصوتي في البنيان القرآني ، ١٤.
(٣) ينظر: الرافعي، مصطفى صادق (١٣٥٥هـ) ، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ط٩، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان،١٣٩٣هـ ، ٢٦٢.
(٤) المصدر نفسه، ٢١٣.

الدقة والجمال، "وإنَّ الذي يتدبر القرآن في ضوء النظام فلا شك لا يخطئ في فهم معانيه؛ وذلك لأنَّ النظام قد يبين له سمت الكلام وينفي عنه تشاكس المعاني"[١]، وكذلك يبين نوعية التوازن في ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه.

أما الجمال فهو مصدر الجَميل، والفعل جَمُلَ، أي بهاء وحسن، والجمال: الحسن يكون في الفعل والخلق، وقد جمُل الرجل بالضمّ جمالا، والجمال يقع على الصور والمعاني والصورة الحسية المدركة بالعين، والمعاني التي تدرك بالبصائر لا الأبصار[٢]، وتستعمل في العربية ما اجتمع فيه النضج والتناسب والنظم، وهذا المفهوم للجمال الظاهري؛ لأن الجمال هو التناسب والاعتدال في الأعضاء، في كل شيء بحسبه، أما من جهة الجمال المعنوي فإن الجمال يقع في جمال النفس باتصافها بالصفات الروحانية النورانية بالتناسب والاعتدال[٣]، والجمال أحد الأركان التي قامت عليها منظومة القيم الخالدة، وهي الحق والخير والجمال، والإنسان بفطرته يسعى إلى التذوق الجمالي، ودائم البحث عن الجميل، وما هو أجمل منه في سلم الجمال.

وفي وصف الجمال قيل بأنّه:" ما يثير فينا إحساساً بالانتظام والتناغم والكمال، وقد يكون ذلك في مشهد من مشاهد الطبيعة، أو في أثر فني من صنع الإنسان، وأننا لنعجز على الإتيان بتحديد واضح لماهية الجمال؛ لأنه في واقعه إحساس داخلي يتولد فينا عند رؤيته أثراً تتلاقى فيه عناصر متعددة ومتنوعة ومختلفة باختلاف الاذواق، ومعرفة الجمال ليست خاضعة للعقل ومعاييره، بل هي اكتناه انفعالي "[٤].

ويختلف الناس في تقدير معايير الجمال لاختلاف الطبائع البشرية[٥]، ومن الآيات التي جاء الجمال فيها معبّرا عن الصور قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**﴾[٦]، وللقرآن نظرة في الجمال فهو: "عنصر أصيل في هذه النظرة، وليست النعمة النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب، بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات، تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان"[٧]، ويبدو للباحثة أنَّ الجمال سمة من سمات التوازن، حتى يصل التوازن معه إلى نهاية حده في الكمال.

وعليه فإنَّ النظام يُعدُّ عنصراً رئيساً يقوم على التوازن فلا نظام من دون توازن، لأن أي نظام في الكون يقوم على التوازن وتمام الانسجام في الأقدار والموازين في توزيع الأشياء والذي يثير فينا حاسة الجمال، ومن هنا يبرز دور الجمال في تكامل الصورة

---

(١) فرحات ، احمد حسن ، مناسبات الآيات والسور ، مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ،العدد ١٠ ، ص ٤٨، المكتبة الشاملة ، http//www.shamela.ws.

(٢) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ١٢٦/١١.

(٣) ينظر: مصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم ، ٢/ ١٢٩.

(٤) عبد النور ، جبور ، المعجم الادبي ، ط٢ ، دار الملايين ، لبنان – بيروت ، ١٤٠٤هـ ، ٨٥.

(٥) ينظر: غوري ، محمد علي ، مدخل الى نظرية الجمال في النقد العربي ، مجلة القسم العربي ، العدد الثامن عشر ، جامعة بنجاب ، لاهور ، باكستان ، ١٤٣٢هـ،١٢٦.

(٦) سورة النحل : الآية ٦.

(٧) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ٤/ ٢١٦١.

والمعنى، فالجمال لا يكون إلاّ في الشيء المنظم المتوازن، فنحن لا نستطيع أن نتخيل أفعال الأخلاق الحسنة وعفاف النفس وصفاء النية وقوة الإرادة خالية من النظام والتوازن، وغاية الجمال هو الوصول إلى توازن نفسي لدى الفرد، والتوازن بين أعضاء المجتمع، فيقول الواحد منا هذا شيء جميل، ولكن عندما نُسأل عن سر هذا الجمال، تتفاوت الاجابة وتكون مختلفة إلى حد التباعد، وعليه فإنَّ الإنسان يستطيع تحسس الجمال، ولكنه لا يستطيع قياسه أو تحديد مصدره بدقة، فالجمال نسبي في الأشياء.

من هنا كان الجمال من ضرورات الحياة البشرية في إبداع الصور والمعاني، ولكن الإبداع والخلق صفتان من صفات الكمال الإلهي واختصّت الصفتان بالله سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى: ﴿**هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾[1]، والجمال القرآني متكامل؛ فالقارئ لنص الآيات يتحقق لديه توازن بين الشكل والمضمون فيه بسبب تظافر العناصر المتكونة من الصوت والدلالة والتركيب النحوي والصرفي[2] لرفع مستوى الوعي الجمالي، ومن ثم تحقيق الهداية، فالجميل في القرآن وكله جميل، أنه يخاطب المشاعر وكل ما ترتاح له النفس بعد مروره بالحواس، فيتوازن في النفس والحواس ويذعن الإنسان إن هذا التوازن من قبل حكيم، وهذه الغائية تعتمد على فنون اللغة لإبراز الجمالية المعنوية[3].

وعليه فإن الأشياء تكون جميلة إذا ما وضعت في موضعها الصحيح، وإلا فإن جمالها سوف يكون جمالاً عارضاً لا غير.

المبحث الخامس: أركان قانون التوازن وخصائصه

بعد أنَّ عرفنا مفهوم التوازن نجد أنَّ له أركاناً، فلإحداث توازن لابد من توفر أمور، وبما أن التوازن هو من صفات كلام الله فإنَّ الأركان لابد من أن تنتزع من القرآن نفسه، والتوازن يتقوم بهذه الأركان، ولا يقوم التوازن إلاّ بها، وتُعدّ ركائز أساسية له نراها في كل مظاهر التوازن وسيتطرق إليها البحث عبر المطالب الآتية:

المطلب الاول : أركان قانون التوازن:

للتوازن أركان تتجلى فيه وتكون حاضرةً في آياته وهي:

١ـ مطابقة التوازن للمعايير العلمية:

لابد من وجود سبب وداعٍ من أجله جاء، أو تأسس هذا التوازن القرآني الذي نراه يتجسد في كل سورة من سور القرآن، بل وفي كل آية وكلمة وحرف فيه، فالقرآن يعكس واقع ارتباط حقيقة بأخرى فيذكرهما معا، وهذا الارتباط مبتنى على علاقة واقعية، ففي قوله سبحانه: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾[4]، للكون نظام واحد حاكم، وهذا النظام متوازن من جميع جهاته؛ من قوانينه الثابتة التي تجري

---

(1) سورة الحشر: الآية ٢٤.

(2) ينظر: الغويل ، المهدي ابراهيم ، جماليات البنية الايقاعية دراسة في الجزء الاخير من سورة مريم ، بحث الجامعة الاسمرية ، العدد ٢١، ١٤٣٢هـ ، ١٧١.

(3) ينظر: ياسوف ،احمد ،جماليات المفردة القرآنية، ط٢ ،دارالمكتبي للطباعة والنشر، دمشق، ١٤١٩ هـ ، ١٨.

(4) سورة الأنبياء : الآية ٢٢.

في الأرض والسماء، وهذا التوازن في دقة تنظيم الكون ينبع من عين واحدة، فلو كان فيها أكثر من إله لاختلفت الإرادات، ولم يكن هذا الانسجام والتوازن مطلقا؛ لأنَّ إرادة سيطرة وحكم يختلف عن الاخر وإرادة تمحو أثر الأولى، وتُنتج الفساد[١].

والفساد يسبب اختلالاً في عمل منظومة الكون، وهذه هي حقيقة التوحيد في أنَّ وحدانية الخالق أوجدت خلقاً متوازناً ومنسجماً في أجزائه، وقوانين وموازين حاكمة في العالم واحدة في جميع المفردات وفي كل مكان، فوحدانية الخالق، توازن للنظام الكوني، وتعدد الإلهة، اختلال لتوازن النظام.

هذا الارتباط العلمي الواقعي هو ركن نتعرف من سياقه على قضايا العقيدة والتي تتعلق بذات الله تعالى وصفاته وأفعاله والإيمان به وبرسله وملائكته، وعلى الجانب العبادي والأخلاقي، وقد تطرّق إليها القرآن في آياته مخاطبا الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته، ووظفها لتحقيق الكمال الإنساني وإن كان هذا الكمال غير مطلق فالإنسان يتطلع إلى كمال أعلى.

٢ـ العلاقة التربوية:

إنَّ التوازن في القرآن الكريم يقوم على دعامة صلدة دعت إليها كل الأديان السماوية، وهي التربية الفاضلة، وهذا ما نراه من القيم التربوية التي رسمها القران في آياته لتشمل توجهات الإنسان وكافة شؤونه، وتقوده إلى الطريق الصحيحة بما يصلحه من تربية وتهذيب إن طغت إفراطا بصفة عليه عالجتها بحكمة وإن طغت تفريطا عالجتها بحكمة أخرى، ولا تزال يهذبها حتى يتحول إلى إنسان متزن سويَ في تصرفاته[٢]، وهذا التنوع في المعالجة بالحكم الإلهية ما هي إلا مظهر من مظاهر التوازن يتجلى في آياته التربوية.

ومن دراسة علاقة الآيات التربوية ببعضها يظهر لنا علم بخبايا النفوس ، ومعرفة بالقوانين التربوية التي تتحكم فيها ، كما في قوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[٣]، من أولويات المؤمن المتكاملة والتي ينبغي أن يعقد العزم على تحقيقها؛ استقرار الإيمان في قلبه، والتقوى وتنفيذ واجباته الإسلامية، والكون والتواجد مع الصادقين، والتفاعل معهم ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا[٤]، والصدق يقترن بالتقوى، ويكون الجزاء من الله تعالى في قوله: ﴿**لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ**﴾[٥]، ويتحقق التوازن في وعد الله للصادقين الذي اتقوا الله في صدق عملهم وقولهم، فينالوا الجزاء العظيم والعطاء الجزيل والوعد الصادق في قوله: ﴿**يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[٦]، والقيم التربوية والإنسانية في القرآن الكريم كثيرة تتجسد بآياته الكريمة لنتعلم منها مواقف الحياة

---

(١) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ١٤٦/١٠.
(٢) ينظر: المدرسي ، محمد تقي ، من هدى القرآن ، ط١، دار محبي الحسين عليه السلام، طهران ، ١٤١٩هـ ، ١١٢/١.
(٣) سورة التوبة : الآية ١١٩.
(٤) ينظر: المدرسي ، من هدى القرآن ،٣/ ٣٤٠.
(٥) سورة الاحزاب : الآية ٢٤.
(٦) سورة المائدة : الآية ١١٩.

وحكمة التصرف العملي فقد حدّدت الآية في قوله سبحانه: ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[1]، ثلاثة أمور وهي الإنفاق، والنهي عن إلقاء النفس في التهلكة، والإحسان[2]، والعلاقة بينها مكملة إحداهما للأخرى متوازنة بدقة في توجيه النفس البشرية، إذ " أول ما أمر الله بالإنفاق توجهت النفوس إليه وكانت مخافة التقصير في الإنفاق، فجاءت الجملة الثانية تنهى عن التهلكة التي تتم إذا ترك الإنفاق، وحيث إنَّ النفوس مفطورة على البخل كان من الضروري ترجيح كفة الإنفاق، لمقابلة الشح الطبيعي عند البشر فجاءت الجملة الثالثة ﴿**وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ "[3].

٣- الإمكان في العالم الخارجي :

يفرض الواقع الخارجي بكل تشخصاته تنوعاً في الخطاب القرآني، فتكون آيات القران أهلا لتصدق عليها في كل عصر، وهذه هي ميزة القرآن الكريم فهو حي نابض بالحركة،" فآية المتقين لها تطبيق حي كما لآية الفاسقين، فلابد من أن يبحث الفرد عن هؤلاء كلما تدبر القران، وهنا يتحول الكتاب المبين الى منهاج عمل، ليس هذا فحسب، بل ويهدي الإنسان إلى حقائق كثيرة تساعد الفرد على فهم الاحداث"[4]، وبذا يكون كالموجّه والمرشد لكشف الحقائق الكامنة فيه، وهذا يحدث بعرض التقابل التوازني بين ولاية الله وولاية الشيطان، وبين الخير والشر، والعدل والظلم، والجنة والنار، وفي القصص عرض لمظاهر القيم التربوية لطاعة الابن لأبيه كما في تقابل إبراهيم وإسماعيل ﷺ، والعلاقة التلازمية بينهما، ومظاهر الحسد وعاقبة عدم السيطرة عليه في حسد قابيل لأخيه هابيل، وغيرها الكثير، وقد جاء في حديث لرسول الله ﷺ فقال: **(فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفّع وماحل مصدق)**[5].

ويتحقق التوازن الخارجي بالتطبيق القرآني في العالم الخارجي، والذي يتمحور في ثلاثة أمور لابد من توافرها ليتحقق التوازن القرآني بكل أشكاله وهي:

أ- لابد من وجود نموذج ينطبق عليه التوازن ، كوجود المتلقي، أو الجمهور، أو المكلفين بالخطاب، فمع عدم توفر هؤلاء فما الداعي إلى التأسيس للتوازن، وقد أرسل الله للناس برهانا ساطعا وأنزل معه نورا مبينا كما في قوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** ﴾[6] أي: جاءكم دلائل العقل وشواهد النّقل،

---

(1) سورة البقرة : الآية ١٩٥.
(2) ينظر: المدرسي ، من هدى القرآن ، ١١٣/١.
(3) المصدر نفسه، ١/ ١١٣.
(4) المدرسي، من هدى القرآن، ١٣١/١.
(5) الكليني ، الكافي ، ٥٩٨/٢.
(6) سورة النساء : الآية ١٧٤.

ولم يبق لكم عذر ولا علّة، وقيل: البرهان، رسول الله، والنّور، القرآن [1] وقيل النور ولاية علي عليه السلام[2].

ب-وجود إمكانية للاستفادة منها، فما الداعي لمجيئها أو لجريانها على فرض انتفاء الفائدة منها، كما في قوله تعالى:﴿**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لُكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[3]، فلا كراهة في اظهار الصدقة ما دام القصد وجه الله سبحانه، وإنْ تخفوها فذلك أفضل من الإظهار، لبعدها عن الشبهة والرياء، وحرصا على كرامة الفقير وقوله: ﴿**وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ** ﴾، أي بعض السيئات، لأنَّ الصدقة تمحو بعض الذنوب لا جميعها، وتدفع الكثير من بلاء الدنيا بالحس والتجربة[4] والتوازن المتحقق من إبداء الصدقات أو إخفاءها نقف على كم هائل من القيم الأخلاقية والمعرفية التي يبينها لنا القرآن في ممارستنا الحياتية لهذه الفضيلة، فإعلان الصدقة نعمة، وإخفائها خير وتكفير عن السيئات.

ت-إمكانية التطبيق آنيا ومستقبلا أو من باب أخذ العبرة والعظة وأسلوب عمل للحياة اليومية، فهو صالح لكل عصر، ويجمع بين الأصالة والمعاصرة، عن طريق إظهار إعجاز صور التوازن بوصفها نماذج تطبيقية لها، ومع عدم امكانية التطبيق، وعدم تحقق الفائدة تنتفي حاجة التوازن، قال تعالى: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾[5]، وقد علل أمرهم بالاستغفار متوازنا مع الخير الوفير الناتج منه بقوله: ﴿**إِنَّهُ** ﴿**إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً**﴾ دلالة على أنه تعالى كثير المغفرة وهي مضافا إلى كثرتها منه سنة مستمرة له تعالى[6]، إنّ الإيمان والتقوى يبعثان على عمران الدنيا والآخرة، والله تعالى تعالى يفيض عليكم بأمطار الرحمة المعنوية، وكذلك بالأمطار المادية المباركة[7].

إن إمكانية تطبيق التوازن في العالم الخارجي قوية، فالعلاقة بينهما لا تنفصل، وتعطي للفرد والمجتمع حياة كريمة، إذا ما سار في خطاها الإنسان.

٤ـ الشمولية:

وتعني الإحاطة والتضمين، فنقول شمل الشيء أي تضمّنه وعمَّه[8]، " فهي تنطبق على على الناس جميعاً دون تمييز ودون استثناء، وبلا محاباة، فالجزاء فيها من جنس

---

(1) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ١٥٢/٥ ، وينظر : القمي ، المشهدي ،محمد بن محمد رضا ، تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، تح حسين دركاهي ، ط١، مؤسسة الطباعة والنشر في وزارة الارشاد الاسلامي، طهران ، ١٤٠٩هـ ، ٥٩٨/٣.

(2) ينظر: الطبرسي، مجمع البيان، ٢٢٧/٣،وينظر: الحويزي، نور الثقلين ،٥٧٩/١، وينظر: الشيرازي، الامثل، ٥٦١/٣.

(3) سورة البقرة : الآية٢٧١.

(4) ينظر: مغنية، محمد جواد (ت ١٤٠٠هـ)، الكاشف، ط١، دار الكتب الاسلامية، ايران – طهران، ١٤٢٤هـ ، ١/ ٤٢٤.

(5) سورة نوح : الآيات ١٠-١٢.

(6) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٣٠/٢٠.

(7) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ٥٤/١٩.

(8) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ٣٦٨/١١.

العمل، والنتائج بمقدماتها، بغض النظر عن الدين، والجنس واللون، والاصل والإيمان والكفر فالكل في ميزانها سواء"[١].

وشمولية القرآن تعني ايضاً تضمنه واحتواءه على كل ما يدخل ضمن حاجات الإنسان، وكذلك يهتم بشؤون الحياة بمختلف مجالاتها وأبعادها، ويعد إمكانية تطبيق التوازن في العالم الخارجي دليلاً على شمولية القرآن لكل ما يحتاجه الناس في آجلهم وعاجلهم، شامل لخير الدنيا وخير الآخرة، فهو منهج متكامل لحياة الخلق، يفي بكل ما يتعلق بأمورهم الدنيوية والأخروية، ففي قوله جل وعلا: ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾[٢]، وقوله: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[٣]، وهذا الاحتواء والتضمين يتوازن مع قدرات البشر وطاقاته وضمن نطاق القابليات التي يسعى إليها الإنسان، في قوله تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ**﴾[٤] .

٥- **قانون التوزان مطرد :**

فهولا يقبل التخلف عن لوازمه ولا يقبل التحويل أو التبدل بتبدل الزمان والمكان، يرتبط فيه الأسباب والمسببات بالنتائج، ومنها المغالبة بين الأسباب التكوينية وغلبة بعضها على بعض واندفاع بعضها الآخر عنه ومغلوبيتها له لم يرتبط أجزاء النظام بعضها، فوحدة هذا النظام - نظام التكوين - إنما هي نتيجة التأثير والتأثر الموجودين بين أجزاء العالم ببعض بل بقي كل على فعليته التي هي له، وعند ذلك بطل الحركات فبطل عالم الوجود[٥].

٦- **قانون متحرك**:

سيّال وحيّ وليس جامد، لأنه مرتبط بحركة الإنسان وإرادته واختياره سواء كانت فردية أو جماعية أو امة، فهو مرتبط بالواقع الإنساني غير منفصل عنه.

المطلب الثاني: خصائص قانون التوازن :

لقانون التوازن خصائصُ تميزهُ من غيرهِ من المفاهيم فهو قانونٌ عامٌ وشاملٌ يدخل في مظاهر الكونِ والطبيعة بكل تنوعاتها البشرية والحيوانية والنباتية والمناخية، وبما إنَّ الإسلام نظام شامل للحياة، يدعو الإنسان للتوازن في كل تفاصيل حياته، وهذه الدعوة أوضحها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾[٦] فكل شيء في الخلق خاضع لقانون التوازن والتقدير والمقدار الذي وضعه الخالق جل وعلا في قوله: ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾[٨]، ومن خصائصه :

---

(١) قدة ، كمال ، السنن الكونية والاجتماعية من خلال القرآن الكريم ، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية ، بحث جامعة الشهيد حمة الأخضر- الوادي ، العدد ١٥ ، ١٤٣٧هـ ، ١٤٩.

(٢) سورة الانعام : الآية ٣٨.

(٣) سورة النحل : الآية ٨٩.

(٤) سورة النجم : الآية ٣٩.

(٥) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٢/ ٢٩٤

(٦) سورة القمر : الآية ٤٩.

(٧) سورة الرعد : الآية ٨.

(٨) سورة الفرقان : الآية ٢.

١- يقوم قانون التوازن في القرآن الكريم على طريقة التعايش مع جو النص القرآني؛ لأنَّ ألفاظه لم تبتعد عن التوازن، فهو ينتقي ألفاظاً مألوفة للنفس وليست وحشية، وكذلك يكشف عن الدقة في التعبير، وترابط السياق، والاختيار المناسب للكلمات وتقدير بعضها على بعض، وحذف كلمة أو إظهار أخرى، وتقديم وتأخير، وجميع هذه الأساليب الدلالية والبلاغية خاضعة لقانون إلهي خاص ، فليس الحذف والذكر أو التقديم والتأخير على وفق قياسات اللغة المتعارف عليها، وقد أفاد أهل اللغة من هذا النظم القرآني، وهذا لا يعني أنَّ هناك أصلاً ثابتاً وهو المرجع والأساس، وجاءت الآيات فخالفت هذا الاصل والاساس، بل إنَّ الأصل والأساس في التراكيب هي مجيئها في موضعها المراد من صانع الإعجاز في كتابه الكريم.

٢- إنَّ قانون التوازن هو أسلوب عمل للحياة اليومية، ومعايشة للمواقف زمانيا ومكانيا، إذ بالوقوف على الكم الهائل من العلوم والمعارف حرّي بالإنسان أن يطبقه ولو بالقدر المستطاع للجانب الأخلاقي والاجتماعي والتربوي الذي ينبثق منه.

٣- لعنصر الإيقاع الصوتي دور في إبراز أهمية قانون التوازن فهو من المحطات التي تظهر المستوى الصوتي للنص القرآني من مراعاة الصوت مع الحدث والتصوير، أو ما تعلق بالصوت المفرد من شدة الحروف أو توسطها او ضعفها، وربط كل هذه الامور بالمعاني المختلفة في التعابير القرآنية، بلحاظ أنَّ الإيقاع أو ما اصطلح عليه التوازن الصوتي لم يكن مجرد تزويق أو انسجام لفظي كما في الفاصلة القرآنية، وإنما هي تراكيب تشتمل على معارف وعلوم كثيرة، إذ إنّها مقصودة في الشكل والبناء، لا كما في روي الشعر وزحفات النثر التي يضطر إليها الشاعر والأديب.

٤- التوازن يقوم على مراعاة العلاقة بين الدلالات في الآيات القرآنية وكشف الوشائج التي تربط الجمل والألفاظ والتراكيب سواء كان بلاغيا أم نحويا أم ربطا معنويا، عن طريق التأمل بالسياق والتوازن المتماسك بينهما في نسيج واحد لا نظير له [١].

٥- التوازن يقوم على الارتباط في القرآن الكريم في صورة يرتبط آخرها بأولها ارتباط الشرط بالمشروط، أو السبب بالمسبب، أو العلة بالمعلول؛ "لأنَّ هذا الكون يجري بموجب أسباب ومسببات تكون قانوناً عاماً هو في غاية الدقة والإحكام والشمول بحيث لا يخرج عنه شيء ولا يفلت منه مخلوق، يحكم كل شيء من المخلوقات بلا استثناء من أصغر ذرة إلى أكبر جرم، ومن حركة الذرة في مادتها التي لا نشعر بها إلى حركة الريح العاصف التي تقلع الأشجار وتخرّب البيوت، فالكل خاضع ومنقاد لهذا القانون وهذا الخضوع في الحقيقة ما هو إلا خضوع للملك القوي الجبار واضع هذا القانون وخالق هذا الكون "[٢].

---

(١) ينظر: الموسوي ، ضرغام كريم ، محاضرات الدراسات العليا لطلبة الماجستير لمادة تحليل النص القرآني ، ٢٠٢٠.

(٢) زيدان، عبد الكريم،السنن الإلهية في الامم والجماعات والأفراد،ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ١٤١٣هـ، ٢٣. ٢٣.

وقد صرّحت آيات القرآن في مواضع عدة ومنها التوازن في النصر كقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾**[1]، وقوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾**[2]، وكما في التوازن بين فتح بركات السماء، ورزقها مع الإيمان والتقوى في قوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[3]، وتوازن شكر النعمة وكفرها في قوله سبحانه وتعالى: **﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾**[4]، وفي التوازن بين الهداية والضلال في قوله تعالى: **﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾**[5]، والتوازن في فعل السلوك **البشري** بارتباط الغاية (مدى الشيء ونهايته)، بالمغيا (الشيء الذي وضعت له الغاية)، كما في قوله تعالى: **﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾**[6]، وقوله تعالى: **﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**[7].

لكن ذلك لا ينافي أن تكون" المسبّبات والنتائج مترتبة على الأسباب، وقد جرت عادته عزّ وجلّ على إجراء الأمور بأسبابها التي لها دخل في تحقّقها، وعلى الإنسان أن يعد الأسباب الظاهريّة التي تكون دخيلة في حصول المسبب، ثم تفويض الأمر إليه في الجهات التي تقصر عقولنا عن الإحاطة بها "[8]، وقد دلّت على ذلك آيات كثيرة، قال تعالى:**﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾**[9]، وقال تعالى: **﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ﴾**[10]، وهذا هو التوكّل الذي أمرنا به وحث عليه القرآن الكريم.

٦- للتوازن في القرآن مزية تكاملية تربط ما بين الصورة من حيث السياق والنسق في تقديم المعنى المطلوب والنموذج الإنساني المنشود[11]، لتخاطب الصورة القرآنية بوظيفتها النفسية فطرة الانسان وما أودعه الباري فيها من مشاعر متقابلة متناقضة من الخوف والرجاء والحب والكره والتقوى والفجور، وتوجيه الإنسان كي يقيم التوازن بين مشاعره فلا يغلب جانباً على الآخر حتى لا تضطرب حياته وتصيبها الفوضى،

---

(1) سورة محمد : الآية ٧.
(2) سورة المائدة : الآيات ٦٥ – ٦٦.
(3) سورة الاعراف : الآية ٩٦.
(4) سورة ابراهيم : الآية ٧.
(5) سورة طه : الآيات ١٢٣ - ١٢٤.
(6) سورة الرعد : الآية ١١.
(7) سورة الانفال : الآية ٥٣.
(8) السبزواري ، مواهب الرحمن،٥/٢٣٠.
(9) سورة النجم : الآية ٣٩.
(10) سورة القصص : الآية ٧٧.
(11) ينظر: الراغب ، عبد السلام احمد ، وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم ، ط١ ، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب ، سوريا، ١٤٢٢هـ ، ٨.

وإن اجتماع هذه المؤثرات ضمن علاقات متوازنة ووشائج لبناء النفس الانسانية وصياغتها يكون على وفق التصور الإسلامي لكي تحقق تأثيرا قويا فيها، وتبني الانسان المتوازن بمشاعره وعواطفه فهو الهدف الاساس للصورة الوظيفية [١].

٧- يُعدّ التوازن من أسس الجمال في الفنون عامة وسائر صور الجمال الطبيعي، ونرى التوازن في الشعر عند تقابل الضرب والعروض، وفي النثر عندما تتعادل الألفاظ وتتوازن، وفي الطبيعة متمثلة بأوراق الشجر والأزهار والحيوانات، وفي جسم الانسان للتناظر الجانبي ما بين الجانب الايمن والأيسر[٢]، ونراه مقترنا بالتوازن القرآني متجليا وملتحما في الاسرار القرآنية اللفظية والكمال المعنوي في اتساقه مفردا أو تركيبا في الآية والسورة الكريمة فيتبلور عن وعاء جميل وجذاب للأفكار والمبادئ القرآنية الهادفة.

٨- التنوع والوحدة؛ فقد تناول القرآن موضوعات شتى، وكل موضوع عرضه بالأسلوب الذي يناسبهُ؛ فاذا نظرت إلى كل موضوع منها منفرد وجدت أن لها تفردها بالعرض والمعالجة، ولكنها تتآلف في وحدة مجتمعة تضم توازن اللفظ، والمعنى، والسياق، بكل مستوياته متفرعة من المعنى الكلي، والشكل الكامل لينتج وحدة فكرية ومعنوية، فلا تفترق إلا لتجتمع[٣].

٩- العمق والوسع هو خصيصة من خصائص قانون التوازن، فإنّه يتسع ليشمل الألوهية، والنبوة، والإمامة، والكونية؛ ببشريتها وطبيعتها، والتشريعية، والجوانب الروحية، والمبادئ الخلقية والاجتماعية، والسنن الكونية والظواهر الطبيعية[٤].

المبحث السادس : فوائد قانون التوازن:

للتوازن فوائد يمكن إجمالها على النحو الآتي:

١- الإقرار بوحدانية الله - جلَّ وعلا - :

التوازن إحدى سِمات الكوْن التي أظهرت عظمة الخالق وقدرته، والناظر إلى مظاهر الكون من خلق السماوات والارض، والشمس والقمر، والأجرام السماوية، وخلق الكائنات، يجد آيات التوازن والتقدير واضحة جلية كما في قوله تعالى: **﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**[٥]، وقوله تعالى: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ**

---

(١) ينظر: المصدر نفسه،١٢١ – ١٢٢.

(٢) ينظر: ابو زيد، احمد، التناسب البياني في القرآن، مطبعة النجاح، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط ، سلسلة رسائل واطروحات رقم ١٩، الدار البيضاء، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس ،٣٢٩.

(٣) ينظر: حمدان، نذير،الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، ط١، دار المنايرة، جدة – السعودية،١٤١٢هـ،٤٣٥بتصرف.

(٤) ينظر: المصدر نفسه، ٤٣٦بتصرف.

(٥) سورة البقرة : الآية ٢٢.

وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، وغيرها كثير من الآيات القرآنية الراسمة في الأذهان إبداع الخالق وقدرته اللامتناهية في موجوداته، والدالة على وجود إلهٍ واحدٍ ومدبرٍ واحدٍ أوجدها وقدَّر عملها بتنظيم محكم متوازن ووضع كل شيء في محله على وفق هدف معين، فبالعقل والتفكّر يدرك الإنسان وجود الصانع.

٢- تعميق الإيمان بالله ﷻ والهداية للحق:

من فوائد التوازن في الخلق زيادة الإيمان بالله وتعمقه في النفوس واتصافهم بصفاتٍ عدة، منها الصدق وهي أرقى مراتب الجزاء كما قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾**[2]، وقد ورد أنَّ هذا " تعريف تفصيلي للمؤمنين بعد ما عرفوا إجمالا بأنهم الذين دخل الإيمان في قلوبهم، فقوله: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ﴾** فيه قصر المؤمنين في الذين آمنوا بالله و رسوله، فتفيد تعريفهم بما ذكر من الأوصاف تعريفا جامعا مانعا فمن اتصف بها مؤمن حقا كما أنَّ من فقد شيئا منها ليس بمؤمن حقا"[3]، ومن معطيات تعميق إيمانهم أحدث توازناً في العمل على مستوى عدم الريبة في معتقدهم وإيمانهم فهو ثابت مستقر لا يزلزله شك؛ لأنَّ وجود (ثُمَّ)، "دون الواو للدلالة على انتفاء عروض الريب حيناً بعد حين كأنّه طري جديد دائما فيفيد ثبوت الإيمان"[4]، والمجاهدة بذل الجهد والطاقة بالأموال والأنفس والعمل بما تسعه الاستطاعة وتبلغه الطاقة في التكاليف.

٣- التسخير للإنسان:

إنَّ من فوائد التوازن؛ التسخير: وهو مظهر من مظاهر التكريم الالهي، وجعل كل الموجودات في خدمة الإنسان، وذللّها له لتحقيق منافعه ومصالحه.

والتسخير في اللغة بمعنى سخّر به أي قهرته وذللّته[5].

إنَّ علاقة الإنسان بالكون علاقة تسخير وتحقيق لخلافته في الأرض وعمارتها، وقد حدد الله سبحانه وتعالى أبعادها وقوانينها ونظمها بما يتوازن مع المهمة الاساسية لخلافة الإنسان في هذا العالم وقدرته على التعامل مع هذا التسخير تعاملاً ايجابياً فاعلاً منتجاً.

وقال تعالى: **﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾**[6]، والتسخير هنا تفصيلي لكل لكل ما في السموات والارض وقد أجملها الله سبحانه وتعالى فقال: **﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[7].

---

(1) سورة البقرة : الآية ١٦٤.
(2) سورة الحجرات : الآية ١٥.
(3) الطباطبائي ، الميزان ، ١٨/ ٣٢٩.
(4) المصدر نفسه ، ١٨ / ٣٣٠.
(5) ينظر: ابن منظور، لسان العرب ، ٦/ ٢٠٣.
(6) سورة ابراهيم : الآيات٣٢- ٣٣.
(7) سورة الجاثية :الآية ٦.

وإن مبدأ التسخير يحتّم تطويع الأرض والسماء وتسخيرهما وجعلهما في خدمة الإنسان باعتباره مستخلفاً من الله سبحانه وتعالى يقسم فضله في معايشهم ودرجات التفضل في توازن مقدر حسب علمه سبحانه بمواقع الاختيار كما في قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾،أي جعل الله سبحانه " لكل واحد منهم موقعا ورزقا محدودا، وطاقة معينة، لا يملك أيّ واحد موردا يستغني به عن الآخرين، في ما تقوّم به حياته، أو تخضع له حاجاته، وذلك من خلال النظام المتوازن الذي تفرضه الحاجات الإنسانية في واقع الحياة، فهناك جماعات تملك من المال والطاقة ما لا تملكه جماعات أخرى مما يجعلها تحتاج إليها في ذلك، على مستوى القضايا الأساسية، أو القضايا الطارئة المتصلة بالمواقع الجزئية في الحياة"[2]، وقوله تعالى: ﴿**وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**﴾، "فالتوازن الطبيعي يفرض اختلاف الناس في مواردهم وطاقاتهم ومواقعهم وحاجاتهم وتنوعهم في المهمّات والأدوار، مما يجعل درجة بعضهم أعلى من درجة البعض الآخر"[3].

وعليه فهذا التفاوت ضروري لتنوع حركة الناس صعودا وهبوطاً، فيلحق المتأخر بالمتقدم، ويسعى الأخير ليلحق بمن تقدم عليه وفضله، ويتنافسون في منازل الفضل، وعن هذا التفاوت في الأدوار يتفاوت تسخير الرزق من الله سبحانه وتعالى لعباده.

٤- تمكين الله ﷻ للإنسان في الأرض:

التمكين هو جعل القدرة والسلطان، ويقال مكَّنته من الشيء تمكيناً، أي جعلت له سلطاناً وقدرة فتمكَّن منه[4]، وقد يأتي بمعنى منح الاستقرار والثبات كما في قوله سبحانه وتعالى:﴿ **مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ**﴾[5]، وقوله تعالى :﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾[6].

إذا نظرنا إلى أي صورة من صور التمكين في القرآن الكريم وجدنا أثر الإيمان فيه، كما في الآية السابقة من تمكين الذين يقيمون الصلاة، والصلاة صورة العبادة التي تقوي إيمان الفرد، والذين يأتون الزكاة؛ والزكاة هي بُعد المعاملات الاقتصادية المتمثلة بالفرد والمجتمع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ هذا البعد الاجتماعي الذي يضبط السلوك والأخلاق، وهذه بمجموعها تمثل أركان الإيمان، وإنّه لا تمكين من دون الإيمان؛ لأنَّ الإيمان سبب في قبول أعمال الإنسان كما في قوله تعالى:﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾[7]،

---

(1) سورة الزخرف : الآية ٣٢.
(2) فضل الله ، من وحي القرآن ،٢٣٥/٢٠
(3) المصدر نفسه، ٢٠ / ٢٣٥
(4) ينظر: الفيومي ، المصباح المنير، ٥٧٧
(5) سورة الانعام : الآية ٦.
(6) سورة الحج : الآية ٤١.

إِيمَانَكُمْ﴾[1]، وسبب في هدايته وسعادته كما في قوله سبحانه: ﴿ **وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾**[2]، وقوله عز وجل: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾**[3]، ويجلب البركة ويكثر الخير كما في قوله:﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾**[4]، والإيمان أساس التمكين كما في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾**[5]، ونتائج الإيمان وتجلياته مدعاة للتوازن في تمكين الإنسان في الأرض وصلاحها واعمارها، فلا يُتصوّر أن يكون الأنسان مؤمناً صادقاً ولا يمكنه الله ﷻ في الأرض.

وقد يرد سؤالين في هذا الموضع، الأول ما يقال:" عن سبب تخلّف المجتمعات المتحلية بالإيمان والتقوى، فإذا كان المقصود من الإيمان والتقوى هو مجرّد ادّعاء الإسلام وادّعاء أتباع مبادئ الأنبياء وتعاليمهم، فالاعتراض وجيه ، ولكننا لا نعتبر حقيقة الإيمان والتقوى إلّا نفوذهما في جميع أعمال الإنسان، وجميع شؤون الحياة، وهذا أمر لا يتحقق بمجرّد الادعاء والزعم ، إنّ من المؤسف جدّا أن نجد التعاليم الإسلامية ومبادئ الأنبياء متروكة أو شبه متروكة في كثير من المجتمعات الإسلامية"[6].

والسؤال الثاني: هو إنَّ الغرب قد وصلوا إلى الفضاء والتقدم العلمي لهم السبق في شتى مجالاته، فكيف تمكّنوا في الأرض مع وجود مظاهر الانحلال؟.

وتذهب الباحثة إلى أنَّ الجواب ليس بذي صعوبة؛ لأنَّ أحد مصاديق الإيمان هو العمل، فلا تمكين بدون عمل، وعمل جاد متقن، يرقى الناس فيه لأن يؤسسوا حضارة، يتوازن فيها إتقان العمل مع القدرة والسيطرة في التمكين هذا من جهة، ومن جهة أخرى إنَّ هذا التمكّين قد لا يستمر إلى الابد.

٥ـ بقاء شريعة الإسلام وديمومتها:

التوازن سبب بقاء شريعة الإسلام، بأن تكون صالحةً لكلّ زمانٍ ومكانٍ إلى قيام الساعة، فقد دعت الإنسان إلى التوازن في علاقته مع ربّه ومع الناس ومع كافّة المخلوقات من حوله، سواء في العقيدة أو العبادة أو المعاملة، والتوازن تارة يكون في تّنوع العبادات الممارسة من المكلف، فذلك كفيلٌ بتحقيق التيسير على النفس وإبعاد الملل عنها، والتقرّب إلى الله سبحانه تعالى التي يجد فيها المسلم أنَّ الله هيّأه لها وسهّلها عليه، وأخرى يكون التوازن في تشريع الأحكام الاولية الثابتة على كل مكلف، والأحكام الثانوية التي تحل محل الأولية، وهذا من يُسْر الشريعة في رفع الحرج وعدم التكليف دون الوسع والطاقة سبب قوي في بقاء الشريعة في مراعاة القدرات والقابليات للمكلفين، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي**

---

(1) سورة البقرة : الآية ١٤٣.
(2) سورة التغابن : الآية ١١.
(3) سورة الفتح : الآية ٤.
(4) سورة الاعراف : الآية ٩٦.
(5) سورة الانفال : الآية ٢٩.
(6) الشيرازي ، الامثل ، ٥/ ١٢٩.

الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1]، وقوله تعالى: **﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾**[2]، وقوله تعالى: **﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾**[3]، وقوله سبحانه:**﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾**[4].

٦ـ سعادة الإنسان:

سعادة الإنسان عبْر التوازن في شخصيته ومراعاة الاهتمام بكافّة جوانب الحياة ومناحيها على حدّ سواء، شرط ألّا يستحوذ أحد الجوانب على الاهتمام الزائد فيكون ذلك سبباً في إهمال الجوانب الأخرى والغفلة عنها، ويُحقق للإنسان سعادته، ويُجنّبه الاضطراب والخلل الناشئ من التعامل بإفراط في أحد الجوانب الذي يؤدي إلى التفريط في جانبٍ آخركما في قوله تعالى:**﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾**[5]؛ لأن التبذير يُمثّل نوعا من صرف المال بطريقة غير متوازنة في الكم والنوع، وكذلك الإفراط في حبّ الدنيا وزينتها يؤدّي إلى التفريط في الآخرة، والإفراط في العمل أو العبادة يؤدي إلى ضياع حقوق الوالدين والزوجة والأولاد، ومنها التوازن بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح بما يوافق الفطرة السليمة ويحقق للإنسان استمرار حياته العملية والشخصية.

٧ـ حفظ فضائل الإنسان:

التوازن يضبط فضائل الإنسان ويقوّمها ويحفظها من التحول إلى رذائل، فيكون الإنسان كريماً من دون تبذير، شجاعاً من دون تهور، جريئاً من دون قلة أدب، حذراً من دون خوف وجبن، متوكلاً على الله من دون تردد، متواضعاً في المعاملة كما في قوله تعالى: **﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**، وقوله تعالى: **(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾**[6].

٨ـ حفظ الحقوق:

إنَّ التوازن هو الخط الفاصل بين جانبي الإفراط والتفريط، وهو شامل لكل جوانب الحياة؛ توازن بين الحقوق والواجبات الفردية والعامة، كالتوازن في حفظ حق الحياة في قوله: **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾**[7]، والتوازن في حقوق الوالدين في قوله تعالى: **﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾**[8]، وفي حفظ حقوق الأبناء كما في قوله تعالى: **﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾**[9]، وحفظ التوازن بين الروح والبدن، وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة، فيكون

---

(1) سورة الحج : الآية ٧٨.
(2) سورة البقرة : الآية ١٨٥.
(3) سورة المائدة : الآية ٦.
(4) سورة البقرة : الآية ٢٨٦.
(5) سورة الاسراء : الآية ٢٩.
(6) سورة الاسراء : الآية ٣٧.
(7) سورة البقرة : الآية ١٧٩.
(8) سورة النساء: الآية ٣٦.
(9) سورة النساء: الآية ١١.

محباً للآخرة من دون نسيان للدنيا والاستمتاع بزينتها ،كما في قوله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّـهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾[1].

وبين العلم والعمل، وبين مصالحنا ومصالح الآخرين، وفي التوازن في طلب المال، وفي تقييم الأشخاص في النظر إلى الأمور، وغيرها من التوازنات الحافظة للحقوق.

٩- الحفاظ على البيئة من اختلال التوازن:

حرص القرآن على البناء والنمو والازدهار، وأكّد على أهمية البيئة والعمل على الحفاظ عليها وصيانتها، والحفاظ على توازنها لبقائها مناسبة لحياة الإنسان عبر الآيات التي تتضمن أن الخلل البيئي من فعل الانسان كما في قوله تعالى:﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[2]، وقيل إنَّ الآية " بظاهر لفظها عامة لا تختص بزمان دون زمان أو بمكان أو بواقعة خاصة، فالمراد بالبر والبحر معناهما المعروف ويستوعبان سطح الكرة الأرضية، والمراد بالفساد الظاهر المصائب والبلايا الظاهرة فيهما الشاملة لمنطقة من مناطق الأرض من الزلازل وقطع الأمطار والسنين والأمراض السارية والحروب والغارات وارتفاع الأمن وبالجملة كل ما يفسد النظام الصالح الجاري في العالم الأرضي سواء كان مستندا إلى اختيار الناس أو غير مستنداً إليه، فكل ذلك فساد ظاهر في البر أو البحر مخل بطيب العيش"[3]، وهذا تأكيد لدور الانسان بأنشطته وفعاليته المختلفة في اختلال التوازن، ولكن المحافظة على الأرض من اختلال توازنها من الفساد لا يستمر بوجود من يحافظ على ديمومتها وتوازنها كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[4]، فالله سبحانه وتعالى رحيم بالعباد؛ لذلك يمنع من تشرّي الفساد وسرايته إلى المجتمع البشري قاطبة، ومع أنّ سنّة الله تعالى في هذه الدنيا تقوم على أصل الحرية والاختيار والإرادة، وأنّ الإنسان حُرٌّ في اختيار طريقي الخير أو الشر، ولكن عندما يتعرّض العالم إلى الفساد والاندثار بسبب طغيان الظالم والطواغيت، فإنَ الله تعالى يبعث من عباده المخلصين من يقف أمام هذا الطغيان ويكسر شوكة ظلمهم وجبروتهم، وهذه من ألطاف الله تعالى على عباده[5].

وشبيه هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ** ﴾[6]، إن حركة الصراع والتجاذب بين الناس، تكفل للواقع التوازن الدائم بين قواه وتحفظ للحياة استقرارها وامتدادها وحيويتها، حيث لا تعود السيطرة على الناس وقهرهم مقتصرة على قوة واحدة دون غيرها، وبذلك يقي ميزان القوى الذي يرتفع في موقع، وينخفض في آخر من وقوع ذلك، أو يمنعه بأسلوب مباشر، من هنا كانت

---

(1) سورة القصص : الآية ٧٧.
(2) سورة الروم : الآية ٤١.
(3) الطباطبائي ، الميزان ، ١٩٥/١٦.
(4) سورة البقرة : الآية ٢٥١.
(5) ينظر: الشيرازي، الامثل ، ٢/ ٢٢٩.
(6) سورة الحج : الآية ٤٠

إرادة الله سبحانه تقتضي عدم حصر القوّة في قطب واحد في الحياة، بل وزعها سبحانه على الناس جميعا، ليدفع بعضهم عن بعضهم الآخر، في ما يهيّئه من وسائل واقعية تخدم ذلك، فقد أودع في الإنسان الكثير من الحوافز الغرائزية التي تتحفز لمواجهة أي خطر من الآخرين يهدد الذات، بتعطيل أو إرباك أي مرفق من مرافق حياتها، أو بالتأثير على أيّة مصلحة من مصالحها، لتستمر الحياة الاجتماعية للناس في نظام دفاعي ذاتيّ متوازن[1].

وهذه الآيات في الحقيقة بشارة للمؤمنين الّذين يقفون في مواجهة الطّواغيت والجبابرة فينتظرون نصرة الله جل وعلا لهم، وهذا ما يريد القرآن الكريم أن يوحيه لنا، فهو لا يمثّل مزاجا للتحكم وللسيطرة الظالمة، وإنّما يمثّل دفع سيطرة الشر على الخير، والحق على الباطل، والعدل على الظلم والطغيان والجبروت، وتقود الإنسان إلى ما يبني حياة متوازنة يقوم بإصلاحها ويرفع مستواها في جميع مجالاتها في المجتمع من خلال توازن القوى وتكافؤ الفرص، وتساوي المواقع.

١٠ـ وسيلة لدحض شبهات الملحدين والمشركين:

إنَّ مظاهر التوازن متجلية في نظامه الكوني من نظام متناسق، وتدبير وعظمة متناهية، لا يجعل للقائلين والمشككين مجالاً لتمرير افتراءاتهم؛ لأنَّ الصدفة التي يقولون فيها لا تتفق مع نظام بالغ الإتقان والتعقيد، كالنظام الكوني، ومتناه في التنظيم والتوازن، ولو تفكَّروا في مراحل خلقهم التي مرّوا بها حتى اكتمل النمو فيهم، لذهب اعتقادهم أدراج الرياح، كما في قوله تعالى: **﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾**[2].

وأخيراً حينما يكون الحديث عن قانون التوازن في القرآن الكريم، فإنّه التوازن المطلق، ولا يمنع أن يكون فهم الباحثين والدارسين وتعليلاتهم له نسبياً، لأن الفهم والتعليل من قدرات البشر، أما القرآن الكريم فكلام العليم الحكيم ﷻ [3].

وعليه فلا شك إنَّ توازن القرآن الكريم يُعد قانوناً وهذا لا جدال فيه، لأنّه كلام رب العالمين، أما مستوياته ومظاهر علاماته في آيات الله سبحانه وتعالى فهي محل نظر واجتهاد الباحثين، لأنّها متجددة ولا يحصيها عاد، ولا يحويها جمع باحث، غاية ما في القدرة هو استحضار بعضها، واستنطاق النص في استجلاء مظاهرها ومحاسنها والله العالم.

---

(1) ينظر: فضل الله، من وحي القرآن، ٨٣/١٦.
(2) سورة الروم : الآية ٨.
(3) ينظر: الزقيلي ، التوازن القرآني في الالفاظ والتراكيب والاسلوب ، ٢٤.

الفصل الاول : قانون التوازن في النظم القرآني

المبحث الاول : قانون التوازن في المفردة القرآنية

المبحث الثاني : قانون التوازن في الحذف والذكر

المبحث الثالث : التوازن في المتقابلات

المبحث الرابع : التوازن في السورة الواحدة

المبحث الخامس : التوازن في القصة القرآنية

المبحث السادس : التوازن في الفاصلة القرآنية

الفصل الاول: قانون التوازن في النظم القرآني

تمهيد : معالم التوازن اللغوي في القرآن الكريم:

بهر القرآن الكريم العرب عن طريق جمال أسلوبه، وبلاغته القائمة على التوازن، وهندسة القرآن التي اتفقت بالشكل والمضمون؛ فالتوازن أساس من أسس جمال التعبير اللغوي، وإذا وقع موقعه اللازم في الكلام زاد من جمال التعبير وبلاغته، "وللغة قدرة تعبيرية بالصورة والحركة؛ من خلال تصويرية الاسم وحركية الفعل وعليهما تنعكس جوانب من جماليات النص القرآني "[١]، وبما إنَّ اللغة هي القوالب التي تؤدي المعاني، فقد قام القرآن الكريم على التوازن في مستوياته اللغوية؛ الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، والأهداف القرآنية، ولا أعرف لِمَ لمْ يأخذْ حيزه من البحث بعنوان التوازن؟ فقد تجسدت صوره في المفردة القرآنية بإيقاعها الصوتي من جرس لألفاظها، وإيحاءات لمعانيها ضمن سياقاتها الواردة فيها، مراعية في ذلك الإيقاع واللفظ والمعنى والهدف الأسمى لها، وفي الأساليب البلاغية من حذف وذكر، وتشابه واختلاف، ومحسنات بديعية في أغلب أنواعها، ووجدت أنَّ تحديد مصطلح التوازن في محسن بديعي لفظي وهو الموازنة" أنَّ تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن وهي احد أنواع السجع"[٢] وليس هذا مورد البحث من التوازن، وإن كانت إحدى صغرياته الواردة فيه كما سيأتي بيانه.

ولقد كان لابن جني (ت ٣٩٢هـ) وقفة مع اللغة فقد عدّها "أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم "[٣]، ويقول ابن سنان الخفاجي(ت ٤٦٦هـ) عن واضع اللغة: " إنَّ الواضع لها إن كانت مواضعة تجنب في الأكثر كل ما يثقل على الناطق تكلفه والتلفظ به، كالجمع بين الحروف المتقاربة المخارج، وما أشبه ذلك، واعتمد مثل هذا في الحركات أيضاً، فلم يأت إلا بالسهل الممكن، دون الوعر المتعب، ومتى تأملت الألفاظ المهملة لم تجد العلة في إهمالها إلا هذا المعنى"[٤]، إنَّ الإعجاز في القرآن إعجاز لغوي تعدد في المستويات وعبّر عنها ذلك النظام اللغوي الذي استطاع أن يوصل رسالة السماء، " أي إنَّ القرآن الكريم طوَّع اللغة بكل ما في كلمة اللغة من أصوات وصيغ وتراكيب ودلالات وقواعد وأحكام؛ القرآن الكريم أظهر طاقات اللغة العربية الكبيرة وخصائصها العديدة، وقدرتها الواسعة في بيان المعاني والأفكار والعواطف والمشاعر والمواقف الإنسانية "[٥].

([١]) صالح ، حكمت ، جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم ، ط١ ، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، الكويت ، ١٤٣١هـ ، ١٥.

([٢]) عكاوي ، انعام فوال ، المعجم المفصل في علوم البديع والبيان والمعاني ، مراجعة احمد شمس الدين ، ط٢،دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٤١٧هـ ، ٦٦١.

([٣]) ابن جني ، ابي الفتح عثمان (ت٣٩٢هـ) ، الخصائص ، تح محمد علي النجار، (د ط)، دار الكتب المصرية ، المكتبة العلمية ، ١٣٧١هـ ، ٣٣/١.

([٤]) الخفاجي،عبد الله بن سعيد بن سنان (ت٤٦٦هـ) ،سر الفصاحة، تح داود غطاشة الشوابكة، ط١ ،دار الفكر، ١٤٢٧هـ،٤٥.

([٥]) ابو عودة ، عودة خليل ، شواهد في الاعجاز القرآني ، ط١ ، دار عمار للنشر ، عمان ، ١٤١٩هـ ، ٤١.

وعليه فالقرآن الكريم حيٌّ متكامل، فيه من روح الله كما في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[1]، والتوازن سمة أساسية فيه من حيث وضع كل حرف وكل كلمة وكل آية في مكانها، لتؤدي دورها، لا تتقدم ولا تتأخر ولا تتغير، فالكلمة في مكانها ملتحمة مع سياقها حتى تغدو جزءاً لا ينفصل عنه.

ومن أجل الوقوف تفصيلا على قانون التوزان في النظم القرآني، فإنه ينبغي التعرض للمباحث الآتية:

المبحث الأول: قانون التوازن في المفردة القرآنية:

إنَّ خفة الكلمة لا تكون إلاّ من طريقة ترتيب الحروف، وهذا قائم على التوازن بين أصوات الحروف، فكلما تباعدت مخارج الحروف عند النطق بمقدار محدَّد لا إفراط فيه خفت الكلمة عند النطق بها واستساغ المتلقي سماعها، وبالعكس، فعند تقارب مخارج الحروف للكلمة الواحدة ثقلت في النطق واستهجنتها الأسماع، وقد جعل علماء اللغة هذا معيارا لفصاحة الكلمة وجمال وقعها وحسنه على السمع، ويعطي ابن سنان(ت ٤٦٦هـ) سبباً لذلك السر في اختيار المفردة من حروف متباعدة فيقول: "أنَّ يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج، وعلة هذا واضحة، وهي أن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في النظر أحسن من الألوان المتقاربة"[2]، ويشير إلى التوسط للمفردة فيقول: "إنَّ اللفظة المفردة يظهر فيها التلاؤم ظهوراً بيّناً بقلة عدد حروفها واعتبار المخارج إذا كانت متباعدة كان تأليفها متلائماً، وإن تقاربت كان متنافراً، ويلتمس ذلك بما يذهب إليه من اعتبار التوسط دون البعد الشديد والقرب المفرط "[3]، وعليه فإنَّ ترتيب حروف اللفظة للمفردة القرآنية يقوم على التوازن ويشير إليه بقوله: (اعتبار التوسط) فلا هو بالبعد الشديد ولا هو بالقرب المفرط، وهذا ليس توسطا؛ لأنّه لا يمكن تحديد القول (دون البعد الشديد والقرب المفرط) بالمنتصف عند القول بالتوسط، وقد أشارت الباحثة في تعريف التوازن إلى أنَّ كل ما هو توسط؛ توازن وليس كل توازن هو توسط مع عدم إطلاقه في جميع الحالات.

يقول الرماني (ت ٣٨٤هـ) في رسالته متحدثاً عن تلاؤم الحروف وتنافرها: "التلاؤم نقيض التنافر، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما، وأمّا التنافر فالسبب ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد؛ وذلك إنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزل مشي المقيد؛ لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه وكلاهما صعب على اللسان والسهولة من ذلك في الاعتدال"[4] وهذه

---

(1) سورة الشورى : الآية ٥٢.
(2) ابن سنان الخفاجي ، سر الفصاحة ، ٥٨.
(3) المصدر نفسه ، ٩٥.
(4) الرماني ، ابو الحسن علي بن عيسى (ت ٣٨٤هـ)، النكت في اعجاز القرآن ، تصحيح عبد العليم ، مكتبة الجامعة الملية الاسلامية ، دلهي، (د ت)، ١٨ ، ينظر: ابن سنان الخفاجي ، سر الفصاحة ، ٩٥ وينظر: ثلاث رسائل في اعجاز

الإشارة إلى (الاعتدال) والذي يعرف في اللغة بالمساواة والاستقامة والاستواء[١]، وتذهب الباحثة إلى أنّه توازن، ولكن لعدم تداول هذا المصطلح عند القدماء يُستَّعاض عنه تارة بالاعتدال وتارة أخرى بالتوسط، وإنَّ الاعتدال هو توازن في بعض إطلاقته وليس العكس، وهذا نص صريح إن اللغة العربية قائمة على التوازن وفق قواعد ثابتة تجعل الكلام يصل إلى درجة من التوازن في اللغة، وهذا هو حال كلام البشر العاديين، فما بالنا بكلام رب العزة، ومن أجل بيان تمام المبحث سيتناول المطالب الآتية:

المطلب الأول: التوازن بين المعنى وصفات الحروف الصوتية في المفردة القرآنية:

إنَّ المفردة القرآنية هي مجموعة صوتية، تدل على معنى وهذه المجموعة هي وحدة كلامية تقوم مقام الجزء من الكل في الجملة، فلا يُغني أحدهما عن الآخر[٢]، والصوت اللغوي هو الصورة الحية للغة واللغة التي لا تُنطق لغة ميتة[٣]، وهذه الصورة هي: "جمال حسي سمعي يبين جوانب موسيقية المفردة من حيث وقع حروفها وصفات هذه الحروف وملاءمتها للمقام"[٤]، وقد "عُدَّ ابن جني (ت ٣٩٢هـ) مؤسساً للعلاقة التي تربط الإيقاع الموسيقي والنغم الصوتي والتمازج بين اللغة والصوت فتخالهما كيانا واحدا متماسكا يشد بعضه بعضا"[٥].

ومن هنا إنَّ" للغة إمكانيات إضافية رديفة تسهل عمليات الاتصال بالآخرين لاسيّما من حيث التلوينات الصوتية المعبّرة عن المعاني أو المفسرة أو المصورة لها؛ فضلا عن أنَّ هناك تعزيزا للتعبير الصوتي بالحركات والنبرات ودرجات الصوت وإيقاعه، وتُعدّ هذه الاعتبارات التعبيرية عوامل مساعدة، وأحيانا رئيسة حين تتسم الكلمة أو العبارة بتعددية الدلالة؛ وهو ما يصوَّر الأفكار والهواجس النفسية بدقة أوضح"[٦]

ومن الأمثلة قوله تعالى:﴿ **فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ**﴾[٧]، "والكبكبة: تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنّه إذا أُلقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقرّ في قعرها"[٨]، أي وقع بعضهم فيها فوق بعض[٩]، ويصوّرها سيد قطب(ت١٣٨٦هـ) فيقول: "وإنك لتسمع من جرس اللفظ صوت دفعهم وسقوطهم بلا انتظام

القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ، تح محمد خلف الله احمد ، محمد زغلول سلام ، ط٣ ، دار المعارف بمصر،(د ت) ، ٩٦-٩٧.

(١) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ٤٣٦/١١، وينظر: الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ٥٥٢.

(٢) ينظر : ياسوف ، جماليات المفردة القرآنية ،٢٠.

(٣) ينظر: داود ، محمد محمد ، العربية وعلم اللغة الحديث ، دار غريب للطباعة والنشر، ١٤٢٢هـ ، ٤٥.

(٤) ياسوف ، احمد ، جماليات المفردة القرآنية ،٢٠.

(٥) الصغير، محمد حسين ، الصوت اللغوي في القرآن ،ط١، دار المؤرخ العربي ، بيروت –لبنان، ١٤٢٠هـ ،١٦-١٧.

(٦) صالح ، حكمت ، جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم ، ١٥.

(٧) سورة الشعراء : الآية ٩٤.

(٨) الزمخشري ،الكشاف ، ٧٦٤.

(٩) ينظر: حسان ، تمام ، البيان في روائع القرآن ، ط١ ، منشورات عالم الكتب ، القاهرة ، ١٤١٣هـ ، ٢٨٧.

كما ينهار الجرف فتتبعه الحروف فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه "[1]، فإنَّ الحدث مناسب للجرم وهو ضرب من التوازن بين العمل والجزاء.

ومنه قوله: ﴿**مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ**﴾[2]، مادة ذبذب تدل على الحركة والاضطراب، وحكاية صوت الحركة للشيء المعلّق، والمهتز المعلق الذي لا يثبت ولا يتمهّل، وهذا يدل على عدم حصول اليقين عندهم، وفقدان الثقة في نفوسهم، وهذه من صفات المنافقين وهي التردّد في الايمان والكفر[3].

إنَّ دقة التوازن التي اعتمدها القرآن في الكلمة كانت من واقع الحياة وقادرة على التأثير؛ لأنها تتماشى مع كل عصر، فيصعب استبدال لفظة أخرى مكانها، فالمنافقون لم يستقروا على حال - الإيمان والكفر- فلا هم مؤمنين حقيقة، ولا هم كافرين، وهذا ما بيَّنه القرآن من حالتهم النفسية المترددة والمشككة فهم يميلون مع كل ريح، ويبتغون النفع والربح في ميلانهم.

وفي قوله تعالى:﴿**هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا** ﴾[4]، وقيل: ﴿**وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً**﴾، معناه وحُرّكوا بهذا الامتحان تحريكا عظيماً، فالزلزال الاضطراب العظيم، وقيل: إنّه مضاعف زل، وزلزله غيره، والشدة قوة تدرك بالحاسة؛ لأنَّ القوة هي القدرة الّتي لا تدرك بالحاسة، وإنما تُعْلَم بالدلالة، فلذلك يوصف تعالى بأنه قوي، ولا يوصف بأنه شديد[5]، والزلزلة كذلك هي: شدة الحركة وتكرير حروف لفظه تنبيه على تكرر معنى الزلل[6]، وإنَّ سبب نزول الآية هو:" وصف الله تعالى الأمر يوم الخندق وخوف وخوف الناس وإن القلوب بلغت الحناجر من الرعب "[7]، وجاءت لفظة الزلزلة متوازنة مع مع الحدث والاضطراب الشديد الذي حدث للمؤمنين في واقعة الخندق، وتعرضهم للابتلاء في قوله: ﴿**ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ**﴾، أي اختبارهم وإظهار ما في نفوسهم من نية خير وصبر على ما أمر الله به من جهاد الأعداء.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**﴾[8]، ونرى ما يوحيه التفخيم من الإحساس بالمبالغة في الحدث فشدة ارتفاع الصوت "والاصطراخ افتعال من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدة دخلت الطاء فيه للمبالغة واستعمل في الاستغاثة"[9]، وشدة ارتفاع أصوات أهل النار بالصراخ ومشاركتهم جميعا فيه فيه وتكرار الصراخ بالفعل المجرد ﴿**يَصْطَرِخُونَ**﴾ لايكفي أن يعّبر عنه؛ لذلك جاءت الطاء

---

(1) الشاذلي، سيد قطب (ت١٣٨٦هـ) ،مشاهد القيامة في القرآن ، ط١٦،دار الشروق، ١٤٢٧هـ ، ١٣٣-١٣٤.
(2) سورة النساء : الآية ١٤٣.
(3) ينظر: السبزواري ، مواهب الرحمن، ١٠/ ٥١ – ٥٢.
(4) سورة الاحزاب : الآية ١١.
(5) ينظر :الطوسي ، التبيان ،٨/ ٣٢٢.
(6) ينظر: البروسوي ،اسماعيل حقي (ت١١٢٧هـ) ، تفسير روح البيان ، ط١، دار الفكر، لبنان- بيروت، (د ت)،١٤٩/٧. ت)،١٤٩/٧.
(7) الطوسي ، التبيان في تفسير القرآن ،٣٢١/٨.
(8) سورة فاطر : الآية ٣٧.
(9) البروسوي ، روح البيان ،٣٥٥/٧

فيكون في تفخيمها قوة المبالغة في الفعل[١]، وهذا الصراخ منكراً خارجاً عن الحد المعتاد؛ لأنّه مقيد[٢] وهذا التقييد خاص بأهل النار دون غيرهم.

وبهذا نجد التوازن جليّاً " في النص القرآني من استعمال حكاية الصوت للوصول إلى أغراض إيحائية بالمعاني الطبيعية التي تضيف إلى المعاني العرفية أبعاداً إضافية ما كان لها ان تتحقق لولا تحمله حكاية الصوت من طاقة إيحائية "[٣] وهذه المعاني الإضافية في حقيقتها حقيقتها ما هي إلا توازن لاستقامة المعنى.

المطلب الثاني: التوازن بين معنى المفردة القرآنية والحدث الصوتي:

الحدث الصوتي يُراد منه حكاية الصوت للمعنى، ولم يغفل عنه القدماء فقيل فيه:" أما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سَمْتِ الأحداث المعبَّر بها عنها، فيعدلونها بها ويحتذون عليها، وهذا أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره"[٤]، وإنَّ هذه الدلالة الصوتية بجرس ألفاظها لها أحداث في معانيها ضمن سياقاتها الواردة فيها، ونراها في ظاهرة التضعيف، فقوة اللفظ في نقل صيغته يزيد في قوة معناه[٥].

وإنَّ إبداع القرآن في ما تعطيه من طاقة للحدث الصوتي في ألفاظ لم تكن من قبل، أو تحويل ألفاظ عن معانيها التي كانت لها إلى معان أخرى، لتحدث توازنا مع الحدث، وهذه الطاقات هي أحداث واقعية لألفاظ لم تكن متداولة أو معروفة عند العرب يتجلى فيها التوازن بين المعنى والحدث القائم في اللفظة، ومن أمثلتها قوله تعالى:﴿**عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا**﴾[٦] أي شراب سلسل وسلسال وسلسبيل سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه، ولم يسمع في كلام العرب كلمة السلسبيل إلا في القرآن، وسميت سلسبيلا لسلاسة انحدارها وذلك لبساطتها وصرافتها، وتسيل عليهم في الطرق، وفي منازلهم من جنة عدن إلى أهل الجنان[٧]، ولفظ السلسبيل مأخوذ من مادة (سلاسة) من السيلان كأنَّ يقال للكلام الجذاب والممتع (سلس)، وقيل مأخوذ من مادة (تسلسل): وهي الحركة المستمرة التي يتدعى منها السيولة والاتصال، وبهذا فان المعنيين متقاربان، والباء زائدة في الصورتين[٨].

وقوله تعالى:﴿ **قَالَتِ امْرَأَت الْعَزِيزِ الْئَنَ حَصحَص الْحَقّ**﴾[٩] مفردة حصص وردت في موضع قرآني متفرد في سورة يوسف " فيكون معناه انقطع الحق عن الباطل بظهوره

---

(١) ينظر: حسان ، تمام ، البيان في روائع القرآن ، ٢٨٨، وينظر : داود ، العربية وعلم اللغة الحديث ، ٣١.
(٢) ينظر العقيدي، رضا هادي حسون، العموم الصرفي في القرآن الكريم ، ط٢، المركز التقني، بغداد ، ١٤٣٤هـ ، ٥٤.
(٣) تمام ، حسان ، البيان في روائع القرآن ، ٢٩٣.
(٤) ابن جني ، الخصائص ، ١٥٧/٢.
(٥) ينظر: عبد القادر ، فراس عبد العزيز ، علاقة الصوت بالمعنى في صيغة الفعل الرباعي المضاعف ، مجلة ادب الرافدين، العدد ٤٨ ،١٤٢٨هـ .
(٦) سورة الانسان : الآية ١٨.
(٧) ينظر: الطبرسي، مجمع البيان، ١٠/ ٦٢٢، وينظر :الالوسي، محمود شهاب الدين (ت ١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تح علي عبد الباري عطيه،ط١،دار الكتب العلمية بيروت،١٤١٥هـ ، ١٧٧/١٥.
(٨) ينظر :الشيرازي ، الامثل ، ٢٦٧/١٩.
(٩) سورة يوسف : الآية ٥١ .

وبيانه ومثله كبوا وكبكبوا وكف الدمع وكفكفه"[1]، وقيل: في "وحصحص الحق أي وضح وذلك بانكشاف ما يظهره، وحص وحصحص نحو كف وكفكف وكب وكبكب، وحصة قطع منه إما بالمباشرة وإما بالحكم والحصة القطعة من الجملة "[2].

ومن أمثلة الحدث الصوتي وتوازنه مع المعنى قوله تعالى:﴿**إلا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا** ﴾[3]، وقيل في معنى "الغسّاق هو: ما يقطر من جلود أهل النّار من الصديد والقيح، وفسّرها بعضهم بالسوائل ذات الروائح الكريهة"[4]، وإنَّ مادة (غسق) في القرآن: منها الغسق، والغاسق، والغسَّاق، توحي أنَّ القسط المشترك بين هذه المشتقات: الدلالة على أمور كريهة؛ فالغسق الظلمة، والغاسق: الليل الشديد الظلمة، والغسّاق: شيء كريه لا يشرب وفسّروه بالصديد، وتستفاد هذه الدلالة لغوياً من إيحاء الغين والقاف هنا[5]، وعليه فإنَّ "التنوع الصوتي في حروف اللغة العربية خاصية مهمة من الخصائص الإيقاعية للغة العربية، وقد تميّزت بهذا التنوع لسعة مدرجها الصوتي وتوزعها توزيعا عادلا يؤدي إلى التوازن، والانسجام بين الأصوات"[6].

يتضح مما تقدم أنَّ ثمة علاقة بين أصوات الألفاظ والدلالة المعنوية، وهذه العلاقة تقوم على التوازن الدقيق بين صوت اللفظ ودلالته، لأنَّ طريقة إخراج اللفظ يسير على وفاق تام وتطابق بين الصوت والدلالة، ولذلك فاللفظ يتخذ طرق عدة لتأدية تلك الدلالة المقصودة بعينها، إما بزيادة حروف على مبناها، وإما بتضعيفها، وإما باستعمال أصوات الحروف.

المطلب الثالث: التوازن في دقة اختيار المفردة القرآنية:

إن المفردة القرآنية وإنْ بدتْ للوهلة الاولى أنها قضية لغوية إلاّ أنَّ لها عظيم الأثر في تفسير النصوص القرآنية وفهم معانيها، ويتأنق الأسلوب القرآني في اختيار مفرداته القرآنية، وإن لهذه المفردات فروقاً دقيقة في دلالتها، تُستعمل لتؤدي معناها في دقة فائقة، "كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وإن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفّت به أختها، فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء"[7].

وعُرفت المفردة على أنّها: " المجموعة الصوتية التي تدل على معنى وهي وحدة كلامية تقوم مقام الجزء من الكل في الجملة، وهي الجزء الاولي في بناء النظم والوحدة المكونة له فلا يغني أحدهما عن الآخر"[8].

---

(1) ينظر: الطبرسي ، مجمع البيان ،٣٦٧/٥

(2) الطباطبائي ،الميزان ، ١٩٥/١١

(3) سورة النبأ :الآية ٢٥.

(4) اسماعيل حقي، روح المعاني ، ٤٤٣/١٦، وينظر: النسفي ، ابو البركات محمد عبد الحق بن شاه الهندي الحنفي (١٣٣٣هـ)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، تح محي الدين اسامة البيرقدار ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٣٣هـ ، ٤٨٦/٧، وينظر : :الشيرازي ، مكارم ، الامثل ، ٣٢/١٥.

(5) ينظر :تمام ،حسان ، في روائع القرآن البيان ، ٢٩٤-٢٩٥ ، داود ، محمد ، العربية وعلم اللغة الحديث ، ٣٢.

(6) قيطون ، قويدر ، دور جرس اللفظة القرآنية في التناسق الفني في ايات البعث والحشر ، بحث في جامعة الوادي ، مجلة مجلة علوم اللغة العربية وآدابها ،المجلد ١١، ١٤٤٠هـ ، ٤٩.

(7) بدوي ، أحمد أحمد ، من بلاغة القرآن ، منشورات نهضة مصر ، ١٤٢٦هـ ، ٥١.

(8) ياسوف ، جماليات المفردة القرآنية ، ٢٠.

ولنتمعن في سياق الحديث عن ولادة نبي الله يحيى على لسان نبي الله زكريا عليه السلام في قوله تعالى:﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا**﴾[1]، وقوله تعالى على لسان السيدة مريم في السورة نفسها:﴿ **قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ** ﴾[2]، "فهل تلاحظ فرقاً بين القولين؟ إنَّ الفرق بينهما هو زيادة كلمة **(رب)** في قول سيدنا زكريا عليه السلام وعدم وجودها في كلام السيدة مريم، وتفسير ذلك هو " فبين جواب الملك إياها وبين جواب الله زكريا اختلاف في المعنى، والكلام في الموضعين على لسان المَلك من عند الله، ولكنه أسند في قصة زكريا إلى الله؛ لأنَّ كلام المَلك كان تبليغَ وحي عن الله جواباً من الله عن مناجاة زكريا، وأسند في هذه القصة إلى الملَك لأنّه جواب عن خطابها إياه، لاختلاف الحالين؛ لأنَّ حال زكريا حال راغب في حصول الولد، وحال مريم حال متشائم منه متبرئ من حصوله "[3]، وإنَّ سؤال نبي الله زكريا ربه كان مباشرة أن يرزقه بغلام وقد تكررت كلمة **(رب)** أربع مرات في دعاء زكريا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي** ﴾، وقوله:﴿ **وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا** ﴾ وإكمال الحوار ودعاء نبي الله زكريا في قوله: ﴿ **وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**﴾، وقوله: ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ**﴾، وهذا النداء المتكرر يا رب إني وهن العظم مني، يا رب عودتني استجابة دعائي، يا رب اجعل هذا الولي رضيا، يا رب كيف يكون هذا الولي غلاما وابناً لي وزوجتي عاقر وأنا شيخ كبير، إنَّ هذه المناجاة والحوار الجميل بين زكريا عليه السلام وربه اختلفت عن محاورة مريم عليها السلام؛ لأنّها كانت تحاور روح الله جبريل عليه السلام في قوله: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۞ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۞ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۞ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۞ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا** ﴾[4]، "لذلك لم تقل السيدة مريم في كلامها: ربِّ أنىّ أنىّ يكون لي غلام؛ لأنها لا تخاطب ربها في هذه اللحظة بل تخاطب شخصا أمامها ينقل إليها أمر ربها"[5]، وهكذا فإنَّ الدقة في اختيار موضع الكلمة من الآية القرآنية صنعت ورسمت لنا مشهدا كاملا وذلك بذكرها، أو بحذفها وهذا من بديع بيان الخالق جل وعلا.

ولنستمتع ونتذوق الدقة في موضع قرآني آخر وما أكثرها وأجملها في كتاب الله في قوله تعالى:﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**﴾[6]، لقد أفاض المفسّرون في شرح هذ الآية فقالوا :

---

(1) سورة مريم : الآية ٨.
(2) سورة مريم : الآية ٢٠.
(3) ابن عاشور،محمد بن الطاهر(ت ١٣٩٣هـ)،التحريروالتنوير،ط١،مؤسسة التاريخ ، بيروت ،(د ت) ،٢٣/١٦.
(4) سورة مريم : الآيات ١٦-٢٠.
(5) ابو عودة ، شواهد في الاعجاز القرآني ، ١٥٢.
(6) سورة الاسراء : الآية ٢٣.

١- كلمة **(قضاء)** لها مفهوم توكيدي أكثر مِن كلمة **(أمر)** وهي تعني القرار والأمر المحكم الذي لا نقاش فيه ، وهذا أوّل تأكيد في هذه القضية.
٢- التأكيد الثّاني الذي يدل على أهمية هذا القانون الإسلامي، فهو ربط التوحيد الذي يعّد أهم أصل إسلامي، مع الإحسان إلى الوالدين.
٣- التأكيدان الثالث والرابع فهما يتمثلان في معنى الإطلاق الذي تفيده كلمة **(إحسان)** والتي تشمل كل أنواع الإحسان، وكذلك معنى الإطلاق الذي تفيده كلمة **(والدين)**، إذ هي تشمل الأم والأب، سواء كانا مُسلِمَينْ أو كافِرَيْن.
٤- التأكيد الخامس فهو يتمثل بمجيء كلمة **(إحساناً)** نكرة لتأكيد أهميتها وعظمتها[١].
٥- أن تكون جملة **﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾** التي تتضمن **(النفي والإثبات)** جملة إيجابية واحدة، إذ تحصر العبادة بالله دون غيره ثمّ تنتقل إلى أحد مصاديق هذه العبادة متمثلا بالإحسان إلى الوالدين في قوله: **﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾** شرط أن يحتاجا إلى الرعاية والاهتمام الدائمين، فلا تبخل عليها بأي شكل من أشكال المحبة والرعاية[٢].

وتسعى الباحثة إلى بيان دقة الألفاظ؛ **(قضى) و(أحدهما) و (كلاهما)**، ووضع كل منهما في موضعه من الآية، فالقضاء أمر محكم من الله سبحانه وتعالى، وارتباطه بالتوحيد والإحسان للوالدين جاء متوازنا مع لفظتي، **(أحدهما) و(كلاهما)** والتي تعني: "الاهتمام بتخصيص كل حالة من أحوال الوالدين بالذكر، ولم يستغن بإحدى الحالتين عن الأخرى؛ لأنَّ لكل حالة بواعث على التفريط في واجب الإحسان إليهما، فقد تكون حالة اجتماعهما عند الابن تستوجب الاحتمال منهما لأجل مراعاة أحدهما، وقد تكون حالة انفراد أحد الأبوين عند الابن أخف كلفة عليه من حالة اجتماعهما، فالاحتياج إلى **(أو كلاهما)** في هذه الصورة للتحذير من اعتذار الابن لنفسه عن التقصير بأنَّ حالة اجتماع الأبوين أحرَج عليه ، فلأجل ذلك ذكرت الحالتان وأجري الحكم عليهما على السواء"[٣]، وفي التفاتة أخرى يعلم أنَّ معظم الناس سوف يرعى احد والديه فقط أمه أو اباه، ويعلم أنَّ قلة من الناس يراعى والديه كليهما ولو أن كل واحد منا تفكر في محيط أسرته لوجد أنَّ معظم العائلات في نطاق أقاربه ومعارفه فيها احد الوالدين حي يرزق والثاني انتقل إلى جوار ربه[٤] وهذا من اللطف الالهي لتيسير الأمر على الابناء في توفير رعاية واهتمام أكثر لأحد الأبوين.

من هنا يتضح لنا بجلاء أنَّ مفهوم التوازن حاضر في اختيار المفردة القرآنية واصطفائها، فلو أنّها استُبدلت بمفردة أخرى، لأحدثت خللاً في المعنى المطلوب ؛ فوجودها يؤدي دوراً كبيراً في تركيز التوازن المراد للمعاني القرآنية المتمخضة عن وجود هذه المفردات.

---

(١) ينظر: الشيرازي ، تفسير الامثل ، ٤٤١/٨.
(٢) ينظر: المصدر نفسه ، ٤٤٢/٨.
(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٥٥/١٦
(٤) ينظر: ابو عودة ، شواهد في الاعجاز القرآني ، ١٦٧-١٦٨.

المطلب الرابع: قانون التوازن في قوة اللفظ لقوة المعنى:

إن المفردة إذا كانت على " وزن من الأوزان ثم نقلت إلى وزن آخر أكثر منه، فلا بد من أن يتضمن من المعنى اكثر مما تضمنه الوزن الأول، لأن الالفاظ ادلة على المعاني، وامثلة للإبانة عنها، فاذا زيد في الألفاظ اوجبت القسمة زيادة المعنى"[١].

ومن أجل إيضاح ذلك يعرض البحث الأمثلة الآتية:

أولاً: لفظ (مقتدر) :

مما ينتظم بهذا القول قوله تعالى: ﴿ **فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ**﴾[٢]، قيل إنَّ الآية في بيان القوة الحقيقية وهي الله سبحانه وتعالى؛ ولأنَّ فرعون كان يتباهى بقوته وسطوته وجبروته وادّعائه الألوهية[٣]، وقوله :﴿**أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ**﴾: أخذ من لا يغالب ولا يعجزه شيء، ونفي العجز منه[٤]، وكلمة (**مُقْتَدِرٍ**) هاهنا ابلغ من (**قادر**)؛ لأنّها ذات دلالتين، الاولى دلالة التفخيم للأمر، وشدة الأخذ الذي لا يصدر إلا عن قوة الغضب، ودلالة بسطة القدرة فإنَّ المقتدر أبلغ في البسطة من القادر[٥]، والألفاظ القرآنية دقيقة في وضعها فلم يقل: (**أخذ عزيز قادر**)؛ لأنَّ (**القادر**) هو: المتمكن من الفعل بلا واسطة ولا يعجزه شيء، أما (**المقتدر**) فهو: مبالغة في القدرة أكثر من قادر، فهو المتناهي في الاقتدار، المتحكم في جميع الآثار، وهو دال على المبالغة[٦]، وهذا النوع لا يُستعمل إلا في مقام المبالغة وفي معنى الفعلية كاسم الفاعل وأسم المفعول وكالفعل نفسه[٧].

إنَّ الألفاظ القرآنية في الآية، متوازنة مع الحدث الشديد لإغراق فرعون وجنوده، فاستعملت (**المقتدر**): هو الله صاحب القدرة العظيمة، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ومعانيها أقوى وأكثر من (**قادر**)، حتى يتوازن مع ما كان عليه فرعون من ظلم وبطش وجبروت، لأنَّ فرعون كان قادرا أيضا بحدود الظلم البطش الذي كان يمارسه على الناس.

ثانياً: لفظ (التوَّاب) و(المتطهر):

قوله تعالى:﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾[٨]، وجملة" إنَّ الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، مطلقة غير مقيدة فتشمل جميع مراتب التوبة والطهارة، ولا يبعد استفادة المبالغة من قوله تعالى: (**الْمُتَطَهِّرِينَ**)، كما جيء بصيغة المبالغة في قوله: (**التوَّابين**)، فينتج استفادة الكثرة في التوبة و الطهارة من حيث النوع ومن حيث العدد جميعا، وإنَّ الله يحب جميع أنواع التوبة سواء كانت بالاستغفار، أو بامتثال كل أمر ونهي من

---

(١) ابن الأثير،نصرالله بن محمدبن عبد الكريم الشيباني(ت٦٣٧هـ)المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،٢٤١/١.
(٢) سورة القمر : الآية ٤٢.
(٣) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ٣٤١/١٧.
(٤) ينظر: الطبرسي ، مجمع البيان ، ٢٩٢/٩.
(٥) ينظر: ابن الاثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٢٤١/١.
(٦) ينظر: عمر ، احمد مختار ،اسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدلالة ،(د ت) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة مكتبة الاسرة ، ١٤١٧هـ ، ٨٦.
(٧) ينظر: ابن الاثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ،١/ ٢٤٢.
(٨) سورة البقرة : الآية ٢٢٢.

تكاليفه، أو باتخاذ كل اعتقاد من الاعتقادات الحقة، ويحب جميع أنواع التطهر سواء كان بالاغتسال أو الوضوء أو الغسل أو التطهر بالأعمال الصالحة أو العلوم الحقة، ويحب تكرار التوبة وتكرار التطهر"[١]، وهذا التكرار من أي مرتبة كانت من الأمور المطلوبة للإنسان، وصاحبها محبوب عند الله، وكل مرتبة من مراتب الطهارة هي تمهيد لظهور بركة من بركات الله وفقدانها يتبعه الحرمان من محبة الله سبحانه وتعالى[٢]، فالتوّاب هو الذي تتكرر منه التوبة مرة بعد مرة أي مرارا كثيرة وهو (**فعّال)** وذلك أبلغ من التائب الذي هو **(فاعل)**، أي صدرت منه التوبة مرة واحدة[٣].

أمّا **(التواب)** فهي صيغة مبالغة من **(تاب)** بمعنى رجع، إنّ منشأ ظهور واطلاق صيغة المبالغة أحيانا يكون بالكمّيّة وكثرة مادة، وأحيانا كيفيّتها، ومن هنا فإنَّ كلمة **(توّاب)** تقال للشخص الذي يتوب من أي ذنب أو بعد كل ذنب، وتُستعمل للعبد و للرب أيضا كما في قوله: **﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾**، ولقد مزج القرآن الكريم معارفه العقلية مع الموعظة والنصيحة التي تفتقد إليها كتب المعقول، وكذلك أرفق مسائله الفقهية بمسائل الأخلاق والتزكية وتهذيب النفس التي تفتقد إليها الكتب الفقهية[٤]، ومصداقها في قوله تعالى: **﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾**[٥].

ومن هنا نرى العلاقة في آيات الأحكام والتشريعات ترافقها مسائل تهذيب وتزكية النفس؛ لأنَّ السعي لتطبيق أي حكم شرعي يوجب على الإنسان أن يتمتع بقدرة على تشذيب نفسه من أي شوائب قد تعيق هذا التطبيق وهذا هو السر في استعمال كلمة **(التوّابين)** أولا؛ لأنَّ التوبة هي التي تهيئ الأرضية لتطهير النفس وتهذيبها[٦]، ومفردة **(التوّابين)** هنا غير مخصصة فتشير إلى النساء والرجال؛ لأنَّ متعلق الآية هو اعتزال النساء وعدم مباشرتهن في المحيض، إذ ربما مال الطرفان إلى المباشرة في أيام الحيض، ومخالفة الحكم بعدم المباشرة، مما يستدعي توبتهما كليهما كي يصيرا محبوبين عند الله، كما إنَّ كلمة التوابين بسبب حذف متعلقها تشمل التوابين من أي ذنب[٧].

والحق: إنَّ القلب ليخفق فرحا من هذه الألطاف الالهية، وهذه التوازنات القائمة على أساس العلاقة ما بين التوبة والطهارة، وإن الله يحب منا كل توبة وكل طهارة، وتكرار لفظة **(يحب)** لكل من **(التوبة والطهارة)**، وهذا الحب هو آية القبول لأي توبة، وإنَّ صغر فعلها منا وكيف لا وهو التواب الرحيم من جهة، والتوازنات المتعلقة باختيار صيغ المبالغة التي تفيد التكثير دون غيرها في مفردتي **(توابين ومتطهرين)** من جهة أخرى، والتي تعني كلما تكررت التوبة من العبد تكرر القبول من الله سبحانه وتعالى.

---

(١) الطباطبائي ، الميزان ، ٢١٢/٢.
(٢) ينظر: الآملي ، تفسير تسنيم ، ١٧٢/١١.
(٣) ينظر: ابن الاثير ، المثل السائر ، ٢٤٢.
(٤) ينظر: الآملي ، ، تفسير تسنيم ، ١١/ ١٧٠ -١٧١.
(٥) سورة الجمعة : الآية ٢.
(٦) ينظر: الآملي ، تسنيم ،١٧٢/١١.
(٧) ينظر: الآملي ، تسنيم ، ١٧١/١١ .

ثالثاً: لفظ (كسبت) و (اكتسبت) :

قوله تعالى: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾[1] قال الراغب(ت٤٢٥هـ) في مفرداته: "والكسب يقال فيما أخذه لنفسه ولغيره؛ ولهذا قد يتعدى إلى مفعولين والاكتساب لا يقال إلا فيما استفدته لنفسك، فكل اكتساب كسب، وليس كل كسب اكتساباً وخص الكسب هاهنا بالصالح، والاكتساب بالسيء وعني الكسب ما يتحراه من المكاسب الأخروية وبالاكتساب ما يتحراه من المكاسب الدنيوية"[2]، وقيل في تفسيرها:" **(لها ما كسبت)** من طاعة الله، **(وعليها ما اكتسبت)** من معصية (كسبت) لمرة ومرات، و(اكتسبت) لا يكون إلاّ لشيء بعد شيء "[3]، وانَّ معنى (كسبت) حصول الكسب على أي وجه كان، ومعنى (اكتسبت) تكثير لمعنى اصل الكسب وفيه تنبيه على لطف الله بخلقه ورحمته لهم؛ فأثبت لهم ثواب الفعل على أي صفة كان، ولم يثبت عليهم عذاب الفعل إلا على وجه مبالغة واعتمال فيه [4]، وقيل: (لها ما كسبت) أي: اجتهدت في الخير أو لا، فإنّه لا يضيع، (وعليها ما اكتسبت) أي: لا تؤاخذ إلا بما اجتهدت في تحصيله، وبالغت فيه من المعاصي[5]، "إنَّ الاكتساب أخص من الكسب، لأنَّ الكسب ينقسم إلى كسبه لنفسه ولغيره، والاكتساب لا يكون إلا ما يكتسب الإنسان لنفسه خاصة يقال فلان كاسب لأهله، ولا يقال مكتسب لأهله "[6].

من منا لم يردد الآية الأخيرة من سورة البقرة في فرائضه أو في كل شدة وضيق ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾[7].

ولا يخفى ما في الاختيار القرآني لهاتين المفردتين (كسبت واكتسبت) من التوازن اللغوي المتجسد في قوة المعنى المتحققة فيها من جهة، وفي التوازن التربوي الهادي إلى كسب الخير واجتناب اكتساب الشر من جهة أخرى، فالله سبحانه وتعالى يعطي الإنسان فرصة للكسب الحسن، وحلمه تعالى أعظم بكثير من أن يعاقب عبده على أقل خطيئة، فيثبت له ثواب أي فعل كان، وجلَّ شأنه يكتفي دائما بالحد الأدنى من الشدائد التي يكتسبها عباده، ولا يثبت عليه حساب الفعل إلا على وجه المبالغة والإصرار عليه.

---

(1) سورة البقرة : الآية ٢٨٦.

(2) الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ،٧١٠، وينظر:الزين ،سميح عاطف ،معجم تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مجمع البيان الحديث، ط٤، الدارالافريقية العربية، دارالكتاب اللبناني، بيروت – لبنان ، ١٤٢٢هـ،٧٧٠.

(3) ابن الجوزي ، ابي الفرج جمال الدين بن عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ) ،زاد المسير في علم التفسير ، ط١، المكتب الاسلامي دار ابن حزم ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٣هـ ، ١٧٥.

(4) ينظر: ابن الحاجب ، ابي عمرو عثمان بن عمر (ت ٦٤٦هـ) ، الايضاح في شرح المفصل ، تح موسى بناي العليلي ، احياء التراث الاسلامي ، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية ، الجمهورية العراقية ، ١٣٢/٢-١٣٣.

(5) ينظر: الاسترابادي، رضي الدين محمد بن الحسن (ت ٦٨٦هـ) ، شرح شافية ابن الحاجب ، تح محمد نور الحسن ، محمد الزفراف ، محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٢هـ ، بيروت – لبنان ، ١١٠/١.

(6) الرازي ، مفاتيح الغيب،١١٨/٧.

(7) سورة البقرة : الآية ٢٨٦.

المبحث الثاني: قانون التوازن في الحذف والذكر

يتضح هذا المبحث عبر المطالب الآتية:

المطلب الأول: تعريف الحذف وفائدته:

عُرّفَ الحذف في اللغة بأنّه: القطع والإسقاط وهو قطع الشيء من طرفه[١].

وفي الاصطلاح " هو إسقاط جزء من الكلام أو كله لدليل"[٢].

والحذف فن عظيم من فنون اللغة ومسلك دقيق في التعبير وتأدية المعاني، ينطوي على فوائد عدة، يمكن إجمالها على النحو الآتي:

١- الإيجاز والاختصار: فهو "باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنّك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن، ورب حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد"[٣].

٢- شجاعة العربية[٤] : كما سمَّاها ابن جني(ت٣٩٢هـ)، فهي تشجع على الكلام وهو أدق أدق أنواع البلاغة مسلكاً، وأكثرها إعمالا للفكر.

٣- التناسق الصوتي والانسجام اللفظي، فالحذف يحقق أغراضا دلالية وصوتية في آنٍ واحد، وما من محذوف إلاّ وحذفه أحسن من لفظه من حيث جرس الكلام[٥].

٤- حسن العبارة والانتقاء لها في كثير من التراكيب إلى ما يعمد إليه المتكلم من حذف لا يغمض به المعنى، وإنّما هو تصرف تصفى به العبارة، ويشتد به أسرها، ويقوى حبكها، ويتكاثر إيحاؤها، ويمتلىء مبناها، وتصير أشبه بالكلام الجيد، وأقرب إلى كلام أهل الطبع.

٥- دليل قوة النفس، وقدرة البيان، وصحة الذكاء، وصدق الفطرة[٦]، ولو تمعنا في العبارات السابقة، (فالترك أفصح من الذكر والصمت أزيد للإفادة وصفاء العبارة وشجاعة العربية وكثرة الايحاءات مع امتلاء مبناها بالحذف)، لوجدناهما ضرباً من ضروب التوازن، ومن أجل عرض ذلك بنحو كافٍ وافٍ، فإنَّ عقد المبحث سينفرط على المطالب الآتية:

---

(١) ينظر: ابن منظور، لسان العرب ،٣٩/٩.

(٢) الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبدالله (ت ٧٩٤هـ) ، البرهان في تفسير القرآن ،تح أبو الفضل الدمياطي، ط١ ، دار الحديث، مصر، ١٤٢٧هـ ،٦٨٥.

(٣) الجرجاني ، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ) ، دلائل الإعجاز ، تح محمود محمد شاكر ، دار الناشر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤٠٤هـ ،١٤٦.

(٤) ينظر: ابن جني ، ابو الفتح عثمان ، الخصائص ، ٢/ ٣٦٠.

(٥) ينظر: الزركشي ، البرهان في تفسير القرآن ، ٦٨٧.

(٦) ينظر: ابو موسى، محمد محمد، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ط٤، مكتبة وهبة، ١٤١٦هـ، ١٥٣ ١٥٣

المطلب الثاني: شروط الحذف :

إنَّ من تمام البيان التطرق إلى شروط الحذف ولقد " أشاد البيانيون كثيرا بفن الحذف، وأفصحوا عن ملامحه الجمالية فقعدوا له القواعد ووضعوا الشروط وأظهروا المزايا "[١]، وهذه الشروط والقواعد زخرت بها آيات القرآن الكريم، ومنها "أنّك تجد في كثير من تراكيب القرآن حذفا، ولكن لا تعثر على حذف يخلو الكلام من دليل عليه من لفظ أو سياق"[٢]، وإنَّ كل حذف لابد فيه من شرط" وقد أجمعوا على أنَّ الحذف لا يصار إليه إلا إذا بقيت في الكلام قرينة تدل على المحذوف، حتى يتضح البيان ويكون خالياً من التعمية والغموض، فجودة الأسلوب هو الوضوح وحسن الدلالة؛ لأنَّ الحذف إذا لم يكن فيه ما يدل على المحذوف جار على اللفظ والمعنى "[٣] ويعتمد الحذف على قرائن ليتسنى له فهم المعنى، وأما السبب فهوالأمر الذي يدعو المتكلم إلى ترجيح الحذف على الذكر أو وجوبه، إذا كان أدل على فخامة المعنى وسعة تصوره في بعض المواضع[٤]، والسبب الآخر أنّه "قد يراعى المقام في في ترك التعبير فيما يظن أنّه سيذكره في سياقه فهو إنَّ ذكر فإنما يذكر لأمر يقتضيه المقام، وإذا لم يذكر فإنَّ ذلك لأمر يقتضيه الحال"[٥]، أو يحذف من الفعل للدلالة على أنَّ الحدث أقل أقل مما لم يحذف منه وأنَّ زمنه أقصر فهو يقتطع من الفعل دلالة على الاقتطاع من الحدث، أو يحذف في مقام الإيجاز، فإذا كان المقام إيجاز أوجز في ذكر الفعل فاقتطع منه، وإذا كان في المقام التفصيل لم يقتطع من الفعل بل ذكره بأوفى صورة[٦]، وقد يحذف في التعبير القرآني لفظ أو أكثر حسبما يقتضيه السياق، وقد يحذف حرفا أو يذكره أو يجتزئ بالحركة للدلالة على المحذوف[٧].

المطلب الثالث: أشكال الحذف :

إنَّ مظاهر الحذف في القرآن الكريم كثيرة جدا وعند تتبع تقسيمات الحذف وجدت الباحثة أنَّ افضل طريقة لبيان أشكال الحذف هو الأنواع الآتية وهي:

١ـ حذف الحرف :

إنَّ "كل حرف من كتاب الله له رسالة يؤديها سواء أكان هذا الحرف منفردا غير منتظم في جملة كالحروف المقطعة في بداية السور، أم كان منتظما، كحروف أي كلمة من كلماته، أم كان من الحروف الاصطلاحية التي أطلق عليها حروف المعاني"[٨]، وهي

---

(١) المطعني،عبد العظيم ابراهيم محمد،خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية،ط١،مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٣هـ، ٥/٢.
(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ١١٩/١.
(٣) المطعني ، خصائص التعبير القرآني وسماته ، ٥/٢
(٤) ينظر: المصدر نفسه ،٢/ ٦.
(٥) السامرائي ، فاضل صالح ، مراعاة المقام في التعبير القرآني، ط١ ، دار ابن كثير ، بيروت –لبنان ، ١٤٣٦هـ ، ٧.
(٦) ينظر: السامرائي، فاضل صالح، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني،(د ط)، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان ١٤٢٨هـ، ٩.
(٧) ينظر: السامرائي ، فاضل صالح ، التعبير القرآني، (د ط) ، دار البشائر ، الاردن ، (د ت)،٧٥.
(٨) الجيوسي ، عبد الله محمد ، التعبير القرآني والدلالة النفسية ، دار الغوثاني ، ط١ ، دمشق ، ١٤٢٦هـ ، ٢٣٩.

الحروف التي لها دلالات واضحة بمجرد النطق بها، ومن أمثلة حذف الحرف الدال على معنى وبقاء هذا المعنى بعد الحذف هو:

أ- حذف حرف النداء:

في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**﴾[1]، وإنَّ سر" حذف (الياء) مع (رب) للمبالغة في تصوير قرب المنادى (رب) ومعناه: المربي والسيد والمالك، وهو بهذه المعاني من شانه أن يكون قريبا حاضرا لا يحتاج في ندائه إلى وسائط"[2].

وهذه رسالة من الخالق جلَّ وعلا إنَّ قربه منا لا يعادله قرب، وقد تجلت حالة التوازن في حذف الحرف بأحداث معنى اخر للكلمة بعد الحذف متوازنا مع سياق النص، مضافاً إلى معانيها الأخرى.

وحذف أداة النداء في مواضع كثيرة منها قوله: ﴿ **يس ۞ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ**﴾[3]، وقوله: وقوله: ﴿**طه ۞ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ**﴾[4]، وقوله: ﴿**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا**﴾[5] والأصل: (يا يس ، ويا طه ، ويا يوسف)، والحذف هنا كسا العبارة فخامة وخلابة[6]، وهذا توازن بين حذف الحرف لأثبات معنى وتصور جديد للكلمة غير ما كانت عليه قبل الحذف، وبعبارة أدق إنَّ حذف حرف (الياء) في المواضع، يكشف عن لون من ألوان التوازن لم يكن ليتحقق لو كان الحرف موجوداً، ومن الجدير بالذكر أنَّ هذا النوع من النداء خُصَّ لأنبياء الله لما لهم من مكانة عند الله ما ميزهم به من إرسالهم برسالته هداية ونور للبشرية جمعاء والله أعلم.

ب- حذف حرف النون:

إنَّ لحذف الحرف دورا نفسيا بديعا كما في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ**﴾[7]، وقيل في تفسير الآية إنَّ الذي يُخْلَقُ من هذه النطفة الصغيرة القذرة في ظلمة رحم رحم الأم، ويجعله بعد ذلك خلقا جديدا، ويلبسه من الحياة لبسا جديدا، ليكون ذلك الإنسان الكامل[8].

والتوازن في حذف حرف (النون) هنا بين اللفظ والمقام الذي أراد الله سبحانه وتعالى بيان مَبدَئِهِ وأصل نشوئِهِ بحذف حرف منه فأضاف معنيين، الأول: التنبيه على أصل الشيء(النطفة)، وحقارته وصغر قدره، والثاني: أعطى بعداً نفسياً يجعل القارئ يستشعر أنَّ

---

(1) سورة الفرقان : الآية ٣٠.
(2) بدوي ، من بلاغة القرآن ، ١٣١.
(3) سورة يس : الآيات ١-٢.
(4) سورة طه : الآيات ١-٢.
(5) سورة يوسف : الآية ٢٩.
(6) ينظر: المطعني ، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، ٨.
(7) سورة القيامة : الآية ٣٧.
(8) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ٢٣٣/١٩.

الشيء وإنْ كان صغيرا حقيرا، إلا أنَّ له دوراً في خلق حياة الانسان، وفي قوله تعالى: **﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ۞ أَوَ لَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـًٔا﴾**[1]، وها هنا توازن رائع يبرزه السياق القرآني في تساؤل غير مصدق من الإنسان في عودته للحياة بعد أن يموت، فيأتي الرد أقوى من الآية السابقة بحذف حرف النون، بالتذكير بأنّك لم تكن شيئاً وخلقك الله، فلا تتعجب من إعادتك حياً بعد الموت.

٢ـ حذف الكلمة:

فقد ورد هذا النوع في جملة من آيات الله البينات كما في قوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾**[2]، فقد حذف مفعول الفعل والتقدير" مظلما **﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ فِيهِ﴾** وتستريحوا من تعب الطلب**﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾** لتتحركوا فيه لتحصيل أسباب معاشكم فحذف مظلما لدلالة مبصرا عليه وحذف لتتحركوا لدلالة لتسكنوا عليه، وفيه إشارة إلى أنَّ الله تعالى جعل بعض الأوقات للاستراحة من نَصَب المجاهدات وتعب الطاعات لنزول ملالة النفوس وكلالة القلوب ويستجد الشوق إلى جانب المطلوب، ومن ثم جعل أهل التدريس يوم التعطيل ليحصل النشاط الجديد للتحصيل"[3].

إنَّ أساليب الحذف في البيان القرآني لها غايات بلاغية وبيانية متنوعة منها؛ الخفة والإيجاز والتعظيم والتهويل والتعجب والاحتقار، كما إنها اختبار حقيقي لفطنة المتلقي، وبيان مقدار يقظته وتنبهه وعلمه عندما يتمكن من تقدير المحذوف تقديرا صحيحا، وهي كذلك اختبار لرهافة حسه وسلامة ذوقه في تلمسه مواطن الجمال التي حققها الحذف[4].

أما التطبيقات القرآنية للتوازن في الحذف والذكر في الآية الواحدة أو فيما بين الآيات سيأتي بيانها، ولكن لابد للبحث من بيان مفهوم الذكر، الذي يعني الإظهار والإعلان[5]، وهو وهو أيضا " تثبيت للمعنى وتوطيد له في النفس ، ويكون في ذكره فضلا عن ذلك معان لا تستفاد إذا حذفت "[6]، وتأسيسا على ما سبق تذهب الباحثة إلى أنَّ الحذف والذكر كليهما دائر دائر في إيصال المعنى وإذا كان أحدهما اقوى من الآخر في تركيز المعنى جيء به في سياق الكلام.

٣ـ حذف الحرف وذكره في الآية نفسها :

---

(1) سورة مريم ، الآيات ٦٦ – ٦٧.
(2) سورة يونس : الآية ٦٧.
(3) البروسوي ، روح البيان ، ٣٠٨/٥.
(4) ينظر: العامري، خليل خلف بشير، جوانب تركيبية في تفسيرمجمع البيان للشيخ الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، مجلةجامعة بابل، العلوم الانسانية ، المجلد١٨/العدد٢، ١٤٣١هـ.
(5) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ذكر ، ٤/ ٣١٠-٣١١.
(6) بدوي ، احمد ، من بلاغة القرآن ، ٩٥.

كما في حذف حرف التاء في قوله تعالى:﴿**فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً**﴾[1]، والحذف هنا للتخفيف من التكرار، وهذا ما ذهب إليه النيسابوري (ت٨٥٠هـ) في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ** ﴾، أي يعلوه لارتفاعه وملاسته، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً**﴾ لصلابته وثخانته، ولَمّا تكرر لفظ الاستطاعة مراراً حَذف منها التاء تخفيفاً في الموضعين، وأعاد ذكرها بالآخرة تنبيهاً على الأصل ورجوعاً إلى البداية[2]- ويقصد بالبداية- قوله تعالى: ﴿**مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿**مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**﴾[4]، وأما من حيث دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى فوجدته الباحثة في تفسير ابن كثير(ت ٧٧٤هـ)، إذْ قال: قابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال تعالى:﴿**فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ**﴾، وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿**وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** ﴾، وهو أشق من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظًا ومعنى[5].

وقد قيل بالجمع بين القول بالتخفيف، والقول بزيادة اللفظ لزيادة المعنى:﴿**اسْطَاعُوَا**﴾ تخفيف ﴿**اسَتَطَاعُوا**﴾، وإنَّ " الجمع بينهما تفنن في فصاحة الكلام كراهية إعادة الكلمة، وابتدأ بالأخف منهما؛ لأنه وليه الهمزُ وهو حرف ثقيل لكونه من الحلق، بخلاف الثاني إذ وليه اللام وهو خفيف، ومقتضى الظاهر أن يُبتدأ بفعل ﴿**اسَتَطَاعُوا**﴾ ويثني بفعل ﴿**اسْطَاعُوَا**﴾؛ لأنه يثقل بالتكرير ومن خصائص مخالفة مقتضى الظاهر هنا إيثار فعل ذي زيادة في المبنى بموقع فيه زيادة المعنى؛ لأنَّ استطاعةَ نقب السد أقوى من استطاعة تسلقه، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى"[6].

من ثمّ يتبين لنا ثمة توازن بين الصيغتين: الثقيل مع الخفيف، والخفيف مع الثقيل، وبهذا أوجد القرآن مناسبة بين الحدث والزمن وتوازناً بين الصيغتين.

ويتضح للباحثة أنَّ غاية الحذف الأسمى هي إحداث توازن في المعاني مع متعلق الحذف في تقدير محذوفه، وفي زيادة معانيه ودلالته، سواء كان على مستوى الحرف أو الكلمة او الجملة، وهذا المسلك لا يدركه إلا من عرف غاية الرسالة والمرسل؛ إذ المرسل لا يكون في مقام الهزل أو اللعب فهو قاصد لما يريد، كاشفا عن عصمة النص القرآني وقدسيته، وإنّه سبك إلهي وتنظيم رباني محكم.

---

(1) سورة الكهف : الآية ٩٧.

(2) ينظر: النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد (ت ٨٥٠هـ)، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تح زكريا عميرات، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ ،٤٦١/٤، وينظر: الزمخشري، الكشاف، ٦٣٠، وينظر: العمادي، ابو السعود محمد بن محمد بن مصطفى(ت٩٨٢هـ)، ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم،ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت، (د ت)، ١٤٦/٥.

(3) سورة الكهف : الآية ٧٨.

(4) سورة الكهف : الآية ٨٢.

(5) ينظر: ابن كثير ، ابو الفداء اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) ، تفسير القرآن الكريم ، تح محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ ، ١٧٧/٥.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٤٣٢/٨.

المبحث الثالث : التوازن في المتقابلات

وسيتكلف البحث هنا بالخوض في مفهوم التوازن وحقيقته في المتقابلات عبر المطالب الآتية:

المطلب الأول : مفهوم التقابل:

أولاً: إذ ورد أنَّ التقابل في اللغة له معانٍ عدة، أحدهما: اسم أُخِذَ من الأصل الثلاثي (قبل)، والقبل: الطاقة، تقول لا قبل لهم، وتقول : لقيته قبلا أي مواجهة[١]، وثانيهما هو: المقابلة المواجهة، والتقابل مثله، ولا قبل لي به أي لا طاقة والمعنى الثالث هو: قابل الشيء بالشيء مقابلة وقبالا: عارضه[٢]، والمعاني اللغوية يُفهم منها معنى الطاقة المقابلة لطاقة أخرى، ومعنى المعارضة، والمواجهة وهو المعنى المقصود في البحث.

ثانياً: اصطلاحا فقد ورد أن التقابل هو: " مواجهة اللفظ بما يستحقه في الحكم، وترتيب الكلام على ما يجب فيعطي أول الكلام ما يليق به أولا وآخره ما يليق به آخرا ويأتي في الموافق بما يوافقه وفي المخالف بما يخالفه "[٣]، وقيل: هي أن" تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما"[٤].

وهذا يقودنا بلا شك إلى" إنَّ معنى التقابل هنا يتيح لنا أن نضع تحته عددا من المفردات اللغوية التي تشير في معناها إلى المواجهة وهي: المطابقة، والتكافؤ، والتضاد، والتناقض، والمخالفة؛ وذلك لأنَّ هذه المفردات تتضمن معنى المقابلة بين طرفي التقابل سواء بالتضاد أو المخالفة أو المماثلة"[٥]، والفرق بين الطباق أو المطابقة والمقابلة " أنّ الطباق لا يكون إلا بين الضدين غالباً، والمقابلة تكون لأكثر من ذلك غالباً، ولا يكون الطباق إلا بأضداد والمقابلة بالأضداد وغيرها"[٦]؛ ولهذا عُدَّ الطباق أحد أنواع المقابلة[٧]، ومن تتبع تتبع البحث لمصطلح التقابل تبين أنه يكون في الآية الواحدة وفي آيتين متجاورتين أو بين آيتين يفصل بينهما سياق آية أخرى، وكذلك يكون التقابل لصور حية لعلاقة بين نموذجين إنسانيين متنافرين حاضرين كما في قوله تعالى: ﴿**أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ**﴾[٨]، فالتقابل بين المؤمن والكافر، وحقيقة الإيمان تختلف اختلافاً جوهرياً عن حقيقة الكفر، والتوازن بين هاتين الحقيقتين في مقدار استواء كل منهما بالقدر الذي يستحقه،

---

(١) ينظر: الفراهيدي ، العين ، ١٦٦/٥.
(٢) ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قبل ، ٥٣٤/١١.
(٣) القيرواني ، ابي الحسن ابن رشيد ، (ت ٤٦٣هـ) ، العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ط١ ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٢٥هـ ، ١٤/٢.
(٤) السكاكي، يوسف بن ابي بكر بن محمد (ت ٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، تح عبد الحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ، ٥٣٣.
(٥) القرعان، فايز عارف،التقابل والتماثل في القرآن الكريم، ط١، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العلمي،الاردن،١٤٢٧هـ،١٠.
(٦) السيوطي ، جلال الدين(٩١١هـ) ، الاتقان في علوم القرآن ، تح شعيب الارنؤوط ، تعليق مصطفى شيخ مصطفى، ط١، موسسة الرسالة ناشرون ، دمشق – سوريا ، ١٤٢٩هـ ، ٦٠٦.
(٧) ينظر: ابن الاثير ، المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ، ١٤٤/٣.
(٨) سورة السجدة : الآية ١٨.

أو يكون بين موقفين متضادين كما في قوله تعالى: **﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[1]، بالنظر إلى ما عملوه واكتسبوه أن يضحكوا ويفرحوا قليلا في الدنيا ويحزنوا كثيرا في الآخرة والباء في **﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** للمقابلة[2]، والمقابلة هنا هي توازن بين **(الضحك القليل والبكاء الكثير)** والجزاء الذي يعطى لهما بمقدار ما اكتسبوه من أعمالهم.

وقد وجدت الباحثة أنَّ مفهوم المقابلة عند أغلب القدماء ضمن المحسنات البديعية، إذْ درسوا " المقابلة ضمن نطاق ضيق في علم البديع، وإنْ كان بعضهم درسها ضمن علم المعاني، وهو الأليق بها؛ لوجود العلاقة الكبيرة بين المقابلة أو التضاد والقيم المعنوية والفكرية للنص؛ ولذلك تسعى المقابلة إلى أغراض أخرى كثيرة أبعد من الغرض الذي وضع لها وهو تحسين المعنى فهي فن بلاغي وطريقة في أداء المعنى لها آثارها وقيمها البعيدة ، كما أنّها تُسهم في إبراز المعنى بما فيه من ثنائية وتضاد"[3]، وسيأتي بيان أبعادها وآثارها على الفرد والمجتمع عند عرض البحث لنماذج قرآنية للتقابل.

المطلب الثاني: العلاقة بين التقابل والتناسب والتوازن:

إنَّ مفهوم التناسب هو:" جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء فأكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط "[4]، ويُعّد التناسب من " بلاغة وجماليات القرآن الكريم وتجلية معانيه وفهم مراميه، فقد أجمع العلماء والأدباء على أنَّ التناسب من أهم عناصر الجمال، وأبرز شروط الفصاحة في التعبير اللغوي وفي إعجاز القرآن "[5]، والتناسب من المصطلحات التي اهتم بها البلاغيون وبما يدور حول التناسب من مصطَلحات بلاغية ذات صلة بالتناسب من حيث الدلالة اللغوية على الأقل كالائتلاف، والاتساق، والالتئام، والتجانس والتشابه، والتعادل، والتوافق، والمطابقة، والمماثلة، وصحة المقابلة، إضافة إلى مصطلح التناسب نفسه[6]، ووسائل التناسب والتماسك هذه كثيرة ومتنوعة بينّها علماء اللغة والتفسير، والتفسير، ولسنا هنا في مقام شرحها إلاّ فيما يهمنا منها وهو التقابل فقد اتّفق على أن التقابل أحد وسائل أو أنواع العلاقات في التناسب[7]، وقد أشاروا إليها عن طريق الربط بين المعاني المعاني فقيل:" فأما تناسب الالفاظ من طريق المعاني فإنها تتناسب على وجهين: أحدهما أن يكون معنى اللفظتين متقاربا، والثاني: أنَّ يكون أحد المعنيين مضادا للآخر أو قريبا من

---

(1) سورة التوبة : الآية ٨٢.
(2) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٣٥٩/٩.
(3) باطاهر ، بن عيسى ، المقابلة في القرآن الكريم ، ط١، دار عمار للنشر ، عمان ، ١٤٢٠ ، ١٧-١٨.
(4) الزركشي ، االبرهان في علوم القرآن ، ٣٦، ينظر السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ،٦٣٠- ٦٣١.
(5) ابو زيد ، التناسب البياني في القرآن ، ٢٦.
(6) ينظر: مطلوب، احمد(ت١٤٣٩هـ)،معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي،١٤٠٦هـ، ٢٥٥/٢.
(7) ينظر: السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ، ٦٣١، وينظر: نجم ، اقبال وافي ، التناسب ودوره في الاعجاز ، رسالة ماجستير /جامعة الكوفة ، مكتبة الروضة الحيدرية ، المكتبة الرقمية للرسائل الجامعية، ١٤٣٠هـ ،٥٤.

المضاد، فأما إن خرجت الألفاظ عن هذين القسمين فليست بمتناسبة "[1]، فعلاقة التقابل من بين الروابط التي تحقق التماسك النصي لأنها الجهة الجامعة بين المتقابلين[2] وهذه الألفة والتماسك " ليس فقط في نسق الألفاظ ونغمها، بل يشتمل التأخي في المعاني، فلا يكون معنى لفظ نافرا من المعنى الذي يجاوره، ويتألف من الألفاظ والمعاني وما توعزه من أخيلة، وما تثيره من معان متداعية يدعو بعضها بعضا، ويتألف منها علم زاخر، كثير خصب وإنه لا ينطبق على كلام كما ينطبق على القرآن، ومقام القرآن الكريم فيه مقام الذروة والسنام "[3].

وعليه يتضح أنّ التقابل من مظاهر التناسب والتماسك في القرآن الكريم؛ لأنه يجمع بين المعاني وإن كانت متخالفة ومتضادة، فالألفاظ والمعاني تتوازن داخل السياق في تنظيم غاية في الدقة، وفي شبكة علاقات متنوعة وإن كان بعض هذه العلاقات متقابلا متنافرا، ولكنها تحقق الانسجام والتآلف والتناسب وهذه بمجموعها يستنطقها ويظهر قيمتها الجمالية، فضلا عن تجلية المعنى؛ التوازن الذي راعى عملية الضبط والدقة ونظم لهذه العلاقات على وفق قواعد صوتية وصرفية ونحوية ودلالية أظهرت النص القرآني غاية في الإتقان والأحكام وكأنها وزنت بميزان دقيق لا يعتريه الشك أو السهو، وكيف لا يكون وهو ميزان إلهي معجز في أدق تفاصيله.

المطلب الثالث: أنواع المقابلات :

يمكن الكشف عن المتقابلات عن طريق الآتي :

١ـ مقابلة في اللفظ دون المعنى :

فقد ورد في قوله تعالى: ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُون** ﴾[4]، مفهوم المقابلة باللفظ ما بين مكر ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام ومكر الله تعالى بهم فمعنى المكر مختلف في المقابلة؛ لأنّ المكر صرف الغير عما يقصده وتستعمله العرب في كل حيلة وتفكير للتخلص أو الاهتداء إلى أمر ما، ولا تختص بالأمور التي تجلب الضرر، بل كذلك تستعمل بما يضر وما ينفع، فيصح وصف المكر بالخير إذا كان لما ينفع، ووصفه بالسوء إذا كان لما يضرّ، فبناءً على هذا إذا نسبت هذه الكلمة إلى الله سبحانه وتعالى فإنّها تعني إحباط المؤامرات الضارة من الآخرين، وإذا نسبت إلى المفسدين فهي تعني الوقوف بوجه المناهج الإصلاحية، والحيلولة دون نموها وتطورها[5].

والمكر هنا توازن لفظي؛ تقابل فيه مكر الكافرين ومكر الله سبحانه وتعالى، إذ لا يمكن تصور المكر من الله عز وجل؛ لأن المكر آلة الضعيف ووسيلة المحتاج والمفتقر، ومكر الله سبحانه وتعالى يختلف عن مكرهم، وهو إهلاكهم من حيث لا يشعرون؛ ولأن فن

---

(1) ابن سنان ، سر الفصاحة ، ١٩١.
(2) ينظر: الفقي ، صبحي ابراهيم ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، ط١، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٤٢١هـ ،١٧١/٢.
(3) ابو زهرة ،محمد (ت١٣٩٤هـ)،القرآن المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي ،١٣٩٠هـ،١٣٤.
(4) سورة النمل : الآية ٥٠.
(5) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ٩٢/١٢-٩٣.

التقابل فن مستساغ لدى العرب ومتداول بينهم؛ قابل المكرين لفظيا، فأحدث توازنا لفظيا دون المعنى فهو مختلف.

٢ـ مقابلة المعنى دون اللفظ:

كما في قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾**[١].

فالمقابلة هنا ما بين الضلال وهو ما يقابل الاهتداء، فالضلال هو عدم الاهتداء، وفقدان الهداية، وفقدان الرشاد سواء في جهة مادية أو معنوية، وهو أعم من أن يكون في حق أو باطل، فإن مطلوب كل شخص بحسب نظره[٢].

وقيل: **﴿قُلْ إن ضَلَلْتُ﴾** عن الحق **﴿ فَإِنَّمَا أَضِلُّ على نَفْسِى ﴾** أي عائداً ضرر ذلك ووباله عليها فإنها الكاسبة للشرور والأمَّارة بالسوء **﴿ وَإِنِ اهتديت ﴾** إلى الحق **﴿ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبّى ﴾**، فإن الاهتداء بهدايته تعالى وتوفيقه عز وجلّ، وما موصولة أو مصدرية، وكان الظاهر وإن اهتديت فلها كقوله تعالى: **﴿مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا﴾**[٣]، أو إن ضللت فإنما أضل بنفسي ليظهر التقابل لكنه عدل عن ذلك اكتفاء بالتقابل بحسب المعنى؛ لأن الكلام عليه أجمع فإن كل ضرر فهو من النفس وبسببها وعليها وباله قل إن ضللت فإنما أضل بسبسشب نفسي على نفسي وإن اهتديت فإنما اهتدى لنفسي بهداية الله تعالى وتوفيقه سبحانه[٤].

والتوازن هنا ذو دلالة إيمانية يعتمد على قدرة الإنسان في تقدير قيمة أعماله التي أما توصله للهداية أو تنزله في مستنقع الضلال، فإذا أخذ الإنسان بأسباب الهداية والوصول إلى المطلوب ابتدأ من هدايته مع خالقه ووصولا إلى اصلاح أمر معاشه مع الآخرين، وبين أسباب الضلال التي يستحقها جزاء إعراضه عن الحق وعناده واستكباره مع الله وخلقه، ولأن كلا الطريقين **(الهداية والضلال)** في قدرة الإنسان أيهما يسلك ويتخذه مسيرا لحياته كما في قوله تعالى: **﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾**[٥]، فالهداية فطرية خلقية أودعها الله في الإنسان، وهذه هداية التوفيق التي لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى والتي تنجي من النار.

٣ـ مقابلة النظيرين:

إن النظير في اللغة هو المِثْلُ المُسَاوي، وهذا **(نَظِيُر)** هذا :أي مساويه[٦]، وفي قوله سبحانه: **﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْم ﴾**[٧]، المقابلة بين السِنَة والنوم وهي مقابلة نظيرين من نوع

---

(١) سورة سبا : الآية ٥٠.
(٢) ينظر: مصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ٤٠/٧.
(٣) سورة فصلت ، الآية ٤٦
(٤) ينظر: الالوسي ، روح المعاني ، ٣٣٤/١٦، وينظر: الشيرازي ، الامثل ، ٤٩١/١٣.
(٥) سورة طه : الآية ٥٠.
(٦) ينظر: الفيومي ، المصباح المنير، ٦١٢.
(٧) سورة البقرة : الآية ٢٥٥.

نوع مقابلة الواحد بواحد[1] والسِنَة:" النعاس، وهو الفتور الذي يعتري الإنسان قبل النوم، والنوم معروف، وهما متلازمان غالبا، ولكن قد يطرأ النوم دون أن تغلب السنة "[2].

وقال العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٣٤٤هـ) – قدس – " وقد أورد على قوله: ﴿**سِنَةٌ وَلَا نَوْم**﴾ أنه على خلاف الترتيب الذي تقتضيه البلاغة فإن المقام مقام الترقي، والترقي في الإثبات، إنما هو من الأضعف إلى الأقوى وفي النفي بالعكس فكان ينبغي القول: لا تأخذه نوم ولا سِنَة؛ والجواب إن الترتيب المذكور لا يدور مدار الإثبات والنفي دائما كما يقال: فلان يجهده حمل عشرين بل عشرة ولا يصح العكس، بل المراد هو صحة الترقي وهي مختلفة بحسب الموارد؛ ولما كان أخذ النوم أقوى تأثيرا وأضر على القيومية من السِنَة كان مقتضى ذلك أن ينفى تأثير السِنَة وأخذها أولا، ثم يترقى إلى نفي تأثير ما هو أقوى منه تأثيرا ويعود معنى ﴿**لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْم**﴾ إلى مثل قولنا :لا يؤثر فيه هذا العامل الضعيف بالفتور في أمره ولا ما هو أقوى منه "[3].

إن ذكر السِّنة والنوم من باب إثبات عدم النوم بالأولوية، إذ كيف يعقل أن يأخذه النوم وهو القيُّوم، وإن مقام نفي السنة والنوم توازن مع ذكر القيومية وهي من اسمائه الحسنى، ومعناه القائم بالأمر، المتعهد بالحفظ والتدبير والمراقبة؛ إذ تستلزم القيومية على خلقه تدبير شؤون الخلق عن علم تام وحكمة كاملة، وهو دائم بدوام ذاته لا يعتريه ضعف ولا فتور، وتستلزم القيومية على خلقه جملة من الصفات العليا الحقيقية، كالخلق والرزق، والإحياء، والإماتة، والرحمة، والغفران وكل ما يتطلبه شؤون خلق[4].

واستعمل القرآن الكريم أسلوب النفي بالتدرج بالنعاس وبعده النوم ليتوازن مع القيوم، لأن الخالق الحافظ لأمر العباد لا يصدر منه ضعف أو فتور بالسنة التي هي مقدمة النوم وهي أضعف النوم فما بالك بالأصعب وهو النوم، فمن كان مالكا للسموات والأرض وما فيهما وقيوما عليهما، لا يمكن أن تأخذه لا السنة ولا النوم، وإلا استلزم المحال، وتعطيل شؤون الخلق، وقد أعطى التوازن بهذه المقابلة تنزيه الخالق عما لا يليق به.

٤- مقابلة النقيضين:

قال الراغب (ت٤٢٥هـ) في النقيضين: هو ما لا يصح أحدهما مع الآخر[5]، وفي مقابلة بين نقيضين في قوله سبحانه: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا**﴾[6]، في مقابلة الليل والنهار؛ "لعل المشهور في فهم المقابلة لمجرد حفظ السياق القرآني، إلا أن هذا ليس بتام، لأن الليل والنهار متقابلان، إذن فالسياقان متقابلان في الآيتين؛ إذ لو كان التقابل

---

(1) ينظر: العمري ، احمد جمال ، مباحث في إعجاز القرآن ، اهداءات مصطفى الصاوي الجويني، مكتبة الشباب، الاسكندرية- مصر، ١٤٢٣هـ ، ٢٣٩.
(2) السبزواري ، مواهب الرحمن ، ٣٥٨/٤.
(3) الطباطبائي ، الميزان ، ٣٣٦/٢، وينظر: الآملي ، تسنيم ، ١٠٦/١٢.
(4) ينظر: السبزواري ، مواهب الرحمن ،٢٥٨/٤-٢٥٩.
(5) ينظر: الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ٨٢١.
(6) سورة النبأ: الآيات ١٠- ١١.

مجرد حفظ النسق القرآني (**لباسا ، معاشا**) لأمكن استعمال ألفاظ أخرَ مع أنه ذكر هذين اللفظين بالخصوص، مع كثرة الألفاظ العربية، فيمكن له أن يأتي بأي لفظ آخر لحفظ النسق، وعليه فيوجد لدينا سياق لفظي وسياق معنوي، وهما حفظ النسق وحفظ المقابلة؛ إذ لا ضرر من ذلك، فإن حفظ النسق لا ينافي المقابلة، وكل من الحكمتين مراده لله عز وجل "[1].

وتذهب الباحثة إلى أن السياق اللفظي الذي اشار إليه السيد محمد صادق الصدر(ت١٤١٩هـ) هو: لفظتا **(الليل والنهار)** بين النقيضين، أما السياق المعنوي والذي يؤديه حكمة الخالق من دلائل تدبيره في تصريف الكون والحياة وإيجاد توازن كوني ما بين اللفظين ينتج عنهما تعاقب الليل والنهار، وهذا التعاقب أوجد لنصف الكرة الارضية نهارا متمثلا بالشمس، وأوجد للنصف الاخر ليلا متمثلا بالظلام وخلق حالة من التوازن الكوني لاستمرارية الحياة.

المطلب الرابع: قوانين متوخاة من توازن المتقابلات :

إن مبدأ التقابل في القرآن الكريم يقتضي أن نربط بعض القوانين التي يستخلصها عن طريق أنواع المتقابلات التي عرضت بالآيات القرآنية وهي:

١- قانون التصوير الواقعي: هو التعاقب أو التوالي في عرض النموذج عرضا كاملا، وبعد الانتهاء من تصوير المشهد تصويراً غاية في الإبداع سواء كان النموذج أو الموقف موافقا أم مخالفا، تنعقد مقارنة ذهنية واقعية بين النموذجين المتقابلين، كما في قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ**﴾[2]، هذا أسلوب القرآن التربوي الذي يعد الواقع أساسا للمعرفة، إذ يلتقي الحس بالتصوير المجرد فيخلق حالة التوازن في وعي الإنسان للفكرة التي يعرضها، ليفهم الإنسان صورة الخير والشر في الفكر عن طريق الصورة التي يستوحيها من الواقع فتمثيل الحق بالثبات والصلابة والبقاء والمكوث في الحق وتمثيل الباطل من خيال يطفو على السطح ويتلاشى رويدا رويدا[3].

٢- قانون التقابل الحركي أو الكوني: عن طريق رسم المواقف التي يعرضها القرآن الكريم والتي تعطي أكثر من مفهوم وتوظف أبعاداً إضافية، كالتوازن في حركة الشمس والقمر، والليل والنهار، والأول والآخر كما في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾[4].

٣- قانون التوازن الوجودي: يتمثل في مقابلة الحياة والموت كما في قوله تعالى: ﴿**قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ**﴾[5].

([1]) الصدر ، محمد صادق (ت ١٤١٩هـ)، منة المنان في الدفاع عن القرآن ، ط١ ، مطبعة الكوثر مؤسسة المنتظر لأحياء تراث ال الصدر ، ١٤٣٢هـ، ٤٨٥/٥.

([2]) سورة الرعد : الآية ١٧.

([3]) ينظر: فضل الله ، من وحي القرآن ، ١٣/ ٣٩ – ٤٠.

([4]) سورة الحديد : الآية ٣.

([5]) سورة الاعراف : الآية ٢٥.

٤- قانون التوازن الإيماني: يتمثل في مقابلة الهداية والضلال، والرشد والغي، الصدق والكذب، الظلمات والنور كما في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾[١].

٥- قانون التوازن الجزائي: يتمثل في مقابلة المغفرة والعقاب في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ**﴾[٢]، وبين العذاب والرحمة في قوله: ﴿**يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ**﴾[٣].

٦- قانون التوازن العقدي: يتمثل في مقابلة الدنيا والآخرة في قوله تعالى: ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ**﴾[٤].

٧- قانون التوازن النفسي: يتمثل في مقابلة الفرح والحزن، كما في قوله تعالى: ﴿**لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾[٥].

٨- قانون التوازن المالي: يتمثل في مقابلة البخل والكرم في قوله تعالى:﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا**﴾[٦].

إن التقابل سمة من سمات الفكر والكون والخلق، فلا يوجد مظهر من مظاهر الكون شيء إلا ويكون مقابل له يستحضره الذهن عند تذكر أحدهما، فاذا قلنا حياة نتذكر مقابله الموت ويكون قوام التوازن فيه وجودي، والخير والشر قوامه توازن إنساني، والحركة والسكون قوامه توازن كوني .

وتتضح أهمية توازن المتقابلات في القرآن الكريم والذي أصاب القرآن فيها نقطة جوهرية عن طريق عرض المتقابلات كطريقة من طرق أساليب الإقناع بإظهار نوازع النفس وميلها لجانب الخير وجانب الشر، والحسن من السيء، وما يؤول إليه مصير كل منهما بتصوير للنماذج والمواقف يشغل ذهن المتلقي في تتبعها، وكذلك تُعّد أسلوبا تربويا في توجيه شخصية الفرد وبنائها عن طريق الاعتبار بعرض الشخصيات والمواقف الإيجابية والسلبية ورجحان الكفة ذي النموذج والموقف السليم، وهذا ما أقصده بالتوازن، فليس بالضرورة أن تتساوى أو تتكافأ عند نقطة التوازن فقد يغلب جانب على جانب آخر وهذه هي نقطة توازن دقيقة جدا تشخصت بالتقابل اللفظي والمعنوي والحركي والطاقة التي منحها التوازن للمتقابلات، فوضع كل شيء في موضعه باستعمال اللغة لكونها وعاء للفكر الإنساني.

---

(١) سورة الحديد : الآية ٩.
(٢) سورة فصلت : الآية ٤٣.
(٣) سورة العنكبوت : الآية ٢١.
(٤) سورة الانعام : الآية ٣٢.
(٥) سورة الحديد : الآية ٢٣.
(٦) سورة الفرقان : الآية ٦٧.

المبحث الرابع: التوازن في السورة الواحدة:

وسيتناول البحث في هذا المبحث أشكال التوازن في السورة الواحدة عن طريق المطالب الاتية:

المطلب الاول: التوازن بين اسم السورة ومضمونها:

إنَّ السورة هي: " القطعة من القرآن، وقيل سميت بهذا الاسم تشبيها لها بسور البناء، أي القطعة منه، وقيل أخذت من سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها، كاجتماع البيوت بالسور ومنه السوار، لإحاطته بالساعد"[١]، ولفظ السورة يحمل في طيّ دلالاته معنى الإحاطة وتوحيد الأجزاء المتعددة[٢]، والذي لا يقبل الشك وما لا يمكن إنكاره هو إنَّ أكثر السور القرآنية كانت منتشرة دائرة على ألسَنة الصحابة قبل وفاة الرسول ﷺ، وقد وردت أسماء كثير من السور في أحاديث جمة منقولة من طرق الفريقين تصف كيفية تبليغ النبي الدعوة الإسلامية والصلوات التي كان يصليها وسيرته في قراءة القرآن، وهكذا نجد في الأحاديث أسماء خاصة لطائفة من السور كالطوال والمئين والمثاني والمفصلات[٣]، وأنَّ العرب تراعي في كثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه احكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز[٤].

وقيل إنَّ "هذه الاسماء تعيّنية من زمن الرسول ﷺ نتيجة لكثرة الاستعمال، وليس شيء منها توقيفياً شرعيا "[٥]، وهذا يدل على أنَّ أسماء السور بمسمياتها التي عرفناها والتي ترددت في مسمعنا كانت متداولة في زمن الرسول ﷺ وسواء كانت توقيفية أم تعيينية فإنَّ "علاقة الاسم - العنوان - بالسورة علاقة ذات مغزى دون شك، بل لقد أوشكت أن تصبح دراسة العنوان بوصفه ظاهرة في النص الأدبي علما له موضوعه، وأدواته الخاصة"[٦]، فللعنوان قيمة إشارية تفيد في وصف النص ذاته[٧].

والأسئلة المطروحة هنا، هل هناك علاقة بما يسمى الدلالة الواصلة بين العنوان ومضمون السورة؟ وهل العنوان مجرد ملخص للسورة؟ أم هو مجرد تلميحات أو مقدمة للسورة أم هو المعنى الأصلي الذي تقوم عليه السورة ومضمونها؟ وأياً تكن الإجابة عن هذه الأسئلة، فإن الأمر المقطوع به عند أغلب العلماء من لغويين ومفسّرين هو أنَّ هناك علاقة

---

(١) السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن، ١١٨/١.
(٢) ابو زيد ، احمد ، التناسب البياني في القرآن الكريم ، ٥٥.
(٣) ينظر: الطباطبائي ، القرآن في الاسلام ، تعريب احمد الحسيني ، ط١، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ١٣٩٣هـ، ١٣٤.
(٤) ينظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن، ١٩٠ وينظر :الاتقان في علوم القرآن، السيوطي ، ١٢٥/١.
(٥) الطباطبائي ، القرآن في الاسلام ، ١٥٤.
(٦) الحاج،عبدالرحمن،المفردة أداة لتحليل الخطاب القرآني ، بحث من موقع alhaaj@gmail.com ، ١٢١.
(٧) ينظر: الفقي ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، ١٠٦/٢.

دلالية مميزة بين السورة وعنوانها، وقد انصبّتْ جهود المفسّرين في إبراز مظاهر التناسب المعنوي في القرآن لوحدة الموضوع والهدف المقصود من السورة، وعند تتبع الباحثة لهذه العلاقات ابتداءً من تسمية السورة ووحدة الموضوع والربط بين آية وآية مجاورة، وربط أواخر السور بأوائلها وصولا إلى من قال إنَّ القرآن كالكلمة الواحدة[١]، وجدَ طرفين؛ الأول كان مؤيداً للتناسب وعلم المناسبة، لم يتوانَ في إبراز قوة الارتباط والائتلاف والتناسب في تفاسيرهم كالرازي (ت٦٠٤هـ) في تفسيره (مفاتيح الغيب) فهو حافل بالبحث في لطائف التناسب المعنوي في الترتيبات والروابط[٢]، ومنهم من جعل جلَّ تفسيره قائماً على التناسب والروابط كالبقاعي(ت٨٨٥هـ) فقال: "إنَّ اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه، عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه"[٣]، والطرف الثاني "أنكر التناسب المعنوي كالشوكاني(ت١٢٥٥هـ)، ولم يؤثر موقفه من التناسب في شيء فأدرج المناسبة ضمن علوم القرآن وعُدَّ علما مستقلا عند مؤيدي وجوده"[٤]، وخلاصة النتيجة التي ينتهي إليها القول في في علاقة اسم السورة مع مضمونها إنّه" ليس بالإمكان تطبيق كل القواعد في دراسة العنوان ووظائفه وعلائقه الدلالية مع المتن، وهي مجرد احتمالات وكل عنوان هو حالة بذاته "[٥].

وتذهب الباحثة إلى أنَّ ارتباط اسم السورة بمضمونها كان سيأخذ حيزاً ومساحة كبيرة من البحث والتدبر في سور القرآن الكريم، لو لم يقصره القدماء على علاقة التناسب وعلم المناسبة، وسيتناول البحث هذه العلاقة من منطلق مفهوم التوازن، وستكون وقفة البحث في التوازن بين اسم السورة ومضمونها، والتوازن بين الآيات في السورة الواحدة.

المطلب الثاني : التوازن في سورة الرحمن:

ستكون وقفة البحث في هذا النوع من التوازن مع سورة الرحمن؛ عروس القرآن، وبيان أهميتها، فعن الرسول ﷺ قال : **(من قرأ سورة الرحمن رحم الله ضعفه، وأدى شكره، وأنعم عليه)**[٦].

وفي حديث آخر عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنّه قال: **(لا تدعوا قراءة سورة الرحمن والقيام بها ، فإنّها لا تقر في قلوب المنافقين)**[٧].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: **(لكل شيء عروس ، وعروس القران سورة الرحمن)**[١].

---

(١) ينظر: الاتقان في علوم القرآن، السيوطي ، ٦٣٠.

(٢) ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن،٣٦، وينظر: سلامة، محمد عبد الغني عبد العزيز، علم المناسبات القرآنية دراسة نظرية ونماذج تطبيقية، مجلة كلية التربية، جامعة الازهر، العدد١٤٤،الجزء الثاني،١٤٣١هـ،٢٦٦.

(٣) البقاعي ، برهان الدين ابو الحسن ابراهيم بن عمر (ت ٨٨٥هـ) ، نظم الدرر في مناسبات الآيات والسور،تح محمد عبد الحميد،(د ط) ، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٨٩هـ ، ١٨/١.

(٤) ابو زيد ، احمد ، التناسب البياني في القرآن الكريم ، ٥١-٥٢.

(٥) الحاج ، عبد الرحمن ، المفردة اداة لتحليل الخطاب ، ١٢٣.

(٦) البروجردي ، حسين الطباطبائي(ت١٣٨٣هـ)،(د ت)،جامع احاديث الشيعة، مطبعة المهر، قم-ايران ١٤٠٩هـ ،١/١٥. ١/١٥،

(٧) الصدوق ، ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، ثواب الأعمال ، تح السيد محمد مهدي السيد السيد حسن الخرسان ، ط٢ ، منشورات الشريف الرضي ، قم، ١٤١٠هـ ، ١١٦ .

وقد تكررت فيها الآية ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، إحدى وثلاثين مرة.

ومثال توازن اسم السورة مع مضمونها في سورة الرحمن هو مقابلة ما بين (الرحمة الواسعة) وبيان (النعم الإلهية) المادية والمعنوية فيها والتي " تزيد من شوق الطاعة والعبادة في قلوب المؤمنين ولو لم تكنْ الرحمانية من صفاته لم ينعم بهذا الخير العميم على عباده الصالحين"[٢].

إنَّ سبب اختيار اسم الرحمن لهذه السورة لتتوازن التسمية مع المضمون بأسلوب التقابل الإيجابي المنتج الفاعل ما بين اسم السورة والنعم المتعددة في مضمون السورة من نوع " تقابل المتضايفين مثل الأبّوة والبنوَّة للعلاقة التلازمية بينهما، فمعنى البنوة يتأكد بوجود الأبوة ووجود الأبوة يتحقق بوجود البنوة "[٣]، فالرحمة والألطاف الإلهية تتأكد بوجود النعم الإلهية الكبيرة" سواء تلك التي تتعلق بخلق الإنسان أو تربيته وتعليمه أو الحساب والميزان وكذلك سائر الأمور الأخرى التي يتجسد فيها الخير للإنسان، إضافة إلى الغذاء الروحي والجسمي له"[٤]، إذ قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[٥]، ويمكن بيان المطلوب عبر الصور الآتية:

الصورة الأولى:

في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ هكذا تأتي هذه الكلمة وحدها آية قرآنية ولكنها من حيث التوازن" محورٌ في السورة بتمامها، يتصل آية بآية فيها، ويعكس ظله على كلماتها، وحينما تنطلق من هذه السورة المباركة إلى العالم الواسع تجد هذا الاسم الإلهي منبسطا عل كل مفردة فيه؛ لأنّه تعالى كتب الحياة بلغة الرحمة واللطف "[٦] ولو عقدنا مقارنة بين صفتين من صفات الله جل وعلا **(الرحيم والرحمن)**؛ الأول هو اسم عام لصفة خاصة أي إنّه وصف يستعمل لله وللخلق من أهل الإيمان والطاعة ولكن بصورة محدودة فيهم وهي الرحمة الخاصة، أما الثاني فهو اسم خاص بصفة عامة يعني إنّه اسم مخصوص لله ورحمته تشمل جميع خلقه وهي الرحمة العامة ولا يطلق لغير الله سبحانه وتعالى؛ لأنّه لا أحد لديه الرحمة العامة إلا الله تعالى[٧] وهذه أول صور التوازن تضَّمنه معنى الرحمن؛ لأنَّ لله رحمتين **(الرحمة العامة)** و**(الرحمة الخاصة).**

وتتوالى التوازنات مع كل آية ستنطلق بعدها لتثير معنى الرحمة في ضمير الإنسان وعقله بصيغة المبالغة التي توحي بالامتداد الذي يشمل كل الكون عن طريق تصوير حالة التوازن داخل الآية الواحدة نفسها والآيات الأُخر كما سيجيء بيانه وبذلك يكون محور

---

(١) البيهقي ، احمد بن الحسين (ت٤٥٨هـ)، شعب الإيمان، تح محمد السعيد بسيوني ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٤١٠هـ ، ٤٩٠/٢ ، وينظر : الطباطبائي ، الميزان ٩٧/١٩.

(٢) الشيرازي ، الامثل ، ٣٦٢/١٧.

(٣) مبدأ التقابل في القرآن الكريم ، موقع البلاغ ، balagh.comkK،١٤٤٢هـ.

(٤) الشيرازي ، الامثل ،٣٥٩/١٧.

(٥) سورة الرحمن : الآيات ١-٤.

(٦) المدرسي ، من هدى القرآن ،١٢٦/١٠.

(٧) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ٣٦٣/١٧.

التوازن للرحمة الممنوحة من الخالق لجميع عباده متزامنا مع كل كلمة وآية داخل السورة القرآنية.

الصورة الثانية للتوازن :

في قوله تعالى: **(عَلَّمَ الْقُرْآنَ)**، إنَّ هذه "النعمة الكبرى التي تتجلى فيها رحمة الرحمن بالإنسان.. القرآن.. الترجمة الصادقة الكاملة لنواميس هذا الوجود، ومنهج السماء للأرض، الذي يصل أهلها بناموس الوجود، ويقيم عقيدتهم وتصوراتهم وموازينهم وقيمهم ونظمهم وأحوالهم على الأساس الثابت الذي يقوم عليه الوجود، فيمنحهم اليسر والطمأنينة والتفاهم والتجاوب مع الناموس"[١].

ولنتمعن في دقة تقديم بيان نعمة (تعليم القرآن) التي ذكرت قبل**﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ و ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾** في الوقت الذي يفترض فيه الإشارة أولا إلى مسألة خلق الإنسان، ثم نعمة تعليم البيان ثم نعمة تعليم القرآن وهذا في قياساتنا نحن البشر، أما ترتيب الخالق جل وعلا أوجبت أن نعمل خلافا للترتيب المفترض؛ لعظمة القرآن الكريم فهو مصدر كل الخير والعطايا الإلهية العظيمة والوسيلة للوصول إلى السعادة والخيرات المادية والمعنوية[٢]، وقيل في هذا التقديم مع أنه مؤخر عن خلق الانسان؛ لأنَّ الأخير خلق لتعلم القرآن فهو" العلة الغائية لخلق الإنسان والعلة الغائية وإنْ كان وجودها الخارجي مؤخرة، إلاّ أنّها في الوجود العلمي مقدمة على الوجود الخارجي، والغاية أشرف من ذي الغاية؛ لأنَّ ذي الغاية يوجد ببركة الغاية، فقدم الأشرف والأهم من الأخسّ وهو مطابق للقاعدة العقلية، وحيث إنَّ الله تعالى في هذه السورة بصدد بيان نعمه التي أنعم الله بها على خلقه ولا نعمة أشرف من نعمة الدين الذي لا يحصل إلا ببركة القرآن افتتح كلامه به مشعرا بأنَّ القرآن هو الأصل وما سواه فرع عليه"[٣]، وإنَّ حذف المفعول الثاني للتعليم، وعدم الإفصاح عمن علم القران كان لحكمة لحكمة بالغة؛ أن جعل القرآن علما ينتفع به كل من شاء وهو المناسب لرحمانية الله سبحانه وتعالى[٤].

الصورة الثالثة للتوازن:

هي في قوله تعالى: **﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾**، إنّذكر اسم (الإنسان) بعد (القرآن) يستوجب التأمل، لأنَّ القرآن الكريم يمثل مجموعة أسرار الكون، وهو "أعظم النعم قدرا وشأنا وأرفعها مكانا ويتضمن بيان نهج السعادة التي هي غاية ما يأمله وأمل ونهاية ما يسأله سائل، قدّم ذكر تعليم القرآن على سائر النعم حتى على خلق الأنس والجن اللذين نزل القرآن لأجل تعليمهما "[٥]، ومن أروع صور التوازن دليلا على رحمة الله هو خلق الانسان ذاك

---

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ،٣٤٤٦/٦

(٢) ينظر :الشيرازي ، الامثل ، ٣٦٢/١٧.

(٣) النقوى ، محمد تقي قائنى (ت ١٤٤٠هـ) ، ضياء الفرقان في تفسير القرآن ، ط١ ، مطبعة كوهر انديشه ، ، دار الكتب الاسلامية ، ١٣٩٧هـ ، ٣٤٩/١٦-٣٥٠.

(٤) ينظر: المدرسي ، من هدى القرآن ، ١٢٧/١٠.

(٥) الطباطبائي ، الميزان ، ٩٤/١٩.

العالم الكبير بذاته؛ توازنت في كيانه ملايين النعم التي لو فقدت واحدة منها اختل التوازن في خلق الإنسان.

وتستمر جمالية الإبداع التوازني بأنَّ" أكمل خلق الإنسان بالعقل وأكمل العقل بالقرآن وأكمل كل ذلك بنعمة البيان، الذي يقوم بدور تواصل المعلومات وتناقل الخبرات من إنسان لأخر ومن أمة لأخرى ومن جيل لجيل... وهذا كله مرتكز على البيان، وما كان قادرا عليه لولا فضل الله ورحمته إذ تلَّطف عليه به ﴿**عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾"[1].

الصورة الرابعة للتوازن :

يكتمل التوازن هنا في كلمة (**عَلَّمَ**) ؛ العلم الذي تتجلى فيه الرحمة فيكون تبيانا لكل شيء، وهو العلم الذي لا يطلب عليه الأجر وينفع في كل زمان ومكان ، ويولد التقوى وينير البصيرة ويضمن سعادة الفرد والمجتمع[2]، أما البيان فهو" الكشف عن الشيء والمراد به الكلام الكاشف عمَّا في الضمير، وهو من أعجب النعم وتعليمه للإنسان من عظيم العناية الالهية المتعلقة به التي تحفظ لنوع الإنسان موقفه الإنساني وتهديه إلى كل خير"[3].

وتستمر النعم الإلهية في الآيات القرآنية ولآخر السورة ولكن لا يسع المقام للإطالة وذكرها، وأكتفي ببيان ما كان الكلام فيه من صور للتوازن ببعض النعم الممنوحة من الله سبحانه وتعالى.

المطلب الثالث: التوازن بين الآيات في السورة الواحدة:

ولنبق في رحاب عروس القرآن ونكمل ما بدأناه من توازنات غاية في الدقة فلو تمعَّنا صور التوازن بين الآيات لوجدنا نوعين من المتقابلات للتوازن؛ الحد الفاصل للمتقابل الأول من الآيات في قوله تعالى:﴿**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ** ﴾[4]، والفاصل للمتقابل الثاني في قوله تعالى: ﴿**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** ﴾[5]؛ لأنَّ "الأول يتحدث عن الظواهر الكونية في ميدان الثواب والإنارة الاجتماعية لها، والأخير يتحدث عن الجزاء الأخروي الإيجابي، أي كليهما يصب في رسم ما هو إيجابي من جانب، وأحدهما يتصل بالدنيا والثاني بالآخرة من جانب آخر، فيما تفصح عن جمالية وإحكام مثل هذا التقابل بين خطوط البناء لهذه السورة"[6]، وفي إضاءة اسأل الله أن أوفق في عرضها بين توازنيين في سورة الرحمن كالآتي:

أولا: عرض للتوازنات في المتقابل الأول:

---

(1) المدرسي ، من هدى القرآن ، ١٢٨/١٠.

(2) ينظر: قرائتي ، محسن علي نقي ، تفسير النور، ترجمة حسين صافي ، محمد حسن زراقط ، ط١ ، دار المؤرخ العربي ، بيروت – لبنان ، ١٤٣٥هـ ، ٣٦٣/٩

(3) الطباطبائي ، الميزان ، ٩٤/١٩-٩٥.

(4) سورة الرحمن : الآية ٢٧.

(5) سورة الرحمن : الآية ٧٨.

(6) البستاني ، محمود (ت ١٤٣٢هـ) ، التفسير البنائي للقرآن الكريم ، ط١، مؤسسة الطبع التابعة للاستانة الرضوية المقدسة ، مكتبة مؤمن قريش ، ١٤٢٤هـ، ٤٢٥/٤.

في قوله تعالى: ﴿**وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾[1] هو الحد الفاصل للتوازنات الإبداعية داخل السورة للشطر الأول منها، وتأتي بعد ست وعشرين آية فيها عرض الظواهر الكونية من (خلق الإنسان)، (الشمس والقمر)، (النجم والشجر)؛ في ميدان الثواب ورسم طريق للحياة التي يسودها العيش الرغيد في ظل وضع ميزان دقيق لدقائق الأمور المادية والمعنوية في قوله: ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ**﴾[2]، وهذا الوضع جاء متوازنا ما بين خلقين لله جل وعلا وهي: **(رَفَع السماءَ وَوَضَع الأرضَ)** في قوله: ﴿**وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ**﴾[3]، واقترن الميزان برفع السماء؛ لأنّه الختام النهائي لعرض الأعمال وكيّلها بأدق الأوزان الإلهية، وتستمر النعم في تعدادها مما يخرج من أديم الأرض في قوله: ﴿**فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ**﴾[4] ومما في بطون البحار من الكنوز في قوله: ﴿**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ**﴾[5]، وتختم هذه النعم بتذكير حتمي لكل إيجاد وتكوين بقوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾[6]، فالبقاء لواهب النعم ذي الجلال والإكرام.

ثانيا: عرض للتوازنات في المتقابل الثاني:

بعد أن عرض الله سبحانه وتعالى نعمه على خلقه تأتي عملية توازن من نوع مبدأ الثواب والعقاب، وتصوير المشاهد التي توحي بالقول أيها الإنسان أعطيتك كل شيء ووضعت لك الأسس والقواعد للتعامل بالعيش الكريم وسأريك العقوبة والثواب لمفترق طريق أنت تحددها فإما جهنم ﴿**يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ**﴾[7]، وإما جنتين ﴿**وَلِمَنْ خَافَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾[8]، ليبدأ نوع توازن إيجابي فيه من المغريات ما يتنافس فيه المتنافسون، فجزيل الثواب فيه تمايز أيضا لمن خاف مقام ربه وعمل على وفق ميزان توازنه الكوني والتشريعي فتكون المقارنة ما بين الجنتين كالآتي:

ـ الجنتان العاليتان... الجنتان الدانيتان
ـ ذواتا أفنان... مدهامتان
ـ عينان تجريان... عينان نضّاختان
ـ من كل فاكهة زوجان ... فاكهة ونخل ورمان
ـ متكئين على فرش بطائنها من استبرق ... متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان.
ـ فيهن قاصرات الطرف، كأنهن الياقوت والمرجان... فيهن خيرات حسان، حور مقصورات في الخيام.

والحق "إنَّ وجود الفرق بين الجنتين يعود إلى سلوكنا الدنيوي، بين شخصيات لا تصدر معصية منها في صراعها بين الشهوة والعقل، وبين شخصيات تقع فريسة التردد

---

(1) سورة الرحمن : الآية ٢٧.
(2) سورة الرحمن : الآية ٧.
(3) سورة الرحمن : الآية ١٠.
(4) سورة الرحمن : الآية ١١.
(5) سورة الرحمن : الآية ٢٢.
(6) سورة الرحمن : الآية ٢٦.
(7) سورة الرحمن : الآية ٤٤.
(8) سورة الرحمن : الآية ٤٦.

بينهما، أو تضيع منها فرص الطاعة التي تنتهزها في الحياة الدنيا بحيث تحيا بعض الحين وفي أحيانٍ كثيرة غافلة عن مجالات الطاعة، بما فيها المندوبة منعكسا ذلك على المكافأة التي ستحصل عليها في اليوم الآخر"[1].

ونستخلص من صور التوازن في سورة الرحمن جوانب عقدية وتربوية وأخلاقية هي:

١- كتب الله سبحانه وتعالى الحياة بلغة الرحمة واللطف كما كتبها بمظاهر العذاب والابتلاء، بل وتسريع العقوبات ،كل أولئك في إطار الرحمة وتحقيقها، فالابتلاء في نهاية المطاف الغاية منه تزكية الإنسان، ونظام العقوبات يحافظ على أمن المجتمع وديمومته.

٢- إنَّ لحذف مفعول التعليم الثاني الذي لم يفصح عمَّن (علَّم القرآن)، كان لحكمة بالغة، وهي جعل القرآن علما ينتفع به كلُّ من شاء[2]، وهو تعليم الحق وتعليم الحكم لقوله: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾**[3]، وتعليم الميزان الذي يظهر الفرق الفرق بين الحق والباطل **﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾**[4]، وفيه تبيان لكل شيء من الموعظة والرشد والموعظة والعمل الصالح والحقائق في القصص والأمور الغيبية.

٣- إنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان من تجليات رحمته وهو صاحب كتاب تشريع وكتاب تكوين ويتكامل خلق الإنسان بتعلمه القرآن، ويقع هذا الخلق بين تعليمين إلهيين (عَلّم القرآن) (علَّمه البيان)[5].

٤- لقد تكررت لفظة الميزان ثلاث مرات ضمن سياق واحد **﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾**[6]، وهذا يكشف عن أهمية مراعاة التصرفات كلها فهو ميزان ذو معايير دقيقة للأمور المادية والمعنوية وإنَّ عدم الالتفات إلى الميزان يؤدي إلى إحداث خلل في توازن عيش الإنسان بجلب الويلات والمفاسد.

٥- إنَّ مبدأ الثواب والعقاب عما يصدر من أعمال الإنسان، فأما جنة عرضها السماوات والارض وأما حميم آن، وكذلك مبدأ جزاء الإحسان هو إحسان أكثر، فالتمايز بالطاعات لها نصيب من الجزاء والمكافأة عند الخالق سبحانه وتعالى.

المبحث الخامس : التوازن في القصة القرآنية:

لابد من أن نعرف معنى الاقتران، وما علاقته بالتوازن وكيف يتحقق فيه؟ وهل للعامل المكاني والزماني دور في توازن اقتران القصتين؟.

---

(1) البستاني، التفسير البنائي في القرآن ، ٤٣٨/٤.
(2) ينظر: المدرسي ، من هدى القرآن ، ١٢٨/١٠.
(3) سورة النساء : الآية ١٠٥.
(4) سورة الشورى : الآية ١٧.
(5) ينظر قرائتي ، النور ، ٣٦٧/٩-٣٦٩.
(6) سورة الرحمن ، الآيات ٧ – ٩.

وسيتبين ذلك في ضوء المطالب الاتية :

المطلب الأول : مفهوم الاقتران القصصي في اللغة والاصطلاح:

أولا: الاقتران في اللغة: هو المصاحبة، يقال: اقترن الشيئان وتقارنا، وقارن الشيءُ الشيء مقارنة وقرانا اقترن به وصاحبه، وقرنت الشيءَ بالشيءِ وصلته، والقرين المصاحب[١]، "والاقتران كالازدواج في كونه اجتماع شيئين أو اشياء في معنى من المعاني، والقرن القوم المقترنون في زمن واحد، وجمعه قرون"[٢] وقد ذكر الاقتران في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ** ﴾[٣].

ويمثل الاقتران بمفهومه اللغوي ظاهرة قرآنية، وقد أشار إليها الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في كتابه البيان والتبيين فقال: "وفي القرآن معانٍ لا تكاد تفترق مثل الصلاة والزكاة، والجوع والمرض، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس"[٤].

ثانياً: القصة في اللغة: من الخبر، يقال: قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئا بعد شيء، كما في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ**﴾[٥]، أي اتبعي أثره[٦]، وقد سميت القصة قصة لتوالي أحداثها.

ثالثاً: الاقتران في الاصطلاح: هو" وقوع شيء جنب شيء آخر مع استقلال كل منهما في نفسه، وهذا يكون من غير علة في ضلال أو اهتداء فإنَّ لكل منهما استقلالا واختيارا تاما"[٧].

رابعاً: القصة القرآنية في الاصطلاح: إنَّ التعريف الاصطلاحي للقصة لا يخرج عن اللغوي مضافا إليه كونها" دلالة الأخبار والمتابعة، فهي قص أحداث ماضية تتعلق بالرسالات السماوية بأسلوب فني معجز يثير المتلقي، بمعنى أنَّ القص في القرآن الكريم بدأ حين انتهت الأحداث، وأصبحت ماضيا"[٨].

وترد القصة في السورة " لأداء غرض يقتضيه السياق الذي وردت فيه، وقلَّ أنَّ ترد القصة بكل تفاصيلها في سورة واحدة، إنّما يرد في كل سورة من التفاصيل ما يناسب وينسجم مع موضوع السورة وأغراضها "[٩]، وتُعّد القصة وسيلة من أهم الوسائل التي استثمرها القرآن الكريم في نشر الدعوة والتبليغ القرآني المتعدد، والقيم الإنسانية ويمكن عدّها خطابا توجيهيا يؤثر في النفس الإنسانية ويقيم الحجة على المعاندين والمشركين، ويسعى لتثبيت المؤمنين على الحق وتهذيبهم وتصحيح العقيدة والأخلاق في أنفسهم، وأخذ

---

(١) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قرن ، ١٣/ ٣٣٥.
(٢) الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، مادة قرن ، ٦٦٧.
(٣) سورة الزخرف : الآية ٥٣.
(٤) الجاحظ ،ابي عثمان عمرو بن بحر(ت٢٥٥هـ)، البيان والتبيين ، تح عبد السلام هارون ، ط٧، مطبعة المدني ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤١٨هـ ، ١/ ٢١
(٥) سورة القصص : الآية ١١.
(٦) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قصص ، ٧٤/٧ .
(٧) مصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ٩/ ٢٧٥-٢٧٦.
(٨) الكواز، محمد كريم ، القصص القرآني محاضرات جامعية ، مطبعة شفيق ، بغداد – العراق ، ١٤٣٥هـ ،١٥.
(٩) ابو زيد، التناسب البياني ، ٦٧.

العبر منها كما في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[1]، وسبب ذلك يعود لما "يتضمنه من متعة السرد وجمال الإيقاع وعمق المعاني مما تميل إليه النفس وتألفه ولا شك في أنَّ البلاغة ستكون عدة مسعفة لاستنطاق مكنوناتها وجمالياتها"[2]، مع الواقعية التي تتضمنها أحداث القصة فهي ليست ضرباً من الخيال أو الأحداث الرمزية.

والقصة خزين معرفي، عقدي، عبادي، أخلاقي، رسالي، وكل المستويات، فلابد من أن تقوم القصة على قانون التوازن في عرض الحقائق والوقائع والاحداث، إذ إنّها جزء من القرآن المعجز الذي يقوم على التوازن.

وترتكز القصة القرآنية على عدّة أركان أو عناصر وهي: الشخصية، والحدث، وعنصري المكان والزمان، والحوار، وعند تتبع قصص القرآن وجدت الباحثة أنه ليس بالإمكان توفر جميع هذه المفردات؛ فأحياناً يتغلب عنصر الشخصية، ويمثل الحركة الحية في القصة، فلا قيمة للأحداث والبيئات مكانيا وزمانيا، إلاّ بقدر وجود الحركة الإنسانية فيها، ويظل عرض الشخصية في القصة القرآنية خاضعا للسياق الذي يفرض نمطا دون آخر، وإنَّ القصة في القرآن تأخذ في عرضها أسلوبين، أما إشارة مجملة من دون ذكر تفاصيل أو مفصلة وهذا التفصيل يتنوع بحسب ما يقتضيه السياق، وقد تذكر القصة وتُذكر معها قصصٌ قرآنية أخُرى، وقد تنفرد السورة بقصة واحدة لشخص كما في سورة يوسف، ومن القصص التي اقترن مجيئها معا في سياق واحد أو سورة واحدة هي قصتا زكريا ومريم ﷺ، وهذا الاقتران في ثلاثة مواضع في القرآن؛ ذكرت قصة نبي الله زكريا وميلاد يحيىﷺ، ثم شرع بذكر قصة مريم وميلاد السيد المسيح ﷺ وعلى الترتيب في سورة آل عمران وسورة مريم، وكذا في سورة الأنبياء.

إنَّ التوازن في اقتران القصتين في قصتي نبي الله زكريا وأبنه يحيى ﷺ مع السيدة مريم وأبنها عيسى ﷺ يتجلى في توازن الشخصيات، والحوار، وتفضيل أو إجمال الأحداث فيها، وهذا ما سيتوضح في المطلب الثاني.

المطلب الثاني : التوازن بين قصتي زكريا ومريم ﷺ:

في سورة آل عمران قال تعالى: ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۞ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾[3] ثم شرع بذكر قصة مريم ﷺ بعد الانتهاء من عرض قصة نبي الله الله زكريا ﷺ في قوله تعالى: ﴿ **يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ۞ ذَٰلِكَ**

---

(1) سورة يوسف : الآية ١١١.

(2) الناصر، سعاد عبدالله، بلاغة القص في القرآن الكريم وافاق التلقي، ط١، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، دار الكتب القطرية، ١٤٣٦هـ ، ٣٠-٣١.

(3) سورة آل عمران : الآيات ٣٧-٣٩.

مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۞ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾[1].

وتبدأ الآية **(هُنَالِكَ)** ومعناها: "عند ذلك والأصل فيه الطرف من المكان وهي إشارة للبعيد، ومعنى الآية عند ذلك الذي رأى من فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف على خلاف ما جرت العادة "[2]، وقيل في ذلك المكان أو في ذلك الزمان[3].

إنَّ عنصري الزمان والمكان متجليان في قصتي زكريا ومريم عليهما السلام، فعنصر" الزمن له مكانه الملحوظ في سير الأحداث القصصية وفي تنميتها وانضاجها وإنَّ خروج الحدث القصصي عن حدود الزمن وقيوده يجعله في عزلة عن الحياة وفي انقطاع عن الروافد التي يتغذى منها "[4].

وهذا ما تملَّك زكريا حالة من التعجب مما رأى ما عند مريم من رزق وفَّره الله لها؛ تجتمع مع ساعة الدعاء ومكان الدعاء وتكون مؤثرة في الإجابة، والدعاء حبل متصل بين المرء وربه، وهنا سأل زكريا ربَّه أن يكرمه بذرية طيبة كما أكرم مريم من الكرامات، فالله قادر على أن يرزق خارج سياق الأسباب المادية والطبيعية.

ونستخلص من هذا الاقتران لتوالي القصتين أنّ هناك توازنات وُضعت بدقة وبعناية إلهية لا يتخيل غير مبدع رسم أحداثها، ويمكن بيان ذلك عبر الآتي:

أولاً: التوازن في عناصر القصة:

هناك حالة من التوازن ما بين البيئة المحرِّكة للعناصر الثلاث: الزمان، والمكان، والحدث، وبين الطلب الذي طلبه زكريا من ربه؛ فاجتماع وقت مبارك وهو فضيلة الصلاة**﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي﴾**، ومكان إقامة مريم **(الْمِحْرَابَ)** الذي تؤدي فيه طقوس عبادتها لله، وحدث **﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾** لا يجاري سنن الطبيعة فهو ليس كأي رزق، كل هذا كفيل بأنْ يكون الطلب متوازنا مع صعوبة توفر كل هذه البيئات، وهنالك استجاب الله لدعائه كأفضل ما تكون الاستجابة وجاءته البشرى بنداء **﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾**.

ثانياً: التوازن في البشارة المهداة للشخصيات:

ولنتمعن في البشارة في القصتين فقد تضمنت توازنيين هما:

١- توازن البشارة ترددت بين نبي الله يحيى وعيسى عليهما السلام؛ فبشرى زكريا عليه السلام في قوله: **﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾**

---

(1) سورة آل عمران : الآيات ٤٢-٤٥.

(2) الطوسي ، التبيان في تفسير القرآن ، ٤٤٨/٢.

(3) ينظر: الجنابذي ، سلطان محمد ، تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة ،ط٢، مؤسسة الاعلمي ، مكتبة مؤمن قريش ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٨هـ ،٢٦٠/١.

(4)الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ١٣٩٥هـ، ٨٢.

وبشرى مريم في قوله: ﴿**يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** ﴾.

٢- التوازن الزماني، فوقت حدوثها في زمن واحد.

٣- التوازن في كيفية حدوث البشارة: ولادة نبي الله يحيى عليه السلام من أبوين شيخين كبيرين لا يتوقع منهما الإنجاب، وعيسى عليه السلام ولد من غير أب.

وهنا اكتملت صورة التوازن لمحور آخر من القصة القرآنية وهو توازن الشخصيات ما بين (يحيى وعيسى) عليهما السلام والحادثة الإعجازية لنوعية البشارة وكيفية حدوثها ومكانة كل منهما، وإنَّ " الخصائص المشتركة بينهما عن طريق إنَّ الله آتى يحيى ما آتاه لعيسى من الحكم صبيا وعدّه حنانا من لدنه وزكاة وبرا بوالديه غير جبارٍ كما كان عيسى، وسلَّم عليه في المواطن الثلاث كعيسى، وعدّه سيداً كما جعل عيسى وجيهاً عنده، وجعله حصوراً ونبياً من الصالحين مثل عيسى "[١].

ثالثاً: التوازن المجمل بين القصتين:

هناك من الشبه بين قصة يحيى وعيسى عليهما السلام من بدايتها بالولادة وختامها بالسلام، وبذلك يكون "انتقال من قصة يحيى إلى قصة عيسى عليهما السلام وبين القصتين شبه تام فولادتهما على خرق العادة وختمت بالسلام وإنَّ السلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يُبعث حيا، كما أخبره الله عن يحيى عليه السلام بذلك إلى غير ذلك من وجوه الشبه وقد صدق يحيى بعيسى وآمن به، وكان معاصرا لعيسى بن مريم عليهما السلام"[٢].

رابعاً: التوازن في تشابه الأحداث:

ففي السورة ذكر للهبات السماوية لأنبيائه جاءت مشابهة لهبة زكريا ومريم عليهما السلام وهذا " من لطيف التوافق في هذه القصص الموردة في السورة أنّه تعالى ذكّر زكريا وأنّه وهب له يحيى، وذكر مريم وانّه وهب لها عيسى، وذكر إبراهيم وأنّه وهب له إسحاق ويعقوب، وذكر موسى وأنّه وهب له هارون عليهم السلام "[٣].

وتكملتها في سورة مريم؛ قال تعالى:﴿**ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۞ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۞ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۞ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا** ﴾[٤]، ثم أردفت قصة زكريا بقصة مريم عليهما السلام، قال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ**

---

(١) فضل الله ، من وحي القرآن ، ٣٥٧/٥.
(٢) الطباطبائي ، الميزان ، ١٤/ ٣٤.
(٣) الطباطبائي، الميزان : ١٤/ ٤١.
(٤) سورة مريم : الآيات ٢-٨.

أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۞ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۞ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۞ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۞ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾[1]، وفي بيان ذلك " أنه تعالى قدم قصة يحيى على قصة عيسى ﷺ؛ لأنَّ خلق الولد من شيخين فانيين أقرب إلى مناهج العادات من تخليق الولد لا من الأب البتة، وأحسن الطرق في التعليم والتفهيم الأخذ من الأقرب فالأقرب مترقياً إلى الاصعب فالأصعب "[2]، والعجب من هذا الإعجاز الخارق للعادة في ولادة يحيى، وإن هنالك ما هو أعجب منه وهو ولادة عيسى من غير أب.

وفي سورة الأنبياء ذكرت قصتيهما ﷺ بصورة مجملة؛ في قوله تعالى:**﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۞ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾**[3]، بعدها قال جل وعلا: **﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾**[4].

خامساً: التوازن في الثناء:

اكتمل الاقتران في سورة الأنبياء بذكر الثناء لشخصيات القصتين مجملا بعد أن فصّل في صفاتهم الحميدة في سورة آل عمران ومريم، ولقد مدح الله بيت زكريا وهم يحيى وأبوه وأمه ﷺ[5] بقوله: **﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾**، "هذه الأسرة قامت على أساس المسارعة في الخيرات والتي تتجمع وتتعاون ويندفع أفرادها إلى أعمال الخير التي تعود عليهم وعلى مجتمعهم بالازدهار والتقدم "[6]، وقوله تعالى: **﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾**، فهم " يبادرون في فعل الطاعات ويدعون الله رغبة في ثوابه ورهبة من عقابه وكانوا لله خاشعين متواضعين، وإجابة الدعاء لا تكون إلا ثوابا "[7].

وفي قوله: **﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾**، هذا الثناء لمريم مثال المرأة الفاضلة التي امتلكت أعظم كمالات المرأة من العفة والطهارة، وتنزهت عن كل ما يشين،" إنَّ الله قد خلق لكل الأجيال والأفراد والطبقات نموذجا يقتدى به ومن النماذج المطلوبة في كل زمان وخصوصا في وقتنا؛ المرأة القدوة، وكانت تلك المرأة القدوة هي مريم بنت عمران، التي اعتصمت من الرذيلة، وفي قوله: **﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾**، فجعلها الله للناس آية"[8].

---

(1) سورة مريم : الآيات ١٦-٢٠.
(2) الرازي ، مفاتيح الغيب ، ٥٢١/٢١.
(3) سورة الانبياء: الآيات ٨٩-٩٠.
(4) سورة الانبياء :الآية ٩١.
(5) الطباطبائي ، الميزان ، ١٤/ ٢٧.
(6) المدرسي ، من هدى القرآن ، ٣٢٩/٥.
(7) الطوسي ، التبيان في تفسير القرآن ، ٢٧٥/٧.
(8) ينظر: المدرسي ، من هدى القرآن ، ٣٣٠/٥.

المطلب الثالث : قانون التوازن في المتشابه اللفظي في القصة القرآنية:

عند التمعن في قراءة القرآن الكريم " نجد أحيانا في القصة الواحدة أو المسألة الواحدة التي يذكرها القرآن اختلافا في ذكر المواقف والعبارات فهل يعد هذا تناقضا؟ فإذا كان أحد الموضعين صحيحا فلا شك أنَّ الآخر غير صحيح !"[١]، وقد عرّفها الزركشي(ت٧٩٤هـ) فقال:" هو أيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء"[٢]، وعرّفها السيوطي(ت٩١١هـ) بتوسع أكثر فقال: إيراد القصة الواحدة في صور صور شتى، وفواضل مختلفة، بأن يأتي في موضع واحد مقدماً وفي آخر مؤخراً، كقوله تعالى:﴿**وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ**﴾[٣]، وفي قوله تعالى: ﴿**وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا**﴾[٤]، وفي موضع بزيادة وفي آخر بدونها، وفي موضع معرفاً وفي آخر منكراً، أو مفرداً وفي آخر جمعاً، أو بحرف وفي آخر بحرف آخر[٥].

وسيتطرق البحث إلى بعض هذه الآيات لنرى كيف وضع الله سبحانه وتعالى كل كلمة الموضع الذي يتناسب مع السياق ويعطي معنىً جديداً غير المعنى للموضع الآخر، وهذا هو التوازن الدقيق الذي نجده في كتاب الله ، فكل حرف وكل كلمة وزنت بدقة لا مثيل لها في موضعها من النص القرآني، وهذا الوزن هو الذي يُغيِّر من رتابة السياق الواحد، ويثبت فيه روح الجدة والحداثة، ويعمل الفكر للتأمل والنظر في آيات الله ومداليلها، لبيان المعنى ووضوح الفهم عندنا، وهنا يذكر البحث الأمثلة القرآنية التي تبين هذا المعنى وكالآتي:

أولاً: إبدال حرف بآخر:

في قصة بني إسرائيل، وانقضاء فترة التحير الجزائي التي فرضها الله عليهم عقوبة في صحراء سيناء طيلة أربعين عاماً، وجاء الأمر بدخول البلاد التي حُرمّ دخولها عليهم، واختيار الإقامة فيها[٦]، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا**﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ**﴾[٨]، واستبدل بحرف العطف (الفاء) في الآية الأولى في قوله: **(فَكُلُوا)**، حرف العطف (الواو) في الآية الثانية في قوله: **(وَكُلُوا)**.

وقد قيل إنَّ قوله: ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا**﴾، العطف بحرف (الفاء) على **(ادْخُلُوا)**: أي تفيد الترتيب والتعقيب[٩]، لأنّ الدخول يعقبه الاستمتاع والتلذذ بما في القرية من عيش رغيد، لقوله: **(رَغَدًا)**، فقيل: "أي أين شئتم رَغَداً، أي موسعا عليكم مستمتعين بما

---

(١) ينظر: السامرائي ، فاضل ، على طريق التفسير البياني ، النشر العلمي ، جامعة الشارقة ، الامارات المتحدة العربية ، ١٤٢٣هـ ، ١٥/١.
(٢) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ٨٧.
(٣) سورة البقرة : الآية ٥٨.
(٤) سورة الأعراف : الآية ١٦١.
(٥) ينظر: السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ،٩٩٥.
(٦) ينظر: الآملي ، تسنيم ، ٦١٧/٤.
(٧) سورة البقرة : الآية ٥٨.
(٨) سورة الأعراف : الآية ١٦١.
(٩) ينظر الطبرسي ، مجمع البيان ، ٢٤٧/١.

شئتم من طعام القرية بعد المن والسلوى، وقد قيل إنَّ هذه إباحة لهم منه لغنائمها وتملك أموالها إتماما للنعمة عليهم"[١].

وفي قوله :﴿**وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ**﴾، العطف بحرف **(الواو)** على **(اسْكُنُوا)**،" فالفرق أنّه لا بد من دخول القرية أولًا، ثم سكونها ثانياً، **(اسْكُنُوا)**، **(وَكُلُوا)** بالواو، والفرق، إنَّ الدخول حالة مخصوصة، كما يوجد بعضها ينعدم، فإنّه إنّما يكون داخلًا في أول دخوله، وأما ما بعد ذلك فيكون سكوناً لا دخولًا، والدخول حالة منقضية زائلة وليس لها استمرار، فلا جرم يحسن ذكر فاء التعقيب بعده، فلهذا قال: ﴿**ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ**﴾، وأما السكون فحالة مستمرة باقية، فيكون الأكل حاصلًا معه لا عقيبه "[٢].

ودليل الفرق بين حرفي **(الفاء والكاف)** أصبح بيّناً من سياق الآية والقرائن الدالة على كل منهما، فحدث الدخول يختلف عن السكن، وتوازن الحروف والألفاظ مع بعضها في النص القرآني، وجه الأحداث بما لا يكون هناك تشابه في الآيات، فكل آية كان لها حدث اختلف عن الآخر.

ثانياً : إبدال كلمة بأخرى :

فقد جاء في قصة موسى عليه السلام في ضرب الحجر، والاستسقاء وطلب الماء لبني اسرائيل لمَّا خرجوا من مصر ووقعوا في الصحراء، وأصابهم ظمأ شديداً، واستعانوا بنبي الله موسى عليه السلام، لطلب الماء من الله أن يسقيهم[٣]، كما جاء في سورة البقرة في قوله تعالى:﴿**وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا** ﴾[٤]، وجاء في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا** ﴾[٥].

ولنتأمل **(فانفجرت)** و **(فانبجست)** فقيل الانفجار: هو الانشقاق سواء كان المجرى ضيقاً أم واسعاً، وعند ازدياد الحاجة له، أي كلما اشتدت حاجتهم له، والانبجاس: هو خصوص الانشقاق الضيق، في وقت الحاجة القليلة، بمعنى إنَّ الانفجار عام، والانبجاس خاص والجمع بين الأثنين ممكن[٦]، وفي توضيح أكثر لمعنى اللفظين قيل إنَّ:" الانبجاس: هو الجريان الخفيف والمعتدل للماء، والانفجار هو الجريان الشديد له، لذلك فإنَّ الانبجاس ناظر إلى المرحلة الابتدائية لتدفق عين الماء بعد الضرب بالعصا عندما يكون المجرى ضيقاً وجريان الماء قليلاً، والانفجار ناظر إلى المرحلة النهائية منه حين يكون المجرى واسعاً وتدفق الماء قوياً؛ إذ يكون الجريان الطبيعي في ينابيع الماء"[٧]، وقيل كلاهما صحيح إلا أنّه أنّه اختار كل تعبير بحسب السياق الذي ورد فيه وهو ما تقتضيه البلاغة[٨].

---

(١) المصدر نفسه، ٢٤٧/١.
(٢) الرازي ، مفاتيح الغيب، ٣٨٩/١٥.
(٣) ينظر: السبزواري ، مواهب الرحمن ، ٣٥٩/١.
(٤) سورة البقرة : الآية ٦٠.
(٥) سورة الأعراف : الآية ١٦٠.
(٦) ينظر: الرازي ، مفاتيح الغيب، ٥٢٩/٣، وينظر: العمادي،إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم ،١٢٩/١.
(٧) الاملي ، تسنيم ،٦٦٣/٤.
(٨) ينظر: المصدر نفسه ، ٤/ ٦٦٤

يتضح من الأقوال السابقة أن اللفظين **(الانفجار والانبجاس)** لكل منهما دلالة تختلف عن الاخرى، وورود كل منهما في سياق الآيات كان توازناً مع الحدث الواقعي لحاجة بني إسرائيل للماء، واستعمال القدر الذي يحتاجونه من القلة والكثرة، وتذهب الباحثة إلى أنَّ البلاغة ليست سبب الوضع للفظين ضمن السياق، فالقرآن من وضع الحرف إلى الكلمة إلى الآية القرآنية هو بلاغة، بل منتهى البلاغة الإلهية.

وبذلك فإنَّ الألفاظ القرآنية لها دلالتها في سياق النص القرآني، فلا يمكن أن يرادف لفظ لفظا آخر فيتساوى معه في المعنى، بل إنَّ اللفظة تتكرر في أكثر من موضع ضمن السياق لتدل على معنى آخر مغاير في كل سياق، وهذا إبراز للمعنى في قوته وجلائه، وتصوير حقيقي للمشهد في توازن للحدث والسياق، يحقق شعوراً بالتدفق والحياة للحدث القرآني.

المبحث السادس: التوازن في الفاصلة القرآنية

ويمكن بيان أبعاد هذا التوازن في جملة من المطالب وهي:

المطلب الأول: بين يدي الفاصلة القرآنية:

ويمكن بيان ذلك عبر الآتي:

أولا: القوافي والأسجاع والفواصل:

القافية في اللغة من "الأصل الثلاثي قفا، ألفها منقلبة عن واو، وقافية كل شيء آخره، ومنه القفى"[١].

وتعريفها في الاصطلاح هو : "القافية من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله، مع حركة الحرف الذي قبل الساكن والقافية على ضوء هذا التعريف تكون مرة بعض كلمة، ومرة كلمة، ومرة كلمتين "[٢]، وقيل في تعريفها هي آخر كلمة من البيت[٣].

وقد سميت القافية قافية؛ لأنَّ الشاعر يقفوها ولا يحيد عنها[٤] وهي قيد للقصيدة وخاتمة وخاتمة للإيقاع الموزون في البيت يجب التزامه في أواخر أبيات القصيدة حتى لا تضطرب موسيقاها ولا يختل ترتيبها[٥].

أما السجع في اللغة فهو: "استوى واستقام وأشبه بعضه بعضا، والسجع الكلام المقفى"[٦].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب ،١٩٢/١٥.
(٢) القيرواني ، العمدة ، ١٥١/١-١٥٢.
(٣) ينظر: المصدر نفسه ، ١٥٣/١ ، وينظر الجرجاني ، التعريفات ، ١٤٣.
(٤) ينظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ٥٣.
(٥) ينظر: زاهد، زهير غازي، الفاصلة القرآنية طبيعتها الايقاعية وانواعها ووظيفتها، مجلة كلية التربية للبنات، المجلد ٢٠ ٢٠ (٣) ، ١٤٣٠هـ.
(٦) ابن منظور، لسان العرب ، مادة سجع ، ١٥٠/٨.

والسجع في الاصطلاح:" تماثل الحروف في مقاطع الفصول "[١] وقيل: هي " تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد "[٢].

أمّا الفاصلة في اللغة فقد وردت بمعانٍ عدة أهمها: بون ما بين الشيئين، والقطع، والقضاء بين الحق والباطل، والفاصلة: الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام، وقد فَصل النَّظَم [٣].

وفي الاصطلاح فلها تعريفات في النحو وفي علوم القرآن، والأخير ما يهم بحثنا إذْ "عُرّفَتْ الفاصلة سلبا وإيجابا، أي تحديد الشيء بما فيه، وتحديده بما ليس فيه أو بالمقارنة مع قافية الشعر وقرينة النثر"[٤]، فقيل في تعريفها:" الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني"[٥]، وكذلك عُرّفَتْ بأنّها "كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع"[٦]، السجع"[٦]، وأطلق على تسميتها برؤوس الآيات، تميّزا لها من مصطلحات الشعر والنثر[٧]، والنثر[٧]، ونرى أنَّ "التعريفات متقاربة والمفهوم مختلف بين أصحاب إعجاز القرآن وبين البلاغيين؛ فأصحاب الإعجاز أرادوا أن يخصصوا للقرآن مصطلح الفواصل، ولما كان قسم من الفواصل القرآنية توافق السجع جعلها البلاغيون سجعا"[٨] وليس هناك ما يمنع من إطلاق كلمة السجع على ما تماثل من فواصل القرآن الكريم[٩].

ثانياً: الفرق بين السجع والفاصلة القرآنية:

إنَّ الذي رفض السجع في القرآن الكريم من العلماء رفضه لأنّه يرى أنَّ السجع تتبعه المعاني، فهو الذي يقصد في نفسه ثم يحمل المعنى عليه، والفواصل تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها فالفواصل بلاغة والأسجاع عيب[١٠].

وقد اختلف الدارسون للإعجاز في صحة تسمية الفاصلة القرآنية سجعاً ومباينتها لقافية الشعر واختلفوا في قيمتها، فذهب بعضهم إلى الرفع من شأنها وعدّها من أوجه بلاغة القرآن واعجازه، وذهب آخرون إلى التقليل من قيمتها[١١].

ومهما كان الخلاف في الفاصلة القرآنية فإنَّ" القرآن احتوى كل هذه الإجادات في معانيه التي شملت الحياة وما بعدها، وفي أساليب تعبيره وألوان ما تحتويه من بعض صفات الشعر كالفواصل التي تشبه قوافيه كالإيقاع المتوازن الذي له شبه بإيقاع الشعر الموزون

---

(١) ابن سنان، سر الفصاحة ، ١٦٣.
(٢) ابن الاثير ، المثل السائر ، ١/ ٢٧١.
(٣) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ١١/ ٥٢١.
(٤) ابو حسان، جمال ، الدلالات المعنوية لفواصل الآيات القرآنية، ط١،دار الفتح للدراسات والنشر، ١٤١٠هـ، ٨٦-٩١.
(٥) الرماني والخطابي وعبد القاهر، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط٣، دار المعارف بمصر، ١٣٧٦هـ،٩٧.
(٦) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ٥٠ .
(٧) ينظر: داود، العربية وعلم اللغة الحديث ، ٢٦.
(٨) زاهد، الفاصلة القرآنية طبيعتها الايقاعية وانواعها ووظيفتها.
(٩) ينظر: ابو حسان، الدلالات المعنوية لفواصل الآيات ، ١٠٧.
(١٠) ينظر:الرماني والخطابي وعبد القاهر، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ،٩٧ وينظر: الباقلاني، ابي بكر محمد بن الطيب (ت٤٠٣هـ)، إعجاز القرآن، دار المعارف بمصر، ١٣٩١هـ، ٥٧، ينظر زهير غازي زاهد، الفاصلة القرآنية طبيعتها الايقاعية وانواعها ووظيفتها.
(١١) ينظر: ابو زيد، التناسب البياني ، ٣٥١.

أحيانا، والاختلاف شبه الفواصل بالسجع لكنها اختلفت عن سجع الكهان الغامض والمتكلف والمكمل في كثرة تكراره، أما السجع في الفواصل فقد أتى من دون تكلف؛ لأنه تابع للمعنى مكمل له وتزيين لإيقاع عبارته"[١].

وتذهب الباحثة إلى أنَّ دعوى المشابهة بين كلام الله كونه فواصل قرآنية وكلام الكهان كونه سجعاً غير ناهضة؛ فالسجعُ موجودٌ في كلام العرب، وهو ليس من الكهان، فإذا كانت المعاني تابعة للسجع في فواصل الآيات فما الضير من وجود السجع في الفواصل؟ وتكمن العلة في التسمية بسجع الكهان وليس في السجع نفسه، واعتبار السجع محّسناً بديعياً لفظياً كباقي المحسنات الموجودة في القرآن الكريم.

وتُعّد الفاصلة القرآنية أحد أهم دعائم الإعجاز في الرد على "من زعم أنَّ القران يقصد إلى المغايرة في نظمه بالتقديم والتأخير رعاية للفاصلة أو حفاظاً على السجع في الوقت الذي يعيبون فيه ضرورة ائتلاف اللفظ والوزن في الشعر وعدم الخروج على غير النسق المعهود في ترتيب الكلام لتصحيح الوزن"[٢]، ومن هذه الآراء التي عرضناها يتبين ما واجه العلماء العلماء من صعوبة في تحديد الفاصلة وتعريفها، والسبب يعود إلى تنوع أشكال الفاصلة القرآنية وتعدد صورها ووظيفتها في النص القرآني، فهي ليست على نمط واحد، فقد تكون كلمة، وقد تكون مقطعاً من كلمات، وقد تكون جملة.

ثالثا: وظائف الفاصلة القرآنية:

إنَّ وجود الفاصلة في القرآن بشكل مطرد هو جزء من اطّراد النظام في القرآن كله، بل وفي الوجود بأسرِهِ، فهي تنهض بالدور الذي يقوم به النظام في كل شيء فني، وهي ركن وطيد من أركان الآية لفظاً ومعنىً، بقدر ما هي ركن في المقطع والسورة ومجموع القرآن[٣].

وهنالك من عدّ الفاصلة القرآنية جمالية للإيقاع، والقيمة الصوتية فقط وأنَّ وجودها رعاية للتناسق الصوتي عند انتهاء الآية، وهذا إجحاف بحق جانب إعجازي في نظم القرآن وهو الفاصلة، " ولا شك أنَّ الكلمة أو الجملة أو المقطع الذي يُختم به الآية قيمة خاصة، لأنّه عنصر يؤدي وظيفة مزدوجة في نظم الآية فهو من ناحية يتصل بالمعنى ويتمُّه، ومن ناحية أخرى يتصل بنظام الفواصل وينسّقها، ولهذا كان حظُّه من العناية أكبر، وهذا الحكم يعمُّ الكلام المنظوم بأشكاله "[٤]، فالقرآن لم يغادر هذا الهدف فهو مبنيٌّ على التوازن بين اللفظ والمعنى.

وللفاصلة القرآنية وظائف منها:

---

(١) زهير، الفاصلة القرآنية طبيعتها الايقاعية وانواعها ووظيفتها.
(٢) الخضري ، محمد الامين ،من اسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية،(د ط) ، مكتبة فلسطين ،القاهرة، ١٤١٤هـ ، ٤.
(٣) ينظر: الحسناوي ، محمد ، الفاصلة في القرآن، ط٢ ، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان- الاردن ، ١٤٢١هـ ، ١٩٢.
(٤) ابو زيد ، التناسب البياني ، ٣٥٢.

١- أنّها تؤدي إلى تحسين الكلام[١]، والتمكين من التطريب لمجيء المقطع الأخير مختوم بحروف المد واللين والحلق والنون[٢]، وتضاف إليها أنّها تحقق التوازن الصوتي والتناغم الإيقاعي، وهذه الوظيفة فنية مكملة لشكل الفاصلة وصوتها، وهذا لا يقلل من أهميتها فلها مؤلفات في مباحث الوقف والابتداء وفائدتها "لاستراحة القارئ وتدبره لما يقرأ وإفهام السامع ثم الإيقاع الموسيقي"[٣].

٢- تشتمل الفاصلة القرآنية على الكثير من الجوانب النفسية، فهي مؤثرة في الحالة النفس البشرية، لما تحققه من إيفاء المعنى للسياق، وجذب انتباه المتلقي إلى النص وتحببه فيه، لأنَّ الكلام إذا ورد على نمط واحد لم يسلم من التكلف وإثارة الملل[٤].

٣- أنّها تعين على إدراك وإفهام المعاني وإبراز المقصود[٥]، وذلك بأن "تأتي اللفظة لتؤدي معنى السياق، وتؤدي تناسبا في الايقاع، دون أن يطغى هذا على ذاك، أو يخضع النظم للضرورات "[٦]، بل إنَّ الفاصلة تزيد الجملة قوة وتمكنا في بيان المعنى؛ لأنَّ بها يتمُّ بيان المعنى ويزداد وضوحه جلاءً وقوة[٧]، وهي الفائدة الأهم في في دلالاتها المعنوية، فليس التناسق الصوتي فيها أهم فوائدها، بل عملية التوازن بينهما هو ما يبرز قيمة وجود الفاصلة طالت أم قصرت، "ومهما يكن من أمر، فإنَّ ورود ما ورد من هذا القبيل في القرآن ينظر فيه إلى غرضه الفني مضافا إلى الغرض التشريعي، وهما متعانقان "[٨].

٤- وللفاصلة أهمية كبيرة في "بيان ثراء النص القرآني بالمعاني المتكاثرة والتي سبيلها التفكير فيه وكدّ الذهن له "[٩]، وبيان إعجازه في اختيار ألفاظه، بحيث لا تسد لفظة محل أخرى، ولا يمكن إيجاد البديل للفظة القرآنية إلا من الثراء بالمعاني في ذلك المحل، وذلك لأنّها ذات موقع خاص، كونها في نهايات الآيات.

المطلب الثاني: توازن الإيقاع الصوتي وتصوير المعنى في الفاصلة:

في مقارنة رائعة بين الوزن والتوازن وجمالية كل منهما وخصوصيته سطرت لنا من كتاب البيان في روائع القرآن فقيل: " إنَّ الوزن والتوازن كليهما من صور الإيقاع وهما أيضا من القيم الصوتية التي تصلح أنَّ تكون مجالا للفن والجمال، أما الوزن فبحسبك أن تتأمل ما يمنحه من الجمال للشعر والموسيقى ونحوهما، وأما التوازن فيكفي أنْ تنصت على صوت قارئ مجيد يرتّل القرآن الكريم – ولا اقصد ترتيل التطريب بل الترتيل بدون

---

(١) ينظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ٥٢.
(٢) ينظر: المصدر نفسه ، ٦٨/١.
(٣) الحسناوي ، الفاصلة في القرآن ، ١٧٩.
(٤) ينظر: الجيوسي ، التعبير القرآني والدلالة النفسية ، ١٨٧.
(٥) ينظر: المصدر نفسه،١٨٧
(٦) الشاذلي، سيد قطب بن ابراهيم (ت ١٣٨٦هـ)،التصوير الفني ط١٧، دار الشروق، القاهرة، ١٤٢٥هـ، ٨٨.
(٧) ينظر: بدوي ، من بلاغة القرآن ، ٦٤.
(٨) الصغير، محمد حسين، الصوت اللغوي في القرآن الكريم، ط١، دار المؤرخ العربي بيروت – لبنان ، ١٤٢٠هـ، ١٥٩.
(٩) ابو حسان، الدلالات المعنوية لفواصل الآيات القرآنية ،١١٩.

تطريب – وسترى عندئذ أنَّ ما في القرآن من جمال التوازن قد يجاوز أحيانا جمال الوزن أمّا هذا التقارب وذاك الانتظام فهو الذي نجده في إيقاع الأسلوب القرآني "[1].

ويتسم النظام الصوتي بمظهرين:

الأول: في ترتيب الحروف في كلماتها من حيث الحركات والسكون؛ حركة تعقبها حركة أو يعقبها سكون، وهذا يستهوي الأذن قبل أن تعرف الحرف نفسه وحقيقته.

الثاني: وضع الحروف بعضها مع بعض من حيث صفاتها، فهذا حرف مجهور، وآخر شديد، ومهموس، وفيه صفير، وقلقلة.

وهذان المظهران يمثِّلان جمال الإيقاع الصوتي في القرآن أو ما يسمَّى بالجرس الصوتي أو يعبّر عنها موسيقى الألفاظ[2]، وسنتتبع هذا التوازن في ثلاثة مواضع من القرآن القرآن الكريم وعلى النحو الاتي:

أ ـ حينما نستمع خاشعين إلى صيغة موزونة منتظمة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾[3] ننظره وكأنّنا نلمسه، ونتحسسه وكأنّنا نحيا به، ونتعامل مع وقع خاص يُذكّرنا بالعطاء غير المحدود للنبي ﷺ[4]، والمبالغة في الكثرة يشعر اللفظ بعظم الواهب والموهوب منه والموهوب، فيالها من نعمة ما أعظمها وما أجلها، فياله من تشريف ما أعلاه[5]، وهذا الإعطاء إخراج الشيء إلى أخذ له، وهو على وجهين: إعطاء تمليك وإعطاء وإعطاء غير تمليك، فإعطاء الكوثر إعطاء تمليك، كإعطاء الأجر[6] والكوثر من الكثرة، وبمعنى الخير الكثير، وهذا المعنى له أكثر من مصداق يَتصوّر منها: الوحي، النبوة، القرآن، مقام الشفاعة، العلم الكثير، والأخلاق الحسنة، ولكن قرينة الآية ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾[7] تدل على أنَّ المقصود من الكوثر النسل المبارك المتصل غير المنقطع للنبي الأكرم ﷺ، وأي نسل أكثر بركة من نسل فاطمة عليها السلام الباقي على مرِّ الزمان[8].

والتوازن الحاصل بين الآيات لا يعزى إلى انتهاء الفاصلة بحرف متناسق واحد مع بقية الفواصل، مع أنَّ هذا جانب لا يمكن إغفاله، ولكنه ليس سببا للتوازن، لأنَّ قيمة التوازن في انتهاء الفاصلة كان في معنى لفظ (الإعطاء) من الجهة الواهبة، وقيمة ذلك العطاء الذي توازن مع أهمية الموهوب.

ب ـ في سورة الأعلى ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۞ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۞ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى**﴾[9] نراها ذات إيقاع واحد متّزن، وهو

---

(1) حسان، البيان في روائع القرآن ، ٢٧٠.
(2) ينظر :عباس، حسن فضل إعجاز القرآن، ط٢،منشورات جامعة القدس المفتوحة ، مكتبة فلسطين، ١٤٢٨هـ، ١٠٣.
(3) سورة الكوثر ، الآية ١.
(4) ينظر: الصغير، الصوت اللغوي في القرآن ، ١٥٩.
(5) ينظر: الرازي ، مفاتيح الغيب، ٣١١/٣٢.
(6) ينظر: الطوسي ، التبيان ، ٤١٧/١٠.
(7) سورة الكوثر : الآية ٣.
(8) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٣٢/ ٣١٤،وينظر: الطباطبائي، الميزان ، ٣٧١/٢٠، وينظر: قرائتي، النور، ٥٨٠/١٠. ٥٨٠/١٠.
(9) سورة الاعلى ، الآيات ١-٥.

وهو متماثل في جميع الآيات، وفواصلها كلها ذات نهاية موسيقية واحدة بالحرف المصوّت الطويل الألف، وهو إيقاع قصير الموجة، تلائم فيه الجو الذي يشيع في السورة في الآيات الأولى منه؛ جو التسبيح للرب الأعلى، والترنُم بنعمه وآلائه المتجلية في الأنفس والطبيعة وتوازن مع امتداد الصوت بالألف في نهاية فواصل موسيقية رقيقة[١].

إنَّ الآيات الأربعة الأولى من سورة الأعلى تصف التوازن فيها في التدبير الإلهي في خلقه وهي برهان على ربوبيته المطلقة[٢]، وأنَّ كل آية من الآيات فيها لون من ألوان التوازن، ففي كلمة **(سَبِّحِ)** من التسبيح، وهو تنزيه الله تعالى وتجريد القول عن كل ما لا يناسب ساحة قدسه من الصفات، فتنزيهه أن لا يذكر معه ما هو تعالى منزّهٌ عنه كذكر الآلهة والشركاء والشفعاء أو ذكر بعض ما لا يليق بساحة قدسه تعالى من الأفعال كالعجز والجهل والظلم والغفلة[٣]، وحرف السين في **(سَبِّحِ)** حرف استعلاء توازن مع المعنى الذي الذي استعلى عليه الخالق بالتنزيه الذي أشار إليه المفسّرون، وكذلك التوازن في قوله: **﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾** خلق الشيء، أجزائِه، والتسوية جعلها متوازنة، إذ يوضع كل في موضعه الذي يليق به، ويعطى حقه كوضع كل عضو من أعضاء الإنسان فيما يناسبه من الموضع المناسب[٤].

وفي قوله تعالى: **﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى﴾**، "أي جَعَلَ الأشياء التي خلقها على مقادير مخصوصة وحدود معينة في ذواتها وصفاتها وأفعالها لا تتعداها وجهّزها بما يناسب ما قدر لها فهداها إلى ما قدر فكل يسلك نحو ما قدر له بهداية ربانية تكوينية"[٥]، وكذلك إخراج المرعى لتغذي الحيوان ثم جعله غثاء أحوى من مصاديق التوازن والتدبير الربوبي.

ج ـ ولننظر إلى تلك الصورة التي رسمها القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هذه التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾**[٦]، إذ إنَّ في كلمات إبراهيم عليه السلام تحقيراً لهذه التماثيل بتعبير **(مَا هذه)** وكذلك بتعبير **(التَّمَاثِيلُ)**، لأنَّ التمثال يعني الصورة أو المجسمة التي لا روح فيها، ويكتمل المنظر أمام الناظرين في جملة **(أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)** بملاحظة معنى العكوف الذي يعني الملازمة المقترنة بالاحترام[٧]، وقد عبَّرت كلمة **(عَاكِفُونَ)** أبدع تعبير وصوَّرتْه أجمل تصوير؛ لأنَّ العاكف على الشيء مقبل وملازم مداوم على سبيل التعظيم[٨]، وتوحي كذلك بالعبادة.

والفاصلة هنا ليست إكمالا لنسق الحرف الأخير وهو حرف النون مع سابقيه ولاحقيه من الآيات، وإنما توازن الإيقاع مع المعنى المصوَّر في اقتران العكوف بالتماثيل، إذ أنَّ

---

(١) ينظر: حسين ، كاصد ياسر ، الجرس والايقاع في تعبير القرآن ، مركز البحوث الالكترونية للعلوم الاسلامية ، كتاب الكتروني ، ص٣٦٥-٣٦٦، Electronic Research Center for Islamic Sciences

(٢) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٢٠ /٢٦٥،بتصرف بسيط.

(٣) ينظر: الطباطبائي، الميزان، ٢٦٤/٢٠ ، وينظر: الصدر ، منة المنان في الدفاع عن القرآن ، ٨٠/٣.

(٤) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ،٢٦٥/٢٠.

(٥) المصدر نفسه ، ٢٦٥/٢٠.

(٦) سورة الأنبياء : الآية ٥٢.

(٧) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ١٨٣/١٠.

(٨) ينظر: الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن، مادة عكف ، ٣٤٣.

القيام والمداومة معنى أساس يصوّره الاقتران، ويضاف إليه تصوُّر آخر للمعنى، وهو العبادة لهذه الأصنام.

المطلب الثالث: توازن في دقة معنى الفاصلة مع السياق:

إنَّ الفاصلة القرآنية لم تأتِ لغرض لفظي فحسب وهو اتفاق رؤوس الآي بعضها، ما يعبرون عنه بمراعاة الفاصلة، إنّما جاءت لغرض معنوي يحتّمه السياق وتقتضيه الحكمة، ولا ضير في أنْ يجتمع مع هذا الغرض المعنوي ما يّتصل بجمال اللفظ وبديع الإيقاع.

وستتطرق الباحثة في هذا المطلب إلى التوازن في دقة المعنى مراعاة للسياق القرآني من عدة نواحٍ وعلى النحو الآتي:

أولا :التوازن القائم على الترتيب بين المتعاطفات:

إنَّ التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية يجب أن يُفهم في ضوء مجموعة من العلاقات، وليس " حصراً في التقدم في الزمان والشرف، فإذا لم يكن المتقدم أسبق زمانا أو أعلى رتبة فقدَ مرجحاتِ تقديمه، فإذا وقعت فاصلة كانت هي الغرض "[1]، وهذا الحصر يعد قصورا في فهم أسرار التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية، وسنقف عند المتعاطفات في تقديم الأرض على السماء، وفي تقديم هارون على موسى، وتقديم الآخرة على الأولى كما سيجيء بيانه:

١- تقديم الأرض على السماء:

قالوا إنَّ هذا التقديم هو لرعاية الفاصلة كما في قوله تعالى:﴿ **تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۞ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾[2]، فقيل: إنَّ القرآن الكريم غاير الترتيب بين المتعاطفات لتناسب الفواصل فإنَّ فواصل السورة على الألف، ومراعاة للتناسب بين هذه الفواصل قدمت الأرض على السماوات، التي وصفت بوصف **(الْعُلَى)** المختوم بالألف[3]، وتقديم الأرض لكونه أقرب إلى الحس وأظهر عنده، ووصفُ السماواتِ بالعُلا وهو جمع العليا تأنيث الأعلى لتأكيد الفخامةِ مع ما فيه من مراعاة الفواصل[4]، وهذا خلاف إعجاز القرآن فإنَّ أي كلمة قُدمت أو أخُرّت لسبب أجلّ وأقدَر عن تناسب الفواصل ومراعاتها، وقيل في تفسيرها: " واختيار خلق الارض والسماوات صلة للموصول وبيانا لإبهام المنزل لمناسبته معنى التنزيل إذ الغرض بيان مبدأ التنزيل ومنتهاه"[5]، وقيل في تفسيرها أيضا؛" لأنَّ تعظيم تعظيم الله تعالى يظهر بتعظيم خلقه ونعمه، وإنّما عظم القرآن ترغيباً في تدبره،

---

(١) الخضري، من اسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية ، ١٢.
(٢) سورة طه : الآيات ٤ – ٥.
(٣) ينظر: الخضري، من اسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية ، ١٠- ١١.
(٤) ينظر: العمادي ، ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم ،٣٣٩/٤.
(٥) الطباطبائي ، الميزان ، ١٤/ ١٢٠.

والتأمل في معانيه وحقائقه، وذلك معتاد في الشاهد فإنّه تعظم الرسالة بتعظيم حال المرسل ليكون المرسل إليه أقرب إلى الامتثال"[١].

وتذهب الباحثة إلى أنَّ السبب قد يعود إلى أنَّ النظرة العلمية للنظام الكوني المرتبط على أساس السبب والمسبب وارتباط كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة بعلة وسبب مادي، فقدم الأرض على السماء لعلة تنزيل الرسالة في قوله: ﴿**طه ۞ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾[٢]، لأن المُنّزل له قيمة كونية عالية، والمُنَزَل اليه – نبينا محمد ﷺ قيمة إنسانية عالية أيضا، وكي تتوازن عظمة القرآن مع شخصية الرسول الاكرم اقتضى هذا التقديم والله أعلم.

ولو تتبعنا الآية التي بعدها نجد أنَّ السماء قُدِمَتْ على الأرض وعاد الاقتران إلى محله من التقديم في قوله تعالى: ﴿ **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ** ﴾[٣]؛ وذلك لأن الغرض بيان شمول الملك للجميع[٤].

وبذلك يكون الغرض من التقديم توازن الحدث مع المرسل إليه فتنزيل مبدؤه الأرض ومنتهاه السماء، فالحدث هو تنزيل القرآن وهو مرسل إلى أهل الأرض أي الإنسان، وهذه مسايرة لحركة العقل في إدراك حقائق الأشياء في ترتيب المعاني وصورها وتوجهه لإدراك حقائق الخلق، توصلا منها إلى الخالق.

٢- تقديم هارون على موسى عليهما السلام:

إنَّ في تقديم ذكر نبي الله موسى على هارون عليهما السلام في القرآن شيئاً مسّلماً به؛ لأنَّ موسى عليه السلام اختصَّ بالنبوة والتوراة التي أنزلت إليه ولبني إسرائيل؛ ولكن تقدّم هارون على موسى كثر الخلاف فيه، فقالوا إنه لمراعاة الفاصلة كما في قوله تعالى: ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ**﴾[٥]، وقيل في هذا التقديم إنّه لرعاية الفاصلة في نهايات الآية التي تسبقها[٦]، وأُضيف إلى رعاية الفاصلة أنَّ سبب التقديم لأنَّ هارون أكبر سنا من موسى[٧]، وقيل في وجه التقديم سببان:

أولهما: إنَّ هارون كان الناطق باسم موسى عليه السلام،وهو معروف في أوساط قومه.

وثانيهما: اقتضاء الموقف السليم إبراز القيادات العليا في المواقف الحاسمة، كموقف الانتصار، وهذه القيادات تتمثل في الأوصياء والصالحين؛ حتى يتأكد دورها في المجتمع[٨].

المجتمع[٨].

---

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب ، ٨/٢٢.
(٢) سورة طه : الآيات ١-٢.
(٣) سورة طه : الآية ٦.
(٤) ينظر : الطباطبائي ، الميزان ، ١٢٠/١٤.
(٥) سورة طه : الآية ٧٠.
(٦) ينظر: النسفي ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، ١٣٠/٥ ، وينظر البروسوي، روح البيان، ٨/ ١٤٩.
(٧) ينظر: العمادي ، ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم ، ٣٧٠/٤، وينظر الالوسي ، روح المعاني ، ٢١٧/١٢.
(٨) ينظر: المدرسي ، من هدى القرآن ، ١٩٠/٧

وتذهب الباحثة إلى أنَّ التقديم كان مراعيا للحدث في إبراز دور هارون عليه السلام وتركيزا على مشاركته في الأحداث، ثم جاء موسى عليه السلام بعده على سبيل الترقي من البدء بالأفضل فالأفضل بخلاف لو ذكر هارون بعد موسى فإنّه سيوحي بالتبعية ويكون دوره مساندا، لا مشاركاً بالحدث، وليس كما نسب إلى رعاية الفاصلة.

وشواهد التأريخ كثيرة في هذا الخصوص منها أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعطى الراية لعلي بن ابي طالب عليه السلام حين دخلوا مكة فقال عليه السلام: (اليوم يوم المرحمة اليوم تصان الحرمة)، كما إنّه صلى الله عليه وآله وسلم رفض دخول المدينة حتى يأتي علي عليه السلام، وذلك ليعرف دوره في أداء الرسالة[١].

وتقديم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في معركة الخندق لمبارزة أعتى عدو للإسلام متمثلا بعمرو بن ود العامري، لقول الرسول في هذه المواجهة **(لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن ود يوم الخندق أفضل من عمل أمتي إلى يوم القيامة)**[٢]، يبّين أهمية تقديم من يتحمل مسؤولية القيادة، لإبراز أهميته وفاعليته في الإسلام، والدور الذي أدّاه في رفعة الإسلام والمسلمين.

وهذا هو الحد الفاصل بين البلاغة التي تجلوها الفواصل القرآنية بدلالتها المعنوية ونسقها الفريد في إيقاعها وبين زخرف لفظي يُكره الكلمات على أن تجيء في غير مواضعها[٣] وهذا فرق جوهري بين بلاغة العلماء ومصنفاتهم التي وضعوها وإن كان الاستشهاد من آيات القرآن الكريم، إلا أنها تبقى في إطارها الوضعي من تحكم العقل البشري فيها بعكس بلاغة القرآن التي هي من صنع إلهي لا تدرك جميع دلالاته، وهذا إعجاز القرآن الذي لا تنفد معانيه.

ثانيا: الاستفهام التقريري والفاصلة القرآنية:

للقرآن الكريم أساليب متنوعة تأخذ بمجامع القلوب، تلفت نظر المتتبع إليها كما في بعض ألوان الاستفهام، بأنْ" يمهد له بمقدمات يقينية رغبا أو رهبا ثم يعقد موازنة صورية تأكيدا مثيرا لما سبق في المقدمة والتصوير"[٤]، كأن يكون في التقابل بين الأضداد سواء كان جزاءات أو أحداثا أو ذوات متقابلة بأوصافها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ**﴾[٥] ومعنى الاستفتاء نوع من السؤال، والهمزة، وإن خرجت إلى معنى التقرير، فهي فهي في الأصل لمعنى الاستفهام، أي فاستخبرهم وعادل في هذا الاستفهام التقريري في الأشدية بينهم وبين من خلق من غيرهم من الأمم والجن والملائكة والأفلاك والأرضين [٦]

---

(١) ينظر: المصدر نفسه، ١٩٠/٧.

(٢) ابن الصباغ،علي بن محمد احمد المالكي(ت٨٥٥هـ) الفصول المهمة في معرفة الائمة ،تح سامي الغريري،ط١،السرور، دار الحديث للطباعة والنشر، قم،١٤٢٢هـ ، ٢٨٩/١.

(٣) ينظر: عبد الرحمن ، عائشة ، الاعجاز البياني في القرآن الكريم ومسائل ابن الازرق ، ط٣ ، دار المعارف ، مكتبة الدراسات القرآنية ، (د ت)، ٢٧٨.

(٤) دراز، صباح عبيد، الاساليب الانشائية واسرارها البلاغية في القرآن الكريم، ط١، مطبعة الامانة، مصر، ١٤٠٦هـ،٢٣٧.

(٥) سورة الصافات : الآية ١١.

(٦) الاندلسي ، البحر المحيط ، ٩٣/٩، وينظر: الزمخشري ،الكشاف ، ٩٠٣،

وفي هذا الاستفهام التقريري هيمنة على مراكز الحس في عقد الموازنات بين الله تعالى بكل كمالاته والآلهة المزعومة في ما خلق الله من غرائب المخلوقات وعجائبها، وخلقهم من طين لازب؛ إما شهادةً عليهم بالضعف والرخاوة، لأنَّ ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة؛ أو احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب[١]، وهذا التوازن اكتمل في الفاصلة القرآنية بعد أن عرضت الآيات التي قبلها بأنَّ الإله واحد وهو رب السماوات والأرض والمشارق وقدرة الله على مخلوقاته؛ جاءت هذه الآية للتهكم على الكافرين بالسؤال أيّهم اصعب، خلق كل هذا الكون بما فيه من لا شيء أصعب أم إعادة خلق الانسان بعد موته إلى الحياة، وقد خلقه من طين رخو لزج، فدقة اختيار**(طين لازب)** وختم الآية بها قد توازن مع حدث الخلق الذي عرضته الآيات.

وفي السورة نفسها يأتي استفهام تقريري فيه موازنة بين الجزاء العالي الضمني المشار إلى عباده المخلصين في الآيات التي تسبقها وبين لون رهيب من جزاء الكافرين في قوله تعالى: **﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾**[٢]، والنزل ما يعد للأضياف، وعادل بين ذلك الرزق وبين **(شجرة الزقوم)**، فلاستواء الرزق المعلوم يحصل به اللذة والسرور، وشجرة الزقوم يحصل بها الألم والغم، فلا اشتراك بينهما في الخيّرية، والمراد تقرير قريش والكفار وتوقيفهم على شيئين، أحدهما فاسد، ولو كان الكلام استفهاماً حقيقة لم يجز، إذ لا يتوهم أحد أنَّ في شجرة الزقوم خيراً حتى يعادل بينهما وبين رزق الجنة، ولكن المؤمن، لما اختار ما أدّى إلى رزق الجنة، والكافر اختار ما أدّى إلى شجرة الزقوم، قيل ذلك توبيخاً للكافرين وتوقيفاً على سوء اختيارهم[٣]، وقيل: أيضا "هي موازنة صورية على سبيل التهكم أولا بجعل هذه الشجرة من النزل الخاص، والنزل ما يقدم للضيف تكرمة ولا تكرمة هناك"[٤]، وبذلك تتجلى التوازنات عند كل حرف سواء كانت الهمزة أم غيرها وعند كل كلمة في القرآن الكريم لتضفي للمعنى ولوجود الفاصلة أهمية وغاية.

وإنَّ اختلاف الكلمات في الفواصل القرآنية طولا، وقصرا " حال دون الرتابة وذلك الملل وجعل للغة إيقاعا لا مجرد وقع ولكن الإيقاع المقصود هو إيقاع في نطاق التوازن لا نطاق الوزن، فالوزن في العربية للشعر والتوازن في الإيقاع للنثر والذي في القرآن إيقاع متوازن لا موزون "[٥].

يتضح من البحث أنَّ للفاصلة القرآنية معانٍ ومداليل معنوية كثيرة، وبقدر ما يتسع البحث أوردنا فيها من الأمثلة وخلص البحث إلى ثمرات منها:

١- إنَّ التوازن في الفاصلة القرآنية أبرز معانٍ لها أثر عقلي، جمالي، ونفسي، أما العقلي، فللتأكيد المستمر أنَّ هناك نظاماً ودقةً وهدفاً في مجيئها بهذا الموضع والكيفية الربانية

---

(١) ينظر: الاندلسي ، البحر المحيط ، ٩٤/٩، وينظر دراز ، الاساليب الانشائية في القرآن الكريم ، ٢٣٧.
(٢) سورة الصافات : الآية ٦٢.
(٣) ينظر: الزمخشري، الكشاف ، ٩٠٦، وينظر: الاندلسي، البحر المحيط ، ١٠٦/٩.
(٤) دراز، الاساليب الانشائية في القرآن الكريم، ٢٣٨.
(٥) حسان، البيان في روائع القرآن، ٢٦٩.

والتنزيل الإلهي، وأمّا الجمالي فهو قالب الدقة التي اتسمت به، وخلق جوا من التأمل الخيالي الواعي للموضوع يقترن بالحالة النفسية التي نعيشها في إيقاع حياتنا من التنفس، وانقباض القلب، وانبساطه، والفرح، والحزن، والغضب.

٢- إنَّ للإيقاع الصوتي للفاصلة قيمة جمالية ومعنوية تتوازن مع دقة التصوير للمعنى، ولا تنفرد أي منهما في هذه الميزة لإضفاء هذا الانتظام الموزون للفاصلة القرآنية والإعجاز الذي تكمن وراء نظم الآي وأثرها في النفس[١]، ولكي تجعلنا نشعر بالزمن لا على أنه توقيت يقاس بالدقائق أو الساعات، وإنّما بوصفه عنصرا من عناصر النص يقاس بالمعاني اللغوية التي تضع الفاصلة القرآنية حدودها[٢]، فينبعث الإيقاع من جهة الفواصل ومن جهة تصوير المعنى فيقع التوازن مصورا للنص القرآني، وإنَّ من عدّ الأهمية الإعجازية للفاصلة هي لمراعاة بقية الفواصل في السورة فقط، تذهب الباحثة إلى أنَّ هذا عجز القائل والله اعلم، فلا يمكن أن تُعد هذه وظيفة من الأصل.

٣- إنّ الفاصلة القرآنية زوَّدت النص القرآني بمعانٍ ودلالات كثيرة متوازنة مع السياق " وإنّك إذا تأملت في ذلك علمت أنَّ هذه الجمل القرآنية إنّما صُبَّت من الكلمات والحروف والحركات في مقدار، وإنّ ذلك إنّما قُدّر تقديرا بعلم اللطيف الخبير، هيهات للمقاييس أن تُقدر على ضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة"[٣].

ومن هنا فإنَّ الفاصلة القرآنية في القرآن الكريم مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، يتوازن معناها بمعنى الآية كلها، توازناً تاماً بحيث لو طرحت لاختلّ المعنى، واضطرب الفهم، فهي تؤدي في مكانها جزءاً من معنى الآية ينقص ويختل بنقصانها.

المطلب الرابع: التوازن في التقديم والتأخير:

ويمكن بيانه في ضوء ما يأتي:

أولاً: مفهوم التقديم والتأخير في اللغة والاصطلاح:

إنَّ التقديم في اللغة من قَدَمَ: السابقة في الأمر[٤] والتأخير من أخر: هو الذي يؤخر الأشياء فيضعها في مواضعها[٥].

وفي الاصطلاح لم تجد الباحثة تعريفا محدداً للتقديم والتأخير وإنّما كان وصفا له فقيل فيه: هو تحول اللفظ من مكان إلى آخر وتغيير في رتبته[٦].

---

(١) ينظر: بدوي، من بلاغة القرآن، ٧٢ -٧٣.
(٢) ينظر: السعد ، عامر ،دلالة الانساق البنائية في التركيب القرآني ، ط١، الغدير للطباعة والنشر ،مكتبة الواعي ، العراق – البصرة ، ١٤٣٦هـ ،٥٩.
(٣) البوطي،محمد سعيد رمضان(ت١٤٣٤هـ)، من روائع القرآن،ط١،دار الفارابي للمعارف، دمشق،١٤٣٤هـ،١٧١.
(٤) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ٤٦٥/١٢.
(٥) ينظر: المصدر نفسه ، ١٢/٤.
(٦) ينظر: الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ١٠٦.

وإنَّ تأخير كلمة عن موضعها أو تقديمه لا يكون إلا لحكمة اقتضت ذلك، وإلا كان ترجيحا بلا مرجح، وهذا التبادل في مواقع الكلمات في النص القرآني، لابد من أن يكون لدواعٍ إعجازية من ملكة الكلام، والتمكين من الفصاحة والبلاغة يستدعي دقة التبديل، وجمال التصوير ومراعاة مقتضى السياق، لا يستطيع غير نظم القرآن المجيء بها.

وإنَّ ما يترتب على "التقديم والتأخير ينبّه إلى عظم شأن النظم، وكيف يؤثر ذلك في المعنى تأثيرا بالغا، إذ يمكن أن نستخلص أنَّ أيَّ تغيير في النظام التركيبي للجملة يترتب عليه بالضرورة تغيُّر الدلالة وانتقالها من مستوى إلى مستوى آخر"[١]، وبذلك فإنَّ تغير النظام يستدعي تغيُّر المعنى وانتقالها إلى مستوى آخر، وهذا الانتقال هو توازن المعنى مع السياق.

ثانيا: دواعي التقديم والتأخير:

للتقديم والتأخير أسباب كثيرة، وفوائد عدة، فهو " باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيدُ الغاية، لايزال يفتر لك عن بديعةٍ، ويفضي بك إلى لطيفة ثم تنظر فتجد سبب أنْ راقك ولطف عندك، أنْ قُدّم فيه شيء، وحُوّل اللفظ عن مكان إلى مكان "[٢].

وهناك من ذكر أسباب ودواعي التقديم فقيل: " ما تقدم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب نفسه، لمعانٍ في الجنان؛ والمعاني تتقدم بأحد خمسة أشياء: أما بالزمان، وأما بالطبع، وأما بالرتبة، وأما بالسبب، وأما بالفضل والكمال، فإذا سبق معنى من المعاني إلى الخلد والفكر بأحد هذه الاسباب الخمسة أو بأكثرها، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق، نعم وربما كان ترتيب الألفاظ بحسب الخفة والثقل"[٣]، وقد توسع الزركشي(ت٧٩٤هـ) في البرهان فذكر خمسة وعشرين سبباً للتقديم والتأخير[٤]، وكل ما قيل في التقديم والتأخير لا يعدو أن يكون أسباباً قيلت بحسب ما كان نوعية المقدم على المؤخر، فهو ليس تقديماً اعتباطياً ومن غير قصد، "وإنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى وإن كانا جميعا يهمانهم ويعينانهم"[٥]، وربما يقدم غير الأهم على الأهم؛ لأنَّ الأهم لمكانته وقوة ثبوته ربما لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه غيره من التأكيد والتشديد كما في تقديم الوصية على الدّين في قوله تعالى: ﴿**مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ**﴾[٦]، وقدمت الوصية لأنها تحتاج إلى التأكيد عليها لما فيها من الإشعار بلزوم أكرام الميت ومراعاة حرمته فيما وصى[٧].

---

(١) عبد المطلب، محمد، البلاغة والاسلوبية ، ط١ ، دار نوبار للطباعة ، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت – لبنان ، ١٤١٤هـ،٣٣١.

(٢) الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ١٠٦.

(٣) السهيلي ، ابو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله السهيلي (ت٥٨١هـ)، نتائج الفكر في النحو ، تح عادل احمد عبد الموجود، علي محمد معوض ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت –لبنان ، ١٤١٢هـ ، ٢٠٩.

(٤) ينظر: الزركشي ، البرهان في علوم القرآن، ٧٧٤ – ٧٩٧.

(٥) سيبويه، ابي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ) ، الكتاب، تح عبد السلام محمد هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨هـ، ٣٤.

(٦) سورة النساء: الآية ١١.

(٧) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٤/ ٢٠٩.

ومن تلخيص ما تقدّم بالأمثلة الآتية يتبين الآتي:

١- تقدم السبب على المسبّب في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾[١]، لأنَّ التوبة سبب الطهارة، ومقدمة تمهيد لها.

٢- تقدم الرتبة في قوله: ﴿ **مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ** ﴾[٢]؛ لأنّ المنّاع يمنع خير نفسه، والمعتدي يعتدي على غيره، ونفسه في الرتبة قبل غيره.

٣- التقدم للفضل في قوله تعالى: ﴿**قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾[٣]، سبقت العليم، الحكيم لاقتضاء المعنى في سياق الآية وبيان أهمية العلم، والله عالم عليم لا يصدر من علمه إلا الحكمة، وهذا التقديم لأنَّ مقتضى علم الله هو حكمته سبحانه وتعالى.

٤- التقديم للطبع في قوله تعالى:﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴾[٤]، فالسمع يسبق الكلام والبصر كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾[٥]، فنحن نسمع الكلام حتى في الظلام الحالك، ولكن لا نرى فيه شيئاً.

٥- التقدم بالزمان في قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾[٦]؛ لأنَّ الظلمة قبل النور، كما في خلق الإنسان في ظلمات ثلاث في قوله تعالى: ﴿**خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ**﴾[٧].

ثالثاً: لطائف من التقديم والتأخير:

ولنقف الآن عند أمثلة قرآنية تتجلَّى فيه روعة التوازن في التقديم والتأخير، ويظهر سمو الإعجاز فيها وهي على النحو الآتي :

١- تقديم الأرض على السماء:

في قوله تعالى:﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾[٨]؛ لأنَّ الكلام سيق لشهادته على شؤون أهل الأرض وأعمالهم، ثم وصل بذلك قوله لا يعزب، فناسب أنْ يقدم ذكر ما في

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٢.
(٢) سورة القلم : الآية ١٢.
(٣) سورة البقرة : الآية ٣٢.
(٤) سورة البقرة : الآية ١٨.
(٥) سورة الإنسان : الآية٢.
(٦) سورة الأنعام : الآية ١.
(٧) سورة الزمر: الآية٦.
(٨) سورة يونس : الآية ٦١.

الأرض، هذا بعد التسليم أنَّ الواو تفيد الترتيب[1]، وقيل: " تقديم الارض لأنَّ الكلام حال أهلها والمقصود منه البرهان على إحاطة علمه "[2].

والحق إنَّ المقام مقام شهادة وإحاطة علم الله على أعمال العباد في الأرض فوازن أن يقدم الأرض على السماء لتوازن السياق النصي للآية.

٢- تقديم القلب والسمع والبصر:

في قوله تعالى:﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[3]، فقد ذكر في هذه الآية الختم على القلب مقدما على الختم على السمع وفي سورة الجاثية بالعكس في قوله تعالى: ﴿**وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً** ﴾[4] وفيها تفسيرات عدة منها:

أ- قال السيد السبزواري (ت١٤١٣هـ) رحمه الله في تفسير الآيتين: "ولا فرق بينهما من هذه الجهة؛ لأن المدارك الظاهرية طريق حصول العلم بالمقصود، وفهم المعارف الإلهية ومن فقد حسا فقد فَقَدَ علما، فمن ختم الله على قلبه، فقد فَقَدَ الفهم والانتفاع من المعارف الإلهية، وكان كذلك بالنسبة إلى سمعه إذ لا أثر لسماع لا يدخل في القلب وكذا لو ختم على سمعه فقد أعرض عن فهم الحق، فلا يسمع إلّا صوتا، وحينئذ يصير السماع لغوا، كما هو المشاهد في بعض الناس، فهما متلازمان في الجملة سواء عبر بالأصل أم بالعكس"[5] واستطرق في بيان أنه ليس المراد بالقلب والسمع والبصر في المقام ما هو متعارف عليه، إذ ليس مناط الفضل حتى يختم عليه؛ بل المراد؛ العقل الذي يُعبد به الرحمن، ويكسب الجنان، ويغلق به أبواب النيران[6].

ب-في حين يرى صاحب المنار(ت١٣٥٣هـ) أنَّ العقل له وجوهٌ كثيرة في إدراك المعقولات وكذا الأبصار فهي مثل العقول في التشعب، بخلاف السمع فإنَّ أسماع الناس تتساوى في إدراك المسموعات، فالحاصل إنَّ العقول والأبصار تتصرف في مدركات كثيرة، فكأنها صارت كثيرة فجمعت، وأما السمع فلا يدرك إلا شيئا واحدا وهو الصور لذلك أُفرِد[7].

ت-هناك من فصّل بالقول من قبيل أن يكون الختم مختص بالقلب في قوله: ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ**﴾، والسمع والأبصار ضمن دائرة الغشاوة في قوله:﴿**وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ**

---

(١) ينظر: الرازي ، مفاتيح الغيب ، ٢٧٤/١٧، و النيسابوري ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، ٥٩٥/٣ ، وينظر: الاندلسي، البحر المحيط ، ٧٩/٦ ، وينظر : رشيد ، تفسير المنار ، ٤١٤/١.

(٢) شبر ، عبدالله بن السيد محمد رضا الحسيني(ت١٢٤٢هـ) ، تفسير الجوهر الثمين ، تعليق ، اسامة الساعدي ، ط١، ، منشورات ذوي القربي ، قم، ١٤٣١هـ، ٣/ ١٢٦.

(٣) سورة البقرة : الآية ٧.

(٤) سورة الجاثية :الآية ٢٣.

(٥) السبزواري ، مواهب الرحمن ،١/ ٨٣.

(٦) ينظر: المصدر نفسه ، ٨٤/١.

(٧) ينظر: رشيد ، تفسير المنار، ١٤٤/١-١٤٥.

وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾، وبذلك يكون للسمع والبصر حكم مشترك، وللقلب حكم آخر[1]، كما في الآية الشريفة **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾**[2].

ث-إنَّ جملة **(وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ)** معطوفة على قوله **(عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ)** ومتعلقة بالختم، وإنَّ **(الأبصار)** فقط للغشاوة كما في قوله تعالى: **﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَٰوَةً﴾**، فالسمع والقلب متعلق بالختم ، بينما اختصت الغشاوة بالبصر[3].

تعددت الأقوال في تقديم القلب وتأخيره ويتبعه السمع وبعده البصر مع أنَّ هذا التقديم ليس ثابتاً، بل تغير في قوله تعالى: **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾** مع لحاظ أنَّ الختم يرافق القلب سواء عطف على السمع والبصر أم لم يعطف.

وقد يكمن السر في أنَّ القلب والسمع إذا وضع عليهما الغطاء فحينئذ لا يمنع ذلك من عملية الإدراك والسمع، فالحاجز لا يمنع من وصول الأصوات إليها وكذا القلب، أما البصر فإن الغشاوة أو الغطاء إذا وضع على البصر فهو كاف في منع عملية الأبصار[4].

٣- تقديم الآباء على الأبناء في الرزق:

في قوله تعالى: **﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾**[5]، وفي موضع آخر قدَّم الأولاد على الآباء، وقال: **﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾**[6]، قيل إنَّ " الخطاب في كل آية لصنف و ليس خطاباً واحدا فالمخاطب بقوله سبحانه: **﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾** من ابتلي بالفقر وبقوله تعالى: **﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾** من لا فقر له ولكن يخشى وقوعه في المستقبل، ولهذا قدَّم رزقهم هاهنا في قوله عز وجل: **﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ﴾** وقدَّم رزق أولادهم في مقام الخشية فقيل:**﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾**"[7]، فلو استعملت عقلك في كل منهي عنه أو كل مأمور مأمور به في الآية فستجد التعقيل يعطيك التوازن في القرار[8].

وبهذا فإنَّ القرآن يكون "ناظراً بأحسن النظرة العالمية، ويلاحظ بأتم الملاحظة العلمية جانبا واحدا وهو حسن التركيب وقبول الطباع ولطف الترنم والوقوع في الأسماع

---

(1) ينظر:الخميني ، مصطفى (ت ١٣٩٨هـ) ، تفسير القرآن الكريم، تعليق محمد علي ايازي، ط١ ، مؤسسة تنظيم ونشر أثار الامام الخميني ، مطبعة مؤسسة العروج ، ايران – طهران، ١٤٣٥هـ ، ٣/ ١٦٠ – ١٦١.

(2) سورة الأنعام : الآية ٤٦.

(3) ينظر الآملي ، تسنيم ، ٢٧١/٢.

(4) ينظر: البستناني ، البنائي ، ٢٦١/١.

(5) سورة الانعام : الآية ١٥١.

(6) سورة الاسراء : الآية ٣١.

(7) الالوسي ، روح المعاني ، ٢٩٧/٤، وينظر: الطهراني ، محمد الصادقي (ت١٤٣٢هـ) ، الفرقان في تفسير القرآن ، ط٢، منشورات الثقافة الاسلامية ، قم ، ١٤٠٧هـ ، ٣٣١/١٠ – ٣٣٢.

(8) ينظر: الشعراوي ، تفسير الشعراوي ، ٢/ ٣٩٨٩.

والقلوب حتى يخضعوا له في أسرع الأوقات الممكنة، فيأتي بمعرفة أو نكرة ملاحظا في ذلك، وهكذا في التقديم والتأخير"[١].

خلاصة ما تقدم فإنَّ التوازن في النظم القرآني هو محور، وأساس في البناء المحكم لهذا النظم الدقيق، فالنظم وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وقد أولت المؤلفات والأبحاث اهتماماتها بتوظيف مصطلحات؛ كالتناسق والتناسب والتلاحم والانسجام كونها مرآة عاكسة للنظم القرآني، وقيدت مصطلح التوازن كما اشرنا سابقا في السجع والفواصل القرآنية، ولو تمعّنا في مصطلح التوازن لوجدنا ذكره بكثرة مع مفاهيم أخرى دالة عليه، ومع مواقف وأحداث قرآنية في الآية الواحدة وفي كل سورة من سور القرآن، وكان أولى بالرعاية والاهتمام والبحث للكشف والبيان عن أسرار هذا المصطلح والدور الذي يلعبه في النظم القرآني الدقيق، فقد ذكر التوازن في القرآن الكريم بلفظة الميزان تسع مرات في ست سور هي: **(سورة الانعام الآية : ١٥٢، وسورة الأعراف الآية : ٨٥ ، وسورة هود الآية :٨٤ و ٨٥ ، وسورة الشورى الآية : ٧١ ، الرحمن الآية : ٧ و ٨ و٩ ، الحديد الآية : ٢٥)** .

وذكرت مشتقاته لكل منها موضعه وسياقه الخاص بصيغ **(الوزن، الموازين، موازينه، موزون، وزنوا، وزنا)** اثنتا عشر مرة، كما أنَّ هناك ألفاظاً دالة على التوازن لها من القوة في الموارد التي وردت فيها في بيان قدرة الخالق في خلق الخلق بدقة متناهية من التوازن؛ وهي: **(بقدر ، فقدّره تقديرا، بمقدار)**، فكل شيء عنده بمقدار وميزان وحساب، " فليس في القرآن حرف زائد أو ناقص، وليس فيه حركة أو سكون بلا دلالة أو معنى، فمن الناحية اللفظية يحتوي القرآن على معمار هندسي دقيق من الألفاظ والكلمات"[٢].

وبلا شك إنَّ بقية آيات القرآن الكريم المعنوية والفنية جميعها خاضعة لمقادير بقانون إلهي وضعه الباري في كتابه من حروف وكلمات وجمل، وقوام القانون هو التوازن، فيصبح "مفهومه أعمق، فهو ذلك النسيج المتلاحم، والبناء المحكم من حيث حروفه وكلماته وتراكيبه وفواصله وآياته وسوره وتعانق معانيه، ليُجعل منه وحدة متراصة المباني والمطالع والمقاطع"[٣]، وصار من العسير، بل من المستحيل أن تغير في الجملة كلمة بكلمة، أو أن تستغني عنها، أو تزيد فيها شيئا، أو أن تجري عليها حذفا أو تقديما وتأخيرا، فكأنّما هي قوالب خلقها الله سبحانه لأداء تلك المعاني لهذه الألفاظ والتراكيب، وكأنّما ضاقت اللغة وهي بحر مترامي الأطراف، فلم تجد ما تؤدي به تلك المعاني غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء[٤].

---

(١) مصطفى الخميني ، تفسير القرآن الكريم، ٤/ ٤٦١.
(٢) العاملي ، تفسير البيان الصافي لكلام الله الوافي ، ٤٩/١.
(٣) نهمار ، فاطمة الزهراء ، البناء المحكم للنظم القرآني وادق المصطلحات وصفا له ،جامعة البليدة ٢، مجلة الصوتيات، الصوتيات، المجلد ١٦ العدد ٢ ، ١٤٤٢هـ ، ٣٠٣.
(٤) ينظر : حمدان ، الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم ، ١٧٧.

الفصل الثاني : مستويات التوازن القرآني

المبحث الاول : التوازن العقدي

المبحث الثاني التوازن العبادي

المبحث الثالث : التوازن في المعاملات

المبحث الرابع : التوازن الاخلاقي

المبحث الخامس : التوازن في التشريع

المبحث السادس : التوازن في التعايش السلمي والعسكري

الفصل الثاني : مستويات التوازن القرآني

تمهيد: الترابط بين مستويات التوازن:

لا تنفصل مستويات التوازن الواحدة عن الأخرى فهي تلتقي في أكثر من آية وموقف في الحياة، وتترابط عبر العقيدة والعبادات، والمسؤولية المتبادلة في تطبيق أحكام الله تعالى، وعبر الحقوق المشتركة؛ في أنْ يحب المسلم الناس كافة ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه، وألاّ يؤذي أحداً، ويخالط جميع الناس بخلق حسن والمعاملة بحسن طريقته، والوفاء بالوعد، والإحسان بالقدرة المستطاعة لديه وغيرها كثير، وفي المجال الاقتصادي للملكية العامة والتكافل الاجتماعي، والخطاب للمسلمين بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، وهذه العبارة منحت التصور المطلوب للجميع عبر لفظ واحد، وكونت مستويات التوازن عند نفس نقطة الشروع في الانطلاق والتطبيق والتقاء مكوناتها مع بعضها، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾[1]، وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم**﴾[2]، وقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا**﴾[4]، وقوله تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا**﴾[5]، وقوله:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ**﴾[6]، وقوله سبحانه:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ**﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ**﴾[8]، وقوله :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ**﴾[9]، قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ**﴾[10]، قوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ**﴾[11]، وقوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**﴾[12]، إلى غيرها من الآيات، وهذه الصفات عامة يصفها الإسلام للأمة المسلمة فهي الأمة المتوازنة والمنفقة والمسلمة لله تعالى، والشديدة على الكفار والرحيمة فيما بينهم والصابرة المرابطة، والقائمة بالقسط، والمعادية للكفار، والمجتنبة للخمر والميسر والمقيمة لشعائر الله والراكعة والساجدة والعابدة ربها الذاكرة له، وتستمر أوصاف الأمة لتنهي به إلى أن تكون أمة خير البرية.

---

(1) سورة البقرة : الآية ١٨٣.
(2) سورة البقرة : الآية ٢٥٤.
(3) سورة آل عمران : الآية ١٠٢.
(4) سورة آل عمران : الآية ١٥٦.
(5) سورة آل عمران : الآية ٢٠٠.
(6) سورة النساء : الآية ١٣٥.
(7) سورة النساء : الآية ١٤٤.
(8) سورة المائدة : الآية ٢.
(9) سورة المائدة : الآية ٩٠.
(10) سورة الانفال : الآية ٢٧.
(11) سورة الحج : الآية ٧٧.
(12) سورة الاحزاب : الآية ٤١.

وعلى أساس من هذا الترابط يتجلى قانون التوازن ليكون الحد الذي ارتضاه الله تعالى، ونكون أدركناه بعقولنا ووجداننا لوضوحه وتمييز الطيبات من الخبائث واستحسنه العقل، ولكن المنظار القرآني يعطينا الصورة الكاملة عن التوازن وهو الحد الطبيعي الذي لا يعني الخروج عنه خروجاً عن الذات ونسيانها، وهنا يكون التعبير القرآني حاضراً بقوله تعالى:﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[1]، وهذا نوع من الطغيان عبَّر عنه السيد الصدر بمشكلة الضياع واللا انتماء، ومشكلة الغلو في الانتماء بتحويل الحقائق النسبية المحدودة إلى مطلقات والتعبير الاسلامي عنهما هو الإلحاد والشرك، وهما يلتقيان في نقطة واحدة أساسية هي إعاقة حركة الانسان في تطوره وتطويقها عن الاستمرار المبدع الصالح[2].

من هنا فإنَّ المفاهيم التي ينفر منها القرآن الكريم تخرج عن حد التوازن بهذا المعنى للطغيان في الإلحاد والشرك والفاحشة والتهور والإسراف والبخل والجبن واللامسؤولية هي من أنواع تجاوز التوازن وعدم الالتزام بالحد الشرعي[3].

والقرآن العظيم بحروفه وآياته وتشريعاته وأحكامه بكافة مستوياته متوازناً، وبناءً عليه شكَّل التوازن قانوناً عاماً في الإسلام وخصيصة تميز هذه الامة من غيرها.

المبحث الأول: التوازن العقدي

جعل الله القرآن الكريم ميزانا لكل العلوم والعقائد والمعارف، فإذا أردنا أن نعرف القانون المتعلق بالعلوم الإنسانية كسلامة الأخلاق وعدمها أو إنَّ المجتمع حي أو لا، كل ذلك نزنه بالقرآن؛ لأن القرآن ميزان ووسيلة لتشخيص مثل هذه الأمور ووزنها، ولا يمكن تشخيص الميزان بشيء آخر، بل إنَّ نفس عامل التوزين بما أنّه صحيح ذاتاً يستلزم صحة علاقة الميزان[4]، فأي عقيدة يراد أن تعرف بأنها العقيدة الحقة أم لا؟ فإننا نزنها بالقرآن عن طريق عملية الاعتقاد بتوحيد الله ونفي شريك للخالق ونفي التجسيم والتشبيه وغيرها من الأمور التي تجعل صفات الخالق كصفات البشر، ولكي يقف البحث على ماهية التوازن العقدي فإنّه يتم في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول : التوازن العقدي في توحيد الله:

وللوقوف على التوازن العقدي لابد من بيان المفردات الآتية :

أولا: العقيدة في اللغة والاصطلاح:

---

(1) سورة الحشر: الآية ١٩.
(2) ينظر: الصدر، محمد باقر(ت ١٤٠٠هـ)، الفتاوي الواضحة، (د ط)، مطبعة الآداب ، النجف الاشرف، ١٣٩٦هـ ،٥٨٥.
(3) ينظر: التسخيري ، من مظاهر الاسلام ، ٢٢٢.
(4) ينظر: الآملي ، عبد الله الجواد ي ،التوحيد في القرآن،(د ط)، دار الصفوة ، بيروت - لبنان، ١٤٢٩هـ ، ٢٤.

في اللغة: مشتقة من عْقَدْ، واعْتَقَدْتُ، وعْقَدْتُ: وهي ما عقد عليه القلب والضمير، حتى قيل العقيدة ما يدين الانسان به وله عقيدة حسنة سالمة من الشك [١].

وفي الاصطلاح: " هي عبارة عن مجموعة من أفكار ومعارف وقضايا تثبت في الذهن ثبوتا حقيقيا جازما "[٢].

ثانياً: العقيدة في معرفة الله:

منحنا الله في قرآنه الكريم قوة التفكير، ووهب لنا العقل، وأمرَنَا بالتفكر في خلقه والنظر في آثار صنعته، والتدبر في حكمة تدبيره واتقانها في الخلق والكون وفي آياته الأنفسية والآفاقية؛ قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[٣].

وإنَّ منظومة العقيدة لا تتوازن ولا تنضبط إلا بالدعوة التي أتى بها الأنبياء وبداية جميع الأديان الإلهية، وهي معرفة الله، فأول حركة فكرية للبشر يجب أن تكون حول معرفة الله، وهذه المعرفة تكون بأن الله تعالى واحد أحد ليس كمثله شيء، هو الأول والآخر، قديم لم يزل ولا يزال، عليم حكيم، وعادل حي قادر، غني سميع بصير، وغيرها كثير من الصفات لا تثبت في منظومة العقيدة ولا تتكامل إلا بالتوحيد لله سبحانه وتعالى من جميع الجهات، فكما يجب أن نوحده في الذات ونعتقد بأنه واحد في ذاته ووجوب وجوده، كذلك في توحيد صفاته وبإنَّ صفاته عين ذاته، والعقيدة في معرفة الله تكون عن طريق الآتي:

١ـ الفطرة :

إنَّ معرفة الله من مكنونات الفطرة الإنسانية، والفطرة من " فطر الله الخلق، وهو إيجادُه الشيءَ وإبداعُه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال"[٤]، كما في قوله تعالى: ﴿**فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ**﴾: أي خلقهم [٥]، وهكذا التوحيد في العبادة ، ففي قوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾[٦]، ففي الآية إرشاد وخطاب ما أودع في فطرة الإنسان من الدعاء لله سبحانه وتعالى عند وقوعه في الشدائد، ولجلاء الكروب وكشف الهموم، والتحذير الشديد للمعرضين عن طاعته، والآية تؤكد على ألوهيته -عز وجل - عندما ذكر الدلائل من العلم التام والقدرة الكاملة والإنجاء من الشدائد[٧]، وقوله: ﴿**تَدْعُونَهُ ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾**، "بيان لما هو مكنون في فطرة البشر من الإيمان الفطري والحاجة إليه ومخفيّها، والتضرع المبالغة في إظهار الضراعة، وهي الذل والخضوع...

---

(١) ينظر: الفيومي ، المصباح المنير ، ٤٢١.
(٢) الساعدي ، طالب ، الدروس التوضيحية في شرح عقائد الامامية، النجف الاشرف ، كتاب الكتروني ، ٤.
(٣) سورة فصلت : الآية ٥٤.
(٤) الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ٦٣٨.
(٥) ينظر: الفيومي ، المصباح المنير ، ٤٧٦.
(٦) سورة الانعام : الآية ٦٣.
(٧) ينظر: السبزواري ، مواهب الرحمن ، ٤٤١/١٣.

وإظهار لمكنون ضمائرهم على مقولات السنتهم"[1]، وقال رسول الله ﷺ: **(كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه)**[2].

٢- التوحيد:

إنَّ القرآن الكريم لا يطرح التوحيد بصفته مركبا من بعدين هما النفي والإثبات؛ بأنْ ينفي صفة الألوهية عن الآلهة المزيفة، ويثبت الألوهية بعد ذلك[3]، بل يعطي صفة التوازن في في هذا التوحيد، ففي قوله سبحانه:**﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾**[4]، وإنَّ علاقة الاستغفار من الذنب بتوحيد الله علاقة واقعية تفرضها الحقيقة الحقيقة الربانية من جهة والعبودية من جهة ثانية؛ إذ إنَّ العقيدة بأحدية الله توجب العقيدة بعبودية الفرد ويبيّن القرآن الكريم علاقة العبد بالعبادة فهو يعدّ العبادة هدف الخلق **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**[5]، ومع أنَّ بعض الآيات تؤكد أن العبادة هي الهدف من خلق الإنسان إلا أنه هدف متوسط وليس نهائياً وأخيراً، فالهدف الأعلى من العبادة والتي هي وسيلة لتحقيقه هو بلوغ اليقين **﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾**[6]، ومهما يكن من أمر، فإنَّ العبادة هدف المخلوق وليس الخالق، فالإنسان بواسطة العبادة يتبوأ المقام الشامخ لليقين، و**(حَتَّىٰ)** في الآية لبيان منفعة وبركة عبادة وليس لبيان حدها وتوقفها بالوصول إلى اليقين[7]، وخط التوحيد لابد فيه من الثبات والاستمرار؛ لأنّه أفضل وسيلة للنجاة والتدبر في أمر التوحيد أكثر والارتقاء إلى المقامات الأسمى، فكلما تدبَّر من العلم أكثر سيصل إلى مراتب أرقى .

من هنا فقد أمر الله سبحانه على لسان نبيه ﷺ- انطلاقا من فطرة التوحيد ـ بأنْ يدعو الله أو الرحمن، وأنّه أيا ما يدعو فله الأسماء الحسنى، وهو ما يمكن أن يكشف عن التوازن المجعول بين جميع أسماء الله الحسنى، كما قال تعالى:**﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾**[8]، إذ أنَّ التوازن العقدي أن لا يدعو مع الله أحدا؛ لأنَّ المساجد لله سبحانه وليس لأحد غيره؛ لذا فمن الإنصاف والعدل المنطلقين من الفطرة البشرية المجبولة عليهما والمنعقدة على التوازن القاضي بأنْ يوّجه الفرد المسلم الدعاء لله سبحانه وحده فحسب؛ تحقيقا لمبدأ التوازن المتناسب مع حقيقة أن المساجد لله تعالى فقط، وللتوحيد أثر توازني في الاتحاد والارتباط بين الناس؛ لأنه إذا كان خالق الموجودات واحداً، وهو الرازق بفيض عطاياه رزقاً محسوساً أو فيضاً إلهياً، فيكون الهدف والمبدأ

---

(1) السبزواري، مواهب الرحمن، ١٣/٤٤٢-٤٤٣

(2) الجرجاني ، عبد الله بن عدي (ت٣٦٥هـ) الكامل في ضعفاء الرجال ،تح يحيى مختار غزاوي، ط٣، دار الفكر للطباعة والنشروالتوزيع، بيروت – لبنان ، ١٤٠٩هـ٣/٣٠٤، وينظر:المفيد، محمد بن محمد بن النعمان(ت٤١٣هـ)، تفسير القرآن الكريم، تح، محمد علي ايازي، ط١،مؤسسة بوستان مكتب الاعلام الاسلامي ، قم ،١٤٢٤هـ ،٥٠٨

(3) ينظر: الآملي ، التوحيد في القرآن ، ١٣٨.

(4) سورة محمد : الآية .١٩

(5) سورة الذاريات : الآية ٥٦.

(6) سورة الحجر: الآية ٩٩.

(7) ينظر: الآملي ، تسنيم، ١/ ٤٨٧ – ٤٨٩.

(8) سورة الجن : الآية ١٨.

واحدا، كما قال تعالى: ﴿**فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا**﴾[1]، ولا بد من أن يكون الرجوع إليه وحده؛ لأنَّ المنجى والمقصد والملجأ عنده دون غيره.

وإنَّ للتوحيد أربع مراحل هي كالآتي:

أ- نفي الشريك في الإلهية، وهذا ما تم بيانه.

ب- نفي الشريك في صانعية العالم وعدم الثنوية وأضرابهم، فعن الفضل بن شاذان، وكان حاضرا عندما سأل رجل الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن الثنوية، قال الرجل: **(إني أقول إن صانع العالم اثنان، فما الدليل على أنه واحد ؟ فقال عليه السلام: قولك إنه اثنان، دليل على أنه واحد؛ لأنك لم تدع الثاني إلا بعد إثباتك الواحد، فالواحد مُجمَع عليه، وأكثر من واحد مُختلَف فيه)**[2].

ت- تنزيه الخالق عما لا يليق بذاته وصفاته من النقص والعجز والجهل والاحتياج والتركيب.

ث- تنزيهه عما يوجب النقص في أفعاله من الظلم وعدم اللطف، أي ما يتعلق به تعالى ذاتا وفعلا ونفيا وإثباتا[3].

ويتضح التوازن بين المعرفة الفطرية التي تميل وتتحرك نحو توحيد الله وعبادته سبحانه وتعالى، وبين الاستمرارية والثبات في خطى هذا التوحيد، وهناك علاقة جامعة بين الحاجة والغنى، فعندما يكون في الوجود عطش فلابد من وجود الماء، وإذا كان العالم محتاجاً فلابد من وجود الغني[4]؛ ففي قوله تعالى: ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[5]، تتحقق رغبة الاتصال به سبحانه وتعالى فهي توجب للخالق المحبة والخوف والرجاء في تكامل متوازن، لتعلم أنَّ الملجأ والمأوى الوحيد في العالم هو الله، فالتجئْ إليه ولا تطلبْ إلا منه، ولا تخفْ من كثرة المشاكل والأعداء؛ لتصل إلى الاستقرار النفسي والطمأنينة، بعد أن تربَّى على قيم التوحيد والخشية والمراقبة والسعي بالنفس للسمو وبناء الشخصية الإسلامية.

فإذا حصلت حالة الاعتقاد السليم عند الإنسان بتوحيد الله فإنّها لا تخرج عن حد التوازن والاعتدال والأمر بين أمرين في عقيدة التنزيه: فلا تعطيل في ذات الله، ولا تشبيه في صفاته لمخلوقاته من غير زيادة على ذاته، وعقيدة الاختيار: وهو الاعتقاد بتأثير الله تعالى في أفعال العباد من حيث لا جبر ولا تفويض، بل هو الأقدار من الله والاختيار من العبد[6].

ثالثا: التوازن بين الإرادة الإلهية المطلقة وإرادة الإنسان المحدودة:

---

(1) سورة الحج : الآية ٣٤.

(2) الصدوق ، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (٣٨١هـ) ، التوحيد ، تع هاشم الحسيني الطهراني،(د ط)، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسي ، قم،(د ت) ، ٢٧٠.

(3) ينظر: طبسي، إبراهيم حجازي(١٣٧٧هـ) ، آيات العقائد، تح رامين الكلمكاني، ط ١، مجمع البحوث الإسلامية، مؤسسة الاستانة الرضوية المقدسة مشهد، ١٤٢٥هـ ، ٧٠.

(4) ينظر: الآملي، التوحيد في القرآن ، ١٣٩.

(5) سورة الحديد : الآية ٢.

(6) ينظر :طبسي ، آيات العقائد ، ٨٠.

فالإرادة من صفات الله التكوينية والتشريعية، وهي إرادتان: تكوينية: يفيض منها وجود جميع الكائنات والموجودات، وتشريعية تفيض منها جميع الأحكام والقوانين الشرعية من الأوامر والنواهي الإلهية[١]، والإرادة الإلهية " مطلقة في مختلف المجالات، لن تحّد بحّد، ولن يقف في قبالها شيء، لكنها بلطفها منحت الإنسان حريته وإرادته في ما يعمل، وأعطته القدرة على أن يريد وأن يحقق ما يريد، وهي تمده في كل آن بهذه القدرة، ليتكامل وليصعد سلم الرقي المعنوي بنفسه "[٢]، ويفصح القرآن عن هذا المعنى بوضوح في سورة الليل في قوله تعالى:﴿**إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۞ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۞ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۞ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى**﴾[٣]، وهكذا تبدو الإرادة الإلهية بمثابة حلقة التوازن تربط بين الحرية الإنسانية والهيمنة الإلهية.

ولا يخفى ما في الآية من توازن جليّ بين فئتين، فهناك من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فكان عاقبته أن يسّره الله لليسرى، في مقابل من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فكانت عاقبته أن يسرّه الله للعسرى، فاليسر ضمن معايير التوازن بين الفريقين، غير أنّه كلٌ بحسب سعيه وعمله؛ لأنّه ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ**﴾[٤]، هذا بلحاظ ثمة حرية مطلقة للإرادة الإلهية؛ لأنَّ الشخص على الرغم من استقلاله الذاتي وحريته وقدرته على المبادرة ومواهبه يبقى تحت تصرف إرادة الله، وهي إرادة لامتناهية، ومطلقة، وحكيمة ومدبرة في حين أنَّ الإرادة الأنسانية على المستوى الدنيوي، متناهية، ونسبية، ومحدودة.

رابعاً: التوازن في تعدد النعم الإلهية مع المغفرة والرحمة:

كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[٥]، ويلاحظ التوازن الجلي بين الذي يستبطن حقيقة بداية العد والعجز التام عن الوصول إلى نهايته، في قوله تعالى: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ**﴾، وقوله ﴿**لَا تُحْصُوهَا**﴾؛ ليؤكد حقيقة اتساع النعم الإلهية بنحو لا يمكن الإحاطة بها مطلقا لصدورها من محض الكرم وهو الله سبحانه

وتعالى، ولأنه أرحم وأرأف من أن يؤاخذنا على عدم الاستطاعة في أداء الشكر للنعم الإلهية[٦].

إنَّ كثرة النعم الإلهية خارجة عن قدرة الإحصاء، وإن خروج النعمة عن حد الإحصاء جاء أي **(كثرة النعم)** متوازنا مع بركات اتصافه بصفتي المغفرة والرحمة؛ فالمغفرة هي أن يستر الله ما في الأشياء من نقص وقصور، وبرحمته يتم هذا النقص ويرفع الحاجة فيظهر

---

(١) ينظر: الشيرازي، ناصر مكارم، نفحات القرآن،ط١،مدرسة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام،ايران- قم،١٤٢٦هـ، ١١٧/٤.
(٢) التسخيري ، من الظواهر العامة في الاسلام ، ٦٦.
(٣) سورة الليل : الآيات ٤ – ١١.
(٤) سورة النجم : الآية ٣٩
(٥) سورة النحل : الآية ١٨.
(٦) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ٨/ ١٥٦

فيها الخير والكمال ويحليها بالجمال، ويكتمل التوازن بذكر صفة ثالثة من أركان الربوبية وهو العلم، كما في الآية التي بعدها ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**﴾، فانَّ الإله لو كان غير متصف بالعلم لاستوت العبادة واللاعبادة بالنسبة إليه فكانت عبادته لغوا، لا أثر لها[١].

خامسا: التوازن في قدرة الله مع اللطف والإحاطة:

كما في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾ [٢]، " كلمة لطيف مشتقة من اللطف، بمعنى العمل الجميل الذي يمتاز برقته لهذا يطلق على الرحمة الإلهية الخاصة لفظ **(اللطف)** وكلمة **(الخبير)** تعني المطّلع على الأمور الدقيقة وبلطفه تنمو البذرة تحت الأرض ثم ترتفع خلافاً لقانون جاذبية الأرض، وترى الشمس وتشم نسيم الهواء حتى تصبح نباتا مثمرا"[٣]، فالآية تتحدث عن التوازن في أصل القدرة الإلهية غير المحدودة في إنزال الماء، فعملية الإنزال متوازنة مع حاجة الكائنات بجميع أشكالها للماء، وحياة الأرض بخضرة النبات فهو سبحانه لطف بخلقه بحدث الإنزال الذي أنزله بقدرته وخبرته التي لا يضاهيها سواه، وبعبارة أخرى إنَّ إنزال الماء من السماء جار بنحو من التوازن الجامع بين كمية الماء النازلة من السماء، وبين حاجة الأرض إليها، والتي تنعكس في صور الاخضرار والطبيعة الزاهية وما تتضمنه من أنواع الفواكه والخضر والحبوب.

سادسا: التوازن بين المغفرة والرحمة الواسعة والعقوبة الشديدة:

في قوله تعالى: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ**﴾[٤] إنَّ كلمة **(عِبَادِي)** فيها من التشريف واللطافة ما يجذب كل إنسان، ويصل ذلك الجذب إلى أوج شدته المؤثرة عند ختم الكلام ب **(الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)**[٥]، ليقودهم ذلك إلى الرجوع لحركة المسؤولية في الخط المستقيم من أنَّ الخطيئة يمكن أن تذوب أمام المغفرة، ولتوجد التوازن بين مسألتي **(الخوف والرجاء)**، في قوله: ﴿**وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ**﴾، وخلق توازن في وعي الإنسان بين ما يفتح للقلب أبواب الرجاء، وما يفتح الضمير على أجواء الخوف ويمنعه من التمادي في العصيان[٦]، فإنَّ تصور الرحمة يبعث في الإنسان الأمل والدافع للعمل، وتصور العقوبة يمنع ذلك الأمل من التغيير على الهدف ويضبطه من الانقلاب، وبذلك يتحقق نوع متكامل من التوازن البنّاء، الذي من شأنه أن يعطي سبيل الإنسان وطريقه في عالم الدنيا وصولا إلى الآخرة نحوا من الثبات والاستقرار الضامنين لسعادة الدنيا والآخرة، كما أنَّ مفهومي الرجاء والخوف النابعين من مفهومي الرحمة والعذاب لهما دورٌ كبيرٌ في تنظيم سلوكيات الإنسان في عالم الدنيا، بشكل تتوازن معه

---

(١) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٢١٩/١٢ -٢٢٠ .
(٢) سورة الحج : الآية ٦٣.
(٣) الشيرازي ، الامثل ، ٩٢/٨.
(٤) سورة الحجر : الآيات ٤٩ – ٥٠.
(٥) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ٦/ ٦٢٧.
(٦) ينظر: فضل الله ، من وحي القرآن ، ١٦٧/١٣.

الحقوق والوجبات انطلاقا من مفهوم العدل الذي يمكن عدّه الوعاء الذي يحتضن هذا الشكل من التوازن.

المطلب الثاني : التوازن في النبوَّة:

ويمكن بيانه على الشكل الآتي:

أولاً: النبوة في اللغة والاصطلاح:

فالنبوة في اللغة من النبو:" أصل صحيح يدل على ارتفاع في الشيء عن غيره ويقال إنَّ النبي ﷺ اسمه من النبوة وهو الارتفاع "[١].

وفي الاصطلاح: " هي وظيفة إلهية وسفارة ربَّانية، يجعلها الله تعالى لمن ينتجبه ويختاره من عباده وأوليائه الكاملين في إنسانيتهم، فيرسلهم إلى سائر الناس لغاية إرشادهم إلى ما فيه منافعهم ومصالحهم في الدنيا والآخرة"[٢].

ثانياً: الغرض من بعثة الأنبياء:

إنَّ الغرض من بعثة الأنبياء جاء بنص القران الكريم في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾[٣] ويمكن بيان جملة من دواعي النبوة على النحو الآتي:

١- هداية الإنسان، ودعوته إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده وعبادته سبحانه.
٢- تنزيه الإنسان وتزكيته من درن مساوئ الأخلاق، ومفاسد العادات.
٣- تعليمه الحكمة والمعرفة.
٤- بيان طرق السعادة والخير.
٥- بلوغ الإنسانية كمالها اللائق بها، فترتفع إلى درجاتها الرفيعة في الدارين دار الدنيا والاخرة[٤]، وورد عن رسول الله ﷺ قوله: **(ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من عقول أمته)**[٥] وكذلك يشير أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته فقال: **(وليعقل العباد عن ربهم ما جهلوه، فيعرفوه بربوبيته بعد ما أنكروا، ويوحدوه بالإلهية بعد ما أضدوه)**[٦]، وإن تعددت أغراض البعثة للأنبياء فإنّها تتلخص بمهمتين: صناعة الإنسان وتحريره من الدنيا وجعله متخلقا بالفضائل الإنسانية والأخلاقية، وإقامة المجتمع التوحيدي على وفق النظام الإلهي.

---

(١) ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ٣٨٤/٥ ـ ٣٨٥.
(٢) المظفر ، محمد رضا (ت ١٣٢٢هـ) ، عقائد الامامية في ثوبه الجديد ، ط١ ، الاميرة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، ١٤٢٩هـ ، ٦٩.
(٣) سورة الجمعة : الآية ٢.
(٤) ينظر: المظفر ، عقائد الامامية في ثوبها الجديد ، ٦٩.
(٥) الكليني ، الكافي ، ١/ ١٣.
(٦) الصدوق ، التوحيد ، ٤٥.

ثالثاً: صور التوازن في النبوة:

إنَّ جميع الأنبياء الذين ذكرهم الله في القرآن الكريم رسلٌ منه سبحانه وتعالى، وعباد مكرَّمون بُعثوا لدعوة الناس إلى الحق، وإنَّ النبي لابد من أن يمتاز بجوامع الفضائل من الصدق والعدالة والسخاء والشجاعة، والورع والوفاء والأمانة، والصبر والزهد والعفة، وأنْ يكون ذا علم ومعرفة، وكل الفضائل التي تسمو بالكمال الإنساني والروحي، والسؤال كيف مارس الأنبياء دورهم الرسالي في الحياة مع الأفراد في خلق الجو الاجتماعي المناسب والملائم للتربية والتهذيب والتزكية؟ والجواب: إنّه لا يخفى على الجميع أنَّ ركيزة التوازن في النبوة هي استمرار الاعتقاد بالفطرة السليمة والتوحيد وعبادة الخضوع ضمن منظومة تكاملية للعقيدة، بعقلية أدركت معنى العقيدة الصحيحة وانعكس هذا على اعتقاد بأنَّ الله لطيف وحكيم بعباده بإرسال أنبيائه لإنارة طريق الحق للبشرية، وإن للتوازن دورا كبيرا في إظهاره في ضوء التوازنات التي سيتطرق إليها البحث، وهي كالآتي:

١- التوازن بين بعثة الأنبياء وإقامة العدل:

إنَّ كمال الشيء هو: حصول ما فيه الغرض منه[١]، واستعمال الكمال في الدين يتحقق بعد تمامية الأجزاء إذا أضيفت إليها خصوصيات ومحسنات أُخر، فهي مرتبة بعد التمامية[٢]، وإنَّ بعثة الأنبياء جاءت من أجل تكامل الإنسان والأخذ بيده وإعانته؛ لأنَّ الواقع يؤكد أنَّ هناك نقصاً في حياة الإنسان، ولا يستطيع الإنسان سواء كان فرداً أو جماعة ان يملأ ذلك الفراغ، إلا بمساعدة إلهية تتجسد في بعثة الأنبياء[٣]، كما أن من جملة موارد التوازن في الآية الشريفة، هو إرسال الرسل بالبينات، أي الحجج الدامغة، التي من شأنها إقناع الناس على الإيمان بالأنبياء، قال تعالى: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾**[٤]، والآية واضحة الدلالة على أن الغرض من إرسال الأنبياء عليهم السلام هو هو من أجل نشْر موازين القسط والعدل، حتى تكون من شأن الناس ودينهم أن يقوموا بالقسط، كيما يكون العدل الحاكم والمهيمن على شؤونهم.

ولا يخفى ما في ذلك من حقيقة التوازن بين إرسال الأنبياء من جهة، وبين تحقيق الأهداف المنوطة بأنَّ يقوم الناس بالقسط من جهة أخرى، وهو ما يؤكد حقيقة المهمة الرسالية لكل رسول وهي إقامة العدل، وقال تعالى: **﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾**[٥]، وقال تعالى: **﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾**[٦].

---

(١) ينظر: الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن، ٧٢٦.
(٢) ينظر: مصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ١٢٥/١٠.
(٣) ينظر: مطهري، مرتضى محمد حسين (ت ١٣٩٩هـ)، التكامل الاجتماعي للإنسان، ط٤، دار الهادي، بيروت – لبنان، ١٤٢٦هـ، ١٥.
(٤) سورة الحديد : الآية ٢٥.
(٥) سورة يونس : الآية ٤٧.
(٦) سورة ص : الآية ٢٦.

كما أنَّ التوازن من بعثة الانبياء يتجسد في قوله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ**﴾[1].

يقول العلامة الطباطبائي (ت١٣٤٤هـ) في شرح الآية: إنَّ حاجة الناس ضرورية إلى الأنبياء؛ لأنَّ النفس الإنسانية راغبة للكمال، وهي واقعة في طريق الاستكمال، وبما أنَّ الله ﷻ تام الإفاضة، فإنّه يعطي إفاضة لكل نفس مستعدة بما يلائم استعدادها من الكمال، ويتبدل إلى قوة فعلية من الكمال الذي يسمى سعادة إذا كانت ذات صفات حسنة وأخلاق وملكات فاضلة معتدلة، ومن الذي يسمى شقاوة إن كانت ذات رذائل وأخلاق وهيئات رديّة[2].

وهذا يبعث أملاً واسعاً ودافعاً نحو تحقيق التوازن الذي يحتاجه الإنسان لسد النقص المعرفي الموجود فيه، والأنبياء حققوا التوازن المعرفي للتكامل عن طريق التعاليم التي أرسلها الله بوساطتهم، التي لولاها لما استطاع الإنسان أن يحقق توازنه المعرفي نحو التكامل سواء كانت على مستوى الطاعات والعبادات أو على مستوى المعاملات، " وفي ذلك إصلاح لحياتهم الفردية والاجتماعية من بدء الخلق إلى وقت الوفاة، وبيان لارتباط الناس بخالق الكون والعالم بعد الموت "[3].

٢- التوازن بين المعجزة النبوية والغاية منها:

لقد بيّن القرآن الكريم أسباب النزول، وذلك عن طريق عرْض لون عال من التوازن الرابط بين القرآن الكريم معجزة النبيﷺ وبين الغاية التي من أجلها أُنزل قال تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ**﴾[4]، فالآية بصدد بيان التوازن القائم بين نزول القرآن والهدف المشخّص من نزوله والمحّدد بالهدى والفرقان، ثم أنه سبحانه يَدلّنا على نوع آخر من التوازن ينتهي بالإنسان إلى الوقوف على حقيقة تلك المعجزة الإلهية الخالدة، من خلال إعمال التدبر قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾[5]، أي أنَّ التدبر بآيات القرآن أشبه ما يكون ميزانا يوصل الإنسان، ويبعث في نفسه الاطمئنان على أنَّ القرآن الكريم هو كلام الله تعالى على القطع؛ لأنه لو كان من عند غيره سبحانه لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ، ويبسط القرآن صنفا جديدا من التوازن بين المؤمنين والظالمين، قال الله تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا**﴾[6].

فالقرآن يكون فيه شفاء ورحمة للمؤمنين، وكأنه توازن بين الفوز الخاص بالمؤمنين المتمثل بالشفاء والرحمة من جانب، وبين الخسارة الخاصة بالظالمين من جانب آخر؛ لذا فلا عجب من أن يكون القرآن هو أحد الثقلين الذين أوصى بهما الرسول ﷺ حين قال:(**إني**

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٣.
(٢) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ١٤٩/٢ ، وينظر الآملي ، تسنيم ، ٤٣١/١٠.
(٣) الآملي ، تسنيم ، ١٠/ ٤٣٢.
(٤) سورة البقرة : الآية ١٨٥
(٥) سورة النساء : الآية ٨٢
(٦) سورة الاسراء : الآية ٨٢

تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما)[1].

فالقرآن هو الحبل المتين الذي أحد طرفيه بيد الله سبحانه وتعالى وعلى الإنسان الإمساك بالطرف الآخر بقوة وإصرار، ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**﴾[2]، وبقدر القوة التي يمسك بها الانسان يجنبه الله الأخطار ويقيه الأهوال والمصاعب، فإنَّ القرآن الكريم يعمل على المحافظة على الفرد والمجتمع من كافة أنواع المخاطر بهذا الاتصال الدائم والمستمر مع الله سبحانه والتمسك والالتزام بما جاء به من قوانين.

٣- التوازن بين الطاعة للمكلَّف والجزاء الإلهي:

من دواعي بعثة الأنبياء هي قاعدة اللطف وهو ما يدعو المكلَّف إلى فعل الطاعة وترك المعصية بحيث يجعله أقرب إلى امتثال أوامر الله تعالى وأبعد عن ارتكاب نواهيه[3]، وإنَّ هداية الناس التي منحها الله للأنبياء هداية تشريعية في التعليم والتزكية والدعوة إلى الله وحده لا شريك له وتطبيق أوامره وإقامة حدوده، فالنبي يمثل مجرى فيض الخالق ومظهر لطفه الخاص، فكل ما يصل إلى الخلق من نعمة إنما هي من بركة وجود الأنبياء، وإنَّ اللطف الإلهي الذي بعث الأنبياء ليقووا الرابطة بين العبد وربه ليزداد تقربا بالطاعة[4]، فيقول جل شانه:﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾[5]، والاستقامة للإنسان هي لزوم المنهج المستقيم، وإقامة الشيء: توفيه حقه[6]، وفي قوله **(ثُمَّ اسْتَقَامُوا)** لزوم وسط الطريق من غير ميل وانحراف والثبات على القول الذي قالوه[7]، " إنّه خط التوحيد والاستقامة في اتجاهه بحيث لا ينحرف ذات اليمين وذات الشمال، التي تختصر الرسالة في كل تفاصيلها المتعلقة بالحياة والناس"[8]، كما أن الآية تلفت الأنظار إلى شكل من أشكال التوازن، إذ يقرّر سبحانه حقيقة أنَّ المؤمنين﴿**قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ يكون جزاؤهم عليه -جلّ شأنه- جزاءً متوازنا يتناسب مع استقامتهم وإقرارهم بالله ربّا؛ ليكون بتنزّل الملائكة عليهم أمنا من الخوف والحزن والبشارة بالجنة التي وعدهم بها سبحانه، يقول تعالى:﴿**تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾، والاتجاه نفسه يكوّن التوازن بين الإيمان والتقوى، اللذين يمثلان أعلى درجات الطاعة عند الإنسان، وبين

---

(1) ينظر: الطوسي ، ابي جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، الخلاف ،(د ط) مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة الدرسين، قم ، ١٤٠٧هـ ،٢٨/١

(2) سورة آل عمران : الآية ١٠٣

(3) ينظر: الساعدي ، دروس توضيحية في شرح عقائد الامامية ، ٩٣.

(4) ينظر: الآملي ، تسنيم ، ٥٧٧/١٢ -٥٨٨.

(5) سورة فصلت : الآية ٣٠.

(6) ينظر:الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ٦٩٢.

(7) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٣٨٩/١٧.

(8) فضل الله ، من وحي القرآن ، ١١٥/٢٠- ١١٦.

ما يترتب عليها من جزاء عظيم، قال تعالى: ﴿**وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾[١]، وقال تعالى: ﴿**إِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ**﴾[٢]، كما أنَّ ثمة توازناً توازناً آخر بين الطاعة من جهة والهداية من جهة أخرى جزاءً على الهداية، قال تعالى: ﴿**وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾[٣].

المطلب الثالث : التوازن في الامامة:

تُعّد الإمامة أصلا من أصول الدين لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها، فهي رئاسة إلهية عامة وهي خلافة عن النبيﷺ شاملة لأمور الدين والدنيا؛ لأن النبوة بداية حياة والإمامة استمرار وامتداد لتلك الحياة[٤]، وإنَّ الإمام كالنبيّ يجب أن يكون معصوما من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى الموت، وهم معصومون عن السهو والخطأ والنسيان؛ لأنهم حفظة الشرع، والقوامون عليه حالهم في ذلك حال النبي ﷺ [٥]، والعصمة بمعنى المنع[٦]، والحفظ والوقاية[٧]، وفي المصطلح العقائدي: " لطفٌ لطفٌ يفعلُهُ اللهُ تعالى بالمكلّف، بحيث تمنع منه وقوع المعصية وترك الطاعة مع قدرته عليهما "[٨]، وقيل أيضا هي ملكة اجتناب المعاصي مع التمكّن منها[٩]، بمعنى أنَّ الله حفظ حفظ أنبياءه ورسله والائمة عليهم السلام من الوقوع في الذنوب والمعاصي، صغيرها وكبيرها، من حين الولادة حتى الوفاة، فلا تصدر منهم المعصية حتى سهوا ونسيانا، وكل ما ينطبق على النبوة تشترك فيه الامامة إلا أنَّ الإمام لا يتلقى الوحي، ولا يختلف التوازن الذي بيانه في النبوة عنه في الامامة، وستبين الباحثة مفاهيم إضافية لأهمية الإمامة في تطبيق التوازن في الآتي:

أولاً: التوازن في وجود الإمام وحفظ الأمة من الانحراف:

الإمام هو الشخص المقتدى به في أفعاله وأقواله، في قوله:﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾[١٠]، نستوحي من **(يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)** القدوة في أفعال الإمام وأقواله في جانب التبليغ، وفي قوله: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾، جانب الشخصية القيادية التي تمثل الثبات في مواجهة المزالق، ما يجعلها في موقع المسؤولية والقدوة العملية[١١]، إنَّ دور الإمام لا يقل أهمية عن وجود النبي، فالدليل الذي يوجب إرسال الرسل

---

(١) سورة آل عمران :الآية ١٧٩.
(٢) سورة محمد : الآية ٣٦.
(٣) سورة النور : الآية ٥٤.
(٤) ينظر: المظفر، عقائد الإمامية في ثوبه الجديد ، ٩١-٩٥
(٥) ينظر: المصدر نفسه، ٩٧.
(٦) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مادة عصم ، ١٢/ ٤٠٢.
(٧) ينظر: الفيومي ، المصباح المنير، ٤١٤.
(٨) المفيد ، ، محمد بن محمد النعمان (٤١٣هـ) ، النكت الاعتقادية ، ط١ ، دار المفيد للنشر ، ١٤٣١هـ ، ٣٧/١٠.
(٩) ينظر: الجرجاني ، التعريفات ، باب العين ، ١٢٧.
(١٠) سورة السجدة : الآية ٢٤.
(١١) ينظر: فضل الله ، من وحي القرآن ، ١٦/٣ -١٧.

وبعث الأنبياء هو نفسه يوجب نصب الإمام، فلا يجوز أن يخلو عصر من العصور من إمام مفترض الطاعة منصب من الله تعالى، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: **(لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، أما ظاهرا مشهورا، أو خائفا مغمورا، لئلا تبطل حجج الله وبيناته)**[1].

من هنا يتبين للبحث أنَّ وجود الأئمة كونهم خلفاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، من شأنه أن يُحدث توازنا بين وجودهم من جهة، وحفظ الأمة من الانحراف عن الجادة من جهة أخرى، وبين إتمام الحجة في قوله:﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**﴾[2] من جهة ثالثة.

وبتوجيه آخر إنَّ وجود الأئمة عليهم السلام يحقق التوازن أيضا بين عدم انحراف الأمة من جانب، وبين استمرارية الحجة لله على خلقه من جانب آخر، بل إنَّ وجود الإمام مدعاة لبقاء الكون وديمومته واستقراره، فعن **(علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن محمد بن الفضيل عن أبي حمزة قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام أتبقى الأرض بغير إمام؟ قال: لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت)**[3] والرواية واضحة الدلالة بمدخلية وجود الإمام في حفظ التوازن الكوني، فضلا عن التوازن العقدي.

ثانياً: التوازن في الطاعة والولاية:

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ**﴾[4]، ﴿**مِنكُمْ**﴾[4]، والآية تخاطب المؤمنين وتأمرهم بإطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وإطاعة أولي الأمر الأمر على صعيد واحد ومرتبة واحدة.

ويمكن القول إنَّ الآية تعكس توازنا عقائديا خلاصته أنَّ الله يأمر المؤمنين بإطاعته ثم بإطاعة نبي الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم وأولي الأمر، ما يُوحي بأنَّ طاعتهما تُوازن طاعة الله سبحانه، وقد ورد في تفسيرها ما يؤكد ذلك المعنى، إذ ورد في تفسير**(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)**، قيل "أي والزموا طاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أيضا وإنما أفرد الأمر بطاعة الرسول وإنْ كانت طاعته مقترنة بطاعة الله مبالغة في البيان و قطعا لتوهم من توهم أنه لا يجب لزوم ما ليس في القرآن من الأوامر"[5].

والقيادة الشرعية وحدها لها حق الطاعة، "وهذا ما يريد الله سبحانه أن يخطّط للمسلمين ويدخلهم في أجواء النظام، على أساس النظرية والتطبيق معا، فيدعوهم إلى عدّ الطاعة لله وللرسول ولأولي الأمر قاعدة ثابتة، ترتكز عليها الحياة العامة، في ما تمثله من السير على الخط الذي يرسمه الرسول في تخطيطه للمسار العملي في تفصيلات الأمور،

---

(1) خطب الامام علي عليه السلام (ت ٤٠ هـ)، نهج البلاغة، شرح: محمد عبده، ط١، النهضة،دار الذخائر ، قم، ١٤١٢هـ،٤/ ٣٧.
(2) سورة الانعام : الآية ١٤٩
(3) الكليني ، الكافي ، ١٧٩/١
(4) سورة النساء : الآية ٥٩
(5) الطبرسي ، مجمع البيان ، ٣/ ٩٩

وجزئيات القضايا، و حركة الصراع، و قيادة الأمة إلى أهدافها وتحريك الساحة نحو المواقف الحاسمة في مواجهة التحديات، وتفجير الطاقات في سبيل الإبداع والعطاء"[١].

أما ما يخص مفهوم الولاية فإن التوازن يأخذ بعدا أعمق وأوكد، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[٢]، إذْ انحصرت الولاية بين الله سبحانه ورسوله ﷺ، بنحوٍ متساوٍ ومتوازن بينهم، الأمر الكاشف عن أهمية ومكانة ولاية الذين آمنوا، وانها امتداد لولاية الله سبحانه، وكذا قد ورد في تفسيرها ما يؤكد ذلك، إذ ورد في تفسير هذه الآية أنها بُدئت "بكلمة **(إنّما)** التي تفيد الحصر، وبذلك حصرت ولاية أمر المسلمين في ثلاث هم: الله ورسوله ﷺ، والذين آمنوا وأقاموا الصّلاة وأدوا الزّكاة وهم في حالة الركوع في الصّلاة، وأنّ المراد من كلمة **(وليّ)** في هذه الآية، هو ولاية الأمر والإشراف وحق التصرف والزعامة المادية والمعنوية، خاصّة وقد جاءت مقترنة مع ولاية النّبي ﷺ وولاية الله حيث جاءت الولايات الثلاث في جملة واحدة"[٣].

ثالثاً: التوازن في شخصية الإمام القيادية:

كما أنَّ من مهام الإمام ووظائفه والتي تمثل استكمالا للتوازن في المجتمع وحفظ الأمة من الانحراف، " فقد كان النبي حصن الحق وملجأ الأمة الفكري، والمانع من تطرق الانحرافات الفكرية والأخلاقية والعقائدية والسلوكية، ولابد من إمام يواصل هذا النهج ليحفظ الأمة من التشتت المذهبي والخلاف الديني والفكري "[٤]، فوجود الإمام حافظ للأمة من الانزلاق في مهاوي هذه الانحرافات في تطبيق التشريعات الإلهية التي أوجبها القرآن الكريم كما في قوله: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[٥]، فالولاية الإلهية تمنح لمن فيهم الاستعدادات والتقدّم في الإخلاص الإخلاص والعمل، ومن لهم القابلية في تطبيق الشريعة بحذافيرها، وقد اقتصرت الآية على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لانهما كمال الإخلاص والانقطاع إلى الله -عز وجلّ - ، وفيهما نبذ للشهوات وحب الدنيا، والفعل المضارع في **(يُقِيمُونَ وَيُؤْتُونَ)**، على الاستمرار والتكرار والتجدد، وكامل رغبتهم في الإحسان[٦].

رابعاً: التوازن والانتظار:

---

(١) فضل الله ، من وحي القرآن ، ٧ / ٣٢٤

(٢) سورة المائدة : الآية ٥٥

(٣) الشيرازي، الامثل ، ٤/ ٤٧

(٤) بادي ، محمد جمعة ، القول الثابت ،(د ط)، شركة ذو الجناح للإنتاج الفني ، الكويت ، ١٤٢٩هـ، ١٠٩.

(٥) سورة المائدة : الآية ٥٥.

(٦) ينظر :السبزواري ، مواهب الرحمن ، ١١/ ٤١٥ – ٤١٦.

جاء في الحديث الشريف عن محمد بن الحسين، عن جعفر بن بشير، عن موسى بن بكر الواسطي، عن أبي الحسن عن آبائه عليهم السلام أنَّ رسول الله ﷺ قال: **(أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من الله عز وجل)**[1].

إنَّ مفهوم الانتظار يحدّد الرؤية الصحيحة والمتوازنة لمسيرة الإنسان والهدف منها، فكان المائز للمعتقد بالإمام المهدي عليه السلام فالانتظار: هو الترقب، والتهيؤ، والامل المنشود، والانتظار ممارسة عبادية وشعور وجداني وحركة حضارية وتهيؤ نفسي وعقلي للتغيير والتطلع له، محورها الغيب والتوازن[2]، في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[3]، وهذا التغيير في ظل الانتظار يتخذ التوازن فيه بعدين في الحياة الإنسانية:

الأول: التهيؤ والاستعداد على مستوى الفرد، والثاني: التهيؤ والاستعداد على مستوى الجماعة، وهذان البعدان لهما ركائز تحدد سير كُل منها المفاهيم الآتية [4]:

١- **الولاء**: كما في قوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[5]، قيل في الولاء بين المؤمنين إنهم ذوو كينونة واحدة متفقة لا تشعب فيها ولذلك يتولى بعضهم أمر بعض ويدبره؛ ولذلك كان يأمر بعضهم بعضا بالمعروف وينهى بعضهم بعضا عن المنكر، ويقيمان ركنُين وثيقين في الشريعة فالصلاة ركن العبادات التي هي الرابطة بين الله وبين خلقه، والزكاة في المعاملات التي هي رابطة بين الناس أنفسهم[6].

على أنَّ إطاعة شرائع الله النازلة من السماء كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة والزكاة تتوازن مع إطاعة الرسول فإنَّ الرسول هو الصادع بالحق القائم بالدعوة إلى أصول الدين وفروعه، والرحمة هي نتيجة في القضاء الإلهي من شمول الرحمة الإلهية لهؤلاء القوم الموصوفين بما ذكر.

٢- **الصبر**: في قوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [7]، وصف الصبر في القرآن الكريم بأوصاف منها قوله تعالى:﴿ **إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿**وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾[9]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ**﴾[1].

---

(1) الصدوق ، ابو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، كمال الدين وتمام النعمة ، تح علي اكبر الغفاري ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤٠٥هـ ، ٦٤٤.

(2) ينظر: المعلم ، العدالة في فقه أهل البيت عليهم السلام ، ٢٨.

(3) سورة الرعد : الآية ١١.

(4) ينظر: المعلم ، العدالة في فقه أهل البيت عليهم السلام ، ٢٨ - ٢٩، بتصرف .

(5) سورة التوبة : اية ٧١.

(6) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٩/ ٣٣٨.

(7) سورة البقرة : الآية ١٥٣.

(8) سورة لقمان : الآية ١٧.

(9) سورة فصلت : الآية ٣٥.

إن قدرة الانسان على الصبر والصلاة في ظروف انتظار الفرج تتوازن مع وجود الله وقيمومته مع الصابرين فعلى قدر الاستعانة يكون المدد الإلهي والمعونة الإلهية محيطة بالمؤمنين المنتظرين.

٣- **الأمل**: في قوله تعالى:﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾[٢]، **(نَّمُنَّ)** هنا العطاء من النعمة ما يثقلهم، وتمكينهم في الأرض أي إعطاؤهم فيها مكانا يملكونه ويستقرون فيه، والافعال المضارعة **(نُرِيدُ) و(نَّمُنَّ) و(نَجْعَلَهُمْ)**، هي دلالة على الاستمرارية والمستقبل[٣].

إن عطاء النعم الكثير من الله سبحانه تتوازن مع استمرارية هذا العطاء وقدرة الجعل والتدبير الإلهي.

وهكذا يستكمل التوازن دوره في بناء الشخصية المنتظر القادرة على تفعيل دورها في قيادة المجتمع في زمن الغيبة كما في قول الرسول ﷺ : **(طوبى للصابرين في غيبته، طوبى للمقيمين على محجتهم، أولئك وصفهم الله في كتابه وقال: الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)**[٤].

المبحث الثاني : التوازن العبادي:

إنَّ العبادة هي الانقياد والخضوع [٥]، " والعبودية هي إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الأفضال، وهو الله تعالى "[٦] والعبودية الحقيقية: " هي تطابق التعبد الأختياري التشريعي العبودية التكوينية، فإنَّ التشريع لازم أن يطابق التكوين، وإلا يلزم التضاد فيما بينهما ويفوت الغرض المقصود من التكوين والخلقة"[٧].

ويُعدّ التوازن العبادي الدعامة الأساسية في بناء توازن الإنسان، وهو ترجمة عملية للتوازن العقائدي، فالإنسان يعتقد أولاً وبعدها يؤدي الطقوس العبادية طبقاً لمعتقداته[٨]، لذلك يُعدّ أعمق وأشمل توازناً، وأكثر تأثيراً في وجود الفرد والأمة.

"ولكي يظل غرس العقيدة الإسلامية قوياً في النفس، لابد من أنْ يسقى بماء العبادة وبمختلف صورها وأشكالها، فبذلك تنمو العقيدة في الفؤاد وتترعرع، وتثبت أمام عواصف الحياة وزعازعها "[٩]، ومهما ارتفعت درجات الناس بعض على بعض، فإنها لا ترتفع عن

---

(١) سورة الزمر: الآية :١٠.
(٢) سورة القصص، الآية ٥.
(٣) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٩/١٦ ، وينظر: الشيرازي ، الامثل ،١٢/.١٧٤
(٤) المجلسي ، بحار الانوار، ٣٠٦/٣٦.
(٥) ينظر: الفيومي ، المصباح المنير ، ٣٨٩.
(٦) الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ٥٤٢.
(٧) مصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ١٣/٨.
(٨) ينظر: الفتلاوي ، المنظور القرآني في بناء الانسان،١٢٣.
(٩) سويد، محمد نورعبد الحفيظ، منهج التربية النبوية للطفل، ط٣، دار طيبة، مكة المكرمة، ١٤٢١هـ، ٢٥٢، وينظر: الفتلاوي، المنظور القرآني في بناء الانسان، ١٢٣

درجة العبودية لله تعالى؛ لأنَّ امتيازاتهم الذاتية تتحرك في دائرة العبودية والحاجة اليه للاستمرار[١]، والتوازن العبادي يتخذ أبعاداً روحية وجسدية سواء كانت قولية أم حركية ويمكن بيانها على وفق المطالب الاتية :

المطلب الأول : التوازن في عبودية الانسان:

ويمكن بيانه على النحو الآتي :

أولا: التوازن في عبودية الإنسان المطلقة والتسخير الإلهي:

إذا استشعر الإنسان في نفسه عبودية مطلقة لله سبحانه وتعالى فإنها تكون عاصمة من عبادة أي شيء غير الخالق، وتعصمه من الغرور والتمرد والطغيان، والاستكبار في الأرض بغير حق، والعلو فيها والفساد، ففي قوله تعالى: ﴿**إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾[٢]، " هو انقيادهم في وجودهم وفي طاعتهم لله على أساس أساس الإحساس بالعبودية والاعتراف بها بين يديه "[٣]؛ ولأنَّ الإنسان بعبوديته هذه كريم على الله، فيه نفخة من روح الله، ومكرّم في الكون، حتى يستخلف في الأرض ويسلط على كل ما فيها وتسخر له[٤]، فيقول تعالى:﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[٥].

إنَّ كل الموجودات السماوية والأرضية مسخرة بإذن الله لنفع البشر سواء كانت التي في قبضته واختياره، ويستعملها برغبته وإرادته أو التي ليست تحت تصرفه واختياره، ولكنها تخدمه بأمر الله جل وعلا كالشمس والقمر وغيرها[٦]، وبالصدد نفسه يمكن أن يُستفاد من الآية موردا من موارد التوازن العبادي، يتلخص في أنَّ الله سبحانه سخّر لنا ما في السموات وما في الأرض، وأنَّ هذا التسخير آيات بيّنات لمن أعمل نظره في التفكر والتدبر، فالتسخير لما في السموات والأرض من جانب، وأنّها آيات وبيّنات من جانب آخر، يُشّكل التفكر قطب رحى التوازن بينهما.

ثانيا: التوازن بين طلب الدنيا وابتغاء الآخرة:

إنَّ القرآن الكريم يعرض مميزات كل من الحياتين بشكل دقيق، ويوضّح مجريات الحوار والجو الذي يسيطر عليهما، ويصف أنواع الثواب الحسي والمعنوي، والعقاب، لتكون الصورة واضحة تمام الوضوح ومؤثرة في تحقيق الغاية المنشودة من التوازن الذي له الأثر في عمل الإنسان وهدفيته[٧]، ومن الآيات القرآنية التي تصور الترابط والانعكاس الشديدين بين الدنيا والآخرة قوله تعالى:﴿**وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ**

---

(١) ينظر: فضل الله ، من وحي القرآن ، ٨٠/١٥.
(٢) سورة مريم : الآية ٩٣
(٣) فضل الله ، من وحي القرآن ، ٨٠/١٥
(٤)ينظر سيد قطب ، خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ، ١٣٦.
(٥) سورة الجاثية ، الآية ١٣.
(٦) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ٥٤/١٣.
(٧) ينظر: التسخيري ، من الظواهر العامة في الاسلام ، ٧١.

أَعْمَى﴾[1]، وقوله: **﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾**[2]، والآية واضحة الدلالة على أنَّ الإعراض عن ذكر الله سبحانه وتعالى يُوازنه في الجانب الآخر وهو الجانب الدنيوي أنَّ معيشته تكون ضنكا، والأخروي حين يُحشر في الآخرة أعمى، أي أن ذنب الإعراض عن ذكر الله، متوازن مع العقوبة والعاقبة الموضوعة من قبل الله في الدنيا والآخرة.

وطلب الدنيا في القرآن الكريم تتخذ شكل **(حركة وحياة)**، فلا رهبانية متثاقلة، ولا تصوفا متكاسلا ساكناً، فلا يوجد انفصام بين العبادة والحياة، ولا انشطار بين الذات والموضوع، وهو التوازن في الشخصية العقدية في الباطن والظاهر، والمخفي والمعلن، ففي قوله تعالى: **﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾**[3].

ولا يخفى ما في الآية من توازن واضح يجمع بين طلب الدنيا والآخرة، وأن العبد المؤمن ينبغي أن يكون طلبه في كليهما متوازنا، فلا يستغرق في طلب الآخرة حتى ينسى الدنيا، ولا ينشغل في طلب الآخرة حتى يغفل عن الآخرة، وإنّما قدّم الخطاب القرآني الدار الآخرة في الآية الشريفة ـ بحسب تقدير الباحثة ـ ؛ لأنَّ الدار الآخرة هي دار القرار وهي في قوله تعالى: **﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾**[4].

من هنا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: **(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)**[5]، إذ يشير كلام أمير المؤمنين عليه السلام إلى حالة توازن فكري وروحي وعقدي فيما يتعلق بعلاقة الانسان بالدنيا والاخرة؛ لأنَّ الدنيا بطبيعتها وماديتها تجعل الإنسان ينقاد إليها لإشباع رغباته مهما كانت وينسى أمر الآخرة، وأنَّ هناك ميزاناً لأعماله من ثواب وعقاب، وفي الطرف الآخر هناك من يسعى إلى الآخرة فيعمل جاهدا وينكفئ عن الدنيا وينزوي بعزلته في جو من العبادة والذكر بما يجعله يعطل معالم حياته، وكلا الطرفين غير صحيح، بل الواجب هو حالة توازن بين متعلقات الدنيا، والأخذ بالأسباب، وبذل الوسع في تحصيل الرزق وعمارة الأرض والانتفاع الإنسان بها ومن يجيء بعده، كما انتفعت أنت بعمل من كان قبلك، وبين متعلقات الآخرة ودوام العمل والاستعداد لها.

ثالثا : التوازن بين الإيمان والعمل الصالح:

قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾**[6] .

---

(1) سورة الإسراء : الآية ٧٢.
(2) سورة طه : الآيات ١٢٤ ــ ١٢٥.
(3) سورة القصص : الآية ٧٧.
(4) سورة العنكبوت ، الآية ٦٤.
(5) الحر العاملي ، محمد بن الحسن بن علي (ت١١٠٤هـ) ، وسائل الشيعة ، ط٢ ، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، ١٤١٤هـ ، ١٧ /٧٦.
(6) سورة يونس : الآية ٩.

يلحظ المتتبع لآيات القرآن الكريم مجيء قوله تعالى:﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾مرات كثيرة؛ للتأكيد على ورود توازن قِيمي بين الإيمان والعمل على النحو الذي لا يُتصّور تخلف أحدهما عن الآخر، فالإيمان مرتبط بالعمل الصالح، والعكس بالعكس، وكلاهما يقدمان الأنموذج الصالح للمؤمن، وأنَّ "الكمال الحقيقي يكمن في الإنسان من الجمع السالم بين الحُسن الفاعليّ مع الحُسن الفعلي؛ أي الروح المعتقدة والمتخلقة بالأخلاق، والبدن المشتغل بالامتثال، الذي يبين في العديد من الآيات بصورة الشرط اللازم للخلاص من مرارة عقاب المعاد وتذوق حلو ثوابه"[١]، ومن أبرز التوازنات للإيمان مع العمل الصالح هما الصلاة والزكاة في قوله تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[٢]، فبعد الترغيب بالحسن الفاعلي؛ الذي يتمثل بالإيمان بالمعارف الإلهية والمآثر السماوية، يأتي التشويق إلى الحسن الفعلي؛ المتمثل بتوطيد الرابطة العملية مع الله جلّ وعلا **(الصلاة)**، وتوثيق الارتباط الاقتصادي بضعيفي الحال ومحتاجي **(الزكاة)** والمحافظة على وحدة الأمة الإسلامية وعظمتها من خلال صلاة الجماعة[٣]، وأنَّ العلاقة التلازمية بين الإيمان والعمل الصالح تحقق توازناً من نوع القول والفعل، فلا إيمان من دون عمل ولا عمل خالٍ من الإيمان، وهذه العلاقة ذات طبيعة اجتماعية حركية فاعلة، لا تفصل بين الدنيا والآخرة من جهة، ومن جهة أخرى فإن الشريعة ـ على وفق الآيات آنفا ونحوها ـ تؤكد أن ثمة توازناً دقيقاً يحفظ الحقوق للذين آمنوا، بين ما انعقد وجودهم في عالم الدنيا على الإيمان والعمل الصالح، وبين ما ادُخّر لهم من أجر في عالم الدنيا يضمن لهم عدم الخوف والحزن.

رابعاً: التوازن في سماحة العبادة:

السماحة من السلاسة والسهولة، فيقال سمح له بالشيء[٤]، ففي قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[٥]، وقوله: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ** ﴾[٦]، هذا الترخيص واليسر في العبادة هو روح التوازن في الشريعة الإسلامية في رعاية الانسان وجعله لا يتثاقل في أداء العبادات في ظل الظروف الطارئة التي تواجهه، فلم ينزل الأحكام الإسلامية للإنسان لتعسيره، بل أراد له اليسر في التكاليف، قال تعالى:﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**﴾[٧] فهناك توازن بين تقوى الله سبيل لليسر والسهولة في الأمور،

---

(١) الآملي ، تسنيم ، ٤/ ١٢٦.
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٧.
(٣) ينظر:الآملي، تسنيم، ١٢٧/٤.
(٤) ينظر: ابن فارس ، مقاييس اللغة ،٩٩/٣.
(٥) سورة البقرة : الآية ١٨٥.
(٦) سورة النساء : الآية ٢٨.
(٧) سورة الطلاق ، الآية ٤

قال تعالى: ﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**﴾[١] وما يتضمنه من توازن بين العسر واليسر والتأكيد بوساطة التكرار، وسيأتي بيانه بأذن الله تعالى.

المطلب الثاني: التوازن في فريضة الصلاة:

الصلاة: هي الدعاء، والتبريك، والتمجيد[٢]، وهي من الأعمال العبادية ووسيلة الاتصال بالله، ومظهر العبودية الخالصة؛ لأنها أكمل صورة من صور العبادة التي تربط القلوب بخالقها وتقترب منه وتتصل به، فهي (وفادة إلى الله تعالى)[٣]، والوفادة هي الضيافة الكريمة على الله، إنَّ اقامة الصلاة بمواعيدها المحددة وأسلوب أدائها المتميز بحركاتها وأفعالها وأقوالها، تدريب على حب النظام والاحترام والالتزام به في جميع شؤون الحياة، وقد وردت الصلاة ب**(الاقامة)** بدلا من **(صلوا)**؛ لأنَّ فيها إشارة إلى إقامة وإحياء الصلاة في المجتمع والإتيان بحقها عن طريق التقييد بشروطها الظاهرية والباطنية من حضور القلب وخشوعه مما يمثل روح الصلاة[٤]، وهي وسيلة التطهير والمواظبة عليها تربي عند المصلي الضمير الحي الذي يبعث الخير ويمنع الشر.

ويتخذ التوازن في الصلاة أبعاداً عدة منها:

أ- التوازن في مقدمة الصلاة:

الوضوء هو مقدمة الصلاة لتحصيل الطهارة الظاهرية، ويكون الطهور أما بالماء أو التراب، وكلاهما أصل منشأ الحياة ومصدرها، فلا ينبغي أن نتصور أن الوضوء مجرد غسل الاعضاء المخصوصة بالماء ومسحها، بل إنَّ الماء منشأ الحياة في قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[٥]، الجعل بمعنى الخلق، وللماء دخل في وجود ذوي الحياة، ويشكل الجزء الأكبر من بدن الإنسان[٦]، وفي قوله:﴿ **وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ** ﴾[٧]، ومعنى الآية يتضمن معنى من معاني التوازن، فإنزال الماء من السماء يقابله الطهارة وذهاب رجز الشيطان بقرينة عدم تخلف العلة عن المعلول، فعلة نزول الماء في الآية هو التطهير وإذهاب رجز الشيطان، ولا يمكن أن نتصور قصور العلة عن المعلول لوجود توازن مطلوب بينهما.

ب - التوازن في الجهر والإخفات:

---

(١) سورة الشرح ، الآية ٦

(٢) ينظر: الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ٤٩٠ – ٤٩١.

(٣) ينظر :القبانجي ، حسن ، شرح رسالة الحقوق للامام زين العابدين عليه السلام، ط١ ، مؤسسة الاعلمي ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٢هـ ، ٢٢٥/٢.

(٤) ينظر :الآملي ، تسنيم ، ١٢٨/٤.

(٥) سورة الانبياء : الآية ٣٠.

(٦) ينظر: الطباطبائي ، الميزان، ٢٧٧/١٤ ، والشيرازي ، الامثل ، ١٥٧/١٠.

(٧) سورة الانفال : الآية ١١.

في قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾[1]، "إنَّ الآية لا علاقة لها بالصلوات الجهرية والإخفاتية في اصطلاح الفقهاء، بل إنَّ المقصود منها يتعلق بالإفراط والتفريط في الجهر والإخفات، فهي تقول: لا تقرأ بصوت مرتفع بحيث يشبه الصراخ، ولا أقل من الحد الطبيعي بحيث تكون حركة شفاه وحسب ولا صوت فيها"[2]؛ لأنَّ " جو الصلاة يفرض التوازن في طريقة التلفظ بكلمات القرآن أو الدعاء أو التسبيح، فإنَّ ذلك يسهم في استيعاب المضمون بطريقة هادئة روحية، لا تجعل الكلمة تغيب في الهمس، ولا تصرخ في الجهر، بل تتحرك في وعي السمع بما يضمن نفاذها إلى القلب وانسيابها في الروح"[3]، وهذا التوجيه مبدأ لنا في كل أعمالنا، وبرامجنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ونكون في جميع هذه الأمور بعيدين عن الإفراط والتفريط، إذ الأساس هو[4]: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾.

ج ـ التوازن في حركات الصلاة مع التربية الإيمانية:

إنَّ الصلاة ليست مجرد حركات رياضية للجسد، وليست توجهاً صوفياً بالروح، بل هي مظهر لنشاط قوى الإنسان الثلاث **(الجسد ، العقل ، الروح)**؛ تتوجه إلى خالقها في توازن وترابط واتحاد، يجعلها قياما وقعودا وركوعا وسجودا، لتحقيق توازن نشاط الجسد، ويجعلها تدبرا وتفكرا وقراءة في المعنى والمبنى، تحقيقا لنشاط توازن العقل، ويجعلها خشوعا واستسلاما لله تعالى، تحقيقا لنشاط توازن الروح[5]، وقد ورد ذكر حركات الصلاة في آيات عدة منها؛ ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾[6]، وفي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[7]، إنَّ المراد بالركوع والسجود هنا الصلاة وهو تسمية الشيء باسم أعظم أجزائه، وخصّهما الله سبحانه وتعالى من بقية أفعال الصلاة لأنهما أعظم الأفعال، وبهما يحصل الخشوع والإرغام التام، وهما من أركان الصلاة تبطل بتركهما عمداً أو سهواً[8].

د ـ التوازن في صلاة الجماعة:

الجماعة من جمع وتعني الكثرة، والجمع هو تأليف المفترق[9]، وصلاة الجماعة يؤدي فيه المصلون فرضهم مجتمعين في صفوف مستقيمة وحركات منتظمة خلف أمام يصلي بهم يشترط فيه الإسلام والإيمان والعدالة، وفيها روح النظام والطاعة واستحباب إقامتها فيه الثواب الكثير[10].

---

(1) سورة الإسراء : الآية ١١٠.
(2) الشيرازي ، الامثل ، ١٧٩/٩.
(3) فضل الله ، من وحي القرآن ، ٢٥٥/١٤ ـ ٢٥٦.
(4) ينظر:الشيرازي ، الامثل ، ٩ / ١٧٩ ـ ١٨٠.
(5) ينظر: القبانجي ، شرح رسالة الحقوق للامام زين العابدين عليه السلام، ١/ ٢٢٣.
(6) سورة الفتح ، الآية ٢٩.
(7) سورة الحج : الآية ٧٧.
(8) ينظر : النقوي ، ضياء الفرقان في تفسير القرآن ، ٦١٥/١١.
(9) ينظر: الرازي ، مختار الصحاح ، ٩٧.
(10) ينظر: قرائتي ، محسن ، أسرار الصلاة ، ترجمة حسن الحلي ، ط١، شبكة الفكر ،١٤١٥هـ ،٩٠.

قال تعالى: ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين**﴾[1]، في الآية ثلاث ثلاث وظائف عبادية، الصلاة على ما قررتها الشريعة، والزكاة الوظيفة الاجتماعية من بذل المال والسعي في الحوائج، والأخير الأمر بالركوع مع الراكعين؛ لأن العبادة الاجتماعية أهم من العبادة الفردية[2]؛ لأنَّ فيها حفظ الانسجام، فالمعية الظاهرية للتساوي والتشابه في صفوف الصلاة تشكل أرضية لتطبيق العدالة، فهي تؤمن المواساة والمساواة الاجتماعية، وإنَّ الاختلاف الظاهري يكون سببا للحقد والقهر والحسد وانعدام الرأفة بين الناس[3].

فتكون صلاة الجماعة مدعاة لتربية الإنسان على التوازن عن طريق التعويد على النظام والانضباط الاجتماعي في المواظبة على أداء الصلاة في وقتها، وهي تعزيز للحالة الدينية الاجتماعية التي يكون فيها ظهوراً جلياً لوجه الدين وروح الإسلام، وهذا ما أشار إليه الإمام الرضا عليه السلام: **(إنّما جعلت الجماعة لئلا يكون الإخلاص والتوحيد والإسلام والعبادة لله إلا ظاهرا مكشوفا مشهورا؛ لأن في إظهاره حجة على أهل الشرق والغرب لله وحده)**[4]، كما أنَّ صلاة الجماعة تُحدث توازناً اجتماعياً مطلوباً فهي لا تختص بفئة دون أخرى، ولا بجماعة دون جماعة، بل كل أفراد المجتمع وبمختلف توجهاتهم، وبصرف النظر عن مناصبهم ومراتبهم مدعوون للالتحاق بصلاة الجماعة، ومن اثره فهي من أسباب ما يمكن تسميته بالتوازن الاجتماعي، الذي لا يمكن أن يتحقق إلاّ بها وبسواها من العبادات الجماعية.

المطلب الثالث : التوازن في فريضة الصوم:

الصوم هو: الإمساك عن الشيء والترك له[5]، وقيل أيضاً هو الإمساك عن أشياء مخصوصة وهي الأكل والشرب والجماع، في زمن مخصوص، بشرائط مخصوصة[6]، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[7]، واقترنت التقوى بالحرف المشبه بالفعل **(لَعَلَّ)**؛ لأنَّ البدء في أي عمل يكون متعلقاً بنتيجته، والنتيجة هنا غير واضحة، فلربما لا يُوفّق العامل بالانتهاء من عمله أو يتوفَّاه الله قبل بلوغه النتيجة أو يلّوث عمله بالنفاق والرياء، لذلك كان البدء ب**(لَعَلَّ)**، فإذا أنهى العامل عمله على أتم وجه وبإخلاص، فإنَّ الحكم الصادر سيكون حتما التقوى الحقيقية[8].

---

(1) سورة البقرة : الآية ٤٣.
(2) ينظر: السبزواري ، مواهب الرحمن ،١/ ٢٨٦.
(3) ينظر: الآملي ، تسنيم ، ١٤٩/٤ – ١٥٠.
(4) الحر العاملي ، وسائل الشيعة ، ٨/ ٢٨٧.
(5) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ٣٥٠/١٢.
(6) ينظر الحلي ، محمد بن احمد ابن ادريس(ت٥٩٨هـ) ، المنتخب من تفسير القرآن، تح السيد مهدي الرجائي ، ط١، مطبعة مطبعة سيد الشهداء ،مكتبة المرعشي النجفي العامة - قم ، ١٤٠٩هـ ، ٤٥/١.
(7) سورة البقرة : الآية ١٨٣.
(8) ينظر: الآملي ، تسنيم ، ٢٨٧/٩ – ٢٨٨.

إنَّ العبادات عموما، والصوم خصوصا؛ هي مواسم للمراجعة والتجديد، واستعادة الفاعلية والعودة إلى حالة التوازن التي تكاد تفتقد في غمرة الحياة بدوافعها، ونوازعها، وهي مراكز للتدريب العملي على المفاهيم الإسلامية، فالصوم عبادة لها دورها في توازن شخصية الإنسان المسلم، وله أثرٌ بارزٌ في عملية تهذيب النفوس، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: **(إنّ الصوم ليس من الطعام والشراب، إنّما جعل الله ذلك حجاباً ممّا سواها من الفواحش من الفعل، والقول يفطر الصوم، ما أقل الصوّام وأكثر الجوّاع)**[1]، ويبرز دور الصوم في توازن الإنسان في الأمور الآتية:

أولاً: التوازن في التقوى بين الآداب المعنوية والباطنية للصيام:

أمرنا الله سبحانه بالتقوى، وبيَّنها في القرآن الكريم على سبيل ذكر التقوى الاجتماعية – السياسية في مسألة القصاص، في قوله: **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**[2]، والتقوى المالية في موضوع الوصية بالثلث في قوله:**﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾**[3]، والتقوى العبادية في مسألة الصيام في قوله: **(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)**[4]، ولو تتبعنا قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**[5]، لوجدنا لوجدنا أنَّ فرض الصيام على عباده يستبطن نحوا من التوازن، فالمولى سبحانه كتب الصيام كما كتبه على الأمم السابقة.

وحتى تتحقق التقوى؛ لابد للصائم من الامتناع عن الكذب والحسد والغيبة وكل ذنب من شأنه أن يدخله في دائرة الآثام والذنوب، كما يمتنع عن الطعام والشراب وباقي الممنوعات، ويطهر قلبه من الوسواس والأحقاد، وفي حديث للإمام الصادق عليه السلام يقول **:(إذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم عن الكذب، وغضُّوا أبصاركم، ولا تنازعوا، ولا تحاسدوا، ولا تغتابوا، ولا تكذبوا، ولا تظلموا فاذا فعلت ذلك كله فأنت صائم لله بحقيقة صومه صانع لما أمرك ، وكلما نقصت منها شيئا مما بينّت لك فقد نقص من صومك بمقدار ذلك)**[6]، فتتحقق ملكة التقوى لآدابها المعنوية وهي صوم الجوارح وهو كف الجوارح عن المعاصي، والصوم عن الشهوات وترك كل ما تشتهي النفس من الطعام والشراب، والصوم عن الأخلاق السيئة بالابتعاد عن الرذائل الأخلاقية[7].

ثانيا: الصوم يحقق توازنا أخلاقياً:

---

(1) المجلسي ، بحار الانوار ، ٢٩٣/٩٣.
(2) سورة البقرة : الآية ١٧٩.
(3) سورة البقرة : الآية ١٨٠.
(4) ينظر :الآملي ، تسنيم ، ٢٨٧/٩.
(5) سورة البقرة ، الآية ١٨٣
(6) الحر العاملي ، وسائل الشيعة ، ١٠ / ١٦٦.
(7) ينظر: مركز المعارف للتأليف والتحقيق، روح العبادة، ط١ ، دار المعارف الاسلامية الثقافية، بيروت – لبنان ، ١٤٣٨هـ، ٢٦٥ – ٢٦٨.

تتربى لدى المسلم الصائم مجموعة من القيم الأخلاقية منها الصبر الذي وهو "كف النفس عن الهوى، مع مراعاة تكليف المولى "[١]، أي تحمل ما تكرهه نفس الإنسان، وهذا المعنى يشمل كافة موارد الصبر، كالصبر على المصيبة، والصبر في الطاعة، والصبر عن المعصية، وقد اقترن الصبر في الصلاة بقوله تعالى:﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ** ﴾[٢]، وقيل: "إنَّ تفسير الصبر بالصوم في بعض الروايات هو من قبيل تطبيق المفهوم على أحد أبرز مصاديقه؛ فالصوم هو من أهم أسباب كسر الشهوة "[٣].

ويمكن القول أنَّ الآية يُستبطَنُ فيها توازن شرعي قائم على أساس التوازن بين الصلاة والصوم، وأنّهما مجتمعان يرتقيان بآداب الفرد المسلم وأخلاقه؛ ولأنَّ الصوم إمساك وكفُّ النفس عن المفطرات، ففي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال :**(الصبر الصيام، وقال إذا نزلت بالرجل النازلة الشديدة فليصم، فإن الله عز وجلّ يقول ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ يعنى الصيام)**[٤]، إنَّ بناء شخصية الإنسان المسلم في الجانب العملي يتحقق عند ارتباط الجانب العبادي في الصوم وتأكيده بالعناصر النفسية الأخلاقية في الصبر، فيخلق توازناً بناءً في الجانب العملي عند الفرد من خلال إبعاده عن أجواء الانحراف الفكري والعملي، وتتكون لديه قوة الاندفاع في الجانب العملي ، يعينه على مواصلة الطريق المستقيمة .

المطلب الرابع: التوازن في الزكاة:

الزكاة هي: "أصل يدل على نماء وزيادة، ويقال الطهارة زكاة المال" [٥]، وعرفت في الشرع " عبارة عن إيجاب طائفة من المال في مالٍ مخصوص لمالكٍ مخصوص"[٦]، وقد وردت في القرآن الكريم مقرونة بالصلاة كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ**﴾[٧]، وقوله: ﴿**وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[٨]، وفي قوله:﴿**وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾[٩]، وغيرها من الآيات التي قاربت الخمسين آية تحث على إيتاء الزكاة، والزكاة هنا مطلقة؛ بما هو أعم من الزكاة المالية والبدنية من إزالة الفقر والاحتياجات المادية والاقتصادية التي ترتفع بإعطاء الزكاة وأشكال الإنفاق المالي المترتب منها.

---

(١) السبزواري ، مواهب الرحمن ، ٢٩١/١.
(٢) سورة البقرة : الآية ٤٥.
(٣) الآملي ، تسنيم ، ١٨٩/٤.
(٤) المجلسي ، محمد باقر(ت١١١١هـ)، مرآة العقول في شرح اخبارآل الرسول ، تح محسن الاميني الحسيني ، ط٢، مروي، دار الكتب الاسلامية ، ١٤٠٤هـ ، ٢٠١/١٦.
(٥) ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ١٧/٣.
(٦) الجرجاني ، التعريفات ، ٩٩.
(٧) سورة البقرة : الآية ١١٠ .
(٨) سورة البقرة : الآية ٢٧٧.
(٩) سورة التوبة : الآية ٧١.

ولعل من جملة الآيات التي احتوت مفهوم التوازن في طيَّاتها قوله تعالى: ﴿**لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾[1].

إذ تلمس الباحثة الآتي :

أولاً: أنَّ هناك توازنا بين كلمة البر وهو التوسع بالخير، وبين أفعال الخير ومن جملتها الزكاة هذا أولا.

ثانياً: أنَّ القرآن يحقق التوازن بين نفي البر وإثباته، فأكّد أنّه ليس من البر أن تولّي وجهك قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من قام بجملة أفعال تبدأ بالإيمان، الذي هو أُس الأعمال وأساسها، فهو ينطلق من القلب، وينتهي بالصبر على البأساء والسراء، ومن جملتها الزكاة ويعود البحث ليلتمس توازنا بين الإيمان وسائر الأفعال ما يدفع العبد المسلم لأن يوجد في نفسه توزانا بين نواياه وأفعاله.

ولو أمعنا النظر في تلكم الآيات وسواها لوجدنا التوازن الشرعي ـ إن جاز التعبير ـ بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، الأمر الذي يوقفنا على الآتي:

أ ـ إنَّ الأمر لفريضة الصلاة جاء بفعل الأمر**(أقيموا)**، ولم يأت بفعل الأمر**(صلّوا)**، كما أن الأمر بالزكاة جاء بفعل الأمر**(آتوا)**، ولم يأت بفعل الأمر**(زكّوا)**، وهو ما يكشف عن توازن قرآني صريح، ودقة عالية في انتخاب المفردات الملائمة للتكاليف الشرعية.

ب ـ طالما جاء الأمر بالصلاة مقترنا بالأمر بالزكاة، وهو ما يكشف عن توازن بين لونين من ألوان العلاقات الاجتماعية، الأولى: تُوفّره الصلاة وهو علاقة الفرد بربه، والثاني: تُهيئه الزكاة وهو علاقة الفرد بمجتمعه، وهو ما يخلق توازناً وتناغماً اجتماعياً بين جانب العبادات وجانب المعاملات.

إنَّ إعطاء الزكاة لمستحقيها يحقق توازنات، منها؛ التوازن في اعتدال للثروة وتأمين حاجات المعوزين، وتنمية للمال وتكاثره، ومن هنا جاءت تسمية الزكاة ب **(النمو)**، والتوازن الآخر معنوي من حيث طهارة روح المعطي للزكاة وإزالة الرين والعيب وعنه سميت الزكاة ب**(الطهارة)**[2]، في قوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾[3]، ومن معطيات الإنفاق تطهير النفس عن رذيلة البخل والشح، فالإنفاق تَطهر روحه منها، وطهارته بقدر بذله من العطاء، وبقدر فرحه واستبشاره بهذا الصرف، وكذلك توازن في الشكر للنعمة الممنوحة من الله لعباده وإدامتها.

---

(1) سورة البقرة : الآية ١٧٧.
(2) ينظر:الأملي ، تسنيم ، ٤/ ١٣٨ ـ ١٣٩.
(3) سورة البقرة : الآيات ١-٣.

وفي قوله تعالى:﴿ **وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾[1] فقوله في صدر الآية:﴿**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ**﴾ للإشارة إلى أن أمر الرزق في سعته وضيقه إلى الله سبحانه لا ينقص بالإنفاق ولا يزيد بالإمساك ثم قال: ﴿**وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ**﴾ قليلا كان أو كثيرا وأيا ما كان من المال ﴿**فَهُوَ يُخْلِفُهُ**﴾ ويرزقكم بدله إما في الدنيا وإما في الآخرة ﴿**وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ فإنه يرزق جودا ورزق غيره معاملة في الحقيقة ومعاوضة[2].

ولا يخفى إنَّ هذا التوازن بين الإنفاق والخلف في الرزق على من أنفق بل وأضاف تعالى في اشارة إلى الزيادة والجود في الخلف فهو خير الرازقين.

المطلب الخامس : التوازن في الحج:

إنَّ الصلاة والحج أمران عباديّان يشتركان في أنَّ لهما أوقات مخصوصة، وكيفيات بحركات مخصوصة يباشرهن الإنسان بنفسه ليتحقق الأثر البنائي المتوازن في العقيدة والاخلاق والاجتماع لجوانب الحياة العملية، إذ يلتقي الإنسان مع الله سبحانه وتعالى في أكثر من موقف في حياته.

إنَّ أصل الحج هو القصد والزيارة [3]، وهو: "القصد الملازم للحركة والعمل والحج هو القصد مع عمل مخصوص وحركة، وهي المناسك، وهذا المعنى الخاص هو الحقيقة الشرعية كالصلاة والزكاة "[4]، والحج من العبادات الإسلامية التي أوجبها الله تعالى على الناس لمن استطاع اليه سبيلا في قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلً**﴾[5]، ويسهم في إيحاءاته ورموزه وأجوائه الروحية، من تحقيق النظرة الشاملة لقضية الإنسان في الحياة، في تنمية الشخصية الإنسانية من الجانب التأملي والعملي والروحي، فيما إذا عاشها الانسان من موقع الوعي المسؤول، فيمكن أن يعود من رحلته إنسانا جديدا في أهدافه ومنطلقاته وخطواته، وآية الحج تفرض توازنا تكليفيا واضحا، بين الأمر العام بالحج على كل الناس، وبيَّن وجوبه على المستطيعين فحسب، وهو ـ بلا شك ـ ضرب من ضروب الألطاف الإلهية، وقد ورد في الحديث عن الصادق عليه السلام قال: (**الْحُجَّاجُ يَصْدُرُونَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ يُعْتَقُ مِنَ النَّارِ، وَصِنْفٌ يَخْرُجُ مِنْ ذُنُوبِهِ كَهَيْئَةِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، وَصِنْفٌ يُحْفَظُ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ فَذَاكَ أَدْنَى مَا يَرْجِعُ بِهِ الْحَاجُّ**)[6]، ثم إن المولى سبحانه قال في محكم كتابه: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا**

---

(1) سورة سبأ: الآية ٣٩.
(2) ينظر: الطباطبائي، الميزان، ٣٨٥/١٦.
(3) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ٢٢٦/٢.
(4) مصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم ، ١٩٨/٢.
(5) سورة آل عمران : الآية ٩٧.
(6) الحلي ، محمد بن الحسن بن يوسف بن المطهر (ت٧٢٦هـ) ، تحرير الاحكام ، تح ابراهيم البهادري ، ط١ ، مؤسسة الامام الصادق ، مكتبة التوحيد ، قم – ايران ، ١٤٢٠هـ، ٥٣٤/١.

جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1].

ويلمس المتتبع لتلكم الآيات كيف يكون لفريضة الحج دورٌ كبيرٌ في تربية الإنسان نفسيا، عبر محطات التهيئة النفسية، إذ لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، وهي أوامر إلهية تسعى إلى تطهير الإنسان، ذات الانسان تطهيرا داخليا عن طريق تجنب الرفث والفسوق، وخارجيا يتمثل في عدم الجدال مع الآخرين؛ احتراما لتلكم الفريضة وتعظيما لبيت الله العتيق، ثم يعود القرآن الكريم ليُذّكر الفرد المسلم بأنَّ ما يفعله من خير يعْلمه الله، وهذا التذكير بحد ذاته يُنشئ توازنا يبعث على الاطمئنان النفسي بعظمة الأعمال في موسم الحج .

خلاصة القول، إنَّ هذه الأوامر تشكّل منظومة أخلاقية وتربوية توازنية تعطي شخصية الفرد المسلم ثباتا واستقرارا على الهدى.

وتتخذ أعمال الحج أبعادا توازنية على النحو الآتي:

١- التطهير الروحي:

وذلك بإحرام التلبية للدخول في ملكوت الحج فيقول بوحدانية الله ولا وجود لشريك للخالق ب **(لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك)**.

يقول السيد السبزواري (ت١٤١٣هـ) في هذا المقام " إنَّ الحج كسائر العبادات، منه ما هو ظاهري مسقط للتكليف كحج عامة الناس، ومنه واقعي يوجب نيل أقصى الكمالات والفوز بأعلى المقامات في ما إذا أراد بإحرامه ترك جميع ما يلهيه عن ربه "[2].

٢- الطواف سبعة أشواط:

إنَّ محورية الكعبة المكرمة والدوران حولها عكس عقارب الساعة، بأنْ يجعل حاج البيت الحرام على يساره في طوافه هذا الطواف هو رمز لحركة الأجسام المادية في الكون، فحركة الكواكب حول النجوم، والالكترونات حول النواة في الذرة كلها عكس عقارب الساعة أيضا[3]، ولو ألقينا نظرة من مكان مرتفع لاتضحت رؤية حركة الأفواج من الحجيج في طوافها حول البيت بشكل دائري وهم يشكلون صورة من صور التوازن.

٣- التوازن الزماني والتوازن المكاني في الحج:

إنّ للحج موسماً يحدد بأشهر معلومة، وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة، وتتم المناسك في أماكن محددة كذلك منها الإحرام من الميقات، والطواف حول الكعبة، والصلاة خلف مقام إبراهيم عليه السلام، والسعي بين جبلي الصفا والمروة، والتقصير، بعدها

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٧.

(٢) السبزواري ، مواهب الرحمن ، ١٧٧/٦.

(٣) ينظر: النجار،زغلول ، من آيات الاعجاز العلمي في القرآن الكريم ،(د ط) ، تقديم احمد فراج ، مكتبة الشروق الدولية، (د ت) ، ٨/٢.

الحج الأكبر، وهو الوقوف بعرفة من بعد صلاة الظهرين لغاية مغيب الشمس، والحضور بالمشعر الحرام ما بين الطلوعين، ورمي الجمرات استعدادا بعدها لنحر الهدي والتجرد من المخيط لاستقبال عيد المسلمين، التوازن الحاصل في اتحاد عامل الزمن مع العامل المكاني في عملية حركة الأفواج وأداء المنسك نفسه مع روحية الأفعال وأخلاقيات المناسك في قوله تعالى: ﴿**فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**﴾[١]، ويضفي على الحج تنظيم الوجود بروحية المكان مع كثرة الأعداد البشرية الهائلة.

٤- التوازن في حركة التغيير:

إنَّ الحج عبادة ذات مضمون عملي وروحي، يحقق للإنسان الارتفاع والسمو الروحي ما يساعده على تغيير الواقع عن طريق تغييره للإنسان انطلاقا من الوحي القرآني الذي يُعد الإنسان أساس التغيير في قوله تعالى:﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[٢]، وبذلك تدخل العبادة في عمق حركة الحياة، ولا تبقى حالة طارئة طافية على السطح؛ لأن ما يختزنه الفرد من الطاقات الروحية التي يستمُدها من أجواء الحج كفيلة بإحداث تغيير في مجرى تفكير الفرد وشعوره وتحوله إلى عنصر فاعل واعٍ في حركة الإسلام في الدعوة والعمل[٣].

إنَّ العبادة في الإسلام هي:" التجربة الكبرى القائمة على توازن فذ عجيب بين الأخذ والعطاء، والإنسان يبلغ قمة إنسانيته عندما يصل إلى تلك النقطة التي يحقق فيها ذلك التوازن؛ فنجده يبلغ أقصى درجات الانسجام، والتوحُّد الباطني، والحيوية الحسية، والنشاط الروحي، والتفتح العقلي، والحركات الجسدية "[٤]، ويسهم هذا في أن يكون المحتوى الداخلي للإنسان مطابقا مع سلوكه الخارجي، ويحقق توازنا بين الشخصية وبين القيم والمبادئ السامية، إنَّ هذا الدين يدعو إلى الرفعة والسمو والطهر والنظافة بما فيه من حدود وتكاليف، لكنّه في الوقت نفسه لا يتغافل عن ضعف الإنسان وقصوره، ولا يتجاهل عن فطرته وحدودها ودوافعها، ومختلف طرق حياته ومنحنياته الكثيرة، ومن ثمَّ وضع برامجه على أساس من التوازن في السماح واليسر والسعة" فكان التوازن العادل بين التكليف والطاقة، وبين الدوافع والزواجر، وبين الترغيب والترهيب، وبين التهديد بالعقاب والتطميع في الثواب؛ الأمر الذي تتجسد فيه حكمته تعالى في الأمر بالطاعة والأطماع في العفو والمغفرة"[٥].

وبعد أن استعرض البحث التوازن العبادي يتبين للباحثة أنه يؤطر لنوعين من التوازن؛ الأول: هو توازن للعلاقة ما بين العبد وربه، وقد تمثلت بالممارسات العبادية في

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٧.
(٢) سورة الرعد : الآية ١١.
(٣) ينظر: فضل الله ، محمد حسين(ت١٤٣١هـ) ، موقع بينات ،arabic.bayynat.org.lb.
(٤) صالح ، حكت ، جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم ، ٢١٦.
(٥) العراقي،اقا ضياء الدين (ت ١٣٦١هـ)، شرح تبصرة المتعلمين (كتاب القضاء)، تح محمد هادي معرفة، مهر، قم، ٣٢٢.

فريضة الصلاة والحج والصيام والزكاة، وتشريعاتها في مواقيت معينة زمانية ومكانية، والتوازن الآخر في هذه العلاقة العبادية هو الدور الاجتماعي التي تؤديه بين الناس، فصلاة الجماعة هي تحول من العبادة الفردية إلى عبادة جماعية، وفريضة الحج هي عملية جماعية كبيرة، والصيام وارتباطه بعيد الفطر وهو الوجه الجماعي له، والزكاة ودورها الاجتماعي والاقتصادي.

المبحث الثالث: التوازن في المعاملات:

إنَّ مفردة المعاملات هي كلمة المعاملة، وبالمعنى العام المراد به: هو كل فعل لا يحتاج إلى قصد التقرب إلى الله تعالى، ولا يكون مقدمة لما يشترط فيه ذلك، والمعاملات مصطلح فقهي يطلق على مجموع الأحكام الشرعية المتعلقة بأمور الدنيا كالأمور المالية والأمنية والأسرية والسياسية والشخصية بشكل عام، وقد صنف بعض العلماء المعاملات إلى صنفين هما: العقود والإيقاعات [1]، وهو أحد أهم التوازنات في القرآن الكريم، تكشف عنه المطالب الآتية:

المطلب الأول : التوازن في العلاقات الاجتماعية:

تتمثل العلاقات الاجتماعية بين الفرد وبقية أفراد المجتمع من الأهل والأقارب وعامة الناس في وجود حقوق توازنية لابد من مراعاتها تضمن عدم طغيان وإفراط أو وتفريط في المعاملات الناتجة عن هذه العلاقة، ويمكن بيانه في ضوء الآتي:

أولا : التوازن في حفظ مقام الوالدين:

إنَّ بر الوالدين والإحسان إليهما لا يمكن فصله عن الصورة التكاملية للإنسان، فالإنسان يتكامل ويتوازن بما ميزه الله تعالى من مواهب وملكات وقوى عقلية وروحية، تكتمل بالبناء العقائدي لشخصيته وملكاته مع الجانب الإنساني فيه، فيجب أن ينطلق رد الجميل من الإنسان المتوازن بنحو يكون بأحسن من نفس الجميل، كما في قوله تعالى: **﴿هَلْ جَزَاءُ الإحْسَانِ إلا الإحْسَانُ﴾**[2]، واقترن الإحسان بالوالدين في قوله تعالى: **﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾**[3].

ويُلاحظ في الآية الشريفة ثمة توازن عجيب بين حقوق الله تعالى وحقوق الوالدين، ففي الوقت الذي يأمر الله سبحانه بعبادته سبحانه وعدم الإشراك به، يُقرن الإحسان للوالدين بقيمتي العبادة وعدم الإشراك به، وبأداة العطف **(و)**، وهو ما يكشف عن مقام الوالدين، وأنّهما سبب لوجود الولد من جهة، مثلما أنه - جلّ ذكره - السبب الأول في خلقه ووجوده من جهة أخرى، ويؤكد سبحانه على مقام الوالدين في آية أخرى فيقول:**﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ**

([1]) ينظر: العجم، رفيق، موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت-لبنان، ١٤١٩هـ، ١٤٧١/٢

([2]) سورة الرحمن : الآية ٦٠.

([3]) سورة النساء الآية ٣٦.

الْمَصِيرُ﴾[1]، ففي الآية توازن قيمي بين شكر الله وشكر الوالدين بقوله:﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِي** ﴾، ويعطف مباشرة ﴿**وَلِوَالِدَيْكَ**﴾، لافتاً الأنظار إلى عظيم ما يتمتعان به من مكانة جليلة، كما أنَّ شكر الوالدين يتناسب مع ما بدأت الآية من الوصية بالوالدين، وعرْض مراحل الولادة وما ينتج عنها من ضعف وهوان للأم، ثم الرضاع والفطام وما يصاحبها من تعب ونصب لها، ثم يستمر الخطاب القرآني في بيان مقامهما في الآية اللاحقة؛ ليبّين توازنا عظيما حين يقول: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾[2]، والتوازن هنا بين عدم طاعة الوالدين، فيما لو جاهدا ولدهما وأجبراه على الشرك بالله، وبين أداء ما عليه من حقوق اتجاههما، من حيث مصاحبتهما في الدنيا معروفا.

والحق فإنَّ الآية بصدد التعرض لتوازن قيمي اجتماعي راق جدا، يجمع بين حقوق الله سبحانه وحقوق الوالدين، بغض النظر عن كونهما مؤمنين أو مشركين.

ولا يخفى ما في هذا التوازن من تحقيق لمعاني العدل والانصاف وحفظ الحقوق، لا سيما للوالدين، مما لا يمكن أن نجد له نظيرا في كل الديانات السماوية والأرضية.

إنَّ علاقة الابن بالوالدين مقرونة بعبادته لله سبحانه وتعالى والإحسان إليهما، فلابد من توازن العلاقة، إذ هناك علاقة تلازم وارتباط متوازنة؛ إذ لا تكفي العبادة مع العقوق، ولا يغني الإحسان مع ترك عبادة الله، فأيُّ نقص في أحدهما يسبب خللاً في منظومة الاقتران الإلهي، ومن رؤية توازنية أخرى، يعدّ بر الوالدين ديناً وقضاء، ويكون الجزاء من جنس العمل، فما تقدمه لوالديك من خدمة ورعاية لشؤونهما تحصده في أبنائك وفي برهما بك عند الكبر كما في قول الإمام الرضا عليه السلام: **(بروا آباءكم يبركم أبناؤكم)**[3]، ولا يتوقف البر عند هذا الحد من وجود الآباء وهم أحياء، بل إنَّ هناك عقوقاً للوالدين بعد مماتهم، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: **(ما يمنع الرجل أن يبَّر والديه حيين أو ميتين يصلي عنهما، ويتصدق عنهما، ويحج عنهما ويصوم عنهما، فيكون الذي صنع لهما وله مثل ذلك، فيزيده الله عز وجل بره وصلته كثيرا)**[4].

ثانيا: التوازن في صلة الرحم:

وردت طائفة من الآيات المتعلقة بصلة الأرحام، التي كشفت عن دورها في حفظ النسيج الاجتماعي للمجتمع المسلم، يقف البحث على بعضها كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ**﴾[5]، وفي الآية توازن تكليفي بين واجبين شرعيين مجموعين في الفعل **(يأمر)** والفعل **(ينهى)**، ولو تأملنا الأمر لوجدناه موّجها إلى ثلاثة أصناف وهي العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، بنحو يُفهم منه ــ بحسب رؤية الباحثة ــ نوعاً من التوازن بينها، فهي على صعيدٍ واحد من وجوب

---

(1) سورة لقمان ، الآية ١٤.
(2) سورة لقمان ، الآية ١٥.
(3) المجلسي ، بحار الانوار، ٢١/٧١.
(4) الكليني ، الكافي ، ١٥٩/٧.
(5) سورة النحل : الآية ٩٠.

العمل بها بناء على الأمر الإلهي، في مقابل النهي الذي كان هو الآخر نهيا متوازنا بين ثلاثة أعمال يجب اجتنابها، وهي الفحشاء والمنكر والبغي، ولو أجرى البحث مقابلة لفظية بين موارد الأمر وموارد النهي، لوجد أنَّ العدل في قبال الفحشاء والإحسان في قبال المنكر وإيتاء ذي القربى في قبال البغي؛ لذلك ورد في آية أخرى قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾**[1].

أما في قوله تعالى:**﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾**[2]، فإنَّ الفساد في الأرض هو النتيجة الطبيعية للنظام الذي لا يستلهم من الدين أحكامه، فيقوم بالفساد ومن أبرز مظاهر إفساده تفريق الكلمة، وإشاعة الفساد في الخلق، الذي يؤدي إلى تفكك الأسرة وقطع الأرحام، ويبدو أنَّ قطع الرحم هو آخر عروة تنقض من أواصر المجتمع؛ لأنَّ الفساد إذا بلغ الأسرة فقد أتى على آخر قلعة من قلاع الاستقلال عند البشر مضافاً إلى فساد الاقتصاد والاجتماع كما يفسد الأخلاق والآداب، وإذا بلغ الإنسان هذا الدرك فقدَ كل فرصة له للهداية؛ لأن الله يلعنه ويسد عليه أبواب الهدى، كما في قوله:**﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾** وطردهم من رحاب رحمته[3].

وعليه فقطيعة الرحم وعدم الالتزام بالأحكام والتشريعات الإلهية سبب تتوازن نتيجته مع كمية الفساد الذي يستولى ويسيطر على الأرض ويوصله إلى مهالك الانزلاق.

المطلب الثاني : التوازن في المعاملة التعاقدية:

جاءت التشريعات الإسلامية منسجمة مع الفطرة الإنسانية التي رعاها حق رعايتها بالتنظيم والدقة، فلم يطلق العنان للملكية الفردية بشكل كامل وبدون ضوابط تسيطر عليها، ولم يسلب منها هذا الحق مطلقا، بل نراه خلق توازنا ماليا بأساليب منها قانونية ومنها أخلاقية، مستعملاً كذلك الأسلوب الرفيع في التعويض الدنيوي والأخروي، فبشَّر بالثواب العظيم، وعدَّ تلك المشاركة الفاعلة في صيانة المجتمع واتحاده وتماسكه تجارة مع الله، وصفقة رابحة[4]، ونظم المعاملات التعاقدية التجارية على أساس من العدل والمساواة والتوازن في تنفيذ الالتزامات وإداء الحقوق وعلى النحو الآتي:

أولاً: التوازن في الايفاء بالعقود:

في قوله تعالى:**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾**[5]، فالآية عامة شاملة لجميع العقود ـ خلا المحروم منها ـ ولجميع أطراف العقود مسلمين كانوا أم غيرهم.

والواقع إنَّ الآية تُنشئ توازنا معاملاتياً بين الجانب الشرعي المتمثل بضرورة الإيفاء بالعقود، وبين أطراف العقود من غير المسلمين، وهي بذلك تصون حقوق الجميع، الأمر

---

(1) سورة النور: الآية ٢١.
(2) سورة محمد : الآية ٢٢.
(3) ينظر : المدرسي ، من هدى القرآن ، ٢٥٧/١٣.
(4) ينظر: الجابري، فاضل ، العدالة الاجتماعية في الاسلام، ط١، المركز العلمي للدراسات، ايران – قم ، ١٤٢٢هـ، ١٥٥.
(5) سورة المائدة : الآية ١.

الذي يميط اللثام عن الجانب الإنساني للشريعة الإسلامية؛ لذا تعد الآية" دليلا على وجوب الوفاء بجميع العهود التي تعقد بين أفراد البشر بعضهم مع البعض الآخر، أو تلك العهود التي تعقد مع الله سبحانه وتعالى عقدا محكما وبذلك تشمل هذه الآية جميع العهود والمواثيق الإلهية والإنسانية، والاتفاقيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتجارية، وعقود الزواج، وأمثال ذلك، ولها مفهوم واسع يطوي بين جنبيه جميع جوانب حياة الإنسان العقائدية والعملية، ويشمل العهود الفطرية والتوحيدية وحتى العهود التي يعقدها الناس فيما بينهم على مختلف قضايا الحياة"[١].

ثانيا : التوازن في التجارة:

وقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾**[٢]، والآية تبيَّن حكما اجتماعيا له ارتباط وثيق في حفظ النظام وسعادة الإنسان، وهي تشمل جميع العقود المعاملاتيّة، والمعاملة التي يحفظ بها النظام، والتي تكون تجارة عن تراض، وإباحة التجارة ومشروعيتها، وتنهى عن صرف المال في مالا يرضاه الله تعالى[٣].

وإنَّ التوازن في المعاملات التجارية يعتمد على تنفيذ الالتزامات وأداء الحقوق، من دون إهمال أو تقصير أو غش أو إكراه في المعاملة، وحماية المجتمع من التنازع والاختلاف في المعاملات، وينعكس ذلك على قوة الأمة وإزالة الأحقاد وتوطيد الثقة بين المتعاملين، وموضع التوازن ـ بحسب تقدير الباحثة ـ يتمثل في حفظ الحقوق العامة والخاصة للناس من التعدّي والتجاوز من جهة، والحث على العمل المتمثل بالتجارة الحلال من جهة أخرى.

ثالثا : التوازن في الدَّيْن:

قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**[٤]، قيل إنَّ هذه الآية الشريفة "والتي تعد أطول آية في القرآن الكريم تشير إلى موضوع مهم وحساس

---

(١) الشيرازي ، الامثل ،٥٧٢/٣.
(٢) سورة النساء : الآية ٢٩.
(٣) ينظر السبزواري ، مواهب الرحمن ، ١٠٤/٨
(٤) سورة البقرة : الآية ٢٨٢.

للغاية، فهي تطالب المسلمين بكتابة العقود وتحريرها إذا كان الدّيْن المؤجل أحد طرفيها، وكانت العين هي الطرف الآخر لها لكي تصبح العقود المذكورة حجة في المحاكم الشرعية الإسلامية"[١].

ولعلَّ كون آيةُ الدّيْنِ أطول آية في كتاب الله، يستبطن خطورة حقوق الناس، وتذكرهم بطول الوقوف بين يدي الله عند الحساب؛ بسبب هضم الحقوق وعدم حفظها.

من هنا، فموضع التوازن في الآية يتلخص في وقوعه بين طرفين، طرف غني قادر على مساعدة الآخرين ومعونتهم على النحو الذي لا تضيع معه أمواله، وطرف محتاج للمعونة يأتي الدّيْن ليكون له عونا على تجاوز محنته المالية، وهنا تكون كتابة الدين التي أمرت بها الآية الشريفة سببا في تحقيق التوازن بين هذين الطرفين.

رابعا : التوازن في الإنفاق واختلال التوازن في المعاملة الربوية:

في قوله تعالى: ﴿**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ**﴾[٢]، والربا في اللغة هو: الفضل والزيادة[٣]، وفي الاصطلاح هو: المبلغ الذي يؤديه المقترض زيادة على ما اقترض وأخذ هذه الزيادة من المال[٤]، وإنَّ الانفاق كالصدقات تمثل خط التوازن الاجتماعي بين الناس؛ لأنه الإعطاء من دون مقابل، والسير فيه خطوة في طريق الله سبحانه وتعالى والتكامل فيها، والمنفق يهدف في إنفاقه كسب مرضاة الله، وأن يكون إنفاقه سببا في تثبيت نفسه وتوازنها واستقامتها واستقرارها؛ لأنه يجعل القاعدة الاجتماعية للإنسان المنفق كالبنيان المرصوص، بينما لا يسعى المرابي إلاّ إلى إشباع رغباته الشخصية وأهوائه الدنيوية، فهو الأخذ بدون تعويض، ليكون ما يحصل عليه من الربا عاملا لاختلال التوازن نفسه وتزلزل أركانه وإصابته بقلق مزمن لأنّه يؤدي إلى وقوع المرابي في مخاطر لا تحصى؛ بدءا من ذهاب ماله وانتهاءً بسقوطه اجتماعيا، وفضلا عن أنَّ عمله يعد محاربة لله تعالى[٥]، والربا عموما يخلّ بالتوازن الاقتصادي في المجتمع، ويؤدي إلى تراكم الثروة لطرف دون آخر.

هذه العلاقة بين آيات الإنفاق وآيات الربا علاقة وثيقة من نوع علاقة بين متضادين، كالعلاقات المتضادة **(بين التوحيد والشرك، والحق والباطل، والصدق مع الكذب والفائدة مع الضرر)** وقد بيَّنَ الله سبحانه وتعالى هذه العلاقة التقابلية الوثيقة في سورة البقرة من دون آية فواصل من الآية (٢٦١) إلى الآية (٢٧٤) لآيات الانفاق التي ملؤها اللطف والرحمة وتشجيع وحث المؤمنين على الإنفاق من أموالهم الطيبة، والآيات من الآية (٢٧٥) إلى الآية (٢٨١) حول الربا والتي تتسم بشدة العبارة وقوة التهديدات الأهلية؛ الغرض منه إبعاد الناس وصرفهم عن التعامل بالربا [٦].

---

(١) الآملي ، تسنيم ، ٧٣١/١٢.
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٦.
(٣) ينظر: الفيومي ، المصباح المنير ، ٢١٧.
(٤) ينظر: الآملي ، تسنيم ، ٦٢٥/١٢.
(٥) ينظر: المصدر نفسه ، ٦٣٠/١٢.
(٦) ينظر: المصدر نفسه ، ١٢/ ٦٢٨ – ٦٢٩.

ولو تمعّن البحث في الآية التي حرَّمت الربا؛ لوجد أنَّ في طياتها توازنا أخلاقيا واجتماعيا واقتصاديا راقيا، لافتا للأنظار ومحركا للأفكار، فالمولى سبحانه يقول: ﴿**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا** ﴾ والمحق من النقصان، وقيل ذهاب الشيء كله حتى لا يرى له أثر، ويقال : محقه الله أي ذهب ببركته، والإمحاق : أي أنْ يهلك كمحاق الهلال[١]، وعليه فإنَّ **(يَمْحَقُ)**: أي يستأصل من الجذور حتى لا يُرى منه شيء وهو لفظ يُلقي في أعماق النفس نفورا وصدودا تاما من النفس اتجاه الربا ،كما أنه يُجّذر في وجدان الفرد المسلم حرمته على نحو القطع والفصل، في حين وصف الصدقات بقوله تعالى: ﴿**وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ**﴾، ويُربي مشتقة من ربى وهو الزيادة والنمو والعلو[٢]، أي أنشأ وهذّب وسعى في التربية على أحسن وجه، ولو تأملنا في مفردة **(يُربي)**؛ لوجدنا أنّها تنقل العقل ـ بنحو التبادر ـ إلى معاني التربية والحياة، وبعبارة أخرى فإن التوازن بين مفردتي يمحق ويربي، لايعدو أن يكون توازنا بين الاستئصال والعدم وبين الإنشاء والحياة، الأمر الذي يدفع الفرد المسلم إلى تجنب الربا والسعي وراء الصدقات، وتجنيب المجتمع المسلم الآثار الوخيمة المتمخضة عن التعامل بالربا، كما أنَّ هناك توازناً حرفياً بين مفردة **(ربا)** ومفردة **(يُربي)** من حيث المقاربة اللفظية بينهما.

لقد راعى الإسلام مصالح الفرد والمجتمع في سن التشريعات للمحافظة على أبعادهما، ومن هذه التشريعات الحقوقية والمالية التي تُعدّ عماد المجتمع والدولة، عن طريق هذه التشريعات استطاع أن ينظم العلاقات الفردية والاجتماعية مع مراعاة مصالح الفرد والمجتمع؛ لأنَّ الإسلام حريص على إقامة مجتمع آمن يسوده الحب والوئام والكفاية والتطور والازدهار، وانتشال الفقر بين الناس، وردم الهوة العميقة من الطبقية بين أفراده لتحقيق التوازن الاجتماعي والتكافل والضمان والعيش الكريم[٣].

ولقد حذّر القرآن الكريم من أن يتحول المال في الأمة إلى دولة بين الاغنياء فقط وإهمال وحرمان الآخرين منه ، فقال تعالى: ﴿**مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**)[٤]، في الآية قاعدتان، قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الاقتصادي و الاجتماعي في المجتمع الإسلامي متمثلة في قوله: ﴿**كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ**﴾، وقاعدة كبرى في التشريع الدستوري للمجتمع الإسلامي في تلقي الشريعة من مصدر واحد في قوله: ﴿**وما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾[٥].

وقد ذكر في هذه الآية بصورة عامّة ستّ مصارف للفيء هي: سهم لله، ومن البديهي أنّ الله تعالى مالك كلّ شيء، و في نفس الوقت غير محتاج لأي شيء، وهذا نوع من النسبة

---

(١) ينظر: ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ٥/ ٣٠١ ، وينظر: الفيومي ، المصباح المنير ، ٥٦٥.
(٢) ينظر ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ٢/ ٤٨٣.
(٣) ينظر: الجابري ، العدالة الاجتماعية في الإسلام ، ١٥٥.
(٤) سورة الحشر : الآية ٧.
(٥) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣٥٢٥/٦.

التشريفية، حتّى لا يحسّ بقيّة الأصناف اللاحقة بالحقارة و الذلّة، بل يرون سهمهم مرادفا لسهم الله عزّ وجلّ، فلا ينقص من قدرهم شيء أمام الناس، وسهم الرّسول، وسهم ذوي القربى، وسهم اليتامى، والمساكين، وأبناء السبيل[١]، والآية حددت حكم الأنفال بصورة عامة تحت اسم الفيء، وبذلك فإنَّ الأنفال تستعمل في الشريعة العامة لفرض حفظ التوازن، وضمان تداول المال بين الجميع، كما تستخدم للمصالح العامة[٢].

ويضيف السيد المدرسي فيقول: و لهذه القسمة ثلاثة معطيات[٣]:

١- أنها ترفع حاجة المعوزين مما يحبّبهم في الدين و في القيادة، و ينفي أسباب الجريمة والسرقة، وبعض الخلقيات التي تدفع إليها الحاجة.

٢- كما أنها تساهم في رفع الطبقية من المجتمع بوسيلة مشروعية.

٣- وعلى صعيد التنمية الاقتصادية تحرك اقتصاد المجتمع في دائرة أوسع، وبصورة أنفع و أكثر فاعلية، فالإسلام لا يريد الحركة الاقتصادية تنحصر في طبقة معينة، في أصحاب رؤوس الأموال، وتبقى الطبقات الأخرى رهينة الفقر والاستغلال؛ لأنَّ ذلك ليس نظاماً اقتصادياً سليماً، إنما يحرص على رفع الحاجة والطبقية، وتحريك المال بوسائل مختلفة، يفرض بعضها، كالخمس والزكاة والإرث، ويحضّ على بعضها الآخر، كالصدقة والقرض والدين.

وتذهب الباحثة إلى إنَّ هذا التحذير القرآني هو لتحقيق التوازن بين أفراد المجتمع ضمن أطار دولة عادلة توفر الفرص لجميع أفرادها في الحياة الكريمة، وما نراه اليوم بما يسمى دولة المال هي أحد أخطر اسباب مشاكل الإنسانية في اختلال التوازن، ووجود فجوة اقتصادية تنتج عنها الطبقية الاجتماعية والتي تسبب مشاكل اخلاقية واجتماعية وسياسية تؤدي إلى انتشار الجريمة المنظمة واستشراء الفساد بكل مرافق الدولة المالية والإدارية الذي يُعمق الفقر في المجتمعات ويقلل من فرص التنمية.

ويتضح مما سبق أنَّ الإرشادات القرآنية كلها مبنية على التوازن في أحكام المعاملات المختلفة، بل إنَّ التوازن من أعظم سماتها، فلا غلو فيها ولا تفريط، فلا تميل في تشريعاتها إلى جانب وتغفل الجانب الآخر، بل الموازنة في تحقيق المصالح الدنيوية والمصالح الأخلاقية، والموازنة بين تحقق مصلحة الفرد وتحقيق مصلحة الجماعة؛ لأنها تبيح حرية التملك للفرد ولكن بقيود وضوابط، وتمنع التعدي على مصلحة المجتمع من استعمال أساليب الغش والخداع والاحتكار، وأي ضرر ممكن أن يلحق بمصلحة المجتمع.

وعليه يكون القرآن الكريم قد أسس لعمودين مهمين في النظرية الاقتصادية هما: التوازن في التصرف في الأموال بين التمتع الشخصي وحقوق الآخرين، وتحديد منابع الفساد المالي في الدولة لمكافحتها والقضاء عليها.

---

(١) ينظر: الشيرازي، الامثل، ١٧٩/١٨.

(٢) ينظر: فضل الله، من وحي القرآن، ١٠٦/٢٢.

(٣) ينظر: المدرسي، من هدى القرآن، ٢٣٠/١٥.

المطلب الثالث: التوازن في القصاص:

إنَّ حكم القصاص من الأحكام التشريعية التي ذكرت في القرآن الكريم في أكثر من موضع، ليشرع للناس الأحكام التي تتصل بحياتهم العامة في الواقع الجنائي، وفي واقع العلاقات المتنوعة التي تحكم تصرفاتهم تجاه أنفسهم، وتجاه ربهم، وتجاه غيرهم من الذين يرتبطون بهم في الحياة[١]، وإنَّ فيها تشريعات توازنية بين النظام الفردي والنظام الاجتماعي للإنسان والنظام الاخلاقي من نبذ الانتقام والعدوان، وبقاء للنوع الإنساني وتخليصه من العادات السيئة التي كانت متبعة في حياة العرب قبل التشريع الإسلامي، وهذا ما سيأتي بيانه في هذا المطلب وكالآتي:

أولاً: القصاص في اللغة والشرع:

١- **القصاص في اللغة**: من قَصَصَ، بمعنى تتبَّع الأثر؛ وذلك لأنَّ أولي المقتول، يتبعون أثر القاتل، ليأخذوا منه جريمة ما فعله، ومنه القصة والقصاص؛ لأنَّ فيها تتبع الآثار والأخبار[٢].

٢- **القصاص في الشرع:** هو أن يفعل بالثاني مثل ما فعله هو بالأول، مع مراعاة المماثلة، ومنه أخذ القصص كأنه يتبع آثارهم شيئا بعد شيء[٣]، وفي دقة اللفظ القرآني باختيار كلمة القصاص بلام الجنس، فيكون شمولية كل أنواع القصاص من القتل والضرب والجرح.

ثانياً: آيات القصاص:

١- قال تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[٤]، ومعنى قوله:﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ**﴾أي: فرض عليكم فهذه اللفظة تقتضي الوجوب[٥]،" فقد فرضه الله عليكم قانونا يحفظ لكم قوة احترام حياتكم ليخلصكم من شريعة الغاب التي تتحول الحياة معها إلى فوضى لا يأمن الإنسان فيها على حياته، أو يعيش الناس بعيدا عن الضوابط القانونية في شريعة الأخذ بالثأر التي قد يقتل فيها أولياء المقتول عددا كبيرا من الناس لا سيّما إذا كان المقتول شريفا في الموقع الاجتماعي، وكان القاتل وضيعا حيث لا يرضى الأولياء بأن يكون القاتل بدلا من القتيل، وربما أدّى الواقع غير المتوازن إلى حروب طاحنة بين القبائل يسقط فيها الكثير من القتلى، الأمر الذي يجعل إيجابيات هذا التشريع أكثر من سلبياته، بينما تكون السلبيات في

---

(١) ينظر: فضل الله، من وحي القرآن،٢١٤/٣.
(٢) ينظر: ابن فارس ، مقاييس اللغة ، مادة قص ، ١١/٥، وينظر: الفيومي ، المصباح المنير ، ٥٠٦.
(٣) ينظر: الطوسي، التبيان، ١٠٠/٢، وينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٢٢/٥، وينظر: الشيرازي، الامثل، ٥٠٢/١.
(٤) سورة البقرة : الآية ١٧٨.
(٥) ينظر: الطوسي، التبيان،١٠٠/٢، وينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٢١/٥.

إهماله وإلغائه كبيرة جدا، فلا تمثل الإيجابيات أمامها شيئا"[1]، ولا يخفى إن هذا من أهم عوامل التوازن الاجتماعي الذي يساهم في استقرار المجتمع، والأمن في نفوس الناس والاحتفاظ بكرامتهم وحريتهم.

٢- قال تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[2]، ولو تأمل البحث المقارنة بين مفردة(**القصاص**) ومفردة(**الحياة**)، لوجد نحوا من التوازن يستدعي النظر طويلا، فالقصاص هو الحد الذي يستلزم إنهاء الحياة، فكيف تكون فيه الحياة؟؟؟غير أنه سرعان ما يزول التعجب حين نعلم الآتي:

أ- مقابلة الطباق بين القصاص والحياة، وهنا جعل الضد متضمناً لضده، في أنَّ الحياة في الإماتة، وفي هذا براعة التخفيف فيما يترتب على الحكم من إرهاق النفوس.

ب-توازن الألفاظ وعذوبتها وفصاحتها، فقد جمعت التوازن بين جمال المعنى وسموه للحدث، وخلو الآية من التعقيد والتكرار والإبهام، غير ما ذكر في المأثور عن العرب في المقام.

ت-مع تعريف (**القصاص**)، ما يقابله من تنكير الحياة كما في (**الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**)، للإشعار بأنَّ القصاص لم يكن سببا لمطلق الحياة، بل لنوع من أنواعها.

ث-جعل القصاص ظرفاً للحياة؛ لبيان أنَّ القصاص يحمي الحياة من الآفات، وأنَّ القصاص وسيلة والحياة هي المطلوبة[3].

وقد ورد عن علي بن الحسين عليه السلام أنّه قال: **(لكم يا أمة محمد في القصاص حياة، لأنَّ من هَمَّ بالقتل فعرف أنه يقتص منه فكفّ لذلك عن القتل كان حياة للذي همّ بقتله، و حياة للجاني الذي أراد أن يقتل و حياة لغيرهما من الناس إذا علموا أن القصاص واجب لا يجسرون على القتل مخافة القصاص)**[4].

وقد يُستوحى من الآية أنَّ القاعدة التي تحكم التشريع هي إبعاد الحياة عن مواقع الخطر، فلا مجال للتلاعب بالحياة كونها مبدأ، وهتك حرمة الدماء، الذي يكون متوازناً مع المستوى الذي يجعل الاعتداء على حياة الفرد اعتداءً على حياة الناس كلّهم، لأنّه يمثل الاعتداء على المبدأ؛ لأنَّ الواحد بمنزلة النوع فلا فرق في قيمة الحياة وقدسيتها بين فرد وآخر، كما أنَّ الحفاظ على حياة الفرد يمثل قيمة توازنية في المحافظة على حياة الناس جميعا؛ لأنّه يمثل احترام الحياة بوصفها مبدأ مما يؤدي إلى امتداده في حياة الآخرين[5]، كما في قوله تعالى: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾[6].

---

(1) فضل الله، من وحي القرآن، ٢١٦/٣.
(2) سورة البقرة : الآية ١٧٩.
(3) ينظر: السبزواري، مواهب الرحمن ، ٤٢٣/٢ -٤٢٤.
(4) المجلسي ، بحار الانوار، ٢٢١/٦٩.
(5) ينظر:السبزواري، مواهب الرحمن،٢٠٢/١١-٢٠٣،وينظر: فضل الله، من وحي القرآن،٢٢١/٣بتصرف.
(6) سورة المائدة : الآية ٣٢.

وعليه، فإنَّ قتل فرد من المجتمع يتوازن مع قتل الناس جميعاً، وإنَّ حياة فرد من المجتمع يتوازن مع إحياء الناس جميعاً، وبناء على ما سبقها من الآيات من أنَّ القصاص يعني استرجاع الحقوق البشرية المتمثلة بإزهاق الأرواح بغير حق أو بنحو الخطأ.

٣- قال تعالى: ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ۚ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[١]، والإسلام سلك في ذلك مسلكا متوازناً بين الإلغاء والإثبات فأثبت القصاص وألغى تعينه بل أجاز العفو والدية ثم عدل القصاص بالمعادلة بين القاتل والمقتول، فالحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى[٢]، هذا الأسلوب الرحيم في العفو، واستبدال القتل بالتعويض المادي، والاكتفاء به عن العنف القاسي، وأن تشريع العفو في موقع تشريع القصاص، تخفيف من الله لعباده، ورحمة بهم حيث لم يحصر التشريع في زاوية ضيقة لا يملك الإنسان معها أمر التحرك بمرونة[٣]، وهذا توازن لبقاء واستمرار الحياة بإضفاء روح العفو والتسامح كبديل للقصاص مع بقاء الاخير كحكم شرعي للقتل.

من هنا نعلم أنَّ حكم القصاص بحد ذاته، توازن يعمل على حفظ الحقوق المتعلقة بالقتل أو الجرح أو نحوها من التجاوزات، ومن ثمَّ فهو حياة تتحقق فيها السعادة والصلاح أو بعبارة أدق يكون سببا في تحقيق التوازن بين النفوس البشرية، وجعلها تحت سيطرة العقل والحكمة.

المطلب الرابع : التوازن في نصيب الذكر والأنثى:

وردت طائفة من الآيات التي تُحّدد الحقوق المالية للورثة، ولكن الآية التي كانت أكثر جدلاً للمطالبين بحقوق المرأة، وإنَّ الاسلام لم ينصفها ويعاملها بالمساواة مع الرجل في الحقوق هي قوله تعالى: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ**﴾[٤]، وعند تمعن تمعن البحث للوهلة الأولى، في ظاهر الآية ومن دون إعمال البحث في المراد منها، يتبين أنَّ هناك إشكالاً يشير إلى غبن لحق بالأنثى على حساب نصيبها في الإرث، إذ أنَّ لها نصف ما للذكر من الميراث، مع أنَّ جهة الميراث واحدة ومشتركة بينهما، غير أنّه سرعان ما يزول هذا الإشكال حينما نعلم أنَّ الشريعة الإسلامية تُوجب النفقة على الرجل دون المرأة، فهو المسؤول عن الإنفاق عليها ولو كانت فاحشة الثراء.

وسيقف البحث- محللاً- عند كلمات الآية كالآتي :

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٥.
(٢) ينظر: الطباطبائي، الميزان، ٤٣٥/١.
(٣) ينظر: فضل الله، من وحي القرآن، ٢١٦/٣-٢١٩.
(٤) سورة النساء ، الآية ١١.

١- قوله تعالى:**(يُوصِيكُمُ)** ، قال الراغب (ت٤٢٥هـ) في مفردات ألفاظ القرآن: الوصية هي: التقدّم إلى الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ[١]، "ولفظ الوصية مشترك بين التذكير والاستعطاف والأمر"[٢]، ومعناها الإيصاء والتوصية هو العهد والوصل والأمر[٣]، وتذهب الباحثة إلى إنَّ عظمة الكلمة بصيغة الوعظ والتعهد؛ قد جاءت متوازنة مع الحدث ومراعاة لأهل المتوفى من مشاعر الحزن التي يعيشونها، ولم يأتِ الخطاب من الله سبحانه بصيغة الأمر المطلق؛ بل أتى الخطاب من الرحمن الرحيم ب**(يُوصِيكُمُ اللَّهُ)**، بصيغة الفعل المضارع الدائم المستمر وإنَّ تنفيذ الوصية باقية في أعناقكم، وصفة الأمر في الخطاب ممتزجة مع عدة معانٍ وهي: العهد والوصل والتذكير والعطف الإلهي، والله اعلم .

٢- قوله تعالى: **﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾**، قيل: " وفي العدول عن لفظ الأبناء إلى الأولاد دلالة على أنَّ حكم السهم والسهمين مخصوص بما ولده الميت بلا واسطة"[٤]، وهنا توازن للحفاظ على الحقوق وعدم اشتباه اللفظ مع**(أَبْنَاؤُكُم)**؛ ولفظ البنوة أوسع من لفظ الولادة، فالمقصود بها الدعوة والنسب؛ ولأنَّ الولد لا يكون إلاّ من صلب أو بطن، غير أنَّ لفظ الأولاد يقع على الذكور والاناث؛ فلذلك عَدَل عنه إلى لفظ الأبناء في آية التحريم[٥]، وآية التحريم تقول:**﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾**[٦]، فقرن **(أبنائكم)** مع **(أصلابكم)** لتحديد الصلب من الولد حفظاً للحقوق والله اعلم .

٣- في قوله تعالى:**﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾** قيل: إنَّ " الحديث جاء عن سهم الذكر متفرعاً على سهم الأنثى، كما لو كانت الأنثى هي الأصل في الإرث، باعتبار أنَّ حصته مثل حصة أنثيين، و بذلك كانت تقاس بها بدلا من العكس وألّا يقال: للأنثى نصف حظ الذكر"[٧].

في الآية ظاهر القسمة أنَّ الذكر حصته ضعف، ولكن في حقيقة الأمر أنَّ مسؤولية الرجل عند العلاقة الزوجية، من دفع المهر، والإنفاق على الزوجة والأولاد، مما أراده الله من التوازن بين الحقوق والواجبات، بعيدٌ عن كل إساءة للمرأة في إنسانيتها وكرامتها، مما قد يفرض عليه تحمّل بعض مصاريف أكثر من الأنثى، وفي النتيجة تكون حصة المرأة من الإرث تفوق حصة الرجل أو تعادلها، بلحاظ ما يبقى منها بعد القيام بالالتزامات المالية الواجبة عليه[٨].

---

(١) الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ،٨٧٣.
(٢) الفيومي ، المصباح المنير ، ٦٦٢.
(٣) ينظر : الطباطبائي ، الميزان ، ٢٠٧/٢.
(٤) الطباطبائي ، الميزان ،٢٠٧/٢.
(٥) ينظر : البهادلي ، جواد احمد ، الوسيط في الوصايا والمواريث ، ط١ ، مجمع اهل البيت (ع) ، العراق - النجف ، ١٤٣٧هـ ، ١٠٤.
(٦) سورة النساء :الآية ٢٣.
(٧) فضل الله ، من وحي القرآن ،١١٥/٧.
(٨) ينظر: المصدر نفسه ، ٧/ ١١٤.

ومن هنا يأتي الحكم الخاص بميراث الذكر والأنثى فيوجد توازنا يتم به صيانة الحقوق المالية لكليهما من جهة، وحفظ مقام القوامة المناط بالرجل من جهة أخرى.

٤- دفع الدّيْن عن الميت من ثلث الوصية : في قوله تعالى: ﴿ **مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ** ﴾[1]، إن قوله تعالى:﴿ **بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ**﴾، قد تكررت أربع مرات عند تقسيم الإرث؛ لأن التشريع الإلهي بسنّه لهذا القانون يكون قد حفظ للميت نفسه شيئا من الحق في ماله، إذ يهيئ له إمكانية الاستفادة والانتفاع بمقدار الثلث من الوصية ، كما حفظ حقوق الورثة أيضا للمتبقي من التركة [2]، وتذهب الباحثة إلى أنَّ هذه المراعاة تُولد نوعين من التوازن في حفظ الحقوق ما ما بين المورث من جهة وبين الورثة من جهة أخرى حتى لا ينشأ في أفئدتهم أية ضغينة، وكي لا تتزعزع وشائج المودة وروابط القربى التي يجب أن تستمر بعد رحيل المتوفى، والنوع الثاني للتوازن هو لحفظ حقوق الدائن فما ذنبه أن يخسر أمواله عند موت المدين مع إبراء ذمة الميت من متعلقاته في الدنيا.

وبذا، يكون قانون التشريع قد أولى الاهتمام بجميع الأفراد ذوي العلاقة في ضمان حقوقهم وإعطاء كل ذي حق حقه بالقدر المتوازن.

المبحث الرابع : التوازن في القيم الأخلاقية

بعد أنْ تطرقنا إلى التوازن العقائدي والعبادي لابد من أن ندرج التوازن في القيم الأخلاقية والسلوكية، فما لم نتأكد من توازننا في العقيدة والعبادة، فإنّنا سوف نكون في مهب الريح في أخلاقنا وسلوكياتنا، وكأننا أمام معادلة رياضية لا تقبل الخطأ، ولذلك إذا ما وجدنا تطرفا في أخلاقنا وسلوكياتنا فلا بد أن نعلم بأنّنا لسنا في توازن في المراتب السابقة – العقيدة والعبادة -، وحتى مع بذل الممكن من تحقيق توازن الأخلاق والسلوك فإننا لا نحصل على الغاية المرجوة ونقع في مشاكل خطيرة في عقيدتنا وعبادتنا، ولابد – ابتداءً – من التطرق لتعريف القيَم، فقد ورد أنَّ القيَم في اللغة من: جمع قيمة، وعرّفها ابن منظور(ت ٧١١هـ) بأنّها ثمن الشيء بالتقويم، وأُطلق على ثمن الشيء قيمة؛ لأنّه يقوم مقام الشيء، إذ

---

(1) سورة النساء : الآيات ١١ – ١٢.
(2) ينظر : الشيرازي ، الامثل ، ٣/ ١٣٩.

تقول العرب: كم قامت ناقتك؛ أي كم بلغت[١]، وقيل: القيم مصدرٌ بمعنى الاستقامة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**دينًا قِيَمًا**﴾[٢]، وهو: "وصف للدّين مبالغة في حسن قيامه على مصالح العباد والبلاد، وإعمار الأرض والنفوس، فهو دين قيام لجميع وجوه الصلاح في المعاش والمعاد، وجلب السعادة لخلق الله تعالى في الدنيا والآخرة"[٣]، والقيم تشمل العقيدة والشريعة والأخلاق، بمعنى الفضائل الدينيّة والاجتماعية، والأخلاقيّة التي يقوم عليها المجتمع.

والقيم في الاصطلاح:" تُعرّف بأنّها مجموعة من الأحكام والمعايير الناجمة من تصوّرات أساسية للكون والحياة والإنسان والإله، والتي تتكوّن نتيجة تفاعل الفرد والمجتمع مع الخبرات والمواقف الحياتية المختلفة، وبها يتمكّن الفرد من تحديد أهدافه وتوجهاته التي تتجسّد بسلوكه العملي بصورةٍ مباشرةٍ أو غير مباشرةٍ[٤].

وقد صُنفّت القيم إلى عدة تصنيفات هي [٥]:

١- قِيَمٌ روحية: تتعلق بأشياء غير مادية أو بموضوعات اجتماعية تعمل على توجيه الفرد نحو رغباته واتجاهاته، والسلوك الذي ينبغي أن يقتدى به.
٢- قِيَمٌ إلزامية: وهي التي تحدد أنماط التفاعل الاجتماعي وقواعد التهذيب والسلوك ومنها (العدل والصدق والوفاء بالعهود والأمانة وغيرها الكثير).
٣- قِيَمٌ اجتماعية، وتحدد الأدوار والإمكانات والمراتب الاجتماعية، ومن مفاهيمها احترام الكبير ورحمة الصغير وبر الوالدين وطاعة أولي الامر.
٤- قِيَمٌ مثالية: تحدد الصورة الأمثل لأهداف المجتمع الحالية وتطلعاته المستقبلية، كالتسامح والايثار والعفو والصفح.

وأما الأخلاق فهي من الخُلُق: وهي السجية والطبع[٦]، والخُلُق يعرفه ابن مسكويه (ت٤٢١هـ) بأنّها: "حالة للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر وروية "[٧] وفي تفصيل أكثر للتعريف قيل هي :" هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإذا كانت الهيئة تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلا وشرعا بسهولة سميت الهيئة خلقا حسنا، وإذا كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة خلقا سيئا"[٨]، وعلاقة التوازن بالأخلاق علاقة شمولية لقيم الإنسان الأخلاقية تتزامن في آن واحد، فلا

---

(١) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ٥٠٠/١٢.
(٢) سورة الأنعام : الآية ١٦١.
(٣) السبزواري ، مواهب الرحمن ، ١٤ / ٥٠٥.
(٤) ينظر:الصمدي ، خالد ، القيم الاسلامية في المنظومة التربوية ، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، ابيسكو،الرباط - المملكة المغربية ، ١٤٢٩هـ ، ١٧.
(٥) ينظر: المؤتمر العالمي للقرآن الكريم ودوره في بناء الحضارة الانسانية، القيم الاجتماعية التربوية،الكتاب الثالث ، علي ، تهاني وداعة عثمان ، الخرطوم – السودان ، ١٤٣٣هـ ، ١٦، بتصرف.
(٦) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ٨٦/١٠.
(٧) مسكويه ، أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ) ، تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق ، تح عماد الهلالي، ط١، طليعة النور، سليمان زاده ، قم ، ١٤٢٦هـ ، ١١٥.
(٨) الجرجاني ، التعريفات ، ٨٩.

يكون هناك تعارض بين جانب وآخر، فلا يكون التركيز على بعض القيم الأخلاقية واختيارها كما يهوى ويترك أخرى تركاً كلياً، كأن يتصف بالصدق والأمانة والكرم ويكون فظاً غليظاً لا يرحم بل أن يعمل بالقيم الأخلاقية حسب الاستطاعة والقدرة بغير تمييز، لأنّه مطالب بذلك بقدر المستطاع كما في قوله تعالى: ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾[1].

والتشريعات القيّمية التي سيتناولها البحث في هذا المبحث تهدف إلى بيان جانب التوازن القيمي الأخلاقي الذي من شأنه تهذيب النفس والوصول بها إلى الكمال، والاهتداء بالهداية الربانية التي تضع الإنسان على الصراط المستقيم، ويؤمن توازنه العقائدي، والعبادي، والأخلاقي .

ولكي تتّضح صورة المبحث ، فلا بد للبحث من سبر أغواره عبر المطالب الآتية:

المطلب الاول: التوازن في اخلاق الرسول ﷺ :

أولا: التوازن في أخلاق الرسول ﷺ مع طبيعة الدعوة الإسلامية:

إنَّ الرسول الأكرم ﷺ القدوة والأسوة في تطبيق المفاهيم الصحيحة للتوازن، إذ يعد التوازن السلوكي في شخصية الرسول ﷺ أحد الاسباب التي جعلت منه الشخص المثالي الذي يستضاء بنوره وهديه في حياة البشرية، لذا جاء أمر الله سبحانه وتعالى في التأسّي والاقتداء به في قوله: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾[2]، لقد ورد مفهوم الأسوة مرتين في القرآن الكريم أحدهما لنبي الله إبراهيم عليه السلام والثانية لنبينا محمد ﷺ فهو حجة في قوله وفعله وسكوته الذي يدل على رضاه بالأمر[3]، فنرى التوازن الفذ في أنَّ حبه للعبادة والصلاة لم يمنعه من الاهتمام ومراعاة بيته وزوجاته والرعية من المسلمين، وكذلك حبه لإنفاق المال في سبيل الله لم يعرضه لحرمان أهل بيته منه، وحبه للشهادة في سبيل محبوبه الأوحد لم يمنعه من مراعاة الحيطة والحذر في معاركه التي خاضها مع جيشه من وضع الخطط المحكمة والتشاور مع المسلمين، وأنَّ تعدد الأدوار التطبيقية للرسول ﷺ؛ فهو الرسول، والعابد، والزوج والأب، والجد، ورئيس الدولة، والقائد العسكري، جعل الجميع قادرين على التكيف في إيجاد الطرق التي تمكنهم من معالجة سائر المواقف التي يتعرضون لها في حياتهم.

ففي قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[4] عَرّف السيد الطباطبائي (ت ١٣٤٤هـ) الخلق في هذه الآية بأنّها :" المَلَكَة النفسانية التي تصدر عنها الأفعال بسهولة وينقسم إلى الفضيلة وهي الممدوحة كالعفة والشجاعة، والرذيلة وهي المذمومة كالشره والجبن، لكنه إذا أطلق فهم منه الخلق الحسن إن المراد بالخلق الدين وهو الإسلام غير

---

(1) سورة البقرة : الآية ٢٨٦.
(2) سورة الاحزاب : الآية ٢١.
(3) ينظر :قرائتي ، النور ، ٣٠٣/٧.
(4) سورة القلم : الآية ٤.

مستقيم إلاّ بالرجوع إلى ما تقدم"[1]، وفسّر الخلق العظيم أيضا بـ **(القرآن الكريم)** أو **(مبدأ الإسلام)**، ومن الممكن أن تكون الموارد السابقة من مصاديق المفهوم الواسع للآية[2]، وفي حديث للرسول الأعظم ﷺ قال:**(أحسن الناس إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله وأنا ألطفكم بأهلي)**[3].

إنّ تأصّل هذا **(الخلق العظيم)** في شخصية الرّسول ﷺ هو دليل واضح على التوازن الذي أراده الإسلام وهو الالتزام والتطبيق للمبادئ والمفاهيم والقيم التي يجب أنَّ تسير البشرية على خطاها، ولو عاد البحث إلى قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [4]، لوجد أن ثمة توازناً بين شخصية النبي ﷺ المتمثلة بقوله تعالى: **(إِنَّكَ)** من جانب وبين وصف أخلاقه في قوله تعالى: ﴿**خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ من جانب آخر، وجُعل الحرف **(على)** الذي يستبطن العلو والسمو[5]، مقترنا بـ **(اللام)** التأكيد، محورا للتوازن بين ذات الرسول ﷺ وسماته الأخلاقية، مؤكدا على علوها واجتماع مكارم الأخلاق فيها، ودعوة المجتمع الإنساني للاقتداء بها، واتخاذها أسوة.

ثانيا: التوازن السلوكي في شخصية الرسول ﷺبين القول والفعل:

إنَّ شخصية الرسول ﷺ قادرة على توازن القول والفعل، فمن كان يأمر بالخير والمعروف كان هو أول من يفعله، وكذلك ما ينهى عن شر ومنكر إلاّ وكان أول من يجتنبه ويبتعد عنه، وهذا ما جعل منه شخصية مؤثرة في نفوس الناس تأثيراً قوياً، وهذا التأثير لا ينبع من فراغ، إلاّ إذا كان صاحبه يحمل من الرحمة والإنسانية ما تفيض على الوجود بأكمله، فالقول بالتوجيه والإرشاد يتسم بعدم الخشونة والشراسة في الأخلاق وعدم قساوة القلب، قال تعالى:﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ﴾[6]، "الفظاظة: هي الخشونة والشراسة في الأخلاق، وغليظ القلب: أي قسيّ القلب والثاني سبب للأول فإنَّ غلظة القلب وقساوته سبب للفظاظة، وقدمها لظهورها في بادئ الأمر وإنّما أكد عليهما عز وجل لأنّه يتبعهما كل صفة ذميمة... والانفضاض تستعمل في موارد التفرق الموجب للسقوط في الهاوية والردى"[7].

وموضع التوازن في الآية الشريفة هو ذلك التقابل بين الفظاظة السلوكية النابعة من غلظة القلب، والانفضاض والنفور كونها طبيعة بشرية جُبلت عليها النفس البشرية كردة فعل، فالنبي ﷺ مع ما يملك من كريم الشمائل وعظيم الأخلاق، ومع أنّه رسول الرحمة من رب الرحمة، غير أنّه لو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله، ولو قارن البحث بين

---

(1) الطباطبائي ، الميزان ، ٣٦٩/١٩.
(2) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ١٨/ ٥١٩.
(3) الصدوق ، ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ) ، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تعليق حسين الاعلمي، ، مؤسسة الاعلمي ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٤هـ ، ٤٢/٢.
(4) سورة القلم : الآية ٤.
(5) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٦٠١/٣٠ ، بتصرف.
(6) سورة آل عمران : الآية ١٥٩.
(7) السبزواري، مواهب الرحمن، ٧/٧.

مفردتي **(فظا)** و**(انفض)** لوجد في الآية الشريفة تقاربا حرفيا يعكس توازنا لفظيا ـ إلى حد ما ـ فضلا عما تتضمنه من توازن سلوكي وأخلاقي كما مر.

فالآية المباركة ـ إذن ـ ترشد إلى أهم ما يجب على الزعيم الروحي أن يتحلى به، وهو نبذ كل ما يوجب نفرة الناس منه قولا أو فعلا، وفي قوله: **﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾**، وقد كان أمر الله له بذلك تطييباً لنفوس المسلمين ، وحتى يبين لهم أنّه يسمع منهم ويسمعون منه، على الرغم من استغنائه عنهم بتدبير الله له فهو المسدد منه بالعلم والصلاح[١]؛ لأنَّ قوله حق **﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾**[٢]

المطلب الثاني : التوازن في الفضائل:

إنَّ الفضائل كما حددها مسكويه (ت٤٢١هـ) هي: **(الحكمة ، العفة ، الشجاعة ، العدالة)** وتندرج تحت كل فضيلة منها مجموعة من الفضائل العملية التي تعد آثارا لهذه الفضائل الاخلاقية، والتوازن عنده اصابة وسط أو منتصف الفضيلة، والثبات على الوسط من غير ميل[٣]، وتتفق الباحثة في اتخاذ التوازن حدا من عدم الإفراط والتفريط في أي فضيلة من الفضائل، ولكنه ليس بالضرورة أن يكون وسطا لتلك الفضيلة وأن يكون ثابتا من غير ميل؛ لأنَّ الفضائل تحتاج إلى إشباع معين، وهي قد تتطلب ما يزيد على إشباعها الصحيح فيؤثر هذا على إشباع الفضائل الآخرى، فإذا أعطيت أكثر مما تتطلبه الفضيلة من واقعها وهدفها فقد اختلَّ التوازن المطلوب لتلك الفضيلة، فالتوازن لا يعني أن تشبع كل فضيلة بالمقدار الذي تشبع به الفضائل الأخرى، وعلى سبيل المثال احتياج الإنسان لإشباع

غريزة الأكل والشرب تأخذ حدا ومقدارا من التوازن يختلف عن غريزة أخرى تتوازن في مقدار يختلف عن الأكل والشرب.

وفي بعض الأخلاق الحميدة يتحقق التوازن فيها بين سلوكين ذميمين، فتمثّل السلوك المتوازن بين الطرفين وسيتوضح بالآتي:

١- خلق الحكمة: من عدم الإفراط في استعمال القوة الفكرية في مالا ينبغي فيكون **(السفه)**، وبين التفريط في تعطيل هذه القوى الفكرية بالإرادة وعدم استعمالها في ما ينبغي فيكون **(البله)**.

٢- التوازن في الشجاعة: من عدم الإفراط في الإقدام على ما ينبغي الحذر منه فيكون **(التهور)**، وبين عدم التفريط في الحذر عما لا ينبغي فيكون **(الجبن)**، قال الإمام

---

(١) ينظر: السبزواري ، مواهب الرحمن ، ٧/ ٧ – ٨.

(٢) سورة النجم : الآية ٣.

(٣) ينظر: مسكويه ، تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق ، ١٠٧.

العسكري عليه السلام: **(وللشجاعة مقدار، فإن زاد عليه فهو تهور وللحزم مقدار فإنْ زاد عليه فهو جبن)**[1].

٣- التوازن في العفة: عدم الإفراط في الانهماك في اللذات فيكون **(الشره)**، وبين عدم التفريط في سكون النفس عن طلب ما هو ضروري للبدن فيكون **(الخمود)**.

٤- التوازن في العدالة: من جهة عدم الإفراط في التصرف في حقوق الناس وأموالهم بدون حق فيكون **(الظلم)** وبين عدم التفريط في تمكين الظالم من الظلم عليه وانقياده له فيما يريده من الجبر والتعدي على سبيل المذلة فيكون **(الانظلام)**[2].

٥- التوازن في الصدق : الصدق هو: التمامية والصحة من الخلاف والكون على الحق، وفي مطلق الأمور: بأن يكون صادقا في الاعتقاد والقول والعمل[3] في قوله: **﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾**[4]، والصدق من خصال الأنبياء وقد ذكره الله في كتابه الحكيم وخص به انبياءه وأولياءه الصالحين، ففي قوله تعالى: **﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۞ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾**[5]، والآية الشريفة توقفنا على أكثر من شكل للتوازن فيه وهي:

أ ـ التوازن بين الصدق والعهد، فقد كان صدْق المؤمنين بحجم عهدهم لله سبحانه.

ب ـ التوازن بين الموت أو انتظار الموت وبين الثبات، الذي عُبّر عنه بعدم التبديل، والتوازن عند المؤمنين يُشير إلى التوازن بين قيمة الشهادة في سبيل الله وبين قيمة الجزاء المُنتظر من الله تعالى.

ج ـ مجازاة الله الصادقين بصدقهم، أي أنَّ الجزاء من الله يكون في مقابل أو عوض الصدق، الذي ثبت عليه المؤمنون.

هذا العهد التزام في العقل والعاطفة والسلوك ويتطابق فيه القول والفعل، فأما الشهادة أو النصر؛ لأنّهم الثابتون في مواقفهم الإيمانية، فلا مجال للتغيير في الموقف أو تبديل في خط السير[6]، وهذا الصدق الإيماني في الموقف المتوازن الذي اقترن القول بالفعل الصادق، فالمؤمن الحقيقي ثابت على العهد مع ربه، ولا يغير موقفه حتى بعد استشهاد أصحابه، والجزاء للصدق فوري وسريع من الله سبحانه وتعالى: **﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾**، وقد أورد الحاكم الحسكاني(ت ٤٠٥هـ) في شواهد التنزيل

---

(1) الشهيد الاول العاملي ، ابو عبد الله شمس الدين بن مكي بن محمد (٧٨٦هـ)، الدرة الباهرة من الاصداف الطاهرة ، تصحيح عبد الهادي مسعودي ، ط١ ، انتشارات زائر ، قم ، ٤٥.

(2) ينظر: النراقي، محمد مهدي (١٢٠٩هـ)، جامع السعادات، ط٧،انتشارات اسماعيليان، مطبعة سرور، قم، ١٤٢٨هـ، ٩٩/١، بتصرف.

(3) ينظر: مصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ٢٦١/٦ -٢٦٢.

(4) سورة الإسراء : الآية ٨٠.

(5) سورة الأحزاب : الآيات ٢٣ ـ ٢٤.

(6) ينظر: فضل الله ، من وحي القرآن ، ١٨ / ٢٨٦.

لقواعد التفضيل، **(عن علي عليه السلام قال فينا نزلت قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية ، فأنا والله المنتظر وما بدلتُ تبديلاً)**[1] .

٦- التوازن في الوفاء: في قوله تعالى: **﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾**[2]، **﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾**[3].

وهذه الآيات ونظائرها من آيات الوفاء بالعهد تعبّر بشكل جلي عن التوازن المرتبط بالوفاء، فالمولى سبحانه اشترط على بني إسرائيل أن يُوفوا بعهدهم؛ ليكون الجزاء منه سبحانه الوفاء بعهده اتجاههم، وقد دلّ فعل الشرط **(أوفوا)** وجواب الشرط **(أوف)** على هذا المعنى، الأمر الذي يكشف عن أهمية العهد وأهمية الوفاء به.

والوفاء ضد الغدر، وهو الحفظ والإتمام وعد النقض، وحفظ الشيء حالا بعد حال، والاهتمام به، ويستعمل في القرآن من باب الأفعال، ومن باب التفعيل في قوله: **﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾**[4]، حين وفى بذبح ابنه وبذل غاية جهده في جميع ما طولب به من الله، فحصل فحصل إبراهيم عليه السلام على مقام الخلة، وقد أوجب الله وفاء العهد على نفسه، تحننا منه وترغيبا لعباده إلى لزوم الطاعة، ليكون لهم حق مطالبة الجزاء مع الشرط فيصير المقام نظير آية الشراء[5] في قوله: **﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾**[6].

إن التوازن بين وفاء الله سبحانه وتعالى ووفاء الإنسان هو "من باب إذا كان المرء ذاكراً لأنعم الحق تعالى، فسيكون شاكراً قلباً وقالباَ، وسيكون وعد الله في حقه هو الزيادة في النعمة"[7] ، فاذا حصل الشرط ، وجب الوفاء ، وفي هذه الحالة لا تكون التعهدات متبادلة مع مع بعضها، بل يكون كلاهما مشروطا ، كالثواب الإلهي المشروط بالوفاء بالنذر، فإذا حصل الشرط ، وجب الوفاء على الناذر[8].

٧- التوازن في السخاء: والسخاء بالمد الجود والكرم[9]، والسخاء هو التوازن في الإعطاء، بأن ينفق الأمور فيما ينبغي على مقدار ما ينبغي وعلى ما ينبغي وتندرج تحت السخاء فضائل الكرم والإيثار والنبل والمواساة[10]، ويتضح ذلك في قوله تعالى:

---

(١) الحاكم الحسكاني ، ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٤٠٥هـ) ، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ،(د ط)، تح محمد باقر الحموي ، مجمع احياء الثقافة الاسلامية ، ٥ ، وينظر: الطبرسي ، مجمع البيان نقلا عن الحاكم الحسكاني ، ٥٥٠/٨.
(٢) سورة البقرة : الآية ٤٠.
(٣) سورة البقرة : الآية ١٧٧.
(٤) سورة النجم : الآية ٣٧.
(٥) ينظر: السبزواري ، مواهب الرحمن ، ٢٨١/١ -٢٨٣.
(٦) سورة التوبة : الآية ١١١.
(٧) الآملي ، تسنيم ، ٣٧/٤.
(٨) ينظر: المصدر نفسه، ٤/ ٣٨.
(٩) ينظر: الفيومي ، المصباح المنير ، ٢٧٠.
(١٠) ينظر:البلوشي ، حسن جمال ، فلسفة الأخلاق في الفكر الشيعي مسكويه انموذجا ، ط١ ، دار الرافدين ، ببروت – لبنان ، ١٤٣٩هـ ، ١٧٣.

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[1].

ولو تأمل البحث هذا النص القرآني، لوجد فيه أكثر من توازن، إذ أنَّ هناك توازناً بين الإنفاق والنفس، وما يكشف عن عائدية الإنفاق لصالح النفس، فالتوازن بين الإنفاق من خير من جانب، وبين النفس من جانب آخر، حين يقول سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾، ويعود الباري سبحانه ليؤكد عاقبة الإنفاق فيقول: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، فالوفاء من الله سبحانه في مقابل الإنفاق من الخير، بلحاظ أنَّ ما ينفق منه هو بالأصل من الله سبحانه.

من هنا فإنَّ هذه الألوان من الأنساق التوازنية المتعلقة بالإنفاق، إنّما يراد من ورائها الحث الشديد على الإنفاق في سبيل الله تعالى، من أجل الوصول إلى عملية التوازن بين أفراد المجتمع المسلم، كما في قوله:﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[2]، وفي ذات الوقت يحذر الله تعالى من الإفراط والتفريط في السخاء الزائد عن حده، والبخل الزائد عن حده أيضا في قوله تعالى:﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[3]، وقال أبو محمد العسكري عليه السلام: **(إنَّ للسخاء مقدارا فإنْ فإنْ زاد عليه فهو سرف وللاقتصاد مقدارا فإنْ زاد عليه فهو بخل)**[4].

المطلب الثالث: التوازن في الآداب التربوية الأخلاقية:

هناك مجموعة من الوصايا الإلهية التي تتميز بالآداب ذكرها الله في كتابه الكريم لتعطي صورة متكاملة؛ إذ تعد الآداب جزءاً مكملاً للأخلاق، ووسيلة للتحلي بالفضائل ومكارم الأخلاق، وقد تكون سابقة لها أو لاحقة، كآداب التعلم التي تسبق فضيلة الحكمة، وبعض آداب الصلاة التي تكون لاحقة بالصلاة لأدائها بصورتها الأكمل[5]، ويتضح من هذا هذا

أنَّ الأخلاق ملازمة للأقوال والأفعال، وأنها تظهر توازن المرء من عدمه، فعندما يوافق قول المرء فعله؛ يكون خلقه حميداً حسناً وسلوكه متوازناً، وسيتطرق البحث لبعض هذه الآداب الأخلاقية وكالآتي:

١- التوازن في التواضع:

لقد ورد في قوله تعالى:﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[6]، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال:**(لقد امر الله عز وجل اعز خلقه، وسيد بريته محمدا** صلى الله عليه وآله وسلم

---

(1) سورة البقرة : الآية ٢٧٢.
(2) سورة آل عمران : الآية ٩٢.
(3) سورة الأسراء ، الآية ٢٩
(4) الشهيد الاول العاملي ، الدرة الباهرة من الاصداف الطاهرة ، ٤٥.
(5) ينظر: البلوشي ، فلسفة الاخلاق في الفكر الشيعي مسكويه انموذجا ، ٢٠.
(6) سورة الشعراء : الآية ٢١٥.

بالتواضع)[1]، والتواضع خلق متوازن بين الكبر والفخر من طرف، وبين الذلة والمهانة من طرف آخر.

٢- **التوازن في آداب المشي:**

قال تعالى: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ**﴾[2]، وقد قيل في تفسير القصد بأنّه القصد المستوي على وجه السكون والوقار[3]، وقال صاحب الميزان إنه الاعتدال مستندا إلى الراغب (ت٤٢٥هـ) في مفردات ألفاظ القرآن[4]، ولم اجد هذا المعنى فيه، بل قال هو بين طرفين **(إفراط وتفريط)**[5]، وقيل النهي عن التكبر والعجب[6]، فيكون بيانا صريحا بطريقة المشي المتزن من دون فخر أو خُيلاء أو إسراع، ومن دون دبيب وخمول، وقيل:" القصد هنا تعني تحديد الهدف، ولا يصح للعاقل أن يمشي بلا هدف، كما تعني الاقتصاد أيضا، ولا شك في أنَّ من يمشي على بصيرة ولهدف معين لن يحتاج إلى صرف المزيد من الطاقات وليس ثمة شك في أنَّ حركة الإنسان دليل على نفسيته"[7]، نفسيته"[7]، وتذهب الباحثة أنَّ كلا القولين هو دليل للتوازن في المشي فلا إفراط ولا تفريط وهو ظاهر المشي الظاهري، والتوازن في تحديد الهدف توازن داخلي يضفي على المظهر الخارجي توازنا ليس فيه شيئا من العجب والخيلاء المنهي عنهما والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[8]، وفي قوله: ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا**﴾[9]، فيهما لفتة أخلاقية تقدم أنموذجا للسلوك الأخلاقي الأمثل في السير، وأبرزت الآية الجانب السلبي المضاد وهي مشية الخيلاء والزهو والتكبر، الذي يوحي بالجانب الإيجابي **(التواضع)** الذي يجب أن يكون عليه الإنسان المنسجم مع الخط الإسلامي المستقيم[10].

ولو تأمّل البحث مفهوم **(وَاقْصِدْ)** وعلاقته مع **(وَاغْضُضْ)** في قوله تعالى: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ**﴾[11] لوجد أنَّ النص بدأ بالقصد بالمشي وهو: التوجه الدقيق فيه الذي يوجب نظمه ورعاية خصوصياته بحسب الموارد من السرعة والبطء

---

(1) الامام الصادق (ع) ، جعفر بن محمد (ت ١٤٨هـ) ن مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة ، ط١ ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت – لبنان ،١٤٠٠هـ ، ٧٤.
(2) سورة لقمان : الآية ١٩.
(3) ينظر: الطبرسي ، مجمع البيان ،٥٠٠/٨ .
(4) ينظر:الطباطبائي الميزان ،٢٢٤/١٦.
(5) ينظر: الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ٦٧٢.
(6) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ٤٧/١٣.
(7) المدرسي ، من هدى القرآن ، ١٠٠/٧.
(8) سورة لقمان : الآية ١٨.
(9) سورة الإسراء : اية ٣٧.
(10) ينظر: فضل الله ، من وحي القرآن ، ١٢١/١٤ – ١٢٢.
(11) سورة لقمان : الآية ١٩.

والاعتدال، ولكنه ليس الاعتدال بمعنى الاعتدال فإنَّ المقام قد يقضي بطئاً او سرعة[١]، وعليه فإنَّ المقام مقام التوازن المنعكس على حركة كل الجسم سرعة أو بطئاً، ثم انتقل إلى غض الصوت وهو خفضه وكفه، وهو الطريّ الحديث من كل شيء[٢]، والصوت موجات تنطلق من جزء الجسم وبعضه وهو الفم، وهو ما عليه الصالحون من المشي الوئيد والصوت المنخفض قال تعالى: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾[٣].

فيما نجد في آية أخرى يكون الانتقال من الجزء إلى الكل، في قوله تعالى:﴿ **وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا**﴾[٤]، ومعنى **(وَلَا تُصَعِّرْ)** من التصعير وهو: وهو: إمالة الخد عن النظر عُجباً[٥]، أي لا تمل بوجهك عن الناس إعراضاً وتكبراً، والتصعير حركة متعلقة بالوجه، ويقول سبحانه:﴿ **وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا**﴾، ومعنى**(مَرَحًا)** المرح: من شدة الفرح والنشاط حتى يتجاوز قدره، وهو التبختر والاختيال[٦]، أي لا تمش متبختراً مختالاً والمشي حركة تتعلق بجسم الإنسان كله؛ لأنَّ الرجلين عندما تتحركان فهما ينقلان كل الجسم، وموضع التوزان ـ بحسب رؤية الباحثة ـ في الآية الأولى أنَّ القصد في المشي لا بد من أن يكون سابقا على غض الصوت؛ لترتب متعلق بآداب التواضع، إذ ألف الناس هدوء الصوت وخفضه ممن اعتاد على الهدوء والقصد.

أما موضع التوازن في الآية الثانية فيكمن في أنَّ عدم التصعير في الخد والذي يقع في أشرف جزء في الإنسان وهو الرأس وعدم الميل به أو التكبر، سينعكس بشكل طبيعي على حركة أجزاء الجسم الأخرى، لاسيما الرجلين فلا يمشي بهما المتواضع اختيالا، بل تواضعا وهونا.

٣-التوازن في الأكل والشرب:

في قوله تعالى: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾[٧]، وفي قوله:﴿**كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾[٨]، لقد أفرد السيد محمد حسين فضل الله(ت١٤٣١هـ) للآية في تفسيره عنوانا باسم **(التوازن في الاسلام قانون الحياة)** فقال:" فالله أراد للإنسان أنَّ يأكل لأنَّ الأكل حاجة طبيعية للجسد ليستمر في قوته التي تمده بالحياة، وأراد له أنْ يشرب للسبب نفسه ومن

---

(١) ينظر : المصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن ، ٢٩٩/٩.
(٢) ينظر: الفيومي ، المصباح المنير،٤٤٩ ، وينظر : مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ط٤ ، مكتبة الشروق الدولية، الدولية، مصر، ١٤٢٥هـ ، ٦٥٤.
(٣) سورة الفرقان : الآية ٦٣.
(٤) سورة لقمان : الآية ١٨.
(٥) ينظر: ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ٣/ ٢٨٩.
(٦) ينظر ابن منظور ، لسان العرب ، ٢ / ٥٩١.
(٧) سورة الاعراف : الآية ٣١.
(٨) سورة الانعام : الآية ١٤١.

الطبيعي أنْ تتقدر الحاجة بالمقدار الذي يحقق الاكتفاء للجسد؛ لأنَّ الزيادة عنه تثقل الجسد بما لا يحتاجه فيسيء إلى توازنه وقوته، ولهذا جاء النهي عن الإسراف في الأكل والشرب مراعاة لجانب السلامة في حياة الإنسان ، وللحصول على رضا الله محبته "[١].

وفي مخطط للتوازن بين رذيلتين يتضح فيه حدّي الإفراط والتفريط وكالاتي[٢]:

نتيجة الافراط	التوازن	نتيجة التفريط
السفه	الحكمة	البله
الشره	العفة	خمود الشهوة
الظلم	العدالة	الانظلام
الخبث	الذكاء	البلادة
العناية بما لا ينبغي	الذكر	نسيان ما ينبغي
النظر في الشيء أكثر مما هو	التعقل	التقصير في النظر فيما ينبغي
توقد زائد في الذهن	صفاء الذهن	ظلمة في النفس تتأخر بها
الوقاحة	الحياء	الخرق
السرف	السخاء	البخل

المبحث الخامس: التوازن في التشريع

الشريعة في اللغة تعني: مورد الماء الذي يقصد للشرب، وسميت بذلك لوضوحها وظهورها، كما استعملها العرب في الطريقة المستقيمة[٣]؛ وذلك لأنَّ مورد الماء هو سبيل الحياة وسلامة الأبدان، وكذلك إنَّ الطريقة المستقيمة التي تهدي الناس لطريق الخير، ورَيّ عقولهم[٤].

والشرع نهج الطريق الواضح، فيقال شرعت له طريقاً والشرع مصدر ثم جعل اسماً للطريق النهج، فقيل له شِرع وشَرع وشريعة، واستعير ذلك للطريقة الإلهية[٥]، كما في قوله قوله تعالى:**﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾**[٦]، وقوله تعالى: **﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾**[٧].

إنَّ التشريع الإسلامي" لا ينظر إلى الإنسان باعتباره كيانا مستقلا ومنعزلا عن المجموع، وإنّما يعتبر الفرد وحقوقه في إطار وحدة إنسانية متبادلة ومتداخلة مع بعضها، فنقطة البدء وحجر الأساس في نظرية حقوق الإنسان في التشريع الإسلامي اعتبار كلا من

---

(١) فضل الله ، من وحي القرآن ، ٩٦/١٠.
(٢) ينظر: البلوشي ، فلسفة الاخلاق في الفكر الشيعي مسكويه انموذجا ، ١٧٨ ، بتصرف.
(٣) ينظر ، الفيومي ، المصباح المنير، ٣١٠.
(٤) ينظر:القطان ، مناع بن خليل ، تأريخ التشريع الاسلامي ، ط٤ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٩ هـ ، ١٤.
(٥) ينظر ، الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ٤٥٠.
(٦) سورة الجاثية ، الآية ١٨.
(٧) سورة الشورى ، الآية ١٣.

حقوق الفرد والجماعة حقوقا مقدسة ينبغي الحفاظ عليها وعدم المساس بها بأي شكل من الاشكال"[١].

إنَّ هذه النظرة المتوازنة في ضمان الحق الإنساني منفردا أو مجموعا شرع لها الباري عز وجل في القرآن الكريم حكماً ثانوية، وسيتطرق البحث لتوازن التشريع عبر المطالب الآتية:

المطلب الأول: تشريع الأحكام الثانوية:

عُرّفَ الحكم الثانوي بأنّه: "الحكم المجعول للموضوع بلحاظ ما يطرأ عليه من عناوين خاصة تقتضي تغييره"[٢]، وينطلق الحكم الثانوي في التشريع من واقعية القرآن ومراعاته للظرف الزماني والمكاني والأخذ بعين الاعتبار لواقع الحياة والإنسان عبر العمل على رفع سيئات الواقع وإحلال حسنات التشريع بصورة تدريجية لا يفاجئ الناس، ولا يقضي على عادات الناس وتقاليدهم دفعة واحدة، ولا يعطل مسيرة الحياة، هذا في مجال التدرج في تطبيق الأحكام، أما في تقدير الضرورات التي تعترض حياته وتضغط عليه فقد قدّرها كجزء من واقعية التشريع، وعدّها الفقهاء بأنَّ الضرورات تبيح المحذورات[٣].

وإنَّ الحكم الثانوي هو حكم يجري على موضوع ما في ظروف خاصة مثل الاضطرار والعسر والحرج وهو بديل لحكمه الأوليّ الذي يجري في الظروف الاعتيادية مثل أكل الميتة حال الاضطرار مع إنه حرام أكله في الظروف الاعتيادية[٤]، وإنَّ ما يمّيز تلك البدائل بعد ضبطها بقواعد الشريعة الإسلامية، إظهار سماحة الإسلام وكماله ورحمته بالمكلفين، وتيسير أمور الناس ومعاشهم، وتكون مغنية عن ارتكاب المحرمات.

وأشهر العناوين أو الأحكام الثانوية هي: الاضطرار كاضطرار أكل لحم الميتة ونحوها كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[٥]، وهو رفع الحكم للاضطرار، والتقية كما في قوله تعالى: ﴿ **لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً** ﴾[٦]، والضرر على النفس، والإضرار بالغير، والعسر والحرج الشديد، والمقدمية، والاهمية[٧].

وتتميزالأحكام الثانوية بأنّها ترتفع بارتفاع العناوين الثانوية لها، فعلى سبيل المثال إذا كان في الوضوء ضرر على الشخص يتبدّل تكليفه إلى التيمم، لكن هذا التكليف لا يدوم،

---

(١) آل محفوظ،محمد جاسم، ملامح حقوق الانسان في التشريع الاسلامي،آفاق ثقافية،مؤمن قريش،الدمام السعودية،١٤٣٠هـ، ٢٨.

(٢) التسخيري ، من الظواهر العامة في الإسلام ، ٢٧٥.

(٣) ينظر : آل محفوظ ، ملا مح حقوق الإنسان في التشريع الاسلامي ، ١٥ – ١٦.

(٤) ينظر : هلال ، هيثم ، معجم المصطلح الاصولي، مراجعة محمد التونجي ،ط١، دار الجيل للنشر والطباعة، بيروت، ١٤٢٤هـ ، ١٣١.

(٥) سورة البقرة : الآية ١٧٣.

(٦) سورة آل عمران ، الآية ٢٨.

(٧) ينظر :الموسوي ، محمد ، منهج الفقه الاسلامي في المسائل المستحدثة ، ط١، مكتبة الصدوق ، مؤسسة بوستان ، قم ، ١٤٣٠هـ ، ١٨٩ – ١٩٠.

بل هو باق ما دام الضرر باقياً، فبعد زواله يعود وجوب الوضوء[١]، والأحكام الثانوية تخصُّ الّذين عرضت عليهم الظروف الخاصة دون غيرهم[٢].

وإنَّ رفع الأحكام الحرجية اختصَّ بأمةِ نبينا محمدﷺ فقال: **(بعثت بالحنيفية السمحة السهل)**[٣]، وقوله تعالى: **﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾**[٤]، **قَبْلِنَا﴾**[٤]، والإصر الأمر الثقيل الذي يصعب حمله، ويحبس صاحبه مكانه لثقله[٥]، والمراد والمراد هنا التكاليف الشاقة التي كلَّف الله سبحانه وتعالى بها الأمم السابقة من التشديدات، وقد عصم الله أمة نبيه محمدﷺ من أمثال ذلك[٦]، بقوله تعالى: **﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾**[٧].

المطلب الثاني : رفع الحرج بجعل البدائل:

إنَّ الحالات الطارئة التي منحها الإسلام حكماً ثانوياً يكون بديلاً في التطبيق، هي في **قاعدة نفي العسر والحرج**، وتسمى أيضا **بقاعدة لا حرج**.

وإنَّ العسر في اللغة ضد اليسر وهو الضيق والشدة والصعوبة[٨]، أما اليسر فهو: من من اللين والانقياد، والميسرة من السعة والغنى وتيسر الشيء استيسر، تسهيل الأمور: ضد العسر[٩].

وقال الطبرسي(ت٥٤٨هـ) في مجمع البيان :" اليسر: ضد العسر، واليسار: الغنى والسعة، وأصل الباب: السهولة، وأصل العسر الصلابة"[١٠].

والحرج في اللغة: هو " ضيق لا منفذ فيه مأخوذ من الحرجة وهي الشجرة الملتف حتى لا يمكن الدخول فيه والخروج منه"[١١]، والضيق الذي يكون رافعا للموضوع أو الحكم الحرجي هو الضيق الشديد الذي هو فوق ما يتحمله متعارف الناس[١٢].

وهذه القاعدة تجري في أبواب الفقه وتكون ناظرة إلى جميع الأحكام الأولية في المسائل الفقهية من أول أبواب الطهارة إلى آخر باب الديات[١٣]، وقد تحدث الفقهاء بشكل تفصيلي عن هذه القاعدة من حيث طبيعتها ومواردها وتفريعاتها، وفي ما اتفقوا عليه من

---

(١) ينظر: الخلخالي: محمد مهدي، الحاكمية في الإسلام، مجمع الفكر الإسلامي، ط١، إيران- قم، ١٤٢٥هـ، ص٤٧٠.
(٢) ينظر: المصطفوي:محمد كاظم، القواعد(مائة قاعدة فقهية)،مؤسسة النشر الإسلامي،ط٤، إيران- قم، ١٤٢١هـ، ص٢٢٧.
(٣) المجلسي ، بحار الانوار ، ٢٣٤/٦٩.
(٤) سورة البقرة : الآية ٢٨٦.
(٥) ينظر: الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ٦١.
(٦) ينظر: البجنوردي ، محمد حسن ، القواعد الفقهية ، تح مهدي المهريزي ، محمد حسين الدرايتي، ط١ ، دار الهادي ، ايران – قم، ١٤١٨هـ ، ٢٥٣/١.
(٧) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧.
(٨) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ٥٦٤/٤.
(٩) ينظر:المصدر نفسه : ، ٢٩٥/٥.
(١٠) الطبرسي ، مجمع البيان ، ٤٩٥/٢.
(١١) العسكري، معجم الفروق اللغوية الحاوي، ١٨١.
(١٢) ينظر: السبزواري، عباس علي الزراعي ، القواعد الفقهية في فقه الامامية ، ط١، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين ، قم ١٤٣٧هـ ، ٢٢٩/٨.
(١٣) ينظر : السبزواري، القواعد الفقهية في فقه الامامية ، ٢٢٢/٨.

ذلك، وفي ما اختلفوا فيه، وبأنَّ الحرج فيها حرج شخصياً أو نوعياً، وشمولها للعبادات بالمعنى الأخص وللمعاملات بالمعنى الأعم، وعدم شمول القاعدة للمستحبات والمحرمات.

وإنَّ أدلة هذه القاعدة من القرآن الكريم والحديث النبوي في الآتي:

١- قوله تعالى:﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[١]، وقيل معناه إنَّ الله سبحانه لم يضيق عليكم أمر الدين فلن يكلفكم ما لا تطيقون عمله من الأحكام، بل كلف دون الوسع فلا عذر لكم في تركه، وقيل إنه يعني الرخص عند الضرورات كالقصر في صلاة المسافر والتيمم وأكل الميتة وغيرها[٢].

ويقول السيد الطباطبائي (ت١٣٤٤هـ) في تفسير الآية هو: "امتنان منه تعالى على المؤمنين بأنّهم ما كانوا لينالوا سعادة الدين من عند أنفسهم وبحولهم غير أنّ الله مَنَّ عليهم إذ

وفقهم فاجتباهم وجمعهم للدين، ورفع عنهم كل حرج في الدين امتناناً، سواء كان حرجاً في أصل الحكم أو حرجاً طارئاً عليه اتفاقاً، فهي شريعة سهلة سمحة "[٣].

٢- وفي قوله تعالى:﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[٤]، وهذه الآية الكريمة وإنْ كانت تدور حول موضوع الصيام، "لكن أسلوبها العام بجعلها قاعدة تشمل كل الأحكام الإسلامية، ويصير منها سنداً لقاعدة **(لا حرج)** المعروفة، هذه القاعدة تقول: لا تقوم قوانين على المشقة، وإنْ أدّى حكم إسلامي إلى حرج ومشقة، فإنّه يرفع مؤقتاً، ولذلك أجاز الفقهاء التيمم لمن يشق عليه الوضوء والصلاة جلوساً لمن يشق عليه الوقوف"[٥].

٣- وفي قوله تعالى:﴿ **لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلّا وُسْعَهَا**﴾[٦]، قيل إنّه سبحانه فيما أمر ونهي لا يكلف إلا دون الطاقة، فلا يأمر ولا ينهى أحدا إلاّ ما هو له مستطيع وقيل إنَّ معنى قوله **(إِلَّا وُسْعَها)**، إلا يسرها دون عسرها ولم يكلفها طاقتها، ولو كلفها طاقتها لبلغ المجهود منها وفي هذا دلالة على بطلان قول المجبرة في تجويز تكليف العبد ما لا يطيقه؛ لأنَّ الوسع هو ما يتسع له قدرة الإنسان وهو فوق المجهود واستفراغ القدرة [٧].

---

(١) سورة الحج ، الآية ٧٨.
(٢) ينظر : الطبرسي ، مجمع البيان ، ١٥٤/٧ .
(٣) الطباطبائي ، الميزان ، ٣٥٤/١٤.
(٤) سورة البقرة : الآية ١٨٥.
(٥) الشيرازي، الأمثل ، ٤٣٣/١.
(٦) سورة البقرة : الآية ٢٨٦.
(٧) ينظر : الطبرسي ، مجمع البيان ، ٢/ ٦٩٠.

٤- قوله تعالى: ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ**﴾[١]، إنَّ دخول **(مِنَ)** على مفعول **(ما يُرِيدُ)** لتأكيد النفي، فلا حكم يراد به الحرج بين الأحكام الدينية أصلا، ولذلك علق النفي على إرادة الجعل دون نفس الحرج، والحرج هنا بعرض الحكم من خارج عن أسباب اتفاقية فيكون بعض أفراده حرجيا ويسقط الحكم حينئذ في تلك الأفراد الحرجية لا في غيرها مما لا حرج فيه، كمن يتحرج عن القيام في الصلاة لمرض يضره معه ذلك، ويسقط حينئذ وجوب القيام عنه لا عن غيره ممن يستطيعه [٢].

وما يؤيد هذا القول هو تتمة الآية في قوله تعالى:﴿ **وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ** ﴾، يدل على أن المراد بالآية " نفي الحرج الذي في الملاك أي أنَّ الأحكام التي يجعلها عليكم ليست بحرجية شرعت لغرض الحرج، وذلك لأن معنى الكلام أن مرادنا بهذه الأحكام المجعولة تطهيركم وإتمام النعمة وهو الملاك، لا أنْ نشق عليكم ونحرجكم، ولذلك لما وجدنا الوضوء والغسل حرجيين عليكم عند فقدان الماء انتقلنا من إيجاب الوضوء والغسل إلى إيجاب التيمم الذي هو في وسعكم، ولم يبطل حكم الطهارة من رأس لإرادة تطهيركم وإتمام النعمة عليكم لعلكم تشكرون"[٣].

ومن الحديث صحيحة حريز عن الإمام الصادق عليه السلام: **(رفع عن أمتي تسعة: الخطأ، والنسيان، وما أكرهوا عليه، وما لا يطيقون، وما اضطروا إليه، والحسد، والطيرة، والتفكر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة)**[٤].

وبطبيعة الحال ليس المراد من اليسر وعدم الحرج في الدين التفريط والتساهل، والتوسعة في التشريع الإسلامي لإرضاء أهواء الناس ورغباتهم وما ألفوا عليه؛ لأنَّ رفع المشقة واليسر تشريع تكاملي وسمة من سمات التوازن في الإسلام، فلو تصورنا عدم تشريعه في الدين، لفقد هذا الدين خاصية مهمة لها أثرها في حياة الناس، وهذا لا يعني انتفاء أصل المشقة؛ لأن المشقة نوعان:

النوع الأول: مشقة معتادة لا تُعدّ في العرف مشقة، فهذه ليست مقصود التشريع ورفعها عن المكلفين؛ لأنَّ أي عمل لا يخلو من مشقة، إذ لا مانع من وقوعها في التكاليف الشرعية، ولا يتحقق التكليف إلاّ بما فيه كلفة، وهي وسيلة لأداء العبادة، فليست المشقة مقصودة لذاتها .

النوع الثاني: مشقة زائدة تضيق بها الصدور وتحتاج إلى جهود كبيرة قد تؤثر على صحة الإنسان وطريقة حياته، فينقطع عن كثير من الأعمال التي تنفع الفرد والمجتمع، وهذا

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦.
(٢) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٢٣٠/٥.
(٣) الطباطبائي، الميزان، ٢٣٠/٥.
(٤) الصدوق ، ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه(ت٣٨١هـ)، الخصال، تح علي اكبر الغفاري، منشورات جماعة جماعة المدرسين ، قم١٤٠٣هـ ، ٤١٧.

النوع هو الذي أراد القرآن المجيد رفعه عن الإنسان تيسيراً له وتسهيلاً عليه[١]، قال تعالى:﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[٢].

ويدخل تحت هذا المسمى السماحة والسهولة في السعة ورفع الحرج كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٣]، إنَّ النظرة هنا تعني التأخير والاصطبار على المدَين لدفع ما عليه من دين، والميسرة والميسور بمعنى اليسار والغنى والسعة[٤]؛ لأن حركة التوازن في الحقوق والعلاقات تبقى في نطاق القدرة العادية للإنسان، فلا تتجاوزها إلى ما يخرج عن القدرة، فإنَّ في ذلك الحرج كل الحرج، والعسر كل العسر[٥].

وقوله تعالى:﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[٦]، وهنا حتى ينال الإنسان اليسر" ويسهل عليه أمور الدنيا والآخرة إما بفرج عاجل أو عوض آجل وقيل يسهل عليه فراق أهله ويزيل الهموم عن قلبه "[٧]، لابد من وجود شرط يتحقق فيه هذا المنال وهو التقوى في قوله:﴿ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في جميع ما أمره بطاعته فيه، فبقدر تقواك لله -عزّ وجلّ- تتيسر لك أمورك، فالتوازن هنا قائم بين شرط التقوى وجواب اليسر بالشرط.

إنَّ من أبرز سمات التوازن هو التيسير ورفع الحرج، فالتوازن منبع الكمالات والتخفيف ورفع الحرج على الحقيقة هو مرتبة عالية بين الإفراط وبين والتفريط، وبين التشدد وبين التضييع والاهمال.

وبهذا فإنَّ التشريع الإسلامي" بمفاهيمه وأجزائه وفروعه يضمن حالة توازن دقيقة ومحكمة بين العنصر الخاص والحق العام، وعند التعارض والتناقض يقدم الحق العام حفاظاً على مبدأ العدل في الحركة الاجتماعية والإنسانية عموماً"[٨].

وبناءً على ما مضى البحث فيه فإنَّ التشريع الإسلامي لا يأخذ بأمور الإنسان على نحو التحجر والانغلاق، بل يعطي الأمور نسبة تتوازن وظروفه التي يعيشها، وتشريع الأحكام حينما وقف بالتكليف عند حدود طاقة العباد، إنّما راعى صالحهم فلم يتجاوز بهم إلى العنت، كي لا تتراكم آثار المشقة على النفس فتقعدها عن أداء ما كلفت به، ومن ثم تورثها البغض للتكليف وعدم الإتيان به[٩].

وهكذا توازن التشريعات للأحكام بين النفع والضرر فما كان فيه ضرر تمنعه وتنهى عنه وما كان فيه مصلحة للإنسان تجيزه ولا تمنعه ولهذا فإنَّ التشريعات لم تحرم على الناس أمرا إلاّ إذا كان فيه مفسدة لهم ولم توجب عليهم أمرا إلا إذا عاد عليهم بالنفع.

---

(١) ينظر: الفتلاوي ، المنظور القرآني في بناء الإنسان ، ١٣٢.
(٢) سورة النساء ، الآية ٢٨.
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٨٠.
(٤) ينظر : الطبرسي ، مجمع البيان ، ٦٧٥/٢.
(٥) ينظر : فضل الله ، من وحي القرآن ، ٥/ ١٤٩.
(٦) سورة الطلاق ، الآية ٤.
(٧) الطبرسي ، مجمع البيان ، ١٠/ ٤٦١.
(٨) آل محفوظ ، ملامح حقوق الانسان في التشريع الاسلامي ، ١٨.
(٩) ينظر: الفتلاوي ، المنظور القرآني في بناء الانسان،١٣٣- ١٣٤.

المطلب الثالث: التوازن في ثبات ومرونة الشريعة:

امتازت شريعة الإسلام بأنَّ الحلال فيها حلال إلى يوم القيامة، والحرام حرام إلى يوم القيامة، فلا ينالها التبديل أو التغيير في أحكامها، ولكن من جهة أخرى فإنها تحمل صفة المرونة وقابلية التطوير في مجالات أخرى غير قطعيات الأحكام والأصول والضروريات، فهذه لا ينالها يد التغيير، فجانب الثبات في الشريعة الأسلامية في الأصول والأهداف الكلية والمقاصد العامة والأحكام القطعية، وجانب المرونة في المقابل لها يجعل الشريعة قابلة للتطور والتجديد في اطار الحفاظ على تلك الثوابت[١].

ومن صور التوازن في ثبات الشريعة هو توازن المرونة في التشريع، ومن مظاهرها هو الآتي:

التوازن بين الثابت والمتغير:

وفي جانب آخر مهم للتشريع الإسلامي يربط التوازن بين الثابت والمتغير، الذي يُشكل أساسا لخلود التعاليم الإسلامية، فالإسلام يمنح قدرة استيعاب الظروف والمتغيرات المختلفة والمتطورة، وهذا ما يُعّد أهم التوازنات الإلهية بين تحديد المجالات الثابتة وبين القواعد العامة للمجالات المتغيرة[٢]، وإنَّ تطور الحياة الاجتماعية في بعض نواحيها لا يوجب أن يتغير النظام السائد الموجود على غرار الفطرة، ولا أن تتغير الأحكام للموضوعات الثابتة في حياة الإنسان الاجتماعي والتي حددَّها الإسلام ونظمها بقوانين ثابته تطابق فطرته وتكفل للفرد والمجتمع تنسيق الروابط الاجتماعية والاقتصِادية على أفضل موازنة، وحفظ حقوق الأفراد وتنظيم الروابط العائلية[٣]، ولأنَّ الإنسان خلال حياته الفردية الفردية والاجتماعية له واقعان، الأول ثابت وهو جانب ثبوت نظام العبادات، كالإيمان بالله الكامل المطلق ونفي الإلحاد، ونظام الإرث، والروابط العائلية بين الولد والوالدين والأخ وأخيه وهي روابط طبيعية، والمساقاة، والمزارعة، وكتحريم بعض الأمور التي تضرُّ الإنسان، وهي ثابته لا تتغير بتغير الزمان، أما الواقع الثاني وهو المتغير والتي تركت مناطق فراغ جعل لها قواعد عامة تهدي الحاكم الإسلامي إلى كيفية ملئها بما يتناسب والمتغيرات والمصالح التي يراها[٤].

المبحث السادس: التوازن في التعايش السلمي والتوازن العسكري

ويتكون من المطالب الآتية:

المطلب الأول: التوازن في التعايش السلمي:

وينبغي - ابتداءً - بيان الآتي:

---

(١) ينظر : الموسوي ، منهج الفقه الاسلامي في المسائل المستحدثة ، ٢٩ – ٣٠.
(٢) ينظر : التسخيري ، من الظواهر العامة في الإسلام ، ١٢٩.
(٣) ينظر: السبحاني ، جعفر، مفاهيم القرآن ،ط١،مؤسسة التاريخ العربي،بيروت- لبنان، ١٤٣١هـ ، ٢٤٩/٣.
(٤) ينظر: التسخيري ، من مظاهر الإسلام ، ١٢٩.

أولا: التعايش والسلم في اللغة والاصطلاح:

التعايش في اللغة: العيش: الحياة، وعايشه: عاش معه ودلالتها؛ عاشره، والمعيشة هي ما يكون به الحياة[١].

وفي الاصطلاح: العيش: "هو كيفيّة حادثة عارضة بعد الحياة، وحصول الاختيار، فالأنسان الحيّ المختار يختار في حياته كيفيّة، وبرنامجاً معيناً من جهة أكله ولباسه وسكناه وشغله ونومه وسائر أموره وحالاته، فالعمل بهذا البرنامج يطلق عليه العيش والمعيشة "[٢]، وفي تعريف آخر هو: "عيش مشترك بين اقوام يختلفون مذهبا او دينا او بين دول ذات مبادئ"[٣].

ومصطلح السلم في اللغة السِّلمُ: المسالمُ، السِّلمُ ضد الحرب، والسِّلمُ : الصلح والانقياد، وقوم سلمُ : مسالمون[٤].

وفي الاصطلاح: هو الموافقة الشديدة في الظاهر والباطن، وحصول الوفاق فلا يبقى خلاف في البين، ومن لوازم هذا المعنى مفاهيم؛ الانقياد، الصلح، الرضا، الاعتدال، النظم، والمحفوظية من النقص والعيب[٥].

فيكون تعريف التعايش السلمي هو: " القبول بوجود الآخر والعيش معه جنب إلى جنب دون سعي لإلغائه أو الاضرار به سواء كان هذا الاخر فردا أو حزبا سياسيا أو طائفة دينية أو دولة مجاورة أو غير ذلك "[٦].

وبذا يكون مصطلح (السلمي) وصف مؤكد لطبيعة التعايش، يسود في الأوساط عدة؛ كالتعايش بين الأفراد أو المجموعات من أهل الملة الواحدة أو الملل المختلفة، وانتقل هذا المصطلح إلى المجال الاجتماعي للتعايش بين القوى الاجتماعية المختلفة، والمجال السياسي للتعايش بين الدول المختلفة سياسياً [٧].

والواقع إنَّ التعايش السلمي من المبادئ التي أكدّ عليها القرآن الكريم في التعامل مع الاخرين الذين اتخذوا طريق الحياد والاعتدال في التفاهم والحوار والتبليغ في اطر سلمية، من أجل الحضوة بحياة هانئة، إذ قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[٨]، وهذا التعايش قائم على التوازن في العلاقات السلمية لضمان حياة كريمة آمنة مطمئنة للبشرية جمعاء وقد اتخذ اشكالا وأبعاداً جديدة في الآيات القرآنية، لمفاهيم وقيم ذات طابع انساني، واجتماعي، وأخلاقي وعلى النحو الآتي:

---

(١) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مادة عيش ، ٣٢١/٦.
(٢) مصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن ، ٨/ ٣٣٨.
(٣) العوضي ، عبد العزيز ، القواعد الكبرى للتعايش السلمي من خلال القواعد الكلية ، بحث مقدم الى وزارة الاوقاف في سلطنة عمان ، ٧.
(٤) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ١٢/ ٢٩٢.
(٥) ينظر: مصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم ، ٥/ ٢٢٨ – ٢٢٩.
(٦) صالح ، احمد محي الدين ، احكام التعايش السلمي في منظور القرآن الكريم خلال الدعوة المكية ، بحث الى المؤتمر العلمي الدولي ، الجامعة العراقية ، كلية الآداب ، ٨.
(٧) ينظر: العوضي ، القواعد الكبرى للتعايش االسلمي ، ٩.
(٨) سورة النحل : الآية ١٢٥.

١- **السلم:** في قوله تعالى: **﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾**[١]؛ جنحوا: أي مالوا، والسِلَمِ : الصلح، فإذا مالوا وأقبلوا للسلام، وأبدوا الاستعداد للعيش مع المؤمنين في ظل المعاهدات والمواثيق، فلا ترفض ذلك، وأستجب لتعرفهم بأنَّ الحرب في الإسلام لا تنطلق من عقدة، بل من قاعدة فكرية على مستوى مصلحة الانسان والحياة، فيكون الحرب سبيلا لإعادة التوازن إلى الساحة لمصلحة الخير، إذا وقفت قوة الكفر لتمنع الايمان من ممارسة حريته في الدعوة إلى الله تعالى[٢].

والآية تتحدث عن توازن محورية السلم في المنظومة العسكرية الإسلامية، فالمولى سبحانه يأمر نبيه ﷺ، بأنَّ يركن للسلم، فيما لو ركن المشركين واليهود إليها، وهو ما يؤكد توازنا واضحا بين سلم النبي ﷺ وسلم المشركين، وأنه ينبغي مواجهة السلم بالسلم، وهو ما يعكس سعي الدين لتثبيت أركان السلام في أنحاء المجتمع الاسلامي، وبين كافة أطيافه، الأمر الذي يكشف عن أنه دين سلم وسلام وتصالح.

وقد وردت في القرآن الكريم ما يقرب من خمس وعشرين آية في السلم والسلام آيات السلام كثيرة كقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾**[٣]، وقوله تعالى: **﴿فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء﴾**[٤]، وقوله تعالى: **﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾**[٥]، وقوله تعالى: **﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾**[٦] إلى غيرها من الآيات.

٢- **الصفح:** من صَفْحُ الشيءِ: عَرْضُهُ وجانِبُهُ ، كصفحة الوجه، والصفح: ترك التثريب، وهو أبلغ من العفو، ولذلك قال تعالى:**﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾**[٧]؛ لأنه قد يعفو الانسان ولا يصفح[٨]، كما في قوله تعالى:**﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾**[٩]، وكان الآية تشير تشير إلى إنَّ الصفح ينتهي بالسلام والمودعة النهائية، لذلك قدم العفو على الصفح، وقال تعالى: **﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾**[١٠].

والصفح في الاصطلاح: هو العدول عن شيء إلى جانبه، والانصراف عنه الى طرف منه[١١].

وقد اقترن الصفح بالعفو والمغفرة في آيات عدة كما في قوله تعالى:**﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فإن الله غفور رحيم﴾**[١].

---

(١) سورة الانفال : الآية ٦١.
(٢) ينظر: فضل الله ، من وحي القران ، ٤١١/١٠.
(٣) سورة البقرة : الآية ٢٠٨.
(٤) سورة النحل : الآية ٢٨.
(٥) سورة النساء : الآية ٩٤.
(٦) سورة المائدة : الآية ١٦.
(٧) سورة البقرة : الآية ١٠٩.
(٨) الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ٤٨٦.
(٩) سورة الزخرف : اية ٨٩.
(١٠) سورة الحجر : الآية ٨٥.
(١١) ينظر: مصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم ،٢٩٩/٦.

ولا يخفى ما في قوله تعالى من توالي معاني العفو والصفح والمغفرة من احتواء واضح لمفهوم التوازن، وكيف أنّه سيتمخض عنه غفران الله سبحانه.

وفي قوله :﴿**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾[٢]، " فالعفو في المرتبة الاولى وهو ترك العقوبة، والصفح في المرتبة الثانية وهو الانصراف القلبي عن نقطة الخلاف الى جانب، والمغفرة في المرتبة الثالثة وهو محو الذنب وستره"[٣]، وإنْ اختلفت أسباب نزول آيات الصفح والعفو، فإنَّ مفادها يُصب في اعادة اللحمة إلى المجتمع ووحدة الامة لبناء كيان جديد يقوم على أساسها، وهو أيضا وسيلة إلى عفو الله وغفرناه[٤].

٣- **العفو:** هو التجافي عن الذنب أو الإعراض عن العقوبة التي يستحقها، وعفوت عنه: قصدْت إزالة ذنبه صارفاً عنه، وقولهم في الدعاء: أسالك العفو والعافية، أي: ترك العقوبة والسلامة[٥]، ومادة عفو تأتي بمعنى المحو والزوال ونفي الأثر، ولها استعمالات كثيرة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ** ﴾[٦] ، وقال تعالى: ﴿**عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ** ﴾[٧]، وقال تعالى:﴿ **وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ**﴾[٨]، والعفوّ بالتشديد من أسماء الله الحسنى، وفي بعض الدعوات: **(اللهم إنّي أسألك العفو والعافية والمعافاة)**، والأول محو الذنب، والثاني الصحة من الأسقام والأمراض، والأخير الحفظ عن أن يظلم أحدا أو أن يظلمه أحد[٩].

وفي قوله تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾[١٠]، وقد جاء عن الامام الصادق عليه السلام انه قال : **(امر الله نبيه بمكارم الاخلاق، وليس في القران آية أجمع لمكارم الاخلاق منها)**[١١]، وفي قوله: **(خُذِ الْعَفْوَ)** خط عملي للتعامل مع الناس في ما يواجهه من حالات التشنج والتمرد، وبعض الردود السلبية الذاتية في أفعالهم، فلا بد من اتباع الاسلوب الذي يتحرك بالتوازن في التسامح في مواجهة ردود الفعل، وبالتسهيل والتيسير والإغماض عن حق الانتقام، والعفو عند المقدرة[١٢]، وقوله: ﴿**وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ**﴾؛ العرف: هو الامر بكل معروف في القول والعمل، وأنْ لا يكون نفس إلامر بالمعروف على وجه منكر، وقوله:﴿**وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾؛ الإعراض: هو امر اخر للمداراة، وهو اقرب طريق

---

(١) سورة التغابن : الآية ١٤.
(٢) سورة النور : الآية ٢٢.
(٣) مصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ٣٠٠/٦.
(٤) ينظر المدرسي ، من هدى القرآن ، ٣٣/٦.
(٥) ينظر: الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ٥٧٤.
(٦) سورة الأعراف : الآية ١٩٩.
(٧) سورة المائدة: الآية ٩٥.
(٨) سورة الشورى :الآية ٢٥.
(٩) ينظر: السبزواري، مواهب الرحمن ، ٤١٧/٢.
(١٠) سورة الاعراف : الآية ١٩٩.
(١١) الطبرسي، ابي علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ)، جامع الجوامع، ط٢، مؤسسة النشر الاسلامي، ١٤٢٣هـ، ٧٣٢/١.
(١٢) ينظر: فضل الله ، من وحي القرآن ، ١٠ /٣١١.

لإبطال نتائج الجهل، وتقليل فساد العمل عندهم؛ لأنَّ في مقابلة الجاهل بما يعادل جهله اغراء له بالجهل والإدامة على الغي والضلال[١].

ولا يغيب عن عقل المتتبع للآية ملاحظة التوازن بين الأوامر الثلاث: **(خذْ) و(أمرْ) و(أعرضْ)**، وكيف أنَّ كل فعل جاء منها بمكانه المناسب للحدث، فمعنى الأخذ غير معنى الأمر وهما غير معنى أعرض، والأخير ـ مثلا ـ لا يمكن استبداله بفارق أو جانب أو اترك؛ لذا جاء قوله تعالى:**(أعرضْ)** بما يناسب حال الجاهلين، وماهم عليه من جهل.

٤- **الصلح:** والصلح: ضد الفساد، ويختص بإزالة النفار بين الناس، فيقال: أصلحوا وتصالحوا[٢]، كما في قوله تعالى: **﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾**[٣].

وعرف بأنّه: "اسم من المصالحة، وهي المسالمة بعد المنازعة، وهو عقد يرفع النزاع"[٤].

النزاع"[٤].

كما في قوله تعالى: **﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾**[٥].

ولا يخفى ما في الآية الشريفة من توازنات لفظية تناسب حال الآية، فقد قال سبحانه: **﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾** ولم يقل **﴿فأصلحوا بينهم ﴾** مع أنَّ المتقاتلين هم جمع المؤمنين.

وتعتقد الباحثة أنَّ من دواعي ذلك هو التنفير من القتل؛ لأنّه لا ينبغي أن يكون بين المؤمنين، قال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ﴾** [٦]، ثم أنه سبحانه حدّد آلية الصلح بينهما بـ (العدل والقسط)، وليس بـ (الرضا والتسامح) المتوقع وقوعه بين المؤمنين وصدوره منهم، وهو ما يعطي صورة توازنية سامية في حفظ الحقوق، التي قد تُنتهك بين الطائفتين حين القتال، فموازين القسط والعدل تهب المجتمع الإسلامي توازنا اجتماعيا متمثلا في حفظ الحقوق، الذي يكون أحيانا أفضل من بسط مفاهيم التسامح والرضا، التي قد يكون الصلح على إثرها صلحا شكليا وليس واقعيا.

وقد تكررت كلمة **(فَأَصْلِحُوا)** مرتين فتكون بذلك السمة الغالبة في الآية، وتُجذر لثلاث وظائف تحقق حالة من التوازن في معالجة الصلح بين المتخاصمين وهي كالآتي:

أ- الوظيفة الأولى هي معالجة حالة النزاع الأول في **(اقْتَتَلُوا)** وإنْ كان الاقتتال لم يصل إلى مرحلة المواجهة الحربية .

---

(١) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٨/ ٣٨٠.
(٢) ينظر: الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ٤٨٩.
(٣) سورة النساء ، الآية ١٢٨.
(٤) الجرجاني ، التعريفات ، باب الصاد ، ١١٤.
(٥) سورة الحجرات ، الآية ٩.
(٦) سورة النساء ، الآية ٩٢.

ب-الوظيفة الثانية فهي معالجة بغي أحد الطرفين على الآخر بعد فشل الحلول السلمية، فالموقف المتوازن يفرض أن تكون العدالة في مقاتلة الظالم الباغي أغلى من دم المسلمين، لفرض هيمنة الحق على الباطل.

ت-إرساء مبدأ الصلح مرة ثانية بعد أنْ تحقق مبدأ التوازن بين الطائفتين، لقلع جذور النزاع بوضع السلاح وترك القتال فيكون اصلاحا متلبسا بالعدل وفق أحكام الله وإعطاء كل ذي حق حقه من الاعتداء للطائفة المعتدية من دم أو مال أو حقوق أخرى بمقدار موزون فلا ظالم ولا مظلوم، وقد تأكد الصلح مرة بالعدل وأخرى بالقسط الذي هو ايصال شيء إلى مورده، وإيفاء الحق إلى محله، ويتحقق بعد العدل؛ لأنّه تطبيق العدل في الخارج واجراؤه[1]، كما في قوله : ﴿**بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾، فيكون:" تأكيدا على تأكيد كأنّه قيل: أصلحوا بينهما بالعدل وأعدلوا دائما وفي جميع الأمور لأنَّ الله يحب العادلين لعدالتهم "[2].

وهذا هو خط التوازن الواضح الذي يشمل كل مفردات الشريعة في أخلاقياتها وأحكامها في أداء الواجب الذي لابد أن يتم بمقدار متوازن مع واقعه وإمكانية القيام به من خلال " مقياس تستطيع الضمائر الطاهرة أن تلمح به الحد الأعلى الذي يتحول عنده معنى فضيلة الى نقيضها، حين تلحق الضرر بفضيلة اخرى؛ بيد أنَّ هذا الحد الأعلى يختلف تبعا لاستعداد كل فرد، وتبعا للظروف التي يمر بها "[3]، أفلا يكون معنى هذا أنَّ هناك قيمتين مختلفتين هما: حداً أدنى إلزامي، وحدا أعلى مقرون بثواب وأجر إضافي، فمن التزم الحد الإلزامي اتخذ خطا للوسطية وهي مطلوبة ولا بأس بها؛ أما إذا اتخذ الحد الأعلى فقد وصل الى التوازن الذي جاوز الإلزام إلى إضافة اكثر احسانا وجزاءً بالثواب والأجر.

المطلب الثاني: التوازن العسكري:

مما لا شك فيه إنَّ الإسلام دين السلام، وهو واضع مبادئ التعايش السلمي، وقد صدحت آيات القرآن الكريم بمفاهيم وأسس هذا التعايش، وهذا الوضع لا نظير له في أي نظام آخر سماوي أو أرضي، كما لا يمكن أن ننكر مشروعية الحرب والجهاد في الإسلام، وهذه الشرعية لا تتنافى مع مبادئ التعايش السلمي، كما يروج له الخصوم على أنّه مبدأ عدواني فيه مساس بالحريات الإنسانية، ومصادرة إرادة الإنسان [4].

إنَّ سنّة الله سبحانه تعالى في هذه الدنيا تقوم على أصول مهمة هو: الحريّة والإرادة والاختيار، وأنَّ الإنسان حر في اختيار طريق الخير أو الشر، ولكن عندما يتعرّض العالم إلى الفساد والاندثار بسبب طغيان الطواغيت، فإنَّ الله سبحانه وتعالى يبعث من عباده المخلصين

---

(1) ينظر: مصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم ، ٩/ ٢٨٦ – ٢٨٧.

(2) الطباطبائي ، الميزان ، ٣١٩/١٨.

(3) دراز ، محمد عبدالله ، دستور الاخلاق في القرآن ، تح شاهين ، عبد الصبور، ط١٠ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، ١٤١٨هـ ، ٩٠.

(4) ينظر: المطعني ، عبد العظيم ابراهيم ، مبادئ التعايش السلمي في الإسلام منهجا وسيرة ، دار الفتح للاعلام العربي ، القاهرة ، ١٤١٧هـ ، ٥٧.

من يقف أمام هذا الطغيان ويكسر شوكتهم، وهذه من ألطاف الله تعالى على عباده في التوازن بين مفهوم التعايش السلمي والجهاد[١].

إنَّ القصد من التوازن العسكري هو بيان أهمية -التوازن- في مفهوم الجهاد والحرب في القرآن الكريم ومشروعيتهما عبر النقاط الاتية:

أولا: الجهاد:

لقد ذكرت مفردة الجهاد ومشتقاتها في القرآن الكريم خمس وثلاثون مرة، والجهاد هو: تحمل المشقة وبذل الطاقة والتعب الذي يتولد عنه[٢]، والمفردة من باب المفاعلة وتستعمل في نوع المشاركة والتقابل والمنافسة، ويتضمن عادةً طرفاً آخر يشارك في العملية، ويستعرض أحد الطرفين أمام الآخر ويستعد كل منهما للمواجهة وإعداد العدة والعدد لنيل هدف الانتصار على الآخر، باذلاً كل طاقته وقدرته في سبيل ذلك[٣]، والمصداق الأبرز لمفهوم الجهاد هو القتال في سبيل الله، وفيه يكون المجاهد حمل روحه على كفه منتظراً الشهادة، وهذ النوع من الجهاد يكون مقارناً لجهاد النفس، فيشتركان في الابتعاد عن الشهوات والملذات وهجر الدنيا بما فيها من الزوجة والأولاد والأموال؛ ليستعد لميدان القتال ومواجهة العدو وتعريض نفسه وسلامته للخطر والفناء، وهذا العمل يتوقف على قوة كبيرة وعظيم للنفس[٤].

والجهاد أعم وأشمل من القتال في سبيل الله، فهو يشمل الدين كله؛ وكما إنَّ القرآن الكريم يحث على ترسيخ قيم التعايش السلمي في المجتمع، لا يغفل عن الجهاد في سبيل الله، فأدوات الصراع المتمثلة بالشر والباطل والظلم موجودة ولا تزال مستمرة إلى قيام الساعة.

قال تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[٥]، والآية المباركة " تبيّن حكما من الأحكام الاجتماعية الواقع في النوع الإنساني، كما تذكر وجها من وجوه الحكمة في مشروعية القتال والجهاد مع أعداء الله تعالى، والمعنى: ولولا دفع الله أهل البغي والشر والظلم بأهل الصّلاح والإيمان لعمّ الطغيان والفساد الأرض وأهلها، ويفسد المجتمع الإنساني باستيلاء أهل الشرور والآثام"[٦].

إنَّ معنى الدفع والغلبة معنى عام سار في جميع شؤون المجتمع الإنساني، وحقيقته شروع الإنسان في دفع الإنسان المزاحم الممانع عن حقه أو عن مشتهاه وهذا يكون على مراتب ضعيفة وشديدة، وإنَّ القتال والحرب إحدى مراتبه، وهذا المعنى العام موجود في الحرب والسلم معا أيضا، وفي الشدة والرخاء، والراحة والعناء جميعا، وبين جميع الأفراد

---

(١) ينظر : الشيرازي ، الامثل ، ٢٢٨/٢.
(٢) ينظر : ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ٤٨٦/١.
(٣) ينظر: اليزدي ، محمد تقي مصباح ، الحرب والجهاد في القرآن الكريم ، ط١ ، مؤسسة العرفان للثقافة الاسلامية ، دار الولاء، ١٤٣٦هـ ، ٣٦.
(٤) ينظر: المصدر نفسه ، ٢٨.
(٥) سورة البقرة : الآية ٢٥١.
(٦) السبزواري ، مواهب الرحمن ، ٤ /١٥٦-١٥٧.

في جميع شعوب الاجتماع، ويتنبّه له الإنسان عند ظهور المخالفة ومزاحمة بعض الأفراد بعضهم في حقوق الحياة أو في الشهوات والميول ونحوها[١].

ثانياً : الحرب:

وردت لفظة **(الحرب)** في القرآن الكريم ثلاث مرات بمعنى القتال الحقيقي[٢].

١- قوله تعالى: ﴿ **لَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾[٣]، وإيقاد النار إشعالها، وإطفاؤها إخمادها، والمعنى واضح فهم كلما أثاروا حربا على النبي ﷺ والمؤمنين أطفأها الله بإلقاء الاختلاف بينهم والسعي هو السير السريع، ويجتهدون لإفساد الأرض، والله لا يحب المفسدين فلا ينالوا ما أرادوه من فساد الأرض فيخيب سعيهم[٤].

والآية تشير إلى الارتباط بين الحرب والفساد وهي إحدى نتائج الحروب وما يخلفه من مطلق الفساد الذي يعم الأرض، وفي صورة تقابلية يصورها القرآن الكريم في الآيتين اللاحقتين في قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾[٥]، وفيهما صورة بديلة للحرب وهي الإيمان والتقوى وتوازنه مع تكفير السيئات والنعيم المطلق الذ ي في قوله: ﴿ **لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾ فمن فوقهم أي نعيم السماء، ومن تحت ارجلهم، أي نعيم الأرض، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾[٦].

٢- قال تعالى:﴿ **الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ ۞ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۞ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾[٧].

٣- قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾[٨].

ثالثاً: القتال:

وردت لفظة القتال بهيئة الثلاثي المجرد أربع وتسعون مرة، وهو صراع بين طرفين قد عزما وسعيا إلى قتل الطرف الآخر وأماتته، وتستعمل لفظة القتال عندما يصول ويجول

---

(١) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٢٩٤/٢.
(٢) ينظر: اليزدي ، الحرب والجهاد في القرآن الكريم ، ٤٢.
(٣) سورة المائدة : الآية ٦٤.
(٤) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٣٦/٦.
(٥) سورة المائدة : الآيات ٦٥ – ٦٦.
(٦) سورة الاعراف : اية ٩٦.
(٧) سورة الانفال : الآية ٥٧.
(٨) سورة محمد: الآية ٤.

أحد الطرفين على الآخر[١]، قال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾[٢]، والآية هنا خاصة بالمشركين وغير شاملة لأهل الكتاب، فالمراد بكون الدين لله سبحانه هو أنْ لا يعبد الأصنام ويقر بالتوحيد، وأهل الكتاب مقرون به، وإنْ كان ذلك كفرا منهم بالله بحسب الحقيقة كما قال تعالى: ﴿**لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ**﴾[٣]، لكن الدين الإسلامي قنع منهم بمجرد التوحيد، وإنما أمر بقتالهم حتى يعطوا الجزية لإعلاء كلمة الحق على كلمتهم وإظهار الإسلام على الدين كله[٤]، والآية تشير إلى هدفين من أهداف القتال وهي:

١- إزالة الفتنة، ومحو الشرك وعبادة الأوثان.

٢- التصدّي للظلم و العدوان[٥].

ومن هنا يتضح إنَّ التوازن في ما يريد أنْ يوحيه لنا القرآن الكريم، لا يمثل مزاجا للتحكم وللسيطرة، وإنّما يمثل دفع سيطرة الشر على الخير، وتحقيق نصرة الحق على الباطل، والعدل على الظلم والطغيان من أجل أن تعيش الأرض في الجو الإنساني المنفتح الذي يحصل فيه الإنسان على ما يوجب له الطمأنينة والراحة والكرامة[٦]، والقرآن الكريم في آياته الكريمة صور الصراع الدائم بين الحق والباطل في حياة المجتمع البشري للوصول إلى حالة التوازن في العيش الكريم، فيكون البديل هو الحرب ومكافحة كل أنواع الظلم والطغيان، وهذا هو قمة التوازن والتعايش السلمي في دفع الشر ونحره؛ لأنَّ التعايش السلمي لا يكون بالتنازل عن الثوابت والسماح بالتطاول والتجاوز على المُسَلمات، والاستهزاء بالشريعة، والسكوت عن الباطل، بل الواجب منع المتطاول وكف أذاه، فيكون مصطلح التعايش السلمي والعسكري متوازنين في النتيجة كل بحسب تقدير الوضع الذي تقتضيه المصلحة منهما.

---

(١) ينظر: اليزدي ، الحرب والجهاد في القرآن الكريم ، ٢٦.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٣.
(٣) سورة التوبة : الآية ٢٩.
(٤) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٦٣/٢.
(٥) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ٢٤/٢.
(٦) ينظر: فضل الله ، من وحي القرآن ، ٣٩٢/٤.

الفصل الثالث : التوازن ضابطة الإعجاز القرآني

المبحث الأول : التوازن الخلقي

المبحث الثاني : التوازني الكوني

المبحث الثالث : التوازن البيئي

المبحث الرابع: التوازن بين السنن الكونية والطبيعية والأنسان

المبحث الخامس: التوازن التكيني

الفصل الثالث : التوازن ضابطة الإعجاز القرآني

تمهيد في بيان مفاهيم الفصل :

إنَّ الضابطة في اللغة: جمع ضابط وهو مأخوذ من الضَبط: الذي هو لزوم الشيء وحبسه، وضبط الشيء حفظه بالحزم، والرجل ضابط : أي حازم [١].

وقيل ضبطه ضبطاً، حفظه بالحزم حفظاً بليغاً، أحكمه وأتقنه حفظه حفظاً، ومنه قيل ضُبطت البلاد، إذا قمت بأمرها قياما حازما محافظاً عليها، والضبط الإتقان والإحكام، وهو لزوم شيء لا يفارقه في كل شيء[٢].

وفي الاصطلاح فالضابط: هو حكم كلي ينطبق على جزئيات كثيرة تفهم أحكامها منها، وهذه الجزئيات تنتظم من باب واحد، وصور متشابهة[٣]، وقد تأتي بمعنى القاعدة، إلاّ أنّها تختص في باب واحد، بخلاف القاعدة التي تجمع فروعاً من أبوابٍ شتى[٤].

---

(١) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ٧ /٣٣٩.

(٢) ينظر: الفيومي ، المصباح المنير ، ٣٥٧ ، ينظر: مصطفى ، ابراهيم ، الزيات ، احمد حسن ، النجار، محمد علي ، المعجم الوسيط ، تح مجمع اللغة العربية ،ط٤ ، دارة الدعوة ، ١٤٢٥هـ ، ٥٣٣.

(٣) ينظر: التهانوي، محمد علي (ت ١١٩١هـ)، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح علي دحروج، تقديم رفيق العجم، ط١، مكتبة بيروت ناشرون، لبنان – بيروت ، ١٤١٦هـ، ١١١٠/٢.

(٤) ينظر: المصدر نفسه ، ٢/ ١٢٩٥.

وعليه فإنَّ المعنى اللغوي يتفق مع المعنى الاصطلاحي فحوىً ومعنىً.

والإعجاز في اللغة: من العجز: " أصله التأخر عن الشيء، وحصوله عندَ عَجُزَ الأمْرِ، أي مُؤَخَرِهِ، وصار في التعارف اسماً للقصور عن فِعْلِ الشيء وهو ضد القُدْرَة "[١].

أما الاعجاز في الاصطلاح فهو: " أن يأتي المدعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة ويعجز عنه غيره شاهداً على صدق دعواه "[٢].

ومن هنا فإنَّ الإعجاز هو عدم القدرة على مجاراة المدعي، والقرآن آية للبليغ في بلاغته وفصاحته، وللحكيم في حكمته، والعالم في علمه والاجتماعي في اجتماعه، والمقننين في تقنينهم والسياسيين في سياستهم، والحكام في حكومتهم، ولجميع العالمين فيما لا ينالونه جميعا، كالغيب والاختلاف في الحكم والعلم، والبيان، فهو كتاب لا يحكم عليه حاكم النسخ ولا يقضي عليه قانون التحول والتكامل[٣].

وضابطة الإعجاز القرآني: هي صفة عالية في الكلام، ومرتبة فضلى لا ترقى إليها المراتب، وقد ورد في الأثر عن النبي ﷺ: **(فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه)**[٤]، وتفيد صدق القرآن الكريم وكماله في إتقان المعاني، وهي المعيار لمعرفة العالي والهابط من الكلام حتى يخرج من خير البشر؛ لأنّه عجز العرب والأجيال من بعدهم عن تفنيده والإتيان بمثله، لما يضمه القرآن من فصاحة لغوية وحكم في نظامه وتشريعه وحقائق غيبية وأخبار، وعلاقته بالتوازن يكمن في بيان أصناف جديدة من التوازن القرآني يقف الفصل على تفاصيلها في بيان جوانب إعجازية في الحياة والكون؛ لأنَّ المنهج القرآني في آيات عدة يربط حياة الإنسان وعبوديته لخالقه بآيات الكون، وهي دعوة من الله له للنظر والتدبر والاعتبار.

إنّ الكون متناسق الأجزاء مترابط، وقد وضع الخالق كل شيء في محله، ونظمٌ متوازنٌ لهدف معين، قال تعالى: ﴿ **وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[٥]؛ إذ إنَّ جميع أفعال الله -عز وجل- معللة بمصالح تعود على الناس، أو تتعلق بنظام الكون، كما هو شأن العليم الحكيم[٦]، فقد انطلقت الحياة من من طريق الحكمة في ظواهرها الخاضعة للنظام الكوني الشامل، وهكذا أرادت للإنسان أن يتحرك على أساس الحكمة في أقواله وأفعاله؛ لأنّه المظهر الحيّ المتحرك في الحياة النابضة بالروح، لتتكامل الحياة في ظواهرها الكونية والإنسانية، فتنطلق من قاعدة التوازن الكامل الحكيم[٧].

---

(١) الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ٥٤٧.

(٢) الخوئي ، ابو القاسم الموسوي(ت١٤١٣هـ)،البيان في تفسير القرآن،ط٨، مطبعة فروردين ، أنوار الهدى ، ١٤٠١هـ ، ٣٣

(٣) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ١/ ٦٠.

(٤) الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن (ت٢٥٥هـ) ، سنن الدارمي ، تح محمد احمد دهمام ، مطبعة دمشق الحديثة ، ١٣٤٩هـ ، ٤٤١/٢ ، وينظر: الخوئي ،البيان في تفسير القرآن ، ١٨.

(٥) سورة آل عمران : الآية ١٩١.

(٦) ينظر : مغنية ، الكاشف ، ٢/ ٢٣٢.

(٧) ينظر : فضل الله ، من وحي القرآن ، ٦/ ٤٥٦.

وكذلك إنَّ عرضَ السنن الكونية والطبيعية في القرآن الكريم يتجلى فيها التوازن بارتباطه بأفعال الإنسان، فإذا تأكدت هذه الحقائق في الفكر والتدبر الذي يريده الله سبحانه منه، وعى الإنسان أنَّ عمله يجب أنْ ينسجم مع هذا التوازن الكوني، ليشّكل بأفعاله وسلوكه أحد طرفي التوازن الكوني، وليتحقق الهدف من خلق هذا الكون بسماواته وأراضيه، قال تعالى: ﴿**سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[1]، وقوله: ﴿**سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ**﴾[2]، والشكر والتكبير والإحسان لا تعني إلاّ الشعور التام بعبودية الله سبحانه وتعالى والتسليم لحقيقة الخلق والشكر لله تعالى، وهو الانسجام الذي يحققه الإنسان مع الكون، فتكون أفعاله متوازنة مع هذا التسخير الإلهي، ونتيجته شعور الإنسان بتوازن روحي واطمئنان، وأما عدم الانسجام مع الكون، فتولد أفعالا تتضارب مع سنة التسخير فيكون الضياع والضلال والخسران[3]، وما يؤكد هذا الارتباط بين السنن في نظامه الإلهي الذي يحكم سلوك البشر في انضباط واطّراد هو أنَّ القرآن الكريم إذا تحدّث عن سنن الله في المجتمع الإنساني، يذكر النشأة الاستقلالية له في سلسلة النظام الكوني القائم على التوازن والتناسق بين عناصر الكائنات الوجودية، ولكنه مرتبط أشدّ الارتباط بالأرض في قوله: ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ**﴾[4]، وبهذا الارتباط يحقق التوازن بين عناصر بناء المجتمع في في مراحل أطواره الاجتماعية صعودا

ونزولا وإعزازا في منازل الوجود المقدر له، فلا يكاد يكون حديث في القرآن عن السنن أو نظام الله الذي يحكم سلوك البشر إلاّ ويسبقه أو يعقبه حديث عن نظام الله في الكون[5].

وسنة التسخير من السنن الكونية التي تقود الإنسان اذا استعملها على وفق التشريعات الإلهية إلى سنة التمكين والاستخلاف والنصر.

إنَّ التوازن ضابطة الإعجاز وهذا يتمثل في ما بسطه الله سبحانه وتعالى من أسباب ومسببات والشرط وجوابه والمقدمات ونتائجها في قضايا الكون وارتباطها في حياة الإنسان، " وهي عقد منظوم من الثوابت الكونية والاجتماعية يجري سلطانها على البشر جميعاً دون تمييز بينهم مهما كان وزنهم وعرقهم، ومهما كانت ديانتهم، كأسباب النصر والهزيمة، والهداية والغواية، والحب والكراهية "[6].

وسيعرض البحث في هذا الفصل إلى مطالب تتجلى فيها آيات الكون ونظرة القرآن إليها بما يحقق التوازن بين أجزاء الكون المادي المحسوس من الطبيعة مع الإنسان وعلاقته مع خالقه عبر المباحث الآتية :

---

(1) سورة الحج : الآية ٣٦.
(2) سورة الحج : الآية ٣٧.
(3) ينظر : التسخيري ، من الظواهر العامة في الإسلام ، ٩٩ – ١٠٠.
(4) سورة طه : الآية ٥٥.
(5) ينظر: زكي ، رمضان خميس ، مفهوم السنن الربانية دراسة في ضوء القرآن الكريم ، شبكة الألوكة ، كتاب الكتروني ، www.alukah.net، ٨١.
(6) قدة ، السنن الكونية والاجتماعية من خلال القرآن الكريم ، ١٤٢.

المبحث الاول: التوازن الخلقي

سيتناول البحث التوازن الخلقي في الإنسان في هذا المبحث؛ وذلك لعدم طاقة البحث الوقوف على التوازن في بقية الكائنات الحية في القرآن الكريم.

إنَّ أصل الخلق: "هو إيجاد شيء على كيفية مخصوصة وبما أوجبته إرادته واقتضته حكمته"[١]، ولم يخلق الله -جل وعلا- أيّ شيء عبثا، وإنّما يخلق لحكمة يعلمها، ولمصلحة راجحة قد يعلمها الإنسان، أو لا يعلمها كما في قوله تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾[٢]، لقد خلق الله الإنسان وميّزه من باقي المخلوقات بامتلاكه العقل، والإنسان العاقل لا بد من أن يدرك أنَّ لكل شيء خلقه الله في الكون حكمة، فلا يقوم بأي عمل الا لحكمة، فكيف بخالق الكون العظيم، فما من شيء خلقه إلاّ وله حكمة وسبب، وهو أحكم الحاكمين، وأحد أسباب خلق الإنسان هو عبادته سبحانه وتعالى في قوله :﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[٣]، وقيل في غرض خلق الجن والإنس" أنَّ الغرض كيفما كان أمر يستكمل به صاحب الغرض ويرتفع به حاجته والله سبحانه لا نقص فيه ولا حاجة له حتى يستكمل به ويرتفع به حاجته، ومن جهة أخرى الفعل الذي لا ينتهي إلى غرض لفاعله لغو سفهي ويستنتج منه أنَّ له سبحانه في فعله غرضا ... وهو كمال للفعل لا لفاعله، فالعبادة غرض لخلقة الإنسان وكمال عائد إليه هي وما يتبعها من الآثار كالرحمة و المغفرة وغير ذلك"[٤].

ويبدو للباحثة إنَّ الآية بصدد بيان توازن بين أصل الخلق وبين الغاية التي أوجد من أجلها خلق الجن والإنس من أجل العبادة وما يتضمنه من توازن بين الطرفين يكون مدعاة لهما للسعي في تحقيق معنى العبادة بأجلى صورها، وعائدية فائدتها على الإنسان من آثار رحمة الله ومغفرته.

والإنسان المدرك العاقل يؤمن بحكمة الله في الخلق، والتفكر في هذا الخلق العظيم لقوله سبحانه:﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[٥]، وهناك كثير من أسباب الخلق الظاهرة في آيات القرآن الكريم .

وللوقوف على حقيقة هذا المبحث لابد للبحث من الولوج إليه عبر المطالب الآتية:

---

(١) مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم،٣ / ١٢٧.
(٢) سورة المؤمنون : الآية ١١٥.
(٣) سورة الذاريات : الآية ٥٦.
(٤) الطباطبائي ، الميزان ، ٣٨٦/١٦.
(٥) سورة آل عمران : الآيات ١٩٠-١٩١.

المطلب الأول: التوازن في آيات خلق الإنسان:

إنَّ للقرآن الكريم أساليب عرض متنوعة تدعو إلى تذكير الناس بدلائل الوحدانية المبثوثة في آياته الآفاقية والأنفسية، المستفادة من قوله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد**﴾[1]، وهذا العرض لا يقل أهميّة عن إعمال العقل والتدبر في بقية الآيات القرآنية، ولنا في نبينا إبراهيم عليه السلام، أسوة حسنة فقد عرف الكون ليتعرف على الله بطريقة استدلالية من التفكر والتدبر والتوصل للحقيقة الألهية فقال حكاية عنه في قوله تعالى:﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[2].

والإنسان الذي يمعن النظر في الآيات التي تشير إلى بداية خلق الإنسان والتدرج الذي يحصل له وكيفية هذا الإيجاد للخلق ومروره بمراحل تكوينية وأصل نشوئه، وتكوّن الأجنّة في ظلمات الرحم والأدوار التي يمر بها، سيتولّد في قلبه المودة والحب وتظهر دلائل في حياته تنعكس إيماناً وسلوكاً عملياً ، التي يمكن بيانها عبر الأدوار الآتية:

الدور الأول لخلق الإنسان (التراب):

كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ**﴾[3]، إذ تشير الآية إلى أنَّ الإنسان في بدايته كان تراباً، وهذا التراب الساكن الزهيد الميت يتوازن مع القدرة الإلهية التي جعلته متحركاً منتشراً، وهذا التوازن يثير التأمل في صنع الله، لصلة التوازن الوثيقة بين حركة الأرض واستدامتها وإعمارها والحركة في انتشار البشر فيها.

وبعدها انتقل الى مرحلة أخرى من التشكيل والتكوين وهي الطين كما في قوله تعالى: ﴿**وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ**﴾[4]، وقد امتزج هذا التراب مع الماء، وشكّل الطين اللازب في قوله تعالى:﴿**إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ**﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿**خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾[7]، قيل قيل في معنى **(صَلْصَالٍ)**: هو التراب اليابس الذي لو اصطدم به شيء أحدث صوتا، و**(حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)**: هو طين متعفن[8]، وعملية التخلق تمت على ما يبدو من "أنَّ ربنا أجرى على على التراب ماء فتفاعل معه فأصبح طينا لازبا، ثم تفاعل معه فأصبح متعفنا، ثم نمت الحياة فيه بفعل التفاعل وخلق فيه الحياة فأصبح مستويا، ثم نفخ الله فيه روح العقل والإرادة "[9].

---

(1) سورة فصلت : الآية ٥٣.
(2) سورة الانعام : الآية ٧٩.
(3) سورة الروم : الآية ٢٠.
(4) سورة السجدة : الآية ٧.
(5) سورة الصافات : الآية ١١.
(6) سورة الحجر : الآية ٢٦.
(7) سورة الرحمن : الآية ١٤.
(8) ينظرالشيرازي، الامثل ، ٦١/٨
(9) المدرسي، من هدى القرآن ، ٤٥٧/٥.

هذه الإشارة الى نوع المادة الأولى التي خلق منها الإنسان وهي التراب، هي ذات الإشارة للعودة إلى التراب نفسه عند الموت كما في قوله تعالى:﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ**﴾[١].

الدور الثاني لخلق الإنسان(الصلب والترائب):

في قوله تعالى: ﴿**فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**﴾[٢]، فقد قيل في تفسيرها ﴿**مِمَّ خُلِقَ**﴾ أي، " فلينظر نظر التفكر والاستدلال من أي شيء خلقه الله وكيف خلقه وأنشأه، حتى يعرف أنَّ الذي ابتدأه من نطفة قادر على إعادته ثم ذكر من أي شيء خلقه فقال ﴿**خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ**﴾ يريد صلب الرجل وترائب المرأة والولد لا يكون إلا من الماءين"[٣]، والإنسان تراب قبل أن يكون نطفة،" ثمّ مرّ بمراحل عديدة مدهشة حتى أصبح إنسانا كاملا، وليس من الصعوبة بحال على الخالق أن يعيد حياة الإنسان بعد أن نخرت عظامه وصار ترابا، فالذي خلقه من التراب أوّل مرّة قادر على إعادته مرّة أخرى[٤]، وذكر الصلب مرة واحدة في القرآن في قوله تعالى: ﴿**وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُم**﴾[٥]، وقد خلق الله الإنسان من نطفة واحدة مع وجود عدد من الحيوانات المنوية في النطاف يقدر وجود حوالي (٥٠٠ مليون)، وهو إعجاز علمي اكتشف في القرن العشرين[٦]، وهو ما توضحه الآية في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى**﴾[٧] ،وقوله:﴿**من نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى**﴾[٨]، وهو ما أشار إليه الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة حين قال: **(وابتدعت خلقي من مني يمنى، ثمّ أسكنتني في ظلمات ثلاث : بين لحم وجلد ودم لم تشهدني خلقي، ولم تجعل إليّ من أمري ثمّ أخرجتني إلى الدنيا تامّا سويّا)**[٩].

فالله تعالى الذي بدأ خلق الانسان من ماء صفته (من ماءين للرجل والمرأة)، بقدر ونسبة من كل منهما، وهذا توازن مزج النسب من الطرفين، أما التوازن الآخر في الآية فهو في مقام التذكير بحقيقة الإنسان وأصل نشوئه وقدرة الله على إرجاعه وإحيائه بعد موته، وهذا التوازن هو موطن منّة الله في دوام واستمرار توفير كل ظروف العيش والهداية، الذي أوجَد هذا المخلوق من أبسط الاسباب.

الدور الثالث لخلق الإنسان (الظلمات الثلاث):

---

(١) سورة طه: الآية ٥٥.
(٢) سورة الطارق: الآيات ٥ – ٧.
(٣) الطبرسي ،مجمع البيان،١٠/ ٧١٥.
(٤) الشيرازي ، الامثل، ٢٠/ ١٠٩.
(٥) سورة النساء: الآية ٢٣.
(٦) ينظرالنشواتي، محمد نبيل ،الإعجاز الإلهي في خلق الانسان وتفنيد نظرية داروين، ط١، دار القلم ، دمشق ، ١٤٢٨هـ ، ٤١.
(٧) سورة القيامة: الآية ٣٧.
(٨) سورة النجم: الآية ٤٦.
(٩) الحويزي، نور الثقلين ، ٥٣٣/٣.

إن خلق الانسان كان في ظلمات وأطوار كما في قوله سبحانه: ﴿ **يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ**﴾[1]، وقيل في الظلمات الثلاث هي:" ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة ، ونطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما ثم يكسو العظام لحما ثم ينشئ خلقا آخر وقيل خلقا في بطون الأمهات بعد الخلق في ظهر"[2]، وهو في معرض " بيان لكيفية خلق من تقدم ذكره من البشر والأنعام، وفي الخطاب تغليب أولي العقل على غيرهم، والخلق من بعد الخلق التوالي والتوارد كخلق النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وهكذا"[3].

وقوله **(يَخْلُقُكُمْ)**: فعل مضارع يعطي معنى الاستمرارية، وهو هنا بمثابة إشارة سريعة ذات معان عميقة وكبيرة الى التحولات العجيبة والمختلفة التي تطرأ على الجنين في مدة وجوده في بطن الأم[4]، والذي يقتضي الرعاية من الله تعالى في كل مرحلة من مراحل مراحل تكون الجنين.

الدور الرابع لخلق الإنسان(الأطوار):

وتستمر حلقة توازن الخلق كما في قوله تعالى: ﴿**مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا**﴾[5]، قيل في الأطوار جمع طور وهو حد الشيء وحاله التي هو عليها، ومحصل المعنى (لا ترجون لله وقارا في ربوبية) والحال أنّه أنشأكم طورا بعد طور يستعقب طورا آخراً فأنشأ الواحد منكم ترابا ثم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم جنينا ثم طفلا ثم شابا ثم شيخا، وأنشأكم مختلفي الأفراد في الذكورة والأنوثة والألوان والهيئات والقوة والضعف إلى غير ذلك، وهل هذا إلاّ التدبير فهو مدبر أمركم فهو ربكم[6].

الدور الخامس لخلق الإنسان (القرار المكين):

وتكتمل هذه السلسلة التوازنية في خلق الإنسان في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ**﴾[7]، والقرار المكين "يعني الرحم مكّن فيه الماء بأن هيأ لاستقراره فيه إلى بلوغ أمده الذي جعل له"[8]، وقيل أيضاً؛" المكين المتمكن وصفت به الرحم لتمكنها في حفظ النطفة من الضيعة والفساد أو لكون النطفة مستقرة متمكنة فيها"[9].

الدور السادس لخلق الإنسان (التشكيل الكامل):

---

(1) سورة الزمر: الآية ٦.
(2) مجمع البيان ، الطبرسي ،٧٦٦/٨.
(3) الطبائبائي ، الميزان ، ٢٢٣/١٧.
(4) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ١٥ /٢٦.
(5) سورة نوح : الآيات ١٣- ١٤.
(6) الطباطبائي ، الميزان ، ٣٢/٢٠.
(7) سورة المؤمنون : الآيات ١٢ -١٣.
(8) الطبرسي مجمع البيان ، ٧/ ١٦١.
(9) الطباطبائي ، الميزان ، ٢٠/١٥.

كما في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ**﴾[1]، فقد قيل في تفسير الآية مع الآية السابقة إنَّ فيها سبعة أفعال تبيّن دور الإرادة الإلهية في التحولات التي يمر بها الإنسان من كونه طيناً حتى يصير بشراً سوياً، وهي: (خلقنا، جعلناه، خلقنا، فخلقنا، فخلقنا، فكسونا، أنشأنا)، وذلك حتى لا يتصور الإنسان أنّض القانون الطبيعي هو الذي يخلق، بل الله هو المدبر والمهيمن من فوق القانون[2]، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ**﴾[3].

ولا يخفى ما في هذه الأطوار من توازن خلقي عجيب يكشف عن قدرة المولى سبحانه في إنشاء الخلق وإبداعه من العدم.

وفي قوله: ﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ**﴾، فبعد خلق هذه المرحلة لا يوجد مخلوق في الوجود يشابه هذا الإنسان المكوّن من مادة وروح ولا توجد صورة من بني آدم تشبه هذه الصورة لهذا المخلوق صورة خلق آخر.

وفي ختام الآية في قوله: ﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾، وقوله: ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾[4]، وقوله: ﴿**الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ**﴾[5].

وبعد اكتمال التوازن في إنشاء خلق جديد اختلف عن مكوناته الأُولى، وهذا دليل على أنَّ أمر الإنسان بيد الله سبحانه وتعالى، فهو يخضع لتدبيره تكوينياً، ويكون كذلك خضوعاً لتدبيره سبحانه تشريعياً و سلوكياً.

وبعد انتهاء التشكل النهائي لعملية التوازن الخلقي، يذكر الله -جل وعلا- الإنسان بالنهاية في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ**﴾، فقد قدّر الله للإنسان أجلا معينا لا يتعداه ضمن نظام وضعه لحياته في وجوده وموته، ولن يكون موتاً نهائياً تنعدم الحياة فيه فلا تعود، بل إنَّ هناك مرحلة جديدة يقدم الإنسان فيها حساب أعماله في الحياة الماضية أمام الله تعالى، من أجل حياة قادمة، في قوله سبحانه : ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ**﴾[6]، ليتحقق بذلك الهدف النهائي في عملية توازن ما بين مراحل الحياة التي يمر بها الإنسان وبين الموت والبعث في يوم القيامة.

وفي إشارة لطيفة من لطائف القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى**﴾، إنَّ حذف حرف النون من قوله: **(يَكُ)**، في بيان التوازن بين اللفظ والمقام لأصل نشوء الإنسان، فالتوازن سيّال ينطبق على كل مظاهر القرآن الكريم ومستوياته، ولذا كانت تسميته بالقانون.

---

(1) سورة المؤمنون: الآية ١٤.
(2) ينظر المدرسي ، من هدى القرآن ، ٨/ ١٦١.
(3) سورة المؤمنون: الآية ١٧.
(4) سورة غافر: الآية ٦٤.
(5) سورة الانفطار: الآية ٧.
(6) سورة المؤمنون: الآية ١٦.

وعليه يتضح أنَّ عملية خلق الجنين ونموه في بطن الأمّ تُعدّ أعجب وأدقّ توازن في خلق البارئ عزّ وجلّ، فالتخطيط في تلك الظلمة إعجاز الخالق وأبدعه فقط، وتشكيل الجنين بهذه المراحل، فيمدّه بأسباب العيش في مكان لا يمكن لأحد أن يُوصِل إليه الرزق للنمو والتكامل الذي هو في أمسّ الحاجة إليه، وهذا تدبير الخالق في استمرارية المراعاة للخلق والتعهد به من غير نقص، وإكسائه لباس الحياة، وهبة الروح والحواس والحركة والهيئة الإنسانية الكاملة وحفاظه في كل طور من أطواره بلطفه وعنايته.

المطلب الثاني: التوازن في خلق الأعضاء الظاهرية في البدن:

إنَّ أجهزة الكائنات الحية وأعضاءها ومنها الإنسان محكمة الخلق، وهي جارية على قانون التوازن في وضعها وفي عملها كما في قوله تعالى:﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾[1]، ولولا هذا التناسق والتوازن لما اتزنت الأعضاء في بنائها وأداء وظائفها، فهي متناسقة البناء والهيئة ومتوازنة بما يحقق لها وظيفتها المناطة بها، وعند النظر إلى جسم الإنسان يتبين أنَّ أعضاء بدنه الظاهرية موضوعة في مواضع محددة بدقة وبشكل متقن ومتوازن، وزيادة في الإيضاح سيتم بيانه في الأعضاء التي تم ذكرها في القرآن الكريم وهي الآتي:

أولاً: التوازن التقويمي لهيكل الإنسان:

قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾، والمراد بكون خلقه في أحسن تقويم، اشتمال التقويم على الإنسان في جميع شؤونه وجهات وجوده، والتقويم جعل الشيء ذا قوام، وقوام الشيء ما يقوم به ويثبت، والإنسان المراد به هنا الجنس ذو أحسن قوام بحسب الخلقة[2]، وتتجلى قدرة الله في صنع جسد الانسان، "من استقامة قامته، إلى شبكة أعصابه، إلى قدرات مخه، إلى مرونة جسمه وما فيه من قدرة احتمال للظروف المختلفة "[3].

ومن هنا يتبين أنَّ التقويم شامل لكل تفاصيل الإنسان ، فجعله في توازن تام من توازن في القوام العام إلى القوام الخاص بأدق التفاصيل في شؤون الحياة، تكشف أنَّ هناك توازناً أعظم في هذا الاستواء هو التوازن الروحي الذي زوّده الله به وميزه من باقي الخلائق.

ثانياً: التوازن في الخلقة:

قوله تعالى : ﴿**الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ**﴾[4]، أي جعلك خلقا سويّاً في تناسب أعضائك وتكامل أجهزتك،" فَعَدَلَكَ في ما يمثله خلقك من توازن وظائف جسدك واعتدال قامتك، مما يمنحه جمال الشكل وروعة الصورة، فهو القادر على صوغك في أيّة صورة مما

---

(1) سورة التين : الآية ٤.
(2) ينظر: الطباطبائي ،الميزان ، ٣١٩/٢٠.
(3) المدرسي ، من هدى القرآن، ٢٠٦/١٨.
(4) سورة الانفطار: الآية ٧.

يمتاز به الخلق، فاختار لك هذه الصورة الجميلة المستقيمة المعتدلة التي تجمع الإبداع كله في التكوين الجسديّ والعقليّ والروحي"[1].

وفي إشارة لطيفة في قوله: **(فَسَوَّاكَ)**، إشارة إلى ذلك التوازن الذي قوامه التسوية والتنسيق الإبداعي في خلقة الإنسان، فلا تفاوت في طول اليدين أو الرجلين أو سعة العينين، فالأعضاء متساوية ما بين الجهة اليمنى واليسرى لجسم الإنسان، وقوله:**(فَعَدَلَكَ)**، هي إشارة إلى التوازن الذي حققه الله في خلقة الإنسان العامة وهيكله النهائي، وعليه فإنَّ مناط التسوية في الخلقة يختلف عنه في التعديل، وهذا من إعجاز القرآن البياني في أنَّ ألفاظه وضعت بدقة متناهية في مواضعها، وهو يؤسس في ألفاظه لحقائق جديدة وليست زائدة.

وبذلك فإنَّ خلق الإنسان لا يكتمل مالم ينعم عليه الخالق بالتسوية والتعديل والتكامل، والتوازن في المظهر الخارجي، والتوازن في وظائف الأعضاء، وأعظم من ذلك التوازن بين متطلبات الجسد وسمو الروح والعقل، فيخلق تكاملاً إنسانياً يهدف إليه الباري عز وجل من أصل الخلق.

ثالثاً: التوازن في خلق العينين واللسان والشفتين:

في قوله تعالى: **﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾**[2]، من الأعضاء التي ذكرها القرآن الكريم في معرض انتخاب الطريق التي يسلكها الإنسان، فهو الذي يتحكم في عينيه ولسانه في توازن بين استعماله لها في الحلال أو الحرام، وهو الذي يختار إحدى الجادتين (الخير) أو (الشر)، "والملفت للنظر أنّ الآيات أشارت إلى الشفتين بعد اللسان ولكن لم تشر إلى الجفنين بعد ذكر العين، ولعل ذلك يعود أيضا إلى أنَّ السيطرة على اللسان أهم وأخطر بكثير من السيطرة على العين"[3].

والحق إنَّ وجود عينين في أعلى وجه الإنسان يلعب دوراً كبيراً في توفير التوازن المطلوب من الرؤية البصرية للأشياء؛ لذا فإنَّ أي تلكؤ أو تعطيل في وظائف أحدى العينين يخرق هذا التوازن وينفي عنه الغاية المطلوبة ، وكذا الأمر في الشفتين .

وإنَّ العين البشرية بالغة التعقيد في مكوناتها وطريقة عملها، فهي لا تستجيب إلاّ لمدى معين من الأمواج الضوئية؛ هي الضوء المرئي، فهناك ضوء غير مرئي لا تراه العين، كالأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية والسينية، وأمواج الراديوم والرادار، وصدق الله تعالى حين قال: **﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾**[4]، ويستفاد من هذا التعبير "إنَّ الأمور والأشياء التي لا يراها الإنسان كثيرة جدّا، وقد أثبت العلم الحديث هذه الحقيقة، وهي إنّ المحسوسات التي تحيطنا تشمل دائرة محدودة من الموجودات- والأشياء غير المحسوسة- سواء في مجال الألوان والأصوات والأمواج والمذاقات وغيرها - هي في

---

(1) فضل الله ، من وحي القرآن ، ٢٤/ ١١٠.
(2) سورة البلد : الآيات ٨ – ٩.
(3) الشيرازي ، الامثل ، ٢١٤/٢٠.
(4) سورة الحاقة : الآيات ٣٨ – ٣٩.

الواقع أوسع دائرة من الأمور الحسيّة"[1]، وهذا من صنيع خلق الله في توازن الرؤية عند الإنسان في محدودية السعة التي يستطيع بها إبصار الاشياء.

رابعاً: التوازن في خلق السمع:

السمع: هو إدراك الأصوات بوساطة عضو الأُذن البشرية التي بوساطتها يتمتع الإنسان بحاسة السمع، وهي أول عضو يؤدي وظيفته في عالم الدنيا، فالطفل أول ولادته يسمع على عكس العين فأنّها لا تؤدي مهمتها بصورة واضحة.

وإنَّ الأذن هي حلقة الارتباط والصلة بين الإنسان والعالم الخارجي، كما في قصة أصحاب الكهف حين أراد الله أن يناموا مئات السنين قال جل وعلا :﴿**فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا**﴾[2]، وعندما تعطلت حاسة السمع استطاعوا النوم في الكهف مئات السنين مع وجود ضجيج وحركة الحياة في النهار، ومن الظواهر الطبيعية من الرعد والامطار وغيرها.

وقد تتبع البحث مصطلح (السمع) في القرآن الكريم، فكانت دقة وضع اللفظ يتجلى فيه التوازن والروعة في مجيء(السمع) مفردة ولم تأتِ بصفة الجمع كما في البصر، ولا يسع البحث ذكر جميع المواضع وسيقتصر على بعض الآيات القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ**﴾[3]، وفي قوله :﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ**﴾[4]، فقد ورد (سمع) بصيغة المفرد و(أبصار) بصيغة الجمع؛ لأن حدّ السمع لوحدة المسموع، والأبصار لتنوّع المدركات والمرئيات؛ وذلك لأن الإنسان يسمع أولا من الأبوين أمورا، فيفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة ويبصر الأمور ويجريها بأدراك تام وذهن كامل فيستخرج الأشياء من قبله[5].

وهذا مقتضى التوازن، فتكون حاسة البصر إرادية راجعة إلى اختيار الإنسان، فهو يبصر ويفكر بما شاء دون إجبار في الأحوال الاعتيادية، ويستطيع أن يغمض بصره عن هذا، أو أن يدير وجهه ولا يرى ما لا يريده بحركة بسيطة من رأسه، ويتحكم فيها الإنسان بإرادته، أما السمع فلا يمكن فعل ذلك؛ لأنّها حاسة لا إرادية، فالإنسان لا يستطيع أن يُصِّم سمعه كما يستطيع أن يغمض عينيه، بل يسمع جميع الأصوات التي حوله إجباراً لا اختياراً، وبذلك اختلفت الرؤية عند الإنسان واتّحد السمع بسماع الاصوات نفسها، كما أنَّ الملاحظ في آلية توازن خلق السمع أنَّ المولى سبحانه جعل للإنسان أذنين يلعبان دوراً كبيراً في إحداث التوازن عند الإنسان، ولو أنّه فقد إحداهما لاخترم التوازن بنحو يشعر به الإنسان بشكل واضح.

خامساً: التوازن في خلق الرجلين:

---

(1) الشيرازي ، الامثل ، ١٨ / ٦٠٠.
(2) سورة الكهف : الآية ١١.
(3) سورة الملك : الآية ٢٣.
(4) سورة البقرة : الآية ٢٠.
(5) ينظر الرازي ، مفاتيح الغيب ، ١٤١/٢٥-١٤٢، وينظر :الدرويش ، محي الدين(ت١٤٠٣هـ) ، اعراب القرآن وبيانه، ط٤، دار الارشاد ، سورية – دمشق ،١٤١٥هـ ، ١ / ٢٩.

في قوله تعالى : ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ۖ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[1]، ، وقبل فيها: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ**﴾، أي أنّ أصلها جميعا من ماء، ومع هذا فلها صور مختلفة، ﴿ **فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ**﴾، كالزواحف ،﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ**﴾، كالإنسان والطيور، ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ** ﴾، كالدواب.

ويبدو للباحثة إنَّ اختلاف الكائنات الحية من جهة خلق الأرجل فيها يدل على بشكل جلي على لونين من الوان التوازن أحدهما: يتعلق بالجانب الجمالي – إنْ صحَّ التعبير- لشكل الكائن الحي، والثاني بالجانب المعيشي فذوات الرجلين من الكائنات تحتاجهما للسعي عن الرزق وذوات الأربع كذلك غير أنّه كل بحسبه.

والخلق ليس محددا بهذه المخلوقات، فالحياة لها صور أخرى متعددة بشكل كبير، سواء كانت أحياء بحرية أو حشرات بأنواعها المتعددة التي تبلغ آلاف الأنواع، لهذا قالت الآية في الختام ﴿**يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

وهذه أبرز الصور الواضحة على دليل قدرة الخالق، وإنَّ تنوع مخلوقاته أبرز صورة من صور التوازن في هذه الحياة، و لولا التنوع المذكور لاختلَّ توازن النظام الكوني.

ولا يخفى أنَّ أفعال الإنسان في الأرض خاضعة لقوانين الخليقة في الكون، وأنَّ الملكات البشرية من القوى العقلية والسمعية والبصرية والعلم الذي علَّمه الله له يلعب دوراً كبيراً في ترشيد الفعل الإنساني وتوجيهه لمعرفة المنافع والمضار، وسعي الإنسان الحثيث لبلوغ المصلحة ودرء المفسدة، والقدرة والاستطاعة لذلك، ولكن محدودية علم الإنسان وإدراكه اقتضى إرسال الأنبياء لتوجيه الفكر الإنساني وإعانته بلوغ غاية وجوده من الخلق[2] كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[3].

المطلب الثالث: التوازن في التعدد في خلق الله والاختلاف فيه:

إنَّ حكمة الله سبحانه وتعالى في التعدد في خلق والاختلاف فيه؛ حتى يكون في التنوع، ما يغني التجارب الإنسانية، ويحقق التعارف القائم على التوازن والتجاذب والتمازج فيما بين الناس، ومهما كان الأمر، "فإنَّ السبب الأعمق الكامن خلف كل هذه الظواهر الإنسانية، هو الإرادة الإلهية التي تعلقت بهذا التنوّع العجيب، انطلاقا من الحكمة التي أراد الله للحياة أن ترتكز عليها، ليعرف الإنسان عظمة الخالق من خلال عظمة خلقه"[4]، وكذلك هو خصيصة من الخصائص البشرية في جميع مراحل حياتهم، في اختلاف درجاتهم في المواهب والكفاءات الذاتيّة، وفي القدرات الماليّة والجسديّة، وفي المواقع الجغرافيّة والاجتماعية ،

([1]) سورة النور : الآية ٤٥.

([2]) ينظر : الطريبق ، عبد المجيد، منظور الإسلام إلى المحافظة على البيئة ، ط١، دار ابي رقراق للطباعة والنشر، الرباط – المغرب ، ١٤٣٨هـ ،١٥٥.

([3]) سورة الذاريات ، الآية ٥٦.

([4]) فضل الله ، من وحي القرآن ، ١٨ / ١١٨.

وفي غير ذلك من الأمور، فإن هذا التنوّع في الأوضاع الإنسانية لا يختص بمرحلة زمنيّة عن مرحلة زمنية أخرى، فهو خاضع إلى الاختبار في ما يتصرّف فيه الإنسان تجاه أخيه الإنسان، على أساس ما يختلف عنه في تلك الأمور، فقد يسقط البعض في الامتحان عندما يستخدم ذلك في كثير من الأجواء الاستعراضيّة التي يتمثل فيها الشعور بالزهو والتكبر والاستعلاء والخيلاء من خلال النظرة الفوقيّة إزاء الناس الآخرين الذين لا يملكون ما يملكه[1].

ورصدت الباحثة بعض صور التوازن في التعدد والاختلاف وهي الآتي:

أولاً: الاختلاف في الألسن والألوان:

كما في قوله تعالى :﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ**﴾[2]، إذ إنَّ معرفة الإنسان للإنسان "تحصل إمّا عن طريق العين أو الأذن، فخلق الله الألوان والصور والأشكال المختلفة لتعرفها العين وتشخصها، وأوجد اختلاف الأصوات لتشخصها الأذن، حتى أنّه لا يمكن العثور في جميع العالم على إنسانين متشابهين في الوجه والصوت معا، وما ذلك الاختلاف إلّا من آيات عظمة الله"[3].

ويتجلى التوازن في الآية بمقابلة بين الكون بما فيه من سماوات وأرض وبين التنوع والاختلاف، إذ قرن الله اختلاف الألسنة باختلاف الألوان وقدم خلق السموات والأرض عليها، وفي هذه إشارة إلى الناموس الإلهي في إنَّ خلق السموات والأرض هو نفسه الناموس الذي يحكم الألوان والألسن، وهذا الاختلاف لا يكون للتخالف والتناكر بين الأجناس، بل للملاقاة والألفة، لذلك خلق الله التنوع في الأصوات والألوان، وهذا التنوع في الخلقة شاهد على عظمة الخالق و قدرته في إيجاد التوازن للمجتمع البشري واستمرار الحياة.

ثانياً: الاختلاف في الجنس:

كما في قوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾[4] وقيل أنّ الآية تخاطب الناس كافة، والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم، من ذكر وأنثى، وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل، إنّها ليست التناحر والخصام، إنّما هي التعارف والوئام، فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات، وليس للّون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله، إنّما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم، و يعرف به فضل الناس[5].

وفي ذيل الآية يتحدد من هو الكريم حقاً عند الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ وهو يزن الناس عن علم وخبرة بالقيم والموازين الإلهية في قوله تعالى:

---

(1) ينظر: المصدر نفسه، ٤٠٢/٩.
(2) سورة الروم : الآية ٢٢.
(3) الشيرازي، الامثل، ٤٩٨/١٢.
(4) سورة الحجرات : الآية ١٣.
(5) ينظر: سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٣٤٨.

﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾، "وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان"[١]، وهو توازن التقوى بين الناس.

وقوله سبحانه: ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[٢]، إنَّ في عبارة ﴿**كُلِّ شَيْءٍ**﴾، أي من كل شيء خلق الله سبحانه نوعين مختلفين، مثل الشقاء والسعادة والهدى والضلالة والنور والظلمة، كما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة عن معنى الآية فقال: **(وبمضادّته بين الأشياء عرف أنَّ لا ضِدَّ له، وبمقارنته بين الأشياء عرف أنَّ لا قرين له، ضادّ النّور بالظلمة، واليبس بالبلل والخشن باللّين والصّرد بالحرور، مؤلّف بين متعادياتها، مفرّق بين متدانياتها، دالّة بتفريقها على مفرّقها وبتأليفها على مؤلّفها)**[٣]، والزوجية على هذا معنوية، أو أصناف الموجودات من الزوجين المتقابلين والذي يتم أحدهما بالآخر على شكل زوج زوج، كالذكر والأنثى، وقيل: المراد مطلق المتقابلات كالذكر والأنثى والسماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والبر والبحر والإنس والجن[٤]، وبهذا " شمول يؤكد على وحدة الأساس الذي يرتكز عليه النظام الكوني، وهو قانون الزوجية الذي تتنوع مفرداته وأشكاله وأوضاعه و أساليب حركته"[٥]، ويشمل جميع الموجودات الحيّة وغير الحيّة المعنوية منها والمادية.

وفي قوله تعالى:﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ**﴾[٦] إشارة إلى ما هو أعظم و أوسع من خلق أزواج النبات وهو خلق الأزواج كلها وتنظيم العالم المشهود كل شيء؛ من فاعل ومنفعل قبله هما أبواه، كالذكر والأنثى من الإنسان، والحيوان، والنبات، وكل فاعل ومنفعل يتلاقيان فينتجان بتلاقيهما أمرا ثالثاً[٧].

وفي تخصيص للزوجين للذكر والأنثى كان في قوله تعالى:﴿**وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ**﴾[٨]، كلمة (الزوج) تطلق عادة على " جنسيّ الذكر والأنثى، سواء في عالم الحيوانات أو النباتات، وإذا ما توسّعنا في استعمال هذه الكلمة فإنّها ستشمل جميع الطاقات الموجبة والسالبة، وتشير إلى حقيقة أنّ جميع أشياء العالم مخلوقة من ذرّات موجبة وسالبة، ومن المسلّم به هذا اليوم من الناحية العلمية أنّ الذرّات مؤلّفة من أجزاء مختلفة، منها ما يحمل طاقة سالبة تدعى بالإلكترون، ومنها ما يحمل طاقة موجبة و تدعى بالبروتون"[٩].

---

(١) المصدر نفسه ، ٦/ ٣٣٤٨.
(٢) سورة الذاريات : الآية ٤٩.
(٣) الصدوق ، التوحيد ، ٣٠٨.
(٤) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٣٨٢/١٨.
(٥) فضل الله ، من وحي القرآن ، ٢١٨/٢١.
(٦) سورة يس : الآية٣٦.
(٧) ينظر :الطباطبائي ، الميزان ، ٧/ ٨٨.
(٨) سورة النجم : الآية ٤٥.
(٩) الشيرازي ، الامثل ، ١٢٤/١٧.

وفي علم الأحياء تنقسم الكائنات الحية على ذكر وأنثى، سواء في الحيوان والنبات، وقد يكون الذكر والأنثى في الزهرة الواحدة أو الشجرة الواحدة أو في شجيرات، ويتم التلقيح أما بالريح أو الطير، وسبحان﴿ **الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ**﴾[1].

وقد أصبح معلوماً أنَّ الماء مكون من اتحاد وامتزاج الهيدروجين والأكسجين بنسبة مقدرة ذرتين هيدروجين وذرة اوكسجين، وأنَّ دم الإنسان يكون من التزاوج بين الكريات الحمر والكريات البيض، وأنَّ الذرة أصغر ما عرف من أجزاء المادة مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربي: سالب وموجب، يتزاوجان ويتّحدان.

وفي جملة أمور من هذا التعدد والاختلاف يتّضح للبحث الأمور المستخلصة الآتية:

١- العجائب والأسرار في ظاهر الأدلة على وجود الله وعظمته وتفرده بالخلق والإيجاد في هذا التوازن من جهة خلق التنوع، ليتكامل توازنه مع النظام الكوني الذي أوجده الله بقدرته؛ لأنَّ الإنسان كلما أحسّ بحضور الله في بديع خلقه وانتظامه، كلما شعر بمسؤولية البقاء والاتصال بالله.

٢- وكذلك للتذكير بفضله تعالى وآلائه ﴿**واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوانِكُمْ**﴾، اختلاف في القوميات ولغاتهم، وأهل البلد بألوانهم، واختلاف الأفراد بملامح الوجه والأصوات وبصمة الأصابع وغيرها، وخلق جو للألفة والتعايش.

٣- والتوازن في خلق الزوجين يؤدي إلى أنْ يتمايز الناس بعضهم من بعض، وعملية التعارف بينهم سهلة، ومحال أن تكون هذه الحكمة البالغة في التنوع من صنع الطبيعة والصدفة كما يدعي من أغلق عقله وقلبه عن بصيرة الحق كما في قوله تعالى:﴿ **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ**﴾، أي دلائل واضحة على وجود المقدّر والمدبّر، فلا يمكن تصور الحياة بدون هذا التعارف.

فنعم الخالق العظيم الذي خلق الأزواج من كل شيء؛ من أنفسنا بوصفنا بشراً، ومن الحيوان والطير والنبات، ومن الأشياء التي تحيط بنا من ماء وهواء وسحاب، ومن الذرات التي لا نراها بالعين المجردة، وهذا دليل بوحدة اليد المبدعة الموجدة، التي توجد قاعدة التوازن مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس والخصائص والسمات في هذه الأحياء التي مازال العلم في طور معرفتها واكتشافها.

ثالثاً: التوازن في سنة التغيير:

التغيير سنة من سنن الله في المجتمعات والأمم، والمراد منها: أنَّ الله يغير حال المجتمعات والأمم من حال إلى حال على وفق قانون يتجلّى فيه القوة والضعف والعز والذل والغني والفقر[2]، وصور توازنها في القرآن الكريم كما يأتي:

---

(1) سورة طه : الآية ٥.

(2) ينظر: المنجد ، محمد صالح ، سنن الله في خلقه، ط١ ، مجموعة زاد للنشر ، ١٤٣٧هـ ، ٣٥.

١- **التوازن ما بين قوة وضعف**: في قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ**﴾[١]، وهذا توازن للمراحل التي يمر بها الإنسان في حياته.

٢- **التوازن ما بين عز وذل**: في قوله تعالى: ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[٢]، هنا توازن الملكية الحقيقة لله تعالى في العزة بقوله: ﴿**وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ**﴾ بالإيمان والطاعة، وإزالة ملكه بقوله:﴿**وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ**﴾ بالكفر والمعاصي[٣].

٣- **التوازن ما بين غنى وفقر**: في قوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ**﴾[٤].

وسنة التغيير تمثَّلت في قوله تعالى:﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[٥]، وفي الآية تكريم لبني البشر؛ لأنَّ الله جعل التغيير القدريَّ في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في نواياهم وقلوبهم وسلوكهم وعملهم وأوضاع حياتهم التي يختارونها لأنفسهم[٦]، وهي إشارة واضحة للتوازن بين التغيير القدريَّ وهو بيد الله سبحانه وبين التغيير الواقعي في حياة الإنسان وهو من صنع يده، وقيل أيضاً هو أنَّ " سنته جرت أن لا يغير ما بقوم من الأحوال حتى يغيروا ما بأنفسهم من الحالات الروحية كأن يغيروا الشكر إلى الكفر والطاعة إلى المعصية والإيمان إلى الشرك فيغير الله النعمة إلى النقمة والهداية إلى الضلال والسعادة إلى الشقاء"[٧].

وسنة التغيير ثابته لا تتخلف، وعلى أساسها ترتفع المجتمعات وتنخفض وتحل النعم والنقم، وتتغير المكانة والمهانة، وتتغير حضارة المجتمع ازدهاراً أو انحطاطاً، وقوة وضعفاً وغنىً وفقراً وصحة وسقماً، وعلى أساسها يعاقب الله ويكافئ، وقد أبان الله سنة التغيير في قانون ثابت حدوث التغيير فيه مترتب على حدوث من البشر، سواء سلباً أم ايجاباً، فكل تغيير من البشر يقابله تغيير من الله، إن كان حسناً فحسن، وإن كان سوءً فسوء[٨].

والتغيير في القرآن الكريم يتمثل في الأنواع الآتية:

١- **التغيير من الحسن إلى السيء**:

---

(١) سورة الروم : الآية ٥٤.
(٢) سورة آل عمران: آية ٢٦.
(٣) ينظر: الطبرسي ، مجمع البيان، ٧٢٨/٢
(٤) سورة الروم : الآية ٣٧.
(٥) سورة الرعد : الآية ١١.
(٦) ينظر: سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ١٥٣٦/٣.
(٧) الطباطبائي ، الميزان ، ٣١٠/١١.
(٨) ينظر: المنجد ، سنن الله في خلقه ، ٣٦ – ٣٧.

في قوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[1] قيل :" إنَّ العقاب الذي يعاقب به الله سبحانه إنما يعقب نعمة إلهية سابقة بسلبها واستخلافها، ولا تزول نعمة من النعم الإلهية ولا تتبدل نقمة وعقابا إلاّ مع تبدل محله وهو النفوس الإنسانية، فالنعمة التي أنعم بها على قوم، إنّما أفيضت عليهم لما استعدوا لها في أنفسهم، ولا يسلبونها ولا تتبدل بهم نقمة وعقابا إلاّ لتغييرهم ما بأنفسهم من الاستعداد وملاك الإفاضة وتلبسهم باستعداد العقاب، وهذا ضابط كلي في تبدل النعمة إلى النقمة والعقاب"[2]، وقد يكون التغيير في الآية من السيء إلى الأسوأ، والتغيير في الحالتين يؤدي إلى سلب النعم، وهذا اختلال التوازن للفرد في نوازعه الباطنية من جهة ومع الأفراد والمجتمع من جهة أخرى.

وعليه فإنَّ تغيير النعم وزوالها خاضع لسلوك الإنسان العملي، في ما يفعل وما يترك، وهو توازن في استمرار النعمة أو زيادتها مع زوال النعمة أو نقصانها والفعل البشري.

٢- التوازن في التغيير من السيء إلى الحسن:

كما في قوله تعالى:﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[3]، تشير الآية إلى تذكير مهم للإنسان بعد حصول الانتصار، أن لا ينسى أيام ضعفه وعوامل النصر التي آزرته في ضعفه وانعدام قوته، فيتعهدها ويحافظ عليها ليبقى النصر ومكاسبه، ولينتقل من نصر إلى نصر، ولا يقف في مسيرة الزمان الصاعدة[4].

وتأييد النصر هنا بإبدال الضعف قوة، فبدّل الفقر والاستضعاف إلى غنى ورفاه، وهو خلاف التغيير السابق ففيه رفاهية الفرد في توازنه الحياتي مع الآخرين وزيادة إنتاجية الرزق والنصر والعزة.

المبحث الثاني :التوازن الكوني:

القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد دون سائر الكتب الدينية السماوية الذي يوجه الأنظار إلى الكون وما يضم من مخلوقات، ويختار أسماء سوره من كلمة واحدة فقط وبشكل دقيق يثير العقل والانتباه ويثير الحيرة والعجب كتسمية سور **(البقرة، المائدة، العنكبوت، النمل، النحل، الرعد، الزلزلة، النور، الشمس، الليل، النجم، القمر، البروج، التين، الإنسان)**، وبهذا فإنَّ القرآن الكريم يوّجه الإنسان للتحقق والبحث في كل كلمة وكل آية ومضمون الآيات بالروح التأملية نفسها والنظرة العلمية الدقيقة، وبهذه النظرة إلى مظاهر الطبيعة

---

(1) سورة الانفال : الآية ٥٣.
(2) الطباطبائي ، الميزان ، ١٠١/٩.
(3) سورة الأنفال : الآية ٢٦.
(4) ينظر : المدرسي ، من هدى القرآن ، ٤/ ٤٠.

وأسرار الكون الدقيقة، ويقسم بكائنات الطبيعة كالشمس والنهار والعصر ليفتح عينيه إلى ما وراء الطبيعة ويستدل بحركة المادة على محركها وهو الله سبحانه وتعالى ويستنتج منها المعادلات والحقائق والرؤية الفكرية الهادفة[١].

إنَّ الكون في اللغة: من الحدث، ويدل على حدوث شيء في زمن ماضٍ أو زمان راهن[٢]، وهذه الأحداث الزمانية والمكانية مبنية على التوازن الدقيق بين أجزائه في نظام محكم، وقد وضع الله سبحانه وتعالى للكون بما فيه من مخلوقات والأرض والسماء والشمس والقمر والجبال والوديان واليابسة والبحار، ومعادن وثروات في الأرض تحت تصرف الإنسان سخرها له.

وسيتطرق المبحث إلى التوازن الكوني عبر المطالب الآتية:

المطلب الأول: التوازن في خلق الكون:

وردت آيات قرآنية عدة في قصة بداية الكون وعلاقة السماء والأرض، والتوازن القائم في علاقة النظام الكوني في الخلق والإبداع مع النظام البشري في سلوكه وأفعاله، فلا نكاد نجد آية من القرآن الكريم تتحدث عن خلق السماوات والأرض وإبداعهما إلاّ ومعها ذكر ما يخص النظام البشري؛ "وذلك لأنّ الله تعالى خلق الأرض وما فيها من القوى المادية الطبيعية وجعل بينها تجاذباً طبيعياً تسير على وفق النظام الأحسن وحكمة متعالية لا يمكن التخلف عنها، وهي تتحرّك نحو الكمال المعدّ لها، فلو اختلت هذه الوحدة المجعولة بينها لاختل النظام الكوني ونتج منه خلاف المطلوب"[٣]، كما سيتبين من الآيات الآتية :

١- قال تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[٤]، الآية تخاطب الذين لا يؤمنون بالحجة عليهم من السير في الأرض لينظروا إلى كيفية بدء الخلق وأنشائهم على اختلاف طبائعهم وتفاوت ألوانهم وأشكالهم، وعدم تحديد في القدرة الإلهية فالخالق قادر على أنْ ينشيء الاخرة كما أنشأ الاولى[٥]،"وفي عصرنا هذا يمكن أن تبيّن هذه الآيات للعلماء معنى أعمق وأدق، وهو أن يمضوا ويلاحظوا الموجودات الحيّة الأولى التي هي في أعماق البحار على شكل فسائل ونباتات وغيرها، وفي قلب الجبال، وبين طبقات الأرض، ويطلعوا على جانب من أسرار بداية الحياة على وجه الأرض، ويدركوا عظمة الله وقدرته، وليعلموا أنّه قادر على إعادة الحياة أيضا"[٦].

---

(١) ينظر : العاملي، تفسير البيان الصافي لكلام الله الوافي ، ١/ ١٤ – ١٧ .
(٢) ينظر: ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ١٤٨/٥.
(٣) السبزواري ، مواهب الرحمن ، ٤/ ١٥٧.
(٤) سورة العنكبوت : الآية .٢٠
(٥) ينظر: الطباطبائي، الميزان، ١١٧/١٦.
(٦) الشيرازي، الامثل، ٣٦٠/١٢.

٢- في قوله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾[١]، ومعنى ﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاها بِأَيْدٍ**﴾، ومعنى (الأيد) هي: القوة، ولعل كلمة البناء توحي بالتدريج في الخلق والمتانة فيه، والتكامل والصلة بين جزء وجزء فيما بني، وقوله :﴿**وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾، أي إنّا لقادرون، إلّا ان هذا التوسع العظيم لا يجري من دون تدبير وهيمنة من لدن سلطان العالم الذي يحفظ توازنه، ويدبر أموره سبحانه، وهذا ينسجم مع الحقائق العلمية التي تميل إليه الأبحاث الرياضية اليوم [٢]. في أحدث اكتشاف يشهد للقرآن الكريم بالسبق، وقد نال أصحابه جائزة نوبل في الفيزياء سنة ٢٠١١، يعلن أنَّ " الكون على مستوى المجرات البعيدة يبدو في توسع يتسارع مع الأبعاد مما يؤكد أنَّ له ابتداء؛ يعني لحظة خلق، وهو ما أعلنته مسبقاً نظرية الانفجار الكبير، وأكّده هذا الاكتشاف الجديد باستعمال وسائل أحدث" [٣].

وقد اضطر العالم الفيزيائي ستيف هوكنج إلى " الاعتراف دافعاً الفوضى بقوله: ليس كل تأريخ العلم إلاّ التحقق التدريجي من أنَّ الأحداث لم تقع بطريق اعتباطية، وطعن في الالحاد بقوله: طالما أنَّ للكون بداية فحتما لابد من خالق "[٤]

لقد دفع إتقان التصميم الكوني، العالم الفيزيائي روس إلى الاعتراف بقوله صريحاً:" عندما أبحث عن شخص إلحادي لأناقشه أذهب إلى قسم الفلسفة في الجامعة، لأنّه لم يبق شيء يدل عليه"[٥].

٣- وقوله تعالى:﴿**أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا**﴾[٦]، قوله: **(بَناها)**،" البناء ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض حتى يتكون بناء واحد، وهكذا صنع الله الكواكب، ووضع كل كوكب في مكان على نسبة من الكوكب الآخر يتجاذبان ويتماسكان وهذا ما تميل إليه الأبحاث الرياضية اليوم المجموع بناء واحدا يسمى سماء"[٧]، وهذا هو معنى قوله تعالى:﴿**رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها**﴾، أي رفع أجرامها فوق رؤوسنا فعدلها بوضع كل جرم في موضعه، والبناء يوحي بالقوة والتماسك ، والسماء كذلك متماسكة، لا تختل ولا تتناثر نجومها وكواكبها، ولا تخرج من أفلاكها ومداراتها، ولا تتهاوى ولا تتصادم فيما بينها ولا تنهار، فهي بناء ثابت وطيد متماسك الأجزاء[٨].

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٤٧.
(٢) ينظر: المدرسي ، من هدى القرآن ، ١٤/٦٠ - ٦١
(٣) بوعياد ، صباح ادريس ، الاستخلاف والعلم في القرآن،١٣ بحث في المكتبة الشاملة http://www.shamela.ws
(٤) المصدر نفسه، ١٣.
(٥) بوعياد ، الاستخلاف والعلم في القرآن الكريم،١٤.
(٦) سورة النازعات : الآيات ٢ – ٢٨.
(٧) رشيد ، المنار ، ٦/٣٣٢.
(٨) ينظر : سيد قطب، في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٨١٦.

٤- في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ**﴾[١]، وبكل ما توحي به الآية من عظمة الخلق، وجلال الصنع، ودقة النظام، وروعة الإبداع، لأنَّ الله سبحانه وتعالى في قدرته المطلقة، لا يعرض على ما يعرض على المخلوقين من جهد وعناء، فلا يعجزه شيء من مخلوقاته، كما لا يعجزه الخلق نفسه بكل ما فيه من جوانب العظمة والإبداع[٢].

٥- وقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ**﴾[٣]، ﴿**نُّعِيدُهُ**﴾[٣]، "وذلك هو المظهر الحيّ لقدرة الله، في ما يوحي به من سيطرته المطلقة على الكون كله، فيتصرف به كما يشاء فلا ينتقص من قدرته شيء، في ما يألفه الناس وما لا يألفونه، وبذلك فإنَّ الله قادر على أن يبعث الناس من الموت، فيعيدهم إلى الحياة، كما خلقهم من العدم"[٤].

٦- قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[٥]، لقد وضّح السيد السبزواري (ت١٤١٣هـ) هذه الآية الآية فقال: تأثير العناصر السماوية في العناصر الأرضية؛ "ولقد نزل القرآن الكريم في هذه الظروف وكان أولّ همه إرجاع الإنسان إلى وجدانه ووعيه عن طريق التأمل والتفكر في ما حوله من الأشياء وأحكمه بأشد الإحكام، وذم التقليد والعصبية في الآراء، وبذلك بيّن الطريق المستقيمة الذي يوصل الإنسان إلى الكمال والهداية عن غيره، وفي الوقت نفسه حدّد علاقة الإنسان بالطبيعة، وهي بالإله، وبيّن بوضوح حقيقة الطبيعة وموقف الإله منها بأسلوب بياني رائع يقبله الطبع السليم، وكان له القول الفصل في ذلك"[٦]، وعلى الإنسان أن يربط وجود الله بكل ما يحيط به، فيكون كل شيء في الكون دليلا على وجود الله سبحانه وتعالى.

هذه الآيات القرآنية تتحدث عن بداية خلق الكون، وقد جاءت متفرقة في سور مختلفة من القرآن الكريم، ولكنها بمجموعها تروي قصة المراحل المهمة التي مر بها الكون حتى وصل إلى ما هو عليه الآن[٧].

إنَّ المتفق عليه اليوم في الدوائر العلمية أنَّ المعرفة الانسانية؛ معرفة نسبية، وكلما ازداد علم الإنسان بما حوله على الأرض، أو في الكون عامة ، كلما تيقن بوجود مجاهيل

---

(١) سورة ق : الآية ٣٨.
(٢) ينظر: فضل الله ، من وحي القرآن ، ١٨٨/٢١.
(٣) سورة الانبياء : الآية ١٠٤.
(٤) فضل الله ، من وحي القرآن ، ٢٧٤/١٥.
(٥) سورة البقرة : الآية ١٦٤.
(٦) السبزواري، مواهب الرحمن ، ٢/ ٣٠٣.
(٧) ينظر : دفضع ، بسام ، الكون والانسان بين العلم والقرآن ، مطبعة الشام ، دمشق – سوريا ، ١٤١١هـ ، ١٩.

جديدة لم تكن في حسبانه، وتكشف في الوقت نفسه أمامه عن غوامض عديدة ما زالت بحاجة الى البحث والاكتشاف.

ولكي تتضح صورة هذا التوازن فإنّه سيتطرق المبحث إلى التوازن الكوني عبر المطالب الآتية:

المطلب الثاني : التوازن في خلق السماوات والأرض:

إنَّ لفظة السماء وردت في المعاجم اللغوية وذكرها الخليل الفراهيدي(ت ١٧٥هـ) فقال:" سما الشيء يسمو سمواً أي ارتفع وسما إليه بصرك أي ارتفع بصرك إليه واذا رفع لك شيء من بعيد فاستبنته قلت سما لي شيء والسماء سقف كل شيء وكل بيت، والسماء المطر الجائد يقال أصابتهم سماء وثلاث أسمية والجميع سميّ والسماوات السبع أطباق الأرضين والجميع السماء والسماوات "[١].

وقد احتلت لفظة السماء مكانتها بين ألفاظ الطبيعة، وهذا نابع من اهتمام الإنسان وتفكره بها، ولا يخفى ما للسماء من أهمية في حياة الإنسان، والسماء السقف المحفوظ، وهي كل ما علانا، وتبدأ بالغلاف الجوي الهوائي للأرض، فالفضاء، فأجرام السماء مثل النجوم والمجموعات النجمية والسدم* والمجرات والأقمار والكواكب والمذنبات والنيازك والغبار الكوني، وجميع هذه سماء، وهذه السماء محفوظة بكيانها، ومتماسكة لا خلل فيها، وهي محفوظة من أن تقع على الأرض، أو يقع شيء منها[٢].

قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا**﴾[٣]، أي إنّه تعالى نظّم السماء وجعلها كالسقف المحفوظ من الاختلال وعدم النظام، فقد حفظت الشمس والكواكب في مداراتها بحيث لا يختلط بعضها ببعض، بل جعلت فى أماكنها الخاصة بها بقوة الجاذبية[٤].
الجاذبية[٤].

وقال تعالى: ﴿**وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾[٥]، أي إنَّ الله يمسك أجرام الكواكب من شمس وقمر وكواكب نيرات بنظام الجاذبية، إذ جعل لكل منها مداراً خاصاً بها لا تعدوه بحال، ولا تزال كذلك ما بقيت الحياة الدنيا، حتى إذا اقتربت الساعة اختل نظامها وانتثرت في الفضاء كما في قوله سبحانه: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۞ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ**﴾[٦]، ولولا هذا النظام الخاص لاصطدمت الكواكب العظيمة بعضها

---

(١) الفراهيدي ، العين ، ٧/ ٣١٩.

(٢) ينظر : دفضع ، الكون والانسان بين العلم والقرآن ، ٨٩.

*السديم : هي اشكال سحابية تنتشر في الكون واطلق عليها قديما اللطخة السحابية ، وانتشارها يكون بشكل غير منتظم مكون من غاز متخلخل من عنصري الهيدروجين والهليوم وغبار كوني ، وقيل من مصاديقه في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ**﴾، ينظر: مرتضى ، عبدالله ، العطية ، باسم محمد حسين، الفلك والنجوم ، موسوعة اهل البيت الكونية ، ط١ ، سحر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان ، ١٤٢٣هـ ، ١٣١.

(٣) سورة الانبياء : الآية ٣٢.

(٤) ينظر: الخطيب،عبد الكريم محمود(ت ١٤٠٦هـ)،التفسيرالقرآنى للقرآن،ط١،دارالفكر العربي،بيروت،١٣٩٠هـ، ٨٧٠/٩.

(٥) سورة الحج : الآية ٦٥.

(٦) سورة الانفطار: الآيات١ – ٢.

ببعض، وفسد العالم الأرضي، ولم يعش على ظهر البسيطة إنسان ولا حيوان[1] وقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾[2]، قيل "رفع السماوات هو فصلها من الأرض فصلا يتسلط به على الأرض بإلقاء أشعتها وإنزال أمطارها وصواعقها عليها وغير ذلك فهي مرفوعة على الأرض من غير عمد محسوسة للإنسان تعتمد عليها فعلى الإنسان أنْ يتفطن أنَّ لها رافعا حافظا لها أنْ تتحول من مكانها ممسكا لها أنْ تزول من مستقرها"[3].

من هنا فالتوازن في تكوين السموات والأرض من ضوابط الإعجاز الكوني.

المطلب الثالث: التوازن بين الشمس والقمر:

إنَّ التوازن بين الشمس والقمر لها أكثر من صورة في القرآن الكريم ويمكن بيانها في الآتي:

أولاً: التوازن في حركة الشمس والقمر:

كل شيء في السماء يتحرك ويسير على وفق مسافات ثابتة لا تتغير نظمها خالق كل شيء بتوازن لا يشوبه اضطراب فقال سبحانه: ﴿**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى**﴾[4]، وفي قوله عز وجل :﴿**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾[5]، ﴿**مُّسَمًّى**﴾[5]، وفي إضاءة لطيفة من إضاءات القرآن في هاتين الآيتين؛ فهما تشتركان في إظهار قدرة الله في توازن جريان وسير الشمس والقمر في استقرار منتظم، ولكن في الأولى قال:(**لِأَجَلٍ**)، وقد وردت في ثلاث سور في القرآن الكريم هن **(الرعد وفاطر والزمر)**، وفي الثانية قال: **(إِلَىٰ أَجَلٍ)** التي وردت مرة واحدة في القرآن بهذه الصيغة، واستعمل لام التعليل في **(لِأَجَلٍ)**، لبيان علة جريان الشمس والقمر؛ لأن سياق الآيات هو استقرار النظام الكوني وتوازنه، ويبرز معنى الوصول للهدف النهائي والغاية من هذا الجريان، كل يجري لبلوغ الأجل.

أما في قوله: **(إِلَىٰ أَجَلٍ)**، فتفيد الانتهاء أي تدل على الغاية ونهاية الشيء؛ لأنَّ سياق الآيات نهاية الدنيا وهو البعث وقيام الساعة وتبرز معنى المدة المحسوبة لجريان الشمس والقمر، وتلكَ إشارة إلى ذكر سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص الباري بها[6]، وهذا نوع آخر من التوازن وهو دقة اختيار الحرف مع الحدث المناسب للسياق القرآني

---

(1)ينظر:تفسيرالمراغى،محمد بن مصطفى(ت١٣٦٤هـ)،تفسير المراغي،ط١،داراحياءالتراث العربي،بيروت،(د ت)،١٣٨/١٧.

(2) سورة الرعد : الآية ٢.

(3) الطباطبائي ، الميزان ، ٢٨٧/١١.

(4) سورة الرعد : الآية ٢.

(5) سورة لقمان : الآية ٢٩.

(6) ينظر: البيضاوي، عبد الله بن عمر(ت٦٨٥هـ) ، أنوار التنزيل و أسرار التأويل ، تح محمد عبد الرحمن المرعشلي ، ط١ ، دار احياء التراث ، بيروت – لبنان ، ١٤١٨هـ ، ٤/ ٢١٧ .

وفي قوله :﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾[1]، قيل في جريان الشمس ثلاثة أقوال هي:

١- "حركة الشمس الموضعية حول نفسها.
٢- حركة الشمس الطولية مع المنظومة الشمسية باتّجاه نقطة محدّدة في السماء.
٣- وحركتها الدورانية مع المجرّة التي تتبعها و بذا ثبتت معجزة علمية أخرى للقرآن"[2].

وكلّ هذه المعاني المشار إليها لا تتضارب فيما بينها، ويمكن أن تكون كلمة **(تَجْرِي)**، إشارة إلى جميع تلك المعاني ، ومعانٍ أخرى لم يصل العلم إلى كشفها، وربما تكشف في المستقبل[3]، و**(تَجْرِي)** من الأصل جرى: وهي الحركة المنظمة الدقيقة في طول مكان[4].

وعليه فإنَّ التوازن في حركة الشمس مع الحياة في الأرض في القول بأي نوع من أنواع هذه الحركات هي صانعة للحياة بهذا الجريان، وبذا يكون القرآن ناظرا لجميع أنواع الحركات للشمس في الوقت الحاضر وفي المستقبل لاكتشاف أمور أخرى لم يصل العلم الى اكتشافها.

ثانياً: التوازن في الابعاد المنتظمة والمواقع الثابتة بين الشمس والقمر:

إنَّ هناك قانوناً يضبط سير الشمس والقمر وحتى سير النجوم والأفلاك في السماء، ويمنع أي جرم سماوي أنْ يُوَسّع من حيز وجوده وحركته الذي أعطي له فيطغى على حيز جرم أخر فيؤدي إلى التصادم معه، وهذا ما أشار اليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ**﴾[5]، التي قيل في تفسيرها" ولعل الآية أشارت أوّلا إلى ثبات نظام الدورة السنوية للشمس، ثم أشارت الى ثبات نظام الليل و النهار، وقوله: ﴿ **وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾، أي كلٌ من الشمس والقمر والكواكب والنجوم تتحرك بسرعة في أفلاكها، ولكن من دون أن تحيد عن النظام القائم قيد شعرة، أو ليس في ذلك دليل على عزة الرب، ودقة صنعه، وحسن تدبيره، ولطف إجرائه للسنن التي قدّرها؟ والفلك هو الجسم الدائري، وهكذا تكون في الآية إشارة إلى الحركة الدائرية للأجرام السماوية"[6].

وإنَّ هذا القانون ينظم المسافات بين الشمس والقمر وحتى باقي الأجرام السماوية ضمن أبعاد ثابتة ، تتعاقب في حركتها بتوازن فلا تقديم ولا تأخير.

والخلاصة إن الإنسان لابد من أنْ يتصور في كل أرجاء الكون توازناً كونياً شاملاً بنحو الإجمال والقرآن الكريم أخبر عن ذلك في آياته، بعدها عليه أنْ يمضي الإنسان قُدما

---

(١) سورة يس : الآية ٣٨.
(٢) الشيرازي ، الامثل ، ١٤/١٨٨.
(٣) المصدر نفسه ، ١٤، ١٨٨.
(٤) ينظر مصطفوي ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ٢/٩١.
(٥) سورة يس : الآية ٤٠.
(٦) المدرسي ، من هدى القرآن ، ١١/١٣٣.

لاكتشاف ما يمكنه اكتشافه وفتح مغاليق منها لتتم بذلك حركية الإنسان وفعاليته، ويتحقق له بذلك مسير متكامل فعّال[١].

ثالثاً: تسخير الشمس والقمر:

إنَّ من ثمرات حركة الشمس والقمر وانتظام الأبعاد بينهما في توازن لا يحيد إحداهما عن الآخر، حتى يستطيع الإنسان الانتفاع بكثير مما يسره الله تعالى له من النعم بعد أنْ ظهرت له بعض التوازنات القائمة في الأرض والسماء، والتي تمكنه من تذليل الصعوبات التي تواجهه في الحياة، والتي استطاع بموجبها تصنيع الأجهزة والمعدات والوسائل الحديثة التي تناسب احتياجاته، وإنشاء حضارة مدنية فيها مقومات العيش الكريم، ومن أسبابها التسخير الذي يُعد من مظاهر التكريم الإلهي للإنسان؛ إذ جعل الله سبحانه وتعالى كل الموجودات في خدمته، وذللّها له لتحقيق منافعه ومصالحه.

كما في قوله: **﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾**[٢]، وفي هذا تسخير الشمس والقمر حقيقة الاتزان الدقيق في ضبط حركة الحياة على الأرض بما توفره الشمس من الضوء والحياة في حركة وحياة الكائنات اثناء النهار، وارتباطها بمصالح الناس كما في قول سبحانه: **﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾**[٣]، أي جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً، حتى يتمكن الناس من التصرف في الذهاب والمجيء للمعايش والتكسب والتجارات وغير ذلك، وقوله: **﴿دَائِبَيْنِ﴾**، والدأب العادة المستمرة دائما على حالة، قال تعالى:**﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾**، أي كعادتهم التي يستمرون عليها[٤].

المطلب الرابع : التوازن في الليل والنهار:

إنَّ الظواهر الكونية المتعلقة بتعاقب الليل والنهار ترتبط بجنبة مهمة في حياة الإنسان من رزق، وخير وسعي وكد ومصلحة، ومن فوائد ومنافع اختلاف الليل والنهار، واختلاف الفصول، وتحديد ومعرفة الأوقات والآجال، والتي لا تستقيم حياة الإنسان لولا معرفتها في توازن وتنظيم المعاش والأعياد والأسفار والعبادة، وجل المعاملات قائمة عليها، وهذا تجلى في كثير من الآيات نذكر منها:

قال تعالى: **﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**[٥]، إنَّ الولوج هو دخول شيء في في شيء بحيث يستره، وسمّي السباع والحيات الوالجة لأنّها تلج وتستتر بالنهار في كهف أو شعب أو حجر أو غيرها[٦]، وقد ورد في تفسير الآية آنفاً: " فيتفاوتان بالزيادة والنقصان والنقصان بحسب مواقع الأرض والزمان، فنشاهد من أوّل الشتاء إلى أوّل الصيف يأخذ

---

(١) ينظر: التسخيري، من الظواهر العامة في الاسلام ، ٦٣.
(٢) سورة ابراهيم : الآية ٣٣.
(٣) سورة الاسراء : الآية ١٢.
(٤) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٦٠/١٢.
(٥) سورة آل عمران : الآية ٢٧.
(٦) ينظر : مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ١٠٥٥.

الليل بالزيادة والنهار بالنقيصة على حساب منظم، وهذا هو ولوج النهار في الليل، ثم تأخذ الليالي بالنقيصة والنهار بالزيادة من أوّل الصيف إلى أوّل الشتاء، وهذا هو ولوج الليل في النهار، ويختلف ذلك على سبيل التعاكس في المدارات الشماليّة والمدارات الجنوبيّة"[١].

وقوله: ﴿ **وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ** ﴾، قيل الموت والحياة متقابلان ومعلومان لكل ذي حياة وموت حسب استعداده وقابليته، وعملية الخروج هي: خروج النباتات التي لها حياة نباتيّة من الأرض الميتة، ومنها أيضا خروج الإنسان من النطفة ثم موته بعد مدة، ومنها خروج المؤمن من صلب الكافر، وخروج الكافر من صلب المؤمن، فإن الإيمان أعظم أقسام الحياة، والجملة في مقام التعليل أيضا، أي: أنَّ إعطاءه الملك والعزّة والخير من صغريات رزقه الذي يرزق به من يشاء بغير حساب في الكميّة أو الكيفيّة وعدم المداقة، بل من كلّ جهة، والرزق في الآية: هو العطاء المستمر، وهو على نوعين ظاهري للأبدان كالأقوات، وباطني للقلوب والنفوس، كالمعارف والعلوم، فكما أنّه يشمل المال والجمال والكمال، وكلّ ما هو دائر في الاجتماع من الخير، والرزق إنّما هو فضل منه سبحانه وتعالى يعطيه بلا مقابل وعوض، وأنَّ عمومه يشمل المؤمن وغيره[٢].

إنَّ التوازن في الآية اتخذ ثلاثة أبعاد، البعد الأول هو التوازن في القدرة الإلهية في دخول الليل في النهار بانتظام ودقة عجيبة لا تختل، وفي اطراد لا يتخلف قدرة الخالق جل وعلا، والبعد الثاني في توازن الموت والحياة على امتداد وجود الكون، والبعد الثالث للتوازن هو الرزق المستمر بغير حساب وتقدير .

المبحث الثالث : التوازن البيئي:

تُعدّ البيئة مفهوماً شاملاً لجميع الظروف والعوامل الخارجية التي تعيش بها الكائنات الحية وتكون ذات تأثير في العمليات التي تقوم بها.

وتمثل البيئة للإنسان الوسط الذي يعيش فيه، والتي تحوي على عناصرها الثلاث **(التربة والماء والهواء)** وما يتضمنه كل عنصر منها من مكونات، جماد وكائنات تنبض بالحياة، وهي الحضن الواسع الذي يضم في داخله مختلف المكونات[٣]، كما في قوله تعالى:﴿**وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ**﴾[٤].

والبيئة في اللغة مشتقة من الفعل : باءَ وبوأ يبوء، قيل : أباءَه منزلاً، ووبوّأه إياه، وبوّأ له وبوّأ فيه، بمعنى هيأه له وأنزله ومكَّنَ له فيه، وقيل منزل القوم في كل موضع[٥].

وعُرّفت البيئة في الاصطلاح بأنّها: "المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان، يتأثر به ويؤثر فيه بكل ما يتضمنه هذا المجال المكاني من عناصر ومعطيات سواء كانت من

---

(١) السبزواري ، مواهب الرحمن ، ٥/ ٢١٧.
(٢) ينظر : المصدر نفسه ٥/٢١٨.
(٣) ينظر: معروف، محمد علم الدين، مضامين التربية البيئية في القرآن الكريم، جامعة افريقيا العالمية، السودان، ١٤٣٣هـ، ٢٢.
(٤) سورة الحجر : الآية ١٩.
(٥) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مادة بوأ ، ١/٣٨.

خلق الله سبحانه وتعالى، كالصخور وما تحتوي من معادن ومصادر وقود والتربة والتضاريس وموارد المياه وعناصر المناخ من حرارة وضغط ورياح وأمطار إضافة إلى النبات الطبيعي والحيوانات البرية، أو معطيات من صنع الإنسان من ممرات وطرق ووسائل نقل واتصال ومزارع ومصانع وسدود وغيرها"[١].

وقيل: في تعريفها" إنها ذلك الإطار الذي يحيا فيه الإنسان، ويحصل منه على مقومات حياته، ويمارس فيه علاقته مع بني البشر"[٢].

أما تعريف التوازن البيئي فهو: "استمرار أو بقاء عناصر البيئة الطبيعية على حالتها دون تغير جوهري يذكر في خصائصها سواء الكمية أو النوعية"[٣].

ويبدو للباحثة إن التوازن البيئي في بقاء عناصر البيئة الطبيعية واستمرارها يكون بلحاظ تألفها وتفاعلها مع الوسط ، وبتخلف أي عنصر منها يؤدي إلى انهيار ذلك الوسط.

من هنا يتضح إن هناك بيئة طبيعية تضم العناصر الحية وغير الحية، وبيئة مشيدة انتجها الإنسان خلال تفاعله وتعايشه مع بيئته الطبيعية، وأنَّ البيئة بشقيها الطبيعي والمشيدة متوازنة في إطارها الكلي وهي الكرة الأرضية، ومما يجدر أن يضاف إلى مكونات البيئة ويُعد اضافة حقيقية تسهم في توسع مفهوم البيئة هي المكونات الغيبية من حولنا، " فالبيئة المحيطة بالإنسان ليست محصورة في المجتمع الإنساني الذي يعيش فيه، ولا فيما يحيطه من بيئة طبيعي، ومواد خام، وأشياء زمانية ومكانية، بل البيئة أشمل من ذلك، فهي تشمل ضمن ذلك الملائكة والجن، وإبليس وجميع المخلوقات الأخرى حول الإنسان "[٤].

الإنسان هو المكلّف باستثمار البيئة والانتفاع بها، وواجب الحفاظ على توازنها من الاختلال، لأنّه خليفة الله فيها كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾[٥]، وقد عنى الإسلام بالبيئة عناية كبيرة، وحث على الاهتمام بها والمحافظة عليها وشرع لتحقيق ذلك كماً كبيراً من التشريعات التي تهدف إلى تحقيق الاستقرار والتوازن البيئي، وعدّ القرآن الكريم حماية البيئة ورعايتها مسؤولية الجميع، وهي أمانة في أعناق الناس يتحملون وزر التقصير في أدائها أمام الله سبحانه تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾[٦].

ومن أجل بيان أبعاد التوازن البيئي فإنَّ البحث سيقف على أهم موارد البيئة وعناصرها التي توفر ديمومة الحياة للكائنات الحية في توازن دائم عبر المطالب الآتية :

---

(١) الزيدي، ياسر كاصد،الطبيعة في القرآن الكريم، الدارالوطنية للتوزيع والنشر، العراق - بغداد، ١٤١٠هـ،٤٥

(٢) ينظر : معروف ، مضامين التربية البيئية في القرآن الكريم ، ٢٢.

(٣) الراوي،ساطع محمود، تلوث البيئة في الشريعة الاسلامية،مجلة دراسات اسلامية،العدد ٩،السنة الثالثة ، ١٤٢٣هـ، ١٢٤.

(٤) معروف ، مضامين التربية البيئية في القرآن الكريم ، ٢٤.

(٥) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٦) سورة الاحزاب: الآية ٧٢.

المطلب الأول : نظرة القرآن للبيئة :

إنَّ القرآن الكريم ينظر إلى توازن البيئة نظرة حماية ووقاية ومنع الإفساد فيها بغية المحافظة على الموارد الطبيعية وإدامة الحياة بالأعمار فيها كما في قوله تعالى: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾[١].

والآية تشير إلى مفهومين هما: النشأة والاستعمار، والنَشْءُ والنشْأة هو: إحداث الشيءِ وتربيته ، والإنشاء إيجاد الشيء وتربيته ، وأكثر ما يقال ذلك في الحيوان[٢]، كما في قوله تعالى:﴿ **قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ**﴾[٣].

أما العمارة فهي ضد الخراب يقال: عَمَّر أرضه يعمرها عمارة كما في قوله تعالى:﴿**وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ**﴾[٤]، يقال: عمرته فعمر فهو معمور قال سبحانه:﴿**وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها**﴾[٥]، وقوله: ﴿**وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ**﴾[٦] وأعمرته الأرض واستعمرته إذا فوضت إليه العمارة ، كما في آية البحث في قوله: ﴿**وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها**﴾، والعمارة هي حفظ البناء[٧]، وقيل: "العمارة تحويل الأرض إلى حال تصلح بها أنْ ينتفع من فوائدها المترقبة منها كعمارة الدار للسكنى والمسجد للعبادة والزرع للحرث والحديقة لاجتناء فاكهتها والتنزه فيها، والاستعمار هو طلب العمارة بأنْ يطلب من الإنسان أنْ يجعل الأرض عامرة تصلح لأن ينتفع بما يطلب من فوائدها"[٨].

وكلام الآية يفيد الحصر أنّه تعالى هو الذي أوجد على مادة الأرض هذه الحقيقة المسماة بالإنسان، وكمَّلها بالتربية شيئا فشيئا وأفطره على أنَّ يتصرف في الأرض بتحويلها إلى حال ينتفع بها في حياته، ويرفع بها ما يتنبه له من الحاجة والنقيصة أي إنَّ الانسان لا يفتقر في وجوده وبقائه إلاّ إليه تعالى، والاستغفار هنا على وجه التفريع أي فإذا كان الله تعالى هو الذي يجب عليكم أنْ تعبدوه وتتركوا غيره لكونه هو خالقكم المدبر لأمر حياتكم فاسألوه الغفران لمعصيتكم، وارجعوا إليه بالإيمان به وعبادته، إنّه قريب مجيب[٩] .

وكأنَّ التوازن هنا بين إنشاء الإنسان واستعمار الأرض من جهة وبين استمرار هذا الخير الوفير وهو صنع الخالق؛ بالاستغفار والتوبة، من جهة أخرى قال تعالى:﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**﴾.

وعمارة الأرض وديمومة هذه النعم إحدى طرق توازنها وبقاء نعمها هو بالرجوع الى الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة هود: الآية ٦١.
(٢) ينظر : الراغب ، مفردات الفاظ القرآن ، ٨٠٧.
(٣) سورة الملك : الآية ٢٣.
(٤) سورة التوبة : الآية ١٩.
(٥) سورة الروم : الآية ٩.
(٦) سورة الطور : الآية ٤.
(٧) ينظر: الراغب ، مفردات الفاظ القرآن ، ٥٨٦.
(٨) الطباطبائي ، الميزان ، ٣٠٩/١٠.
(٩) ينظر: المصدر نفسه، ١٠/ ٣١٠ – ٣١١.

ونستفيد من الآيات المختلفة في القرآن، ومنها الآية آنفاً، أنّ الإيمان والتقوى والاستغفار سبب في فتح بركات السماء في عمران المجتمعات، والكفر والظلم والخطايا سبب للدمار واختلال التوازن .

ومع هذه الامتيازات التي حصل عليها الإنسان من التمكين في الأرض واستعمارها وتسخير كل شيء فيها لرفاهيته، إلاّ أنه هو أحد مظاهر الفساد لهذه البيئة عبر استغلاله لبيئته استغلالاً مسرفاً يصل إلى حد الإتلاف والهلاك والفساد.

قال تعالى: **﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾**[1]، والتولي هو تملك الولاية والسلطان، والسعي يأتي بمعنى المشي السريع دون العدو، قال تعالى: **﴿فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى﴾**[2]، ويستعمل في الجد والاجتهاد، وفي كل من الخير والشر[3]، قال تعالى: **﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى﴾**[4]، والمراد هنا" أنّه إذا تولّى وصارت له الولاية في بلد من البلاد وتسلّط على الناس أظهر الظلم والفساد فيحدث بسوء ظلمه في الرعية ظلمة البلاد فيهلك الحرث والنسل، أي فساد الأرض والناس بأنواع الظلم والطغيان وأساليب الفتن والخراب وضروب الإيذاء "[5].

والفساد هو: "خروج الشيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروج عنه أو كثيرا"[6]، والفساد تلف وعطب واضطراب وخلل[7].

قال السيد الطباطبائي(ت١٣٤٤هـ) في معنى الفساد: هو الفساد المتعلق بالتشريع فإنَّ الله إنَّما شرع ما شرعه من أحكام الدين ليصلح به أعمال عباده فيصلح أخلاقهم وملكات نفوسهم فيتوازن بذلك حال الإنسانية والجامعة البشرية، وعندها تسعد حياتهم في الدنيا وحياتهم في الآخرة، فهذا الذي يخالف ظاهر قوله باطن قلبه إذا سعى في الأرض بالفساد، فإنما يفسد بما ظاهره الإصلاح بتحريف الكلمة عن موضعها، وتغيير حكم الله عما هو عليه، والتصرف في التعاليم الدينية، بما يؤدي إلى فساد الأخلاق واختلاف الكلمة، وفي ذلك موت الدين، وفناء الإنسانية، وفساد الدنيا[8].

وهذه إشارة إلى نوع واحد من الفساد الذي يؤدي إلى هلاك الحرث والنسل، وقد صنف السيد السبزواري (ت ١٤١٣هـ) الفساد إلى صنفين ينتج عنها هذا الهلاك وهما:

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٥.
(٢) سورة طه : الآية ٦٦.
(٣) ينظر:السبزواري ، مواهب الرحمن ،٢٣٢/٣.
(٤) سورة النجم : الآية ٣٩.
(٥) السبزواري ، مواهب الرحمن ، ٢٣٢/٣.
(٦) الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ٦٣٤.
(٧) ينظر: مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ٦٨٨.
(٨) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٢ / ٩٧.

١- فساد يكون بسبب الاختلال في الأسباب الطبيعية من القتل والنهب والتعطيل لأعمال الناس وأنحاء الخراب بصورة كليّة أو جزئية، فتهلك المزارع وتُعطّل الصّنايع، وتظهر البطالة بين الناس ويختل توازن الأمور على كل حالة.
٢- فساد يكون بسبب كثرة المعاصي وإفشاء الظّلم، فتمنع السّماء بركاتها وتحبس الأرض خيراتها، وتنزل النقم والبلايا، والآية الكريمة في شمول للفساد المعنوي أيضا، وهو تحريف الشرائع الإلهية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى لإصلاح النفوس وتهذيبها بالأخلاق الفاضلة، واعتدال أحوالها، وسعادة الإنسان في الدّارين، فيدل هذا المعنى إنّ المراد بالحرث والنّسل هما: **(الدّين و الإنسانية)** ، والآية في المقام تشمل كلا القسمين من الفساد، لإطلاقها وعدم تقييدها بقسم دون آخر[١].

وهذا ينطبق على قوله تعالى: **﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**[٢].

والقسم الثاني أهم وأعظم من الأول، بل يكون كالنتيجة لما يحصل من ظلم الناس ومعاصيهم، وقد حذّرنا الله سبحانه تعالى من ذلك في القرآن الكريم بأساليب عدة في بيان كيفية تأثير المعاصي[٣].

وعلى الرغم من تعدد معاني كلمة (الفساد)، إلاّ أنّها تتضمن كل المعاني المادية والمعنوية التي تنتج عن سلوك الانسان التخريبي تجاه نفسه وبيئته.

المطلب الثاني :التوازن المنظم في موارد اليابسة والماء:

إنَّ في استمرارية بيئة جغرافية بتوازن في نظامها الايكلوجي* يكاد يكون أمراً مستحيلاً، وذلك لتدخل الإنسان في اختلال هذا النظام الذي يحكم العلاقة بين المكونات الحية وغير الحية وخلق حالة من عدم التوازن والتي قد تتفاوت من مكان لآخر بسبب طبيعة العوامل المؤدية إلى إحداث هذا الخلل فاستغلال الإنسان لبعض موارد بيئته الطبيعية بصورة عشوائية أو مكثفة، لإنتاج الطاقة أو انتاج صناعات مختلفة خلق بيئات مختلفة؛ أخلَّ بنظامها الأيكلوجي وأصبح من المشاكل التي تواجه الإنسان[٤].

لقد أشار القرآن الكريم إلى البيئة الطبيعية التي تشمل الشمس والرياح والحرارة والسحاب والرطوبة والأمطار في قوله تعالى: **﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾**[٥]، أي له ملك ما في السماوات وما في الأرض وتدبيرهما

---

(١) ينظر: السبزواري، مواهب الرحمن، ٣/٢٣٣-٢٣٤
(٢) سورة الروم : الآية ٤١.
(٣) ينظر: السبزواري ، مواهب الرحمن ، ٣/ ٢٣٣.
*النظام الايكلوجي هو ما يطلق عليه علم البيئة أو علم الاحياء البيئي وهو أحد فروع البيولوجيا أو علم الأحياء يدرس علاقة الكائنات الحية مع بعضها البعض، ومع محيطها أو بيئتها، وهي علاقة تتسع لتشمل كل ظروف البقاء في عمليات مستمرة في حالة توازن داينميكي، مالم يخل بهذا التوازن.
(الموسوعة الجغرافية المصغرة،http://www.moqatel.com>geography).
(٤) ينظر : الزيدي ، الطبيعة في القرآن الكريم ، ١٢٨.
(٥) سورة طه : الآية ٦.

وعلمهما فهو مالك كل شيء ومدبره وقوله: ﴿**وَما بَيْنَهُما**﴾ يعني الهواء، وقوله: ﴿**وَما تَحْتَ الثَّرى**﴾ والثرى التراب الندي الرطب أو مطلق التراب يعني وما وارى الثرى من كل شيء وقيل يعني ما في ضمن الأرض من الكنوز والأموات[١]، وقيل بما تحت الثرى " ما في جوف الأرض دون التراب ويبقى حينئذ لما في الأرض ما على بسيطها من أجزائها وما يعيش فيها مما نعلمه ونحسُّ به كالإنسان وأصناف الحيوان والنبات وما لا نعلمه ولا نحسُّ به"[٢]، ويمكن تصنيف التوازن في هذا المطلب على النحو الآتي:

أولاً: التوازن البيئي في الجبال:

الجبال من موارد اليابسة، ومفردها جبل وهو في اللغة: تجمع الشيء في ارتفاع [٣]، والجبل المعروف هو: كل وتد من أوتاد الأرض إذا عظم أو طال، أو ما صغر وانفرد فهو القنان والقور والأكم [٤].

والجبل في اصطلاح الجيولوجيين هو: " تل مرتفع بشكل كبير على الأراضي المجاورة لها، وتوجد عادة متصلة في أطواف، أو في منظومات أو سلاسل جبلية طويلة، ولكنها قد تكون أحيانا على شكل مرتفعات فردية معزولة يصل ارتفاعها أكثر من ألف متر"[٥].

لقد أشار القرآن الكريم في آياته بتشبيه الجبال بالأوتاد إلى هذه الأرض، في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**﴾[٦]، وقيل في تفسيرها: "الوتد عود غليظ، أسفله أدق من أعلاه، يدق في الأرض لتشد به أطناب الخيمة، وللخيمة أوتاد كثيرة على قدر اتساع دائرتها، والإخبار عن الجبال بأنها أوتاد على طريقة التشبيه البليغ أي كالأوتاد"[٧].

إنَّ وجه الإعجاز في وصف الجبال بالأوتاد في الشكل والوظيفة هو تشبيه دقيق، فكما إنَّ للوتد جزءاً ظاهراً فوق الأرض وله جزء مغروس في باطن قشرة الأرض وظيفته تثبيت ما يتعلق به، وهذا الحال مع الجبال، ولم يعلم الأنسان هذه الحقيقة إلاّ مؤخراً مما بيَّنته الدراسات الحديثة أنَّ للجبال وظيفة مهمة ودوراً في تثبيت قشرة الأرض، وهذا ما أكَّده مبدأ **(التوازن الهيدروستاتي للأرض)** للعالم الجيولوجي الأمريكي داتون، ومفاده أنَّ المرتفعات الجبلية تغوص في باطن الأرض بمقدار يتناسب طردياً مع ارتفاعها وعلوها، وفائدة أخرى بيَّنتها الدراسات هي أنَّ الجبال تقوم بحفظ توازن كل لوح من ألواح القشرة الأرضية[٨]،

---

(١) ينظر: الطبرسي ، مجمع البيان ، ٧ / ٦.
(٢) الطباطبائي، الميزان ، ١٤/ ١٢٢ .
(٣) ينظر : ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ١/ ٤٤٦.
(٤) ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ٤٤٠/٧.
(٥) النجار، زغلول، المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم، ط٨ ، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة - مصر، ١٤٢٦هـ، ٢٧٦.
(٦) سورة النبأ : الآيات ٦ – ٧.
(٧) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٣٠/ ١٤
(٨) ينظر: عيد، محمد السقا، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ط١، دار اليقين، مصر، ١٤٣٠هـ، ٢٥٢.

وبعدها طرحت نظرية بنائية الألواح الأرضية للعالم لتبيّن أنَّ الجبال تقوم بحفظ توازن القشرة الأرضية.

وهذا ما يتفق عليه المفسّرون في مطابقتهم لهذه الحقائق العلمية:" أنّها تحفظ القشرة الأرضية من الانهيار أمام الضغط الحاصل من المواد المذابة داخلها، وذلك لعمق تجذرها المترابط داخل الأرض، وتحافظ عليها من تأثيرات جاذبية القمر في عملية المد والجزر، وتشكل جدران الجبال سدا منيعا للتقليل من آثار الرياح الشديدة والعواصف المدمرة، وتهيئ للإنسان الملاجئ الهادئة في مغاراتها وبين تعرجاتها لتأمنه من ضربات العواصف المهلكة، وتقوم بخزن المياه وادخار أنواع المعادن الثمينة في باطنها "[١].

وعليه يتضح أنَّ وجه الإعجاز هو دلالة لفظ الأوتاد على وظيفة الجبال، فهي تحفظ الكرة الأرضية من الاضطراب والميلان وتؤمن للأرض الاستقرار.

وكذلك تشبيها بالسفن الرواسي على هذه الأرض في الآيات الاتية:

١- في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا**﴾[٢].

٢- وقوله تعالى: ﴿ **أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿ **وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا**﴾[٤].

٤- وقوله :﴿**وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾[٥].

قيل: إنَّ "الرواسي الجبال رست ترسو رسوا إذا ثبتت بثقلها فهي راسية كما ترسو السفينة إذا وقفت متمكنة في وقوفها، و الميد الاضطراب بالذهاب في الجهات، والفج الطريق الواسع بين الجبلين، والمعنى: وجعلنا في الأرض جبالا ثوابت لئلا تميل وتضطرب الأرض بهم وجعلنا في تلك الجبال طرقا واسعة هي سبل لعلهم يهتدون منها إلى مقاصدهم ومواطنهم"[٦].

إنَّ تشبيه الجبال بالرواسي يشير إلى أنَّ لها قراراً مكيناً راسخاً في الأرض، مما يعمل على تثبيت القشرة الأرضية وحفظ توازن الأرض، وهو تشبيه بين الأرض والسفينة التي تضربها الأمواج ولا تستقر ولا تثبت إلاّ بالمراسي، وهذا هو جانب إعجاز دقة اختيار اللفظ الذي يتوازن مع وظيفة الجبال في الفعل **(أرسى)** ودلالته على الثبات والاستقرار مثل رسو السفينة، في إشارة إلى ثقل الجبال وثقل السفينة.

---

(١) الشيرازي ، الامثل ، ٣٢٩/١٩.
(٢) سورة الرعد : الآية ٣.
(٣) سورة النمل : الآية ٦١.
(٤) سورة النازعات : الآية ٣٢.
(٥) سورة النحل : الآية ١٥.
(٦) الطباطبائي ، الميزان ٢٨٠/١٤.

وفي إشارة توازن في تنوع وتباين ألوان الجبال قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ**﴾[1].

إنَّ توازن الألوان في الطرق المسلوكة للجبال المختلفة خطّت على سطح الأرض، في دقة تدرجها فتبدأ بالبيض وتنتهي بالسود، ويتوسط هذه وتلك حمرة متدرجة الألوان[2].

وعليه فإن الجبال تشكل آية ربانية زاخرة بالعطاء، وتؤدي وظائف كثيرة، بالإضافة إلى كل ما ذكر،" يقول العلماء في توزيع الجبال على الأرض بالشكل الموجود؛ لو كان سطح الكرة الأرضية مستويا كله، لتولدت عواصف شديدة لا يمكن السيطرة عليها جراء حركة الأرض وسكون الغلاف الجوي، و لفقدت الأرض صلاحيتها بتوفير مستلزمات السكن للإنسان؛ لأنّ استمرار الاحتكاك الحاصل من حركة الأرض الدائمة وسكون الغلاف الجوي سيؤدي بلا شك إلى زيادة حرارة القشرة الأرضية ممّا يجعل الأرض غير صالحة لسكنى الإنسان"[3].

ثانياً: التوازن البيئي في الثروة الحيوانية:

إنَّ مصادر الثروات الطبيعية متنوعة تتمثل بالثروة الحيوانية، فقد ذكرت منافعها في قوله تعالى: ﴿**وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[4]، لقد نزل القرآن في عصر لا تنتظم فيه الحياة الزراعية وغير الزراعية إلاّ بوجود الحيوان، وقد ذكر سبحانه وتعالى أصنافا من الحيوانات وفوائدها بقصد التذكير بالله ونعمه على عباده ليتقُّوهُ في أعمالهم وأقوالهم[5]، يريد الله للناس أنْ يلتقوا به عن طريق مفردات حياتهم حياتهم اليومية، إذ تشكل الحيوانات الأليفة بما تتضمنه من منافع للناس على مستوى المأكل والمشرب والملبس والتنقل، جزءا أساسيا من مفردات تلك الحياة، وحيث يمكنهم أنْ يتحسسوا فقرهم المطلق لله وحاجتهم المطلقة إليه ويشعرون بحضوره الشامل الدقيق في حياتهم، فيزدادون إيمانا به، ويفكّرون بالعودة إليه، عندما يغريهم الشيطان بالابتعاد عنه، لأنّهم لا يملكون الانفصال عنه، لارتباط حياتهم كلها به[6].

والتوازن هنا في تحول الإحساس بالمادّة، إلى عنصر فاعل في نموّ الجانب الروحي في شخصية الإنسان، وفي استشعار عظمة الله في خلقه ، وما تدل عليه هذه النعمة من رحمة الله سبحانه وتعالى، "الأمر الذي يجعل من المادة شيئا روحيا في المعنى والإيحاء، بعد أنْ كانت شيئا مادّيا في الشكل والصورة، وبهذا نستطيع أنْ نحرّك المعاني الروحية في

---

(1) سورة فاطر : الآية ٢٧.
(2) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٤٢/١٧.
(3) الشيرازي ، الامثل ، ٣٢٩/١٩.
(4) سورة النحل : الآيات ٥ ــ ٨.
(5) ينظر: مغنية ، الكاشف ، ٤/ ٤٩٨.
(6) ينظر: فضل الله ، من وحي القرآن ، ١٩٦/١٣.

كل مظاهر المادّة في الحياة، كأسلوب تربويّ متوازن، لا يلغي في المادّة خصائصها المادية، في ما يفرضه العلم من وعي للقوانين الطبيعيّة التي تحكمها في وجودها التكويني، ولكنه ينفد إلى داخل تلك القوانين ليبصر فيها معنى القدرة والحكمة والرحمة والنعمة التي توحي للإنسان بالمعنى الإلهيّ الكامن في سرّ الأشياء" [١].

ثالثاً: التوازن البيئي في الثروات المعدنية:

أما ثروات الأرض وخاماتها المعدنية فقد حوت قشرة الأرض على كثير من المعادن ومصادر الطاقة كما في قوله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾[٢]، وهذه إشارة إلى عنصر الحديد في الطبيعة، وفي قوله تعالى: ﴿**وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ**﴾[٣]، والمعنى أي أذبنا له عين النحاس[٤].

كما كان لعنصري الذَهَب والفضة ذكر في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾[٥]، ذكر سبحانه وتعالى وتعالى أمورا ستة من المشتهيات، وهي الأمور التي تتدخّل في شؤون الإنسان وسلوكه وتحدّد مصيره، والآية الشريفة في مقام بيان طبيعة الإنسان وما يتدخّل في سلوكه، فقد زين حبّ المذكورات في الآية وفق الحكمة المتعالية ليكون وسيلة لتنظيم النظام وبقاء النوع وحسن الاجتماع، فإذا وفّق بين الحبّ والطبيعة، بحيث يتحكّم العقل بالتوفيق بينهما، كانت النتيجة فاضلة والأثر عظيما، ويكون حبّا ممدوحا، وهو الذي يشاؤه الله ويريده ويرتضيه، ولا ريب في أنه ممدوح عقلا أيضا، فيكون تزيين الله تعالى هو إذنه وبيان حدوده وأما إذا ألهى القلب عن التوجّه إلى الله تعالى وأوجب الغفلة عنه عزّ وجلّ، فهو من تزيين الشيطان ووساوسه، وهو مذموم عقلا أيضا[٦].

وعليه فإن الذهب والفضة هي من وسائل السعادة والرفاهية المعنوية التي أوجدها الله تعالى للإنسان في الأرض ولكنها لا يمكن أنْ تشكل الهدف الاساس له، وتعلق الإنسان بها في مراتب متفاوتة شدّة وضعفا من شخص إلى آخر، ويتحدد توازنه وشدة تعلقه فيها وفي كيفية الاستثمار لهذه الثروة وفي الأثر الناتج عن استعمالها في الحياة الدنيا مع ما ينتظر الإنسان من حياة آخرى عند الله تعالى في قوله: ﴿**وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾،

وفي قوله تعالى:﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[٧]، فالآية إنما تنهى عن إيثار الكانز نفسه بالمال من غير حاجة إليه، على سبيل الله مع قيام الحاجة إليه، وهذا الكنز الذي يصاحبه الامتناع عن الإنفاق في

---

(١) فضل الله ، من وحي القرآن ، ١٣/ ١٩٦.
(٢) سورة الحديد : الآية ٢٥.
(٣) سورة سبأ : الآية ١٢.
(٤) ينظر الطبرسي ، مجمع البيان ، ٨ / ٥٩٨.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٤.
(٦) ينظر: السبزواري، مواهب الرحمن ، ١١٢/٥-١١٣.
(٧) سورة التوبة: الآية ٣٤.

الحقوق الماليّة الواجبة، لا بمعنى الزكاة الواجبة فقط، بل بمعنى يعمّها و غيرها من كل ما يقوم عليه ضرورة المجتمع الديني من الجهاد و حفظ النفوس من الهلكة و نحو ذلك[١].

ولا يخفى ما لآثار هذا الاكتناز للذهب والفضة من اختلال في التوازن الاقتصادي للمجتمع.

رابعاً: التوازن البيئي في الموارد المائية:

أطلق لفظ الماء في القرآن الكريم بوصفه اسماً جامعاً رئيساً، والماء: هو الذي يشرب الهمزة فيه مبدلة من الهاء في موضع اللام، وأصله مَوَه بالتحريك؛ لأنّه يجمع على أمواه في القلة ومياه في الكثرة[٢]، وقد تكرر لفظ الماء ثلاثاً وستين مرة في القرآن الكريم[٣].

والماء من مكونات البيئة التي وردت في سياقات متعددة، ومختلفة مبثوثة في القرآن الكريم، واصفاً إيَّاه بأنّه أصل الحياة، قال تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾**[٤] أي وأحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شيء حي[٥]، وفي ظاهر السياق أنَّ الجعل بمعنى الخلق وقوله: **﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾** مفعوله والمراد أنَّ للماء دخلا تاما في وجود ذوي الحياة، كما قال تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾**[٦]، إذ يذكر يذكر مع الماء النبات، وقوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[٧]، وفي الآية يخص بالذكر الشجر بعد ذكر الماء، وبعدها يفصل في أنواع النبات، ثم ينتقل إلى أصناف أخرى من المكونات البيئية في قوله تعالى: **﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾**[٨].

ويعطي الله سبحانه أهمية أخرى للماء ويدخلها في كل الخلق في قوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾**[٩]، وقوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾**[١٠].

---

(١) ينظر: الطباطبائي، الميزان، ٩/٢٥٠-٢٥١.
(٢) ينظر : الرازي ، مختار الصحاح ،٢٦٧.
(٣) ينظر: الزعارير ، غالب محمد رجا ، الماء في القرآن الكريم ، اشراف :محمد آدم محمد صديق ، ط١ ، دار الزمان للنشر والتوزيع ، السعودية – المدينة المنورة ،١٤٢٤هـ ، ١٣.
(٤) سورة الأنبياء : الآية ٣٠.
(٥) ينظر: الطبرسي ، مجمع البيان ، ٧/ ٧٢.
(٦) سورة الأنعام : الآية ٩٩.
(٧) سورة النحل : الآيات ١٠ – ١١.
(٨) سورة فاطر : الآيات ٢٧ – ٢٨.
(٩) سورة النور : الآية ٤٥.
(١٠) سورة النحل : الآية ٦٥.

وقد اتّضح ارتباط الحياة بالماء بالأبحاث العلمية الحديثة، فمعظم العمليات البيوكيمياوية اللازمة للحياة والنمو تحتاج إلى الماء[١]، وقد أثبتت هذه الحقيقة العلمية في أكثر من فرع من فروع العلم، ففي علم الخلية أُثْبت أنَّ الماء هو المكون الهام في تركيبها، وهو وحدة البناء في كل كائن حي نباتاً أو حيواناً، وأُثْبِتَ في علم الكيمياء الحيوية أنَّ الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحولات التي تتم داخل أجسام الأحياء[٢].

وقد حمل التفصيل القرآني للماء حالات عدة لأنواع المياه كالمطر والعيون والينابيع والأنهار والبحار كما في الآتي:

١- مياه الأمطار:

تزخر آيات القرآن الكريم بذكر المطر في مواضع عدة، قال تعالى: **﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾**[٣]، معنى(مزن) هو: (الغيوم البيضاء) وقيل: أيضاً بأنّها (الغيوم الممطرة)[٤]، في الآية مقابلة للقدرة الإلهية بين عذوبة الماء الصالح للشرب والنازل من الغيوم الممطرة وبين (الأجاج) الماء الشديد الملوحة أو المرارة، فلو أنَّ ماء البحر يصطحب عند تبخره إلى السماء ذرّات الأملاح، وتنزل المياه المالحة والمرّة من الغيوم لتحولت الأرض إلى مملحة، لا تنمو حياة لنبات أو شجر، وإذا أراد الإنسان أن يدفع الموت عنه من أثر العطش لم يستطع أنْ يتجرع شربه، إنَّ القدرة جعلت الماء يتبخر والأملاح الموجودة في مياه البحار تبقى في مكانها، وهذه العملية أثّرت على حياة الناس وغيَّرت مجراها وبقية المخلوقات على الكرة الأرضية[٥].

وقد أثبتت الأبحاث العلمية أنَّ سبب نزول المطر إلى الأرض يرجع إلى أنَّ جاذبية الأرض لبخار الماء أقوى من سرعة انطلاق جزيئات الماء في الخروج من نطاق الجاذبية، وإنَّ السرعة اللازمة لانطلاق بخار الماء عن جاذبية الأرض ثابتة وقيمتها 11.2كم/ثا، فإذا زادت سرعة انطلاق جزيئات الماء عن فعل الجاذبية الأرضية فإنَّ هذا يؤدي إلى ذهاب الماء إلى الأرض، وهذا ما قرَّره القرآن الكريم من إنزال الماء بقدر معلوم موزون، وإلا لطغت الفيضانات على سطح الأرض وهلكت الكائنات الحية، وإنَّ الله سبحانه أسكن الماء في وسط الارض، وهذه حقيقة علمية[٦]، وقد اتفقت هذه الحقيقة مع كلام المفسرين في قوله قوله تعالى: **﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ**

---

(١) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ١٤/ ٢٧٩.
(٢) ينظر: الزعارير، الماء في القرآن الكريم ، ٢٦.
(٣) سورة الواقعة : اية ٦٨ – ٧٠.
(٤) ابن منظور ، لسان العرب ، ٤٠٦/١٣.
(٥) ينظر: الشيرازي ، ناصر مكارم ، نفحات القرآن، ط١، مدرسة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام ، سليمان زاده، ايران – قم، ١٤٢٦هـ ، ١٩٧/٢.
(٦) ينظر : قوش ، سليمان عمر ، الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم ، ط١ ، دار الحرمين ، مكتبة المهتدين، الدوحة – قطر ، ١٤٠٧هـ ، ١٥٨.

لَقَادِرُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: **﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾**[2]، أي مطرا وغيثا **(بِقَدَرٍ)** إنّما نزل على حسب ما يقتضيه التدبير التام الإلهي الذي يقدره بقدر موزون لا يزيد قطرة على ما قدر ولا ينقص والمعنى بقدر الحاجة لا يزيد على ذلك فيفسد و يغرق ولا ينقص عنه فيهلك وتجف الأرض و تذبل الحياة بل على ما توجبه المصلحة، وقوله: **﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾**، أي جعلنا له الأرض مسكنا وجمعناه فيه لينتفع وهو الذخائر المدخرة من الماء في الجبال والسهول تتفجر عنه العيون والأنهار وتكشف عنه الآبار، وهذا القول فيه موافقة في ضرورة إنشاء الحياة وإبقائها كما أرادها الله سبحانه[3].

وعليه فإنَّ كمية المطر المرسل من السماء بِقَدَرٍ يسلم الناس معه من المضرة، وتحصل به المنفعة، بمقدار حاجاتهم ومصالحهم، وعليه فهو وفق قانون التوازن.

٢- المياه الجوفية:

وهي المياه المخزونة تحت الأرض وحبيسة في الصخور القريبة من سطح الأرض موجودة في أعماق لا تزيد عن بضعة مئات من الأمتار، وقد ذكرت في القرآن الكريم بألفاظ **(ينبوع وينابيع مرتين ورد ذكرها، وبئر مرة واحدة في سورة الحج والجب بمعنى البئر مرتين في سورة يوسف، وعين وعيون بمعنى جريان الماء عشرين مرة)**، وكل هذه المصطلحات تستعمل في علم الهيدرولوجيا* والمياه والري والبزل والسدود[4] كما في الآيات الآتية :

أ- قال تعالى: **﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ﴾**[5].
ب-وقوله تعالى: **﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾**[6].
ت-وفي قوله:**﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾**[7].

٣- المياه السطحية

تشمل المياه السطحية مياه الأنهار والبحار، وذكرت لفظة الأنهار في بيئات متنوعة في القرآن الكريم كما في الآيات الاتية :

---

(1) سورة المؤمنون : الآية ١٨.
(2) سورة الزخرف : الآية ١١.
(3) ينظر: الطبرسي، مجمع البيان، ١٦٢/٧، وينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن ٥/ ٣١٧٩،وينظر: الطباطبائي، الميزان،٢٣/١٥.

*يعرف بعلم المياه ويشمل كل المياه في الكرة الارضية على سطحها وفي باطنها ، وكيفية انتشارها وتوزيعها ودورتها فوف سطح الارض حتى مغادرتها إلى الجو بالتبخير أو التدفق السطحي . (ينظر:جورج، بيار، معجم المصطلحات الجغرافية، ترجمة حمد الطفيلي ،ط٢،المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٤٢٢هـ،٨٨٩)

(4) ديري،عبد الامام نصار،محمد،فارس مهدي،البيئة الطبيعية والتوازن البيئي في القرآن الكريم، بحث مقدم إلى كلية التربية/قسم الجغرافيا.
(5) سورة يس : الآية ٣٤.
(6) سورة القمر : الآية ١٢.
(7) سورة الزمر : الآية ٢١.

أ- قال تعالى: ﴿ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾[1].

ب- قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ**﴾[2].

ت- قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ**﴾[3]، وهذه إشارات مختلفة إلى بيئات تجري فيها الأنهار لتخدم الحياة والإنسانية.

من هنا يتضح أنَّ التوازن في الدورات الطبيعية للعناصر والمواد واستمرار تفاعلها هو الذي يضمن التجدد لهذه العناصر والمواد والطاقة والغذاء وهذا حفظ للحياة والمخلوقات، ومن مظاهر التوازن البيئي في تباين الكائنات العضوية الحية الموجودة في كل النظم البيئية، ومنها التنوع البيولوجي من تنوع أجناس الكائنات الحية.

المبحث الرابع : التوازن بين السنن الكونية والطبيعية والإنسان:

إنَّ هذا الكون الواسع المترامي الأطراف والأبعاد، لم يخلقه الله عبثاً من غير قوانين تضبطه، فقد أقام الله سبحانه نظام الكون ونظام المجتمع على سنن وقوانين ونواميس مطردة، أودعها الله في هذا الكون، وأخضعه لها بما فيها من مخلوقات، لتكون هذه السنن حاكمة لكل صغيرة وكبيرة، وتتصف بصفات تعطيها صفة القانون مثل صفة العموم والشمول والثبات والدوام والاستمرار والاطراد، وهي على وفق إرادة الله ومشيئته، ولذلك لا تتبدل، ولا تختلف أو تتخلف، ولا تحابي أحداً، بل كل الخلق على مسافة واحدة منها[4].

وعليه فإنَّ الكون مخلوق لله سبحانه وتعالى وهو يسير وفق النواميس والسنن الإلهية وهبها الله فاعلية الحركة والحدث وفقاً لقانون ثابت، فإذا اختلَّ هذا القانون، اختلَّ الكون وظهرت فيه الاضطرابات المختلفة والأشكال والمظاهر، وهذا ما سيتم بيانه في البحث عبر المطالب الآتية:

المطلب الأول: السنن في اللغة والاصطلاح وعلاقتها بقانون التوازن:

أولاً: تعريف السنن في اللغة والاصطلاح:

---

(1) سورة البقرة ، الآية ٢٦٦.
(2) سورة ابراهيم ، الآية ٣٢.
(3) سورة البقرة: الآية ٧٤.
(4) ينظر: قدة ، السنن الكونية والاجتماعية من خلال القرآن الكريم ، ١٤٣.

١- السنن في اللغة هي: جريان الشيء واطراده في سهولة[١]، وسنن الله هي: أحكامه وأوامره ونواهيه، وقيل سنَّها الله للناس: بيَّنها، وسنَّ الله سُنَّة: أي بيَّن طريقاً قويماً، والسنة: السيرة ، حسنة كانت أو قبيحة[٢].

٢- السنن في الاصطلاح: كانت هناك جملة من التعريفات عن العلماء وهي كالآتي:

أ- عرَّفَ الرازي (ت ٦٠٤هـ) السنّة فقال:" هي الطريقة المستقيمة والمثال المتبع"[٣].

ب-قال محمد عبده (ت١٣٢٣هـ) في السنن الإلهية بأنّها:" الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون، وعلى حسبها تكون الآثار، وهي تسمى شرائع أو نواميس، ويعبر عنها قوم بالقوانين "[٤]، وقال صاحب المنار(١٣٥٣هـ):"هي الطريقة المعبدة والسيرة المتبعة أو المثال المتبع"[٥].

ت-عرّفها السيد الطباطبائي (ت ١٣٤٤هـ) فقال: "هي قضايا كلية عملية صورها: يجب أن يفعل كذا عند كذا أو يحرم كذا أو يجوز، وهي أيًّا ما كانت معتبرة في العمل لغايات مصلحة للاجتماع والمجتمع تترتب عليها تسمى مصالح الأعمال ومفاسدها... وهي قضايا عملية اعتبارية، واقعة بين نقص الإنسان وكماله، متوسطة كالعبرة بين المنزلتين، وهي تابعة للمصالح التي هي كمال أو كمالات إنسانية، وهذه الكمالات أمور حقيقة مسانخة ملائمة للنواقص التي هي مصاديق حوائج الإنسان الحقيقية التي هي بحسب الواقع حوائج، لا بحسب تشخيص الأهواء النفسانية"[٦].

وهذا القول يستند إلى أنَّ الإنسان في سعة حاجته التكوينية ومع كثرة نواقصه الوجودية، لا يقدر على أن يتمم هذه النواقص ويرفع الحوائج الحيوية بمفرده، بل يحتاج إلى منزل واجتماع مدني يجتمع فيه مع بني البشر، بالازدواج والتعاون والتعاضد، والكل يسعى بكل قواهم التي جهزوها، وينتهي هذا التضارب بين المنافع والمشاركة في العمل، بتقسيم الحاصل من الأعمال بين الجميع، فيذهب كل إنسان بنصيبه على قدر زنته الاجتماعية، ويعطى منه لكل ما يستحقه[٧].

وتذهب الباحثة إلى أنَّ إعطاء نصيب الفرد على زنته وعلى وفق ما قدمه من عمل يستحق هذا العطاء، هو إشارة إلى أنّ السنن الإلهية التي تحكم الإنسان مع الآخرين في مجتمعه قائمة على التوازن، وبذلك لا تخرج السنن عن كون قوام عملها هو التوازن، وهذا ما سيتم بيانه في هذا المبحث.

---

(١) ينظر: ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ٦٠/٣.
(٢) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مادة سنن ، ٣٦٥/٦.
(٣) الرازي ، مفاتيح الغيب، ٣٦٩/٩.
(٤)عبده ، محمد (ت ١٣٢٣هـ) ، الاسلام بين العلم والمدينة،ط١،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة،مصر- القاهرة، ١٤٣٣هـ ،٧٩.
(٥) رضا ، المنار ، ١٤٠/٤.
(٦) الطباطبائي ، الميزان ، ١٩٢/١٦.
(٧) ينظر: المصدر نفسه، ١٦ / ١٩١.

وعليه يتضح أنَّ كلمة السنن يدور معناها على معنى: "الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة "[١].

وبحسب تتبع الباحثة لورود لفظة السنن في تفسيري مجمع البيان والميزان في :(سورة آل عمران: الآية ١٣٧، سورة الأنفال: الآية ٣٨، سورة الأسراء: الآية ٧٦، سورة الأحزاب: الآية ٣٨ و ٦٢، سورة فاطر: الآية ٤٣، سورة غافر: الآية ٨٥، سورة الفتح : الآية ٢٣)، لم يرد تعريفها على أنّها قوانين، بل هي الطريقة المعمولة التي تجري بطبعها غالبا أو دائما في المجتمع ماضيه وحاضره ومستقبله[٢].

وهناك من عَدّ السنن قوانين إلهية أو يقرنها بالقوانين؛ لأنَّ السنن لا تتخلف ولا تتبدل وهي ماضية بأمر الله تعالى وقدرته، وتتسم السنن بخصائص منها: أنّها محددة، تتصف بالخلود والثبات وعدم التغير ومستمرة غير متحولة تشمل الأوّلين والآخرين، وتتسم بالصدق والعدل والعلو والرفعة والقول الفصل[٣]، كما صرّح القرآن في آيات كثيرة كما في في قوله تعالى: ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**﴾[٤]، وقيل عن عن سنة الله: "وبالجملة فإنّ في هذا العالم- عالم التكوين التشريع- هناك **(السنن الإلهيّة)** ثابتة والتي لا سبيل إلى تغيّرها"[٥].

وتذهب الباحثة إلى تعريفات أنَّ السنن كاشفة عن بيان مصالح تكوينية واجتماعية لاتفرضها الطوارئ والرغبات في حياة الإنسان، وإنّما هي حوائج إنسانية ومصالح موازنة لوجوده أصالة، ومن استعان ببعضها على بعض أدرك النجاة والفوز في الدين والدنيا.

والسنن الإلهية تنقسم على: السنن الكونية وهي آيات الآفاق التي تتعلق بالأشياء والظواهر والأحداث المادية والطبيعية في الغالب، والسنن الإنسانية والتي يتفرع عنها، السنن الاجتماعية والسنن التاريخية وسنن الهداية التشريعية وسنن التأييد الإلهي وسنن التكامل[٦].

ثانياً: العلاقة بين السنن الإلهية وقانون التوازن:

هناك من عدَّ التوازن سنة من سنن الله الكونية، وهذا ما لا تؤيده الباحثة، فكيف يكون التوازن سنة وفيه قيام الكون في مقاديرها وحركاتها وسكناتها، وبقاء تماسكه إلى ما شاء بقاؤه، وإنَّ السنن الإلهية كسنة الجزاء وسنة الابتلاء وسنة التغيير وسنة التدافع وسنة

---

(١) زيدان ، السنن الالهية في الامم والجماعات والافراد ،١٣.
(٢) ينظر: الطبرسي ، مجمع البيان ، ٨٤١/٢، ٨٣٤/٤، ٦٦٧/٦، ٥٨١،٦٤٥/٨، ١٨٧/٩ وينظر: الطباطبائي ، الميزان،٢١/٤ ، ٧٥/٩، ١٦/١٣، ١٧/١٧٤،٣٤٠/٣٥٧،٥٨، ٢٨٧/١٨.
(٣) ينظر: الزحيلي ، وهبة ، التفسير الوسيط ، ط٢، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٢٧هـ ، ٢/ ٩٥٠.
(٤) سورة الاحزاب ، الآية ٦٢.
(٥) الشيرازي ، الامثل ، ١١٥/١٤.
(٦) ينظر : السبحاني ، جعفر، الإلهيات ، تقرير مكي ، ط١ ، الدار الاسلامية ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٩ هـ ، ٥٣٦ – ٥٤١.

التمكين والنصر هي نماذج من متقابلات التوزان بين هذه السنن وفعل السلوك الإنساني وحركته ونشاطه وهذا ما سيتبين عند البحث.

والسنن الإلهية بجميع أنواعها،" سنن الله العامة في الكون وهي دعامة النظام الكوني المتماسك بوشائج التوازن الإلهي الذي يحكم به هذا النظام فهذا الترابط المحكم بين عوالم الكائنات علويها وسفليها، وهذا التنسيق بين آحادها ومجموعاتها، وهذه الأوضاع المنسجمة التي تتراءى في وضع كل كائن في مكانه من التركيب الكوني، وهذا الاتساق في تقدير صلة كل عنصر من عناصر الكون بسائر العناصر هو الإطار الذي تجمعت فيه الخطوط التي تصور سنن الله الكونية التي يتحقق بها التوازن بين جميع المخلوقات "[١].

ولا يخفى وجود علاقة توازنية بين الظواهر الكونية والطبيعية كالخسوف والكسوف والأمطار وبين السلوك الإنساني المتمثل بالطاعة أو العصيان للأوامر والنواهي الإلهية.

ومما لاشك فيه أنَّ التوازن الكوني قائم في خلق السموات والأرض، وعظمة الخالق متجلية وواضحة في توازنها الكوني من دون حدوث أي خلل يضر بهذا التوازن، هذا من جهة، ومن جهة اخرى هناك علاقة توازن تربط سنن الله الكونية في خلق السموات والأرض وبين سنة الله في الجزاء والابتلاء للمكلفين وطبيعة هذا الاقتران يحدده التوازن بين السنتين؛ لأن التوازن في الكون يسير موازياً في توازن مع حركة الإنسان ونشاطه بما لا يؤدي إلى الخلل.

وسيتناول هذا المبحث علاقة التوازن بين السنن الكونية وظواهرها والسلوك الإنساني عبر المطالب الآتية:

المطلب الثاني: توازن الظواهر الكونية والطبيعية مع السنن الإلهية :

الظواهر الكونية: هي النواميس الحاكمة في نظام الكون وتركيبه وحركته ومجرّاته، ويطلق على آياتها بالآيات الكونية والأنفسية، التي تتعلق بالأشياء والظواهر والأحداث المادية والطبيعية[٢].

عُرِفت الظاهرة الكونية: على أنها كل شيء يحدث في الكون خارج عن إرادة الإنسان، ولا يستطيع إحداثه أو إنجازه أو إيقافه والحد منه، فلا يستطيع الإنسان التأثير بالكون والأجرام السماوية، كالكسوف والخسوف وسقوط النيازك والشهب، لأنها تحت سيطرة الخالق عز وجل[٣].

والبشر يخضعون إلى سنن ثابتة ذكرها القرآن الكريم، وهذا الخضوع يكون في تصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة، وما يكونون عليه من أحوال وما يترتب عليه من

---

(١)عرجون ، محمد الصادق ، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم ، ص٥، بحث الكتروني.

(٢) ينظر: قدة، السنن الكونية والاجتماعية من خلال القرآن الكريم، ١٤٤.

(٣) الحلايقة ، غادة ، الظواهر الطبيعية ، موقع الكتروني ، موضوع أكبر موقع عربي بالعالم ، آخر تحديث بتاريخ ٢٣ جمادي الاولى ، ١٤٣٨هـ، https://mawdoo3.co .

نتائج، كالرفاهية أو الضيق في العيش، والسعادة والشقاء، والعز والذل، والرقي والتأخر، والقوة والضعف، وما يصيبهم في الدنيا والآخرة من نعيم أو عذاب[١].

ومن الظواهر الكونية هي خلق السماوات والأرض وتوازنها مع سنة الجزاء والابتلاء، ويمكن ايضاحه عبر الآتي:

أولا: التوازن في خلق السماوات والأرض وسنة الله في الجزاء:

إنَّ سنة الله في الجزاء في خلقه وردت في القرآن الكريم مع خلق السماوات والأرض وهي من سننه الكونية في قوله تعالى: ﴿ **وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾[٢]، إنَّ المراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود والباء في **(بِالْحَقِ)** للملابسة، أي ما خلقناهما إلا متلبستين بالحق، والسببية هنا أي ما خلقناهما

بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء[٣]، والباء في قوله: ﴿**بِما كَسَبَتْ**﴾، للمقابلة في الجزاء لتجزى مقابل ما كسبت إنْ كان طاعة فالثواب، وإنْ كان معصية فالعقاب، وقوله: ﴿**وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾، أي ولتجزى كل نفسٍ بما كسبت بالعدل[٤].

وفي توازن في خلق السماء والارض وبين جزاء الأعمال تظهرها الآية في قوله تعالى: ﴿**وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾[٥]، وقد قال السيد الطباطبائي(ت١٣٤٤هـ) في تفسيرها: "والآية بما فيها من الحجة تبطل حسبانهم أن المسيء كالمحسن في الممات فإنَّ حديث المجازاة بالثواب والعقاب على الطاعة والمعصية يوم القيامة ينفي تساوي المطيع والعاصي في الممات، ولازم ذلك إبطال حسبانهم أنَّ المسيء كالمحسن في الحياة فإنَّ ثبوت المجازاة يومئذ يقتضي وجوب الطاعة في الدنيا والمحسن على بصيرة من الأمر في حياته يأتي بواجب العمل و يتزود من يومه لغده بخلاف المسيء العائش في عمى و ضلال فليسا بمتساويين"[٦].

والتوازن يقتضي أنَّ في خلق السماوات والأرض أن تُجازى كلُّ نفسٍ ما تستحقه بكسبها، فالمحسن يجازى جزاء أعماله الحسنة والمسيء يجازى جزاء سيئاته، وبمقدار مقدر فلا يزيد ولا ينقص وهذا هو النهج الإلهي الذي يرتكز عليه التوازن، ويقضي بإعطاء كل إنسان حقّه، والتصرف مع كل شخص بما يستحق ، فلا عقوبة لأحد بما لم يفعل، ولا انتقاص من حق أحد.

---

(١) ينظر : زيدان ، عبد الكريم ، السنن الإلهية في الامم والجماعات والافراد ، ٥.
(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٢.
(٣) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ١٨/ ١٤٦.
(٤) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ١٨/ ١٧٢.
(٥) سورة ص : الآية ٢٨.
(٦) الطباطبائي ، الميزان ، ١٨/ ١٧٢.

وهذا المعنى تكرر في آيات كثيرة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۞ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[2].

وأنَّ الحق الذي يقوم به الكون، كما تقوم به حياة الناس، والذي يتحقق به التوازن بين المسيئين والمصلحين وفي مجازاة كل نفس بما كسبت من هدى أو ضلال في كل الأحوال.

ثانياً: التوازن في خلق السماوات والأرض والابتلاء :

فقد ورد في معنى قوله تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾[3].

اللام هنا للغاية والبلاء الامتحان والاختبار[4] والابتلاء مرتبط بتكوين السماوات والأرض، وهو أصيل في نظام الكون وسنن الوجود[5].

وقوله تعالى: ﴿**أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾، أنَّ البلاء والامتحان أمر مقصود لغيره وهو تمييز الجيد من الردي والحسن من السيئ، وكذلك الحسنة والسيئة إنّما يُراد تمييزهما لأجل ما يترتب عليهما من الجزاء، وكذلك الجزاء إنّما يُراد لأجل ما فيه من إنجاز الوعد الحق ولذلك نجده تعالى يذكر كل واحد من هذه الأمور المترتبة غاية للخلقة"[6] فقال سبحانه وتعالى في كون الابتلاء غاية للخلقة: ﴿**إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾[7]، ويصح استعمال البلاء في الخير والنعمة لتظهر كيفية الشكر عليهما، وفي وفي الشر والنقمة ليعلم كيفية الصبر عليهما[8].

وفي إشارة إلى قانون التوازن في هذه الآية قيل: "وكما جهز الخالق هذه الأرض وهذه السماوات بما يصلح لحياة هذا الإنسان، كذلك جهّز هذا الإنسان باستعدادات وطاقات؛ وبنى فطرته على ذات القانون الذي يحكم الكون؛ وترك له جانبا اختياريا في حياته، يملك معه أن يتجه إلى الهدى فيعينه الله عليه ويهديه، أو أن يتجه إلى الضلال فيمد الله له فيه، وترك الناس يعملون، ليبلوهم أيهم أحسن عملا، ويبلوهم لا للعلم فهو يعلم ، ولكن يبلوهم ليظهر المكنون من أفعالهم، فيتلقوا جزاءهم عليها كما اقتضت إرادة الله وعدله"[9].

---

(1) سورة آل عمران : الآية ١٩١.
(2) سورة الدخان : الآيات ٣٨ – ٤٠.
(3) سورة هود : الآية ٧.
(4) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ٨٤/١٤.
(5) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن ، ٤/ ١٨٥٩.
(6) الطباطبائي ، الميزان ، ١٥١/١٠.
(7) سورة الكهف : الآية ٧.
(8) ينظر: السبزواري ، مواهب الرحمن ، ٤/٢.
(9) سيد قطب، في ظلال القرآن ، ٤/ ١٨٥٨.

ويتضح من ذلك إنَّ هذا القانون الذي يحكم الكون في توازن أعمال الإنسان بما أمدّه الله تعالى من طاقات وترك له حرية اختيار أعماله في اختبار منه لا لكي يعلم الجيد من الرديء منها فهي في علمه سبحانه؛ لأنّه العليم بكل شيء، بل لتتوازن هذه الأعمال مع علة خلق السماوات والأرض، والربط بين النظام الذي يقوم عليه الكون وبين النظام الذي تقوع عليه حياة الإنسان .

المطلب الثالث: توازن الظواهر الطبيعية مع السلوك الإنساني:

أشار القرآن الكريم في كثير من آياته إلى علاقة الارتباط بين الظواهر الطبيعية والسلوك وفعله، في إنَّ " هذا التوازن والنظام المطرد بين مظاهر الكون لا يتوقف عند حد ولا ينتهي عند نوع دون نوع من جوانب الكون، وهذا سر لفت القرآن الكريم أنظار الناس إلى السماء وما فيها والأرض وما عليها، وكثر ربط هذه الأحداث الواضحة بالسلوك البشري والفعل الإنساني وفي كل يوم يكتشف العلماء ما يجعلهم يزدادون إيماناً بالخالق الذي وضع الميزان لكل ما خلق، وفي الحياة يستطيع أي مشاهد أن يلمس الاتزان الذي يظهر جلياً فيما حوله "[١].

وعُرِفت الظواهر الطبيعية: فهي كل عمل خارج إرادة الإنسان، أي ليس له يد في إنجازه أو حدوثه، وبعض هذه الظواهر يكون خيراً مثل الأمطار والثلوج، وبعضها الأخر مدمرة مثل الزلازل والبراكين، ولكون الظواهر الطبيعية موجودة ودائمة الحدوث في الطبيعة، فهي لا تحتاج إلى إثبات بالمطلق[٢].

وسيعرض البحث بعض صور التوازن لهذا الترابط عن طريق الآيات القرآنية وكالآتي:

أولاً: توازن فعل الطاعة الإنسانية مع الظواهر الطبيعية:

إنَّ أحد أسباب إرسال خير السماء إلى الأرض، بكل ما تحمله كلمة الإرسال تتوازن مع فعل طاعة الإنسان لخالقه فيما أمر بامتثاله من أوامر وما نهى عنه تتجلى في الاستغفار والتوبة في قوله تعالى : **﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾**[٣].

وجاء في الرواية عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: (كان في الأرض أمانان من عذاب الله سبحانه، وقد رفع أحدهما، فدونكم الآخر فتمسكوا به، أما الأمان الذي رفع فهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأما الأمان الباقي فالاستغفار، قال الله عز من قائل: **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾**[٤])[٥].

---

(١) زكي ، مفهوم السنن الربانية دراسة في ضوء القرآن الكريم ، ٦١.
(٢) الجازي ، هايل ، ظواهر كونية ، موقع الكتروني ، موضوع أكبر موقع عربي بالعالم ، آخر تحديث بتاريخ ١٣ حمادي حمادي الاولى ، ١٤٣٧هـ ، موقع الكتروني، https://mawdoo3.com.
(٣) سورة هود : الآية ٥٢.
(٤) سورة الانفال : الآية ٣٣.
(٥) المجلسي ، بحار الانوار ، ٢٨٤/٩٠.

ويقول السيد الطباطبائي(ت١٣٤٤هـ) في تفسير الآية وعلاقة الاستغفار بإرسال السماء إنَّ: "هناك ارتباطاً تاماً بين الأعمال الإنسانية وبين الأحداث الكونية التي تمسه فالأعمال الصالحة توجب الخيرات ونزول البركات، والأعمال الطالحة تستدعي تتابع البلايا والمحن، وتجلب النقمة والشقوة والهلكة "[١]، وقوله : **(مِدْراراً)**، بمعنى أنَّ المطر يهطل إلى درجة غزيرة حتى كأنّ السماء تهطل، وأنّها صيغة مبالغة أيضا ، فيستفاد غاية التوكيد، والقرآن يقيم رابطة بين المسائل المعنوية والماديّة، فيعدّ الاستغفار من الذنوب والتوبة إلى الله أساس العمران والخصوبة و الخضرة والنضرة وزيادة في القوة والاقتدار[٢].

وإنَّ نوع الارتباط في العلاقة، علاقة سببية، لأنَّ تقديم الاستغفار والتوبة سبب في إرسال المطر والغيث وإحياء الأرض الميتة من القحط والجفاف والجذب، وفي زيادة القوة [٣]؛ وأيضا العلاقة تنمية لروحية العقيدة في ما يتفرّع عنها من الجانب العملي؛ لأنَّ " الله هو مصدر النعم، وبالانحراف عن طاعته، تكون النعمة مهدّدة بالزوال، في ما يمكن أن يحقّقه من أسباب زوالها بطريقة بأخرى، فيمنع عنهم مطر السماء، ويضعف قوّتهم، والإقبال إلى الله والرجوع إليه، يهيّئ لهم أسباب ما يحتاجونه ويريدونه، في ما يهمّهم أمره "[٤].

هذه العلاقة التوازنية نلمسها في كثير من آيات القرآن الكريم، من هذه الآيات ما ورد في قوله تعالى: ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا** ﴾[٥]، وقد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق، وفي القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب، استقامتها على هدى الله، وبين تيسير الأرزاق، وعموم الرخاء[٦]، " فلمغفرة الذنوب أثر بالغ في رفع رفع المصائب والنقمات العامة وانفتاح أبواب النعم من السماء والأرض، أي إنَّ هناك ارتباطا خاصا بين صلاح المجتمع الإنساني وفساده و بين الأوضاع العامة الكونية المربوطة بالحياة الإنسانية وطيب عيشه ونكده"[٧]، ونهتدي من سياق الآية إلى أنَّ الإيمان والاستغفار ليس من شؤون الآخرة وحسب، بل هو متصل أيضا بحياة الإنسان في الدنيا[٨].

وهكذا يكون التوازن في الجزاء بإنزال المطر مقابل الإيمان بالاستغفار والتوبة وتكون الطاعة سبباً في سعة الرزق وزيادة القوة سواء كانت القوة المادية أو المعنوية، وهما بلا شك من أسباب سعادة الإنسان في خلق حياة طيبة، والتي تُعدَّ مطلب كل إنسان يسلك السلوك السويّ .

---

(١) الطباطبائي ، الميزان ، ١٠ / ٣٠٠.
(٢) ينظر: زعبوب ، فريدة ، حيدروسي ، عمر ، السنن الإلهية ومدى ارتباطها بحياة الناس، كلية العلوم الاسلامية - جامعة باتنة، مجلة الأحياء، المجلد ١٩ ، العدد ٢٣ ، ١٤٤١هـ ، ١١٩.
(٣) ينظر : الشيرازي ، الامثل ، ٦/ ٥٥٩ – ٥٦١.
(٤) فضل الله ، من وحي القرآن ، ٧٨/١٢.
(٥) سورة نوح : الآيات ١٠ – ١٢.
(٦) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٧١٣.
(٧) الطباطبائي ، الميزان ، ٣٠/٢٠.
(٨) ينظر : المدرسي ، من هدى القرآن ، ٤١٠/١٦.

ثانياً: توازن الإيمان والتقوى مع فتح بركات السماء: وفي تفريع آخر للتوازن في الرّابطة بين التقوى والعمران نراه يتجلى في قوله تعالى:﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ**﴾[١].

وهذه القاعدة التي يقرّرها القرآن في مواضع متفرقة: " قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله، ومن سنة الحياة؛ كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون، والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد، وما من أمة قام فيها شرع الله، واتجهت اتجاها حقيقيا لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية الله، وما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته، فحققت العدل والأمن للناس جميعا، إلاّ فاضت فيها الخيرات، مكّن الله لها في الأرض واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء"[٢].

إنَّ ذكر **(أَهْلَ الْقُرى)** :هي حقائق تاريخية باستطاعة البشر الاستفادة منها في تغيير حياتهم عن طريق الإيمان والتقوى، فإنَّ الإيمان ضمانة أيديولوجية وثقافية واجتماعية لبقاء عوامل الحضارة، وأنَّ التقوى ضمانة تشريعية سياسية واقتصادية وسلوكية لبقاء إطارات الحضارة، وربما تكون البركات هي كلّ ما يكمل حياة البشر ويطورها للأفضل[٣]، وقوله: **(بَرَكاتٍ)** جمع بركة وتعني في الأصل: الثبات والاستقرار، ويطلق على كل نعمة وموهبة تبقى ولا تزول، في مقابل الموجودات العارية عن البركة، والسريعة الفناء والزوال، والخالية عن الأثر[٤].

والخطاب هنا "عام لكل القرى والأمم والجماعات متى قدّموا الإيمان والتقوى شرطاً أولياً جاءت الخيرات والبركات وفاضت أعين السماء بمختلف النعم التي فطر الإنسان على الفرح والسعادة بها" [٥].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً**﴾[٦]، **غَدَقاً**﴾[٦]، إنَّ معنى **(غدق)** الماء الكثير، أي ننزل عليهم مطر رحمتنا، ونذلل لهم منابع الماء وعيونه الذي يهب الحياة وبوجود الماء يوجد كل شيء وعلى هذا فإنّنا نشملهم بأنواع النعم.

وهذا تأكيد من القرآن الكريم ولعدّة مرات على أنَّ الإيمان والتقوى ليسا فقط منبعاً للبركات المعنوية، بل يؤدّيان إلى زيادة في الأرزاق والنعم والعمران، أي **(البركة و المادية)**.

وفي اضافة جديدة إلى توازن الحدث الكوني المتمثل بالمطر مع الإيمان هو أنَّ سبب زيادة النعمة هو الاستقامة على الإيمان، وليس أصل الإيمان؛ لأنَّ الإيمان المؤقت لا

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٩٦.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ، ٣٧١٣/٦.
(٣) ينظر: المدرسي ، من هدى القرآن ،٣ /٣٨٩ .
(٤) ينظر : الشيرازي ، الامثل ، ١٢٦/٥.
(٥) زعبوب ، حيدروسي ، السنن الإلهية ومدى ارتباطها بحياة الناس ،١٢١.
(٦) سورة الجن ، الآية ١٦.

يستطيع أن يظهر هذه البركات، فالأهم هو البقاء والاستمرار ونماء هذه الاستقامة على الإيمان والتقوى[١].

وعليه يتضح أنَّ آيات القرآن الكريم تمضي في الربط بين أحداث الكون ومعطياته وبين فعل النوع الإنساني وسلوكه من دون فصل، فالجميع في عملية توازن تصدر عن وحدة علاقة مترابطة، ويتفرع عن مصدر واحد، وتعطي الإنسان دروساً في الفعل للسلوك الإنساني بمقدار الإيمان والتطبيق الواقعي له واستمرارية فاعلية ثمراته بين الناس، يأتي العطاء والنعم الإلهية متوازنة معه.

المبحث الخامس : التوازن التمكيني

التمكين هو: سنة الله المطردة في خلقه ، ونظامه الحاكم المهيمن في أفعالهم الذي إذا اتبعه عباده منحهم القدرة على التصرف في أرضه والهيمنة عليها، وأعطاهم القدرة، وجعل سبحانه وتعالى لهم مكانة مكينة في كيفية التعامل مع مفرداتها، وإحسان توظيفها[٢]، إنَّ القدرة بشتى أنواعها لا تأتي من غير استعداد وتهيئة، وهي بحاجة إلى نمو ورعاية، وليس إعجازية أو تواكلية أو استجدائية ، فالتمكين عملية سببية، تقوم على اتِّباع الأسباب، ولا يظن المؤمن أنَّ إيمانه يغنيه عن اتِّباع الأسباب، فالدنيا والآخرة قائمتان على الأسباب والسنن التي وضعها الله سبحانه [٣].

وينطوي في ظل هذا التوازن تسخير الله لعباده ما في الكون من منافع يحتاجها الإنسان في ديمومة حياته ورفاهيتها ومنح العطايا الإلهية للإنسان يستتبعها النصر الذي وعده الله سبحانه وتعالى للمؤمنين والاستخلاف في الأرض.

وفي ضوء ما يأتي:

المطلب الأول: التوازن في التسخير للإنسان:

التسخير: من سخر وقيل: السين والخاء والراء أصل مطرد مستقيم يدل على احتقار واستذلال، من ذلك قولنا سخر الله عز وجل الشيء، وذلك إذا ذلّ لأمره وإرادته[٤]، والتسخير: تذليل الشيء وجعله منقادًا للآخر وسوقه إلى الغرض المختص به قهراً[٥]، ومنه ومنه قوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**﴾[٦]، أي: ذلّلهما، وكل ما ذل وانقاد أو تهيأ لك على ما تريد فقد سُخّر لك[٧].

---

(١) ينظر : الشيرازي ، الامثل ، ٩٣/١٩.
(٢) ينظر: زكي ، محمد رمضان خميس ، سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم ، ط١ ، دار المقاصد ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ ، ١٣.
(٣) ينظر : جعفر ، صادق ، التمكين الشيعي استراتيجيات تمكين الشيعة وتعزيز اوضاعهم في العالم ، ط١ ، منشورات دار الرضا ، بيروت – لبنان ، ١٤٣٦هـ ،٤١.
(٤) ينظر : ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ٣/ ١٤٤.
(٥) ينظر : الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ٤٠٢.
(٦) سورة ابراهيم : الآية ٣٣.
(٧) ابن منظور ، لسان العرب ، ٣٥٣/٤

والتسخير في الاستعمال القرآني ورد بكلمة (سخر) في القرآن (٤٢) مرة، والذي يخص التسخير منها (٢٧) مرة[١].

وفي الاصطلاح عُرّف: بأنّه "قيام الله عز وجل بتمكين الإنسان من استعمال مظاهر الكون في تطبيقات كلية ونافعة له في المجالات الحياتية المختلفة من دون ثمن مقابل ما يقدمه ذلك الإنسان لله سبحانه وتعالى"[٢]، وإنَّ مبدأ التسخير يحتّم على الإنسان أن ينظر إلى الطبيعة بعين الواقع لتتجلى له حكمة الله جل وعلا التي اقتضت ذلك التطويع والتسخير للأرض والسماء وجعلها في خدمة الإنسان لكونه مستخلفاً من الله تعالى؛ لأنه "المستأمن من قبل الله تعالى على مصادر الثروة في الكون ليدبر أمرها ويدير شأنها وفقاً للروح العامة لملكية الله تعالى "[٣].

ويُعد التسخير من أهم حلقات التفعيل في نظرية الخلافة ومن مثبتات دعائمها، وإنَّ الكون الذي سخّره الله تعالى للإنسان مستأمن عنده، وعليه فهي وسيلة لدى الإنسان في ذات الوقت ليبلغ الحلقة الاخيرة من حلقات التوازن التمكيني وهو الاستخلاف؛ فيكون التسخير هنا "قهر الفاعل في فعله بحيث يفعله على ما يستدعيه القاهر ويريده، كتسخير الكاتب القلم للكتابة، وكما يسخّر المولى عبده والمخدوم في أن يفعل باختياره وإرادته ما يختاره ويريده المولى والمخدوم والأسباب الكونية كائنة ما كانت تفعل بسببيتها الخاصة ما يريده الله سبحانه من نظام يدبر به العالم الإنساني "[٤].

إنّ آيات تسخير المخلوقات والناس متنوعة في القرآن الكريم، وعدت الكون والبيئة وعناصر مكوناتها التي تحيط بالإنسان من أهم موارد التسخير، وسيعرضها البحث كالآتي :

١- تسخير السماوات والارض :

قال تعالى :﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾[٥].

قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾[٦].

٢- تسخير السحاب :

قال تعالى:﴿**وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[٧].

---

(١) ينظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، (د ط)،مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦٤هـ، ٣٤٧–٣٤٨.

(٢) ال سميسم ، سلام عبد الكريم ، التوازن الاقتصادي ، ط١ ، دار مجدلاوي للنشر ، الاردن ، ١٤٣٢هـ ،٦٩.

(٣) الصدر ، محمد باقر ، الاسلام يقود الحياة ، ط١ ، مركز الابحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر ، قم – ايران ، ٦٩.

(٤) الطباطبائي ، الميزان ، ٢٢٨/١٦.

(٥) سورة لقمان : الآية ٢٠.

(٦) سورة الحج : الآية ٦٥.

(٧) سورة البقرة : الآية ١٦٤.

٣- تسخير الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار:

قال تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢].

٤- تسخير البحر والفلك والأنهار:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣]

قال تعالى:﴿وَسَخَّرَلَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾[٤].

٥- تسخير الطير:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٥].

٦- تسخير الجبال :

قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾[٦].

قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ﴾[٧].

٧- تسخير البدن :

قال تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٨].

قال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٩].

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .
(٢) سورة النحل : الآية ١٢.
(٣) سورة النحل : الآية ١٤.
(٤) سورة إبراهيم : الآية ٣٢.
(٥) سورة النحل : الآية ٧٩ .
(٦) سورة ص : الآية ١٨.
(٧) سورة ص : الآية ٣٦ .
(٨) سورة الحج : الآية ٣٦.
(٩) سورة الحج : الآية٣٧.

إنَّ المتأمل لآيات التسخير يؤكد قوة العلاقة والتوازن والانسجام بين الإنسان والكون والبيئة.

وهذا التنوع في أشكال التسخير يعود إلى الواقع التنظيمي للحياة الإنسانية الذي يستدعي التوازن في توزيع الأرزاق، وتنويع الطاقات، واختلاف الحاجات، وتعدّد المواهب، ولم يجعل الله لأيّة حالة طبقية أو فئوية ميزة بحسب ميزان القيمة عنده أو في حركة التشريع، بالمعنى التسلّطي المفروض على الناس[١].

ومن آثار التوازن في التسخير من مجموع هذه الآيات يمكن أن نستفيد منها الآتي:

أولاً: إنَّ الإنسان أكمل جميع الموجودات في هذا العالم، فهو خليفة الله، وقلبه مستودع نوره، ونرى أنَّ الشريعة الإسلامية تعطي للإنسان القيمة الكبيرة بحيث تُسخّر له كل ما في الكون.

ثانياً: يتّضح أنّ التسخير ليس المقصود منه إنّ جميع هذه الكائنات هي تحت إمرة الإنسان، بل هي بقدر معين تدخل ضمن منافعه وخدمته، وعلى سبيل المثال، فإنَّ تسخير الكواكب السماوية من أجل أنَّ يستفيد الإنسان من نورها أو لفوائد أخرى[٢].

ثالثاً: إن التوازن المتنوّع في هذا التسخير والنظام دليل واضح على عظمة الخالق وقدرته وحكمته في تطويع مخلوقاته كافة، ومن مظاهر رحمته بالناس تسخير الكون وموجوداته لهم، وجعلها خاضعة لإرادتهم، وأن يستثمروا عمليا كل القوى الموجودة فيها، بما يحقق لهم الراحة والطمأنينة والقوّة والاستمرار.

و قد أثبتت التجربة الإنسانية أنَّ تساوي الجميع على صعيد واحد، ليس أمراً واقعاً؛ لأنَّ طبيعة الحياة تفرض التنوّع في كل شيء، ومنها عالم الحيوان والنبات والجماد، كما تفرض تبادل الخدمات واستعمال بعض الناس لبعضهم الآخر، ما يجعل القيمة المشتركة في عمق الأمور شاملة للناس جميعا، ولذلك فقد لا يكون من الطبيعي الحديث في مجال التقنين والتنظيم عن مساواة مطلقة بين الناس، بل المفروض هو الحديث عن المساواة في الحقوق وتوفير الفرص للجميع على أنَّ لا يفضل شخص على آخر إلا من خلال كفاءته ودوره المميّز في ما يقدمه للحياة والمجتمع، ليتحرك التوازن في دائرة التنوّع، لا في دائرة إلغاء الخصوصيات[٣].

المطلب الثاني: التوازن في تمكين الإنسان:

ويمكن تسليط القول فيه عبر الآتي:

أولا: التمكين في اللغة والاصطلاح:

---

(١) ينظر: فضل الله ، من وحي القرآن ، ٢٠/ ٢٣٥.
(٢) ينظر : الشيرازي ، الأمثل ، ٣٣٧/٧.
(٣) ينظر : فضل الله ، من وحي القرآن ،٢٣٦/٢٠.

١- التمكين في اللغة يقال: مكّنتهُ من الشيء تمكيناً، جعلت له سلطاناً وقدرة متمكن منه، والمكنة: القدرة والاستطاعة ، والقوة والشدة [١].

٢- التمكين في الاصطلاح فهو:"حالة متعلقة بالاستطاعة والقدرة على الشيء، والمكانة الرفيعة وتوافر الإمكانيات لفعل شيء ما، والشخص المتمكن هو القادر على فعل شيء والذي لديه إمكانية ومستقر في مكانه، والمكين هو القوي المتين "[٢].

في قوله تعالى: **﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾**[٣]، والتمكين هنا: "هو فعل جميع ما لا يصح الفعل إلا معه مع القدرة "[٤]، وهنا التمكين بمعنى الاقتدار وتمهيد الأسباب وجعل القدرة والقوة له متلازمتين في الوجود، ولقد مكَّن الله الإنسان في الأرض، فأعطاه سلطانا وطيد الدعائم؛ ويسّر له أسباب الحكم والفتح، وأسباب البناء والعمران، وأسباب السلطان والمتاع، وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة[٥]، وقوله: **وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾**، والسبب الوصلة والوسيلة هو أن يؤتى من كل شيء يتوصل به إلى المقاصد الهامة الحيوية ما يستعمله ويستفيد منه كالعقل والعلم والدين وقوة الجسم وكثرة المال والجند وسعة الملك وحسن التدبير وغير ذلك[٦]، وقوله تعالى**﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأرْضِ﴾**[٧]، أي نجعلهم يحكمون في الأرض وتكون السلطة والقدرة والقدرة وغيرهما لهم و تحت تصرفهم ، والفعل المضارع في (نمكن) يفيد الاستمرار، وهذا الاستمرار لا يختص بتمكين فترة خاصة أو معينة، كتمكين المستضعفين من بني إسرائيل وحكومة الفراعنة، بل توضح قانونا كليا لجميع العصور والقرون ولجميع الأمم والأقوام، فهي بشارة في صدد انتصار الحق على الباطل والإيمان على الكفر[٨].

يتضح من تفسير الآية إنَّ التمكين عملية سببية، لأنَّ تمكين الأرض وحكمها لا يتم إلاّ بالسير والالتزام بالأسباب التي تقود إلى التمكين.

ثانياً: نماذج من آيات التمكين في القرآن الكريم:

تصدح آيات القرآن الكريم بالتوازن بين عناصر الكون ووشائجه، فهو سنة الله التي دبَّر بها الكون، وعليها أدار فلك نظامه الإلهي متقن الإبداع، وهذا التوازن عبَّر عنه البيان القرآني وأوجز أسلوبه الإعجازي بروعة الإيجاز في آيات التمكين أما بوجود كلمة التمكين أو الإشارة إليها من دون ذكرها الصريح كما في الآتي:

١- التمكين بالعطاء:

---

(١) ينظر : الفيومي ، المصباح المنير ، ٥٧٧ ، وينظر : مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ٨٨٣.
(٢) جعفر ، التمكين الشيعي استراتيجيات تمكين الشيعة وتعزيز اوضاعهم في العالم ، ٣٣.
(٣) سورة الكهف : الآية ٨٤.
(٤) الطبرسي ، مجمع البيان ، ٣٧٥/٧.
(٥) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٢٩٠.
(٦) ينظر : الطباطبائي ، الميزان ، ٣٦٠/١٣.
(٧) سورة القصص : الآية ٦.
(٨) ينظر : الشيرازي ، الامثل ، ١٢/ ١٧٤ - ١٧٥

قوله تعالى:﴿ **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ**﴾[1]، قيل في قوله: ﴿**أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ**﴾، إنَّ الآية في بيان سنة الله تعالى في توازن عناصر كل مخلوق، توازناً جرى على وفق تقدير منسَّق محكم، وقوله:﴿**ثُمَّ هَدَىٰ**﴾، (ثم) والمراد هنا التأخر الرتبي فإنَّ سير الشيء وحركته بعد وجوده رتبة وهذا التأخر في الموجودات الجسمانية تدريجي زماني وهو بيان توازن التمكين في إشارة إلى أصلين أساسيين من الخلقة والوجود الذي أعطاه لكل مخلوق من مخلوقاته في طريقة عيشه وضبط حياته[2].

وفي إشارة إلى المدد والعطاء الإلهي في قوله تعالى: ﴿**كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾[3]، فقوله: **(كُلًّا نُمِدُّ)** أي: كلا نمد إلى الفريقين المعجل لهم والمشكور سعيهم، وإنّما قدم المفعول على فعله لتعلق العناية به في الكلام فإنَّ المقصود بيان عموم الإمداد للفريقين جميعا، والإمداد يكون إلى الفريقين؛ لأنَّ كلاً من الفريقين تحت التربية الإلهية يفيض عليهم من عطائه من غير فرق في طريقة استعمال هذه النعم، فأحدهما يستعمل النعمة الإلهية ابتغاء الآخرة فيشكر الله سعيه، والآخر يستعملها ابتغاء الدنيا وينسى الآخرة فلا يبقى له فيها إلا الخيبة والشقاء[4] .

وإنَّ "السعي وبذل الجهد لا يتعلقان بالكمية والمقدار فقط ، ففي بعض الأحيان يكون السعي القليل ذو الكيفية العالية أكثر أثرا من السعي الكثير والكيفية الدانية "[5].

وهذا هو الطريق العملي الذي يرسمه القرآن الكريم لمفهوم العطاء الذي يتوازن مع السعي .

٢- توازن التمكين بالمعاش:

كقوله تعالى :﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ**﴾[6]، التمكين في الأرض هو: الإسكان والإستيطان فيها أي جعلنا مكانكم الأرض، والتمكين أيضا بمعنى الإقدار والتسليط، ويؤيد هذا المعنى الثاني قوله تعالى:﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً**﴾[7]، وهو التسليط والتسخير، والمعايش جمع معيشة وهي ما يعاش به من مطعم أو مشرب أو نحوها، والآية في مقام الامتنان عليهم بما أنعم الله عليهم من نعمة سكنى الأرض أو التسلط والاستيلاء عليها، وجعل لهم فيها من أنواع ما يعيشون به[8].

---

(1) سورة طه : الآية ٥٠.
(2) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ١٢١/١٤ ، وينظر: الشيرازي ، الامثل ، ١٤/١٠ بتصرف .
(3) سورة الاسراء : الآية ٢٠.
(4) ينظر : الطباطبائي ، الميزان ، ٦٧/١٣.
(5) الشيرازي ، الامثل ، ٤٤٦/٨.
(6) سورة الأعراف : الآية ١٠.
(7) سورة البقرة : الآية ٢٩.
(8))ينظر : الطباطبائي ، الميزان ، ١٩/٨.

إنَّ آيات القرآن الكريم عن التمكين الإلهي والتسخير الربوبي تؤكد "نظرية التنوع في الوجود، في الإنسان والطبيعة، بحيث يسير نحو التوحد مع حركية الخصائص المتنوعة في داخله أما الجهد والتعقيد في الوصول إلى فعلية التكامل، فإنّه من لوازم السنَّة الإلهية في حاجة الإنسان، للوصول إلى ما يريد، إلى الكثير من الحركة والصعوبة التي تكلفه الكثير من الجهد والتضحيات، لأنَّ الله أراد للأشياء أن لا تفصح عن دفائنها، وأن لا تعطي من طاقاتها إلا بذلك، تماما كما هو خلق الإنسان في كبد، وكما هو برنامج المسؤولية الملقاة على عاتقه التي تمنحه نتائجها في الدنيا والآخرة"[1]، وذلك قوله تعالى: **﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾**[2].

إنَّ القرآن الكريم وحده هو الذي يمضي وراء هذه الجزئيات ليربطها كلها بأصل شامل متوازن، بأنَّ الله هو الذي خلق الكون، وهو الذي خلق الإنسان، وقد اقتضت مشيئته وحكمته أن يجعل طبيعة هذا الكون وما فيه تسمح بنشأة الإنسان وحياته، وأودع في هذا الإنسان من الاستعدادات ما يسمح له بالتعرف على بعض نواميس الكون واستعمالها في حاجته وتسخيرها له، وهذا التوازن الملحوظ هو الجدير بصنعة الله الذي أحسن كل شيء خلقه.

٣- التوازن بين التمكين الديني مع العمل الصالح :

قال تعالى:**﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾**[3]، المقابلة التوازنية هنا بين وعد الله للمؤمنين **﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** وبين **﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾**.

٤- التوازن بين إزالة التمكين والهلاك مع الذنوب :

قال تعالى: **﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾**[4]، في قوله: **﴿فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾** دلالة على أنَّ للسيئات والذنوب دخلا في البلايا والمحن العامة، كما إنَّ هناك دخل في الحسنات والطاعات في إفاضات النعم ونزول البركات [5]، ولكنّهم لمّا استمروا على طريق الطغيان، لم تستطع هذه الإمكانات إنقاذهم من العقاب الإلهي؛ ولأنّ الإمكانات المادية الكثيرة تبعث على الغرور والغفلة لدى ضعفاء النفوس من الناس كقوله تعالى:

---

(1) فضل الله ، من وحي القرآن ، ٣٣/١٠.
(2) سورة الانشقاق : الآية ٦.
(3) سورة النور : الآية ٥٥.
(4) سورة الأنعام : الآية ٦.
(5) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ١٨/٧.

﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾[1]؛ لأنّهم بتوفر تلك الإمكانات عندهم يرون أنفسهم في غنى عن الله، غافلين عن العناية الإلهية وإمداداتها الربانية المغدقة عليهم في كل الأوقات، ولولاها لما استمروا على قيد الحياة [2].

وتذهب الباحثة إلى وجود علاقة مطردة توازنية بين التمكين في الأرض ومدرار السماء وجريان الانهار في آية ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، وبين الذنوب التي يكسبونها بما تصنع أيديهم، يصل فيها التوازن إلى نقطة الهلاك للإنسان بكل ما كان يمتلك من أنواع السيطرة وقوة التمكين مع قوة الذنوب التي اكتسبوها وكثرتها.

ثالثاً: مقومات التمكين واستمراره في الأرض:

لقد ذكر القرآن الكريم مقومات التمكين في الأرض والأمور التي يستمر ويتمكن عن طريقها كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[3]، في الآية الشريفة الامور التي ينتهجها عباد الله الصالحون عند تمكينهم في الأرض، وتُعدّ كذلك مقومة في استمرارية التمكين، وهو التمكين بإقامة الفرائض وتتشكل على ثلاثة أبعاد هي :

أ- بُعدٌ متمثل بالتربية الدينية المتعلقة بالفرد في قوله :﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

ب-وبُعدٌ متمثل بالمعاملات الاقتصادية المتعلقة بأفراد المجتمع وهو يشمل كل أبعاد الإنفاق الواجب والمستحب ويسهم في إرساء العدالة الاجتماعية، بل و في توفير الرخاء في المجتمع المسلم في قوله: ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾.

ت-وبُعدٌ متمثل بتنظيم العلاقات الاجتماعية على نحو الضبط السلوكي والأخلاقي بالأمر بالمعروف والقيام بما أمر به الشارع المقدس من الأعمال الصالحة، والنهي عن المنكر والقضاء على كل المفاسد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في قوله: ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[4].

وفي الآية إشارة واضحة إلى أثر التوازن في التمكين، وهو إقامة الفرائض والحدود وتحكيم الشريعة؛ لينعم الفرد والمجتمع بثمرات هذا التوازن عن طريق الارتباط بالله وإقامة الصلاة، وثمرة التلاحم الاجتماعي بإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اللذين يُعدان من الدعامات الأساس والقوية في بناء الفرد والمجتمع السليم، وهذه المقومات تكفي لتعريف هؤلاء الأفراد، ففي ظلّها تتمّ ممارسة سائر العبادات والأعمال الصالحة، وترسم بذلك خصائص المجتمع المؤمن المتطور [5].

---

(1) سورة العلق : الآيات ٦ – ٧.
(2) ينظر : الشيرازي ، الامثل ، ٢١٤/٤.
(3) سورة الحج : الآية ٤١.
(4) ينظر : المدرسي ، من هدى القرآن ، ٧٦/٨ بتصرف.
(5) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ٣٥٩/١٠.

وليس لغير أهل التقوى هذا التوفيق واللطف الخاص، ولكنه تعالى يقدر الملك لمثل هؤلاء تنظيماً للنظام والامتحان والاختبار؛ ولأنه سبحانه له ألطاف وتوفيقات خاصة بالنسبة إلى المستفيض إن كان من أهل الصلاح والتقوى، واتمام للحجة للقوم الذين مكنهم الله تعالى في الأرض ما لم يمكن لغيرهم فيها من فيوضات السماء وأنعمها وجريان الأنهار، وأهلكتهم ذنوبهم[1].

وإنَّ التمكين يتوازن مع العبادة وعدم الشرك في قوله تعالى:**﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾**[2]، وتمكين الشيء هو: "إقراره في مكان وهو كناية عن ثبات الشيء من غير زوال واضطراب وتزلزل بحيث يؤثر أثره من غير مانع ولا حاجز فتمكن الدين هو كونه معمولا به في المجتمع من غير كفر به واستهانة بأمره ومأخوذا بأصول معارفه من غير اختلاف وتخاصم "[3].

وتذهب الباحثة إلى إنَّ ما ذكر من العبادة الخالصة لله تعالى بمعناها الشامل والصحيح وعدم الشر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي من عوامل توازن التمكين واستمراريته؛ لأنَّ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

رابعاً: شواهد التمكين في الأرض:

١ـ التمكين لنبي الله يوسف عليه السلام :

في قوله تعالى: **﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾**[4]، أخبر اللَّه تعالى: "أنه كما لطف ليوسف حين أخرجه من السجن وخلصه من المهالك كذلك مكَّنه من التصرف، والمقام في الأرض حيث يشاء كيف يشاء، وكان هذا التمكن ليوسف ثواباً من اللَّه على طاعته وإحسانه الذي تقدَّم منه في الدنيا، ويجوز أن يكون تفضلًا عليه بذلك من غير أن ينقص من ثوابه شيء، والتمكين: الإقدار بما يتسهل به الفعل من رفع الموانع وإيجاد الآلات والألطاف وغير ذلك مما يحتاج إليه في الفعل، والتبوؤ هو اتخاذ منزل يرجع إليه وأصله الرجوع "[5]، من قوله تعالى: **﴿باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾**[6]، والتوازن هنا بالتمكين بالتمكين ليوسف؛ لأن يوسف عليه السلام كان من المحسنين.

٢ـ التمكين لبني إسرائيل:

قال تعالى: **﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾**[7]، والمعنى: "أورثنا بني إسرائيل وهم

---

(1) ينظر: السبزواري، مواهب الرحمن، ٢١٠/٥
(2) سورة النور : الآية ٥٥.
(3) الطباطبائي ، الميزان ، ١٥٢/١٥.
(4) سورة يوسف : الآية ٥٦.
(5) الطوسي ، التبيان ، ٦/ ١٥٨.
(6) سورة آل عمران : الآية ١١٢.
(7) سورة الاعراف : الآية ١٣٧.

المستضعفون الأرض المقدسة بمشارقها ومغاربها، وإنما ذكرهم بوصفهم فقال: القوم الذين كانوا يستضعفون ليدل على عجيب صنعه تعالى في رفع الوضيع، وتقوية المستضعف، وتمليكه من الأرض ما لا يقدر على مثله عادة إلا كل قوي ذي أعضاد وأنصار"[1]، ويؤكد رجاءهم في قوله تعالى في السورة نفسها:﴿**عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾[2] ويشير سبحانه إليه أيضاً في قوله تعالى: ﴿**وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ**﴾[3]، وتمام الكلمة خروجها من مرحلة القوة إلى المرحلة الفعلية، وعلّل ذلك بصبرهم ومكافأة لهم في قوله : ﴿**بِمَا صَبَرُوا** ﴾[4]، وتوازن التمكين لبني اسرائيل بسبب صبرهم.

٣- التمكين لنبي الله داود وسليمان عليهما السلام :

في قوله تعالى: ﴿ **فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[5]، من أدوات التمكين التي منحها الله داود عليه السلام هو: الملك والمراد الملك الظاهري، كما أنَّ المراد بالحكمة الملك المعنوي سواء أريد بها النبوة، أو المعارف الإلهية، وقد علّم سبحانه وتعالى داود فصل الخطاب وما يتطلبه الملك والحكم والإدارة والتدابير الظاهرية، وقوله: ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ**﴾، والآية تبيّن أنَّ فساد النوع الإنساني يوجب فساد الأرض وما عليها بالتبع كما أنّ صلاح الأرض إنّما يكون بصلاح أهلها، وفساد الاجتماع الإنساني ولو استتبع فساد الاجتماع فسادا في أديم الأرض فإنما هو داخل في الغرض بالتبع لا بالذات، وهذه حقيقة من الحقائق العلمية ينبّه لها القرآن الكريم [6]، وسبب تمكين الله لنبي الله داود عليه السلام في الأرض ؛ لأنّه كان حاكماً صالحاً ، ينفذ شرع الله في أوامره ونواهيه، وبفضل مؤهلاته وحكمته قتل جالوت وهزم جيشه.

٤- التمكين لذي القرنين :

في قوله تعالى : ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾[7]، أي بسط الله الله يده في الأرض وملكه حتى استولى عليها وقام بمصالحها، وسخر الله له السحاب فحمله عليها ومدَّ له في الأسباب وبَسَطَ له النور فكان الليل والنهار عليه سواء وهذا

---

(1) الطباطبائي ، الميزان ، ٢٢٨/٨.
(2) سورة الأعراف : الآية ١٢٩.
(3) سورة القصص : الآية ٥.
(4) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٨ / ٢٢٩.
(5) سورة البقرة : الآية ٢٥١.
(6) ينظر: الطباطبائي، الميزان ،٢/ ٢٩٤ ،وينظر: السبزواري ، مواهب الرحمن ،٤/ ١٥٧.
(7) سورة الكهف : الآية ٨٤.

معنى تمكينه في الأرض[1]، وهذه البسطة في القيام بمصالح الناس ومساعدتهم كان سبباً في تمكين ذي القرنين.

٥- التمكين للنبي محمد ﷺ :

قال تعالى :**﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾**[2]، والمعنى أنَّ الله هو الذي أرسل رسوله محمد ﷺ مع الهداية أو(الآيات والبينات) ودين فطري ليظهر وينصر دينه الذي هو دين الحق على كل الأديان ولو كره المشركون ذلك[3].

وقوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾** [4]، أي شاهدا على صدق نبوته والوعد إنَّ دينه سيظهر على الدين كله، وهذا وعد صريح و قاطع من الله سبحانه في غلبة الإسلام وظهوره على سائر الأديان[5].

هذا الوعد من الله سبحانه وتعالى تكرَّر ذكره في القرآن الكريم للرسول ﷺ وللمؤمنين بالنصر والغلبة والتمكين في الأرض .

ويتضح أنَّ التمكين هو تكليف للمؤمنين وليس هدفاً أو غايةً، وهذا التكليف يتطلب القيام بأعباء ومهام اجتماعية واقتصادية وسياسية.

المطلب الثالث: التوازن في الاستخلاف والنصر

إنَّ المرحلة الأخيرة في التوازن التمكيني بعد التسخير والتمكين هو استقرار هذا التمكين في صورته الأخيرة وهو الاستخلاف والنصر، ولابد من معرفة المعنى في معاجم اللغة والشرع وكالآتي:

أولاً: الاستخلاف في اللغة:

فقد ذكر ابن فارس (ت٣٩٥هـ): "خلف: الخاء واللام والفاء أصول ثلاثة أحدها أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه، والخلافة انما سميت خلافة؛ لأنَّ الثاني يجيء بعد الأول قائماً مقامه"[6]، كما في قوله تعالى:**﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**[7]، وقوله: **﴿إِنِّي جاعِلٌ﴾** أي فاعل وخالق، وهما يتقاربان، وحقيقة الجعل: تصيير الشيء على صفة، والأحداث حقيقة: إيجاد الشيء بعد أن لم يكن موجوداً،

---

(1) ينظر : الطبرسي ، مجمع البيان ، ٦/ ٧٥٦.
(2) سورة التوبة : الآية ٣٣.
(3) ينظر: الطباطبائي ، الميزان ، ٢٤٧/٩.
(4) سورة الفتح : الآية ٢٨.
(5) ينظر : الطباطبائي ، الميزان ، ٢٩١/١٨، وينظر : الشيرازي ، الامثل ، ٤٩٣/١٦.
(6) ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ٢١٠/٢.
(7) سورة البقرة: الآية ٣٠.

والخليفة: الفعيلة من قولهم: خلف فلان فلاناً في هذا الأمر: إذا قام مقامه فيه بعده، وسمي الخليفة خليفة من ذلك؛ لأنّه خلف من كان قبله فقام مقامه [١].

ومعنى الخليفة أيضا في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[٢]، خَلَائِفَ : قال الراغب(ت٤٢٥هـ) في المفردات: الخلافة: النيابة عن الغير، إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإمّا لعجزه، وإما لتشريف المستخلف، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض، والخلائف: جمع خليفة[٣]، وعرف الخليفة هو الذي يستخلف ممن قبله والجمع خلائف [٤]، وعليه فإن المعنى اللغوي يتفق في اللفظين (خليفة، خلائف).

ثانياً: الخلافة في الشرع:

"هي النيابة عن الغير إما لقصوره، أو زواله أو للتشريف والتشريع والإبلاغ، وخلافة أنبياء الله تعالى وحججه من القسم الأخير"[٥]، وعرّفها السيد المدرسي: هي القيادة التي يهبها الله لفئة من الناس؛ لأنهم يتبعون ما أنزل عليهم من قيم، وهي ذو أمرين، الاول: إنَّ الله يعطي السلطة للمؤمنين ويمكن لهم تمكيناً، والثاني: إنَّ هذه السلطة لا تكون إلاّ بإذن الله الذي يحققها ويعطيها الشرعية[٦].

والتوازن في الآية الكريمة في قوله:﴿ **وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**﴾ تتضح من معرفة معنى **(دَرَجاتٍ):** جمع درجة، والدرجة نحو المنزلة- كما يقول الراغب- لكن يقال للمنزلة درجة إذا اعتبرت بالصعود دون الامتداد على البسيط كدرجة السطح والسلّم، ويعبّر بها عن المنزلة الرفيعة [٧]، وهي النقطة المهمة في دائرة التفاوت والاختلاف بين الناس والتي تنطلق من "الفوارق الطبيعية التي تتحرك عن طريق سنة الله في الكون في تخطيطه لنظام الوجود القائم على التنوع في القدرات والألوان والأشكال والمواقع، مما تتحرك فيه الحكمة الإلهية من أجل مصلحة الخلق الذي تنفتح خصائصه على التكامل والتوازن والتفاعل في الطاقات، مما يحقق مصلحة للجميع بحسب تفاوت أوضاعهم، حتى أنَّ الخاسر من جهة قد يكون رابحا من جهة أخرى"[٨].

ثالثاً: عناصر الاستخلاف:

يبين الشهيد محمد باقر الصدر (ت١٤٠٠هـ) مفهوم الاستخلاف الرباني للجماعة البشرية على الارض بثلاث عناصر هي:

١- الإنسان.

---

(١) ينظر: الطوسي، التبيان، ١٣١/١.
(٢) سورة الأنعام : الآية ١٦٥.
(٣) ينظر : الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، ١٥٧.
(٤) ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ٤/ ١٨٣.
(٥) السبزواري، مواهب الرحمن، ١٥٠/١
(٦) ينظر: المدرسي، من هدى القرآن، ٣٤٨/٨.
(٧) ينظر: الراغب، مفردات الفاظ القرآن، ٣١٠.
(٨) فضل الله ، من وحي القرآن ، ٤٠٤/٩.

٢- الأرض أو الطبيعة على وجه عام لقوله تعالى:﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾.

٣- العلاقة المعنوية التي تربط الإنسان بالأرض أو الطبيعة من جهة وتربط الإنسان بأخيه الإنسان من جهة أخرى وهذه العلاقة المعنوية سماها القرآن الكريم (الاستخلاف)[١]، وإنَّ طبيعة العلاقة لهذه العناصر تتبلور بالشكل الآتي:

١- انتماء الجماعة البشرية إلى محور واحد وهو المستخلف، أي الله تعالى.
٢- اقامة العلاقات الاجتماعية على أساس العبودية المخلصة لله تعالى.

٣- تجسيد مفهوم روح الأخوّة العامة في كل العلاقات الاجتماعية، بعد محو كل ألوان التسلط والاستغلال وإزالتها.

٤- إنَّ الخلافة استئمان وهي مسؤولية ذات حدين، الحد الأول لمن يمارس دور الخليفة أن لا يحكم بهواه أو اجتهاده المنفصل عن توجيه الله سبحانه وتعالى، والحد الثاني هي الحرية والاختيار، إذ بدونهما لا معنى للمسؤولية، فهو قادر على الفساد كقدرته على الصلاح، وبإرادته واختياره يحدد ما يحققه من هذه الإمكانات[٢] كما في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[٣].

كَفُورًا﴾[٣].

ويكتمل التوازن في نظرة القرآن للفرد، فهو يعترف بقيمته ويحّمله مسؤولية الأرض وأمانة المجتمع وإصلاحه والوقوف بوجه الفساد والإفساد.

لقد جعل اللَّه الإنسان خليفة يملك العقل، والإرادة، وحرية الحركة، وإمكانات الإبداع، وتنوّع الإنتاج، لينظم لها حركتها، وليدبر أوضاعها، ويصنع فيها مجتمعاتها التي تمتلئ بها ساحاتها، فيكون الإنسان في الأرض تماما كما الملائكة في السماء، مع فارق نوعي، أن الإنسان مخلوق حر بينما الملائكة مجبولون على الطاعة[٤]، ليدير الأرض ويعمرها ويتحرك ويتحرك فيها على أساس التعاقب في ما ينطلق به جيل سابق لمصلحة جيل لاحق، حيث يعدّ له كل ما يحتاجه للعيش والاستمرار، وتأخذ الأرض زينتها وتوازنها وامتدادها في إغناء المخلوقات فيها بما يكفل لها العيش الرغيد والبقاء، ومع هذه الخلافة لكنّ اللَّه لم يمنح الإنسان حرية الفساد والشر والطغيان والعدوان والتخريب، بل وضع له شريعة وقانونا ينظّم له حركته وحياته على أساس التوازن بين مصلحة الفرد والمجتمع، والمادة والروح، وتلك هي خصوصية الخلافة التي يستمدّ منها الخليفة موقعه وشرعيته من المستخلف الذي يملك الأمر

---

(١) ينظر: الصدر، محمد باقر(ت١٤٠٠هـ)، المدرسة القرآنية، تح لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، ط١، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصية للشهيد الصدر، ١٤٢١هـ، ١٠٦.

(٢) ينظر ، الازرقي ، احمد زبون ، منهج فهم القرآن عند الشيد الصدر ، ط٢ ، مركز الهدف للدراسات ، منشورات المحبين ، الكوثر ، ١٤٣٢هـ ، ٤٣٧ – ٤٣٨.

(٣) سورة الإنسان : الآية ٣.

(٤) ينظر: فضل الله، من وحي القرآن، ٢١٥/١.

كله، فلا يجوز له التعدّي عما حدّد له تماما، فهو وكيل في هذه الأرض وحركة الوكيل مقيدة إلى الموكل[١]، ومن البديهي أنَّ الوكيل مهما كان موقعه فهو غير مستقل في تصرفاته، بل يجب أن تخضع تصرفاته لإذن صاحبها الأصلي، وتقع ضمن إجازته[٢].

وفي إشارة لطيفة لبيان اختلاف الملكية في مفهوم الاستخلاف في الأرض يتضح أنَّ الإسلام يختلف عن النظام الشيوعي، لأنّه يخصّص الملكية بالجماعة ، وكذا يختلف عن النظام الرأسمالي في مسألة الملكية، لأنّه يخصصها بالفرد، بينما الإسلام ليس لديه تخصيص للملكية، فالملكية لا هي للفرد ولا هي للمجتمع، بل هي في الحقيقة لله تعالى، والناس وكلاء الله، وخلفاؤه[٣]، ويستلزم بيان التوازن في الاستخلاف والنصر أن يتطرق البحث للآتي:

أ- توازن الاستخلاف بالنصر والتمكين للمؤمنين في الأرض مع الإيمان :

في قوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[٤]، والآية وعد نوعي لا وعد شخصي لكل واحد شخصي منهم في كل واقعة شخصية[٥]، فيجعل ﴿**الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ لهم القوّة والسيطرة والخلافة، ويصبحون الأمناء على إدارة شؤون الأرض التي يسيطرون عليها ﴿**كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ من الأمم السابقة التي عاشت الاضطهاد والقهر والإذلال، ولكن الله جعلها في موقع الانتصار والقوّة، فاستطاعت تكوين مجتمعاتها الصالحة، ولهذا، فإنَّ على المؤمنين مواصلة السير، والأخذ بأسباب التغيير التي سنّها الله في الكون، والتقوّي بوعد الله لهم بالنصر في مستقبل الحياة[٦]، ووعد الله بالنصر يتمثل أيضاً في قوله تعالى:﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾[٧]، وقد أطلق النصر من غير تقييده بدنيا أو آخرة أو بنحو آخر بل القرينة على خلافه بقوله:﴿ **وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾[٨].

يتضح مما تقدم أنَّ الاستخلاف في الأرض والقدرة على العمارة والإصلاح يتم عن طريق تحقيق العدل والطمأنينة، وعدم الهدم والإفساد والظلم والقهر، والقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري سواء بالفرد أو الجماعة، وهي بأجمعها تتوازن مع الإيمان والعمل الصالح، وهذا هو وعد الله بالنصر وإظهار المؤمنين وعلو شأنهم ، ولا يخلف الله وعده.

---

(١) ينظر : فضل الله، من وحي القرآن، ٤٠٥/٩.
(٢) ينظر: الشيرازي ، الامثل ، ٥٤٩/٤.
(٣) ينظر : المصدر نفسه ، ٥٤٩/٤.
(٤) سورة النور : الآية ٥٥.
(٥) ينظر: الطباطبائي، الميزان،٣٣٨/١٧.
(٦) ينظر: فضل الله ، من وحي القرآن ، ١٦/ ٣٥١.
(٧) سورة غافر: الآية ٥١.
(٨) ينظر: الطباطبائي ، الميزان، ١٧٧/١٧.

ب- شروط تحقُّق الاستخلاف

أشار القرآن الكريم إلى شروط الاستخلاف، ولوازم الاستمرار فيه في الآية السابقة وهذه الشروط هي:

١- الإيمان الصادق الخالص لله تعالى بكل معانيه وأركانه، في قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾.

٢- العمل الصالح: والقيام به بكل أنواع الخير وصنوف البر والتقوى ذلك لأنّه لا يستوي الأعمى والبصير، كما لا يستوي المسيئون والصالحون، وأنَّ الله يجازي كلا بعمله يوم تقوم الساعة، وبالرغم من أنّها لا ريب فيها إلّا أنّ أكثر الناس لا يؤمنون[١]

٣- إخلاص التوحيد والعبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى في قوله :﴿**يَعْبُدُونَنِي**﴾،"والعبادة اسم جامع لكل ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة "[٢] .

٤- عدم الشرك بجميع أشكاله : في قوله تعالى:﴿**لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾.

٥- الصبر وتحمل جميع المشاق: انتظارا لوعد الله الحق في قوله تعالى:﴿**وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**﴾، ويتحقق وعد الله بالحياة الآمنة باستخلاف الأمناء والأخيار من عباده الذين يقومون بنشر قيم الخير والعدل والامن ولا تستقيم الحياة إلاّ بذلك.

وهناك شروط أخرى للاستخلاف صرَّح بها القرآن الكريم بآياته منها :

١- الحرية: وهي حالة ملازمة للوجود وشرط أساس من قيم الخلافة تميّز الإنسان من سائر المخلوقات، فهو حر مختار، وإذا سلبت هذه الحرية لا يكون هناك معنى للمسؤولية والتكليف [٣].

٢- العلم والمعرفة: ولكي يقوم الإنسان برسالة المسؤولية والتكليف التي نيطت به، لابد له من العلم والمعرفة المستمرة والمتابعة لمستجدات العلوم والمعارف والحاجات، وهذا يحتاج من الإنسان تنمية مهاراته وقدراته .

٣- التخطيط: إنَّ تنمية مسيرة الإنسان المستخلَف في الأرض تقوم على التخطيط وحسن التدبير، وقد مكَّن الله لنبي الله يوسف عليه السلام في أرض مصر بحسن تخطيطه في قوله تعالى:﴿**قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ**﴾[٤].

٤- اتقان العمل: هو المحور الذي تدور عليه مسؤولية الاستخلاف، إذ إنَّ الإنسان الذي يؤدي عمله، لابد من أن يتمتع بالكفاءة والقدرة للقيام بدوره في المهام والوظائف، قال

---

(١) ينظر: المدرسي، من هدى القرآن، ٩٤/١٢.
(٢) المنجد ، سنن الله في خلقه ، ٣٠.
(٣) ينظر: الازرقي ، منهج فهم القرآن عند الشيد الصدر ، ٤٤٠.
(٤) سورة يوسف : الآية ٤٧.

تعالى :﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[1].

وبلا شك فإن السؤال يفرض نفسه في هذا المقام هل أنَّ الفاسق والكافر لا يمكن لهما في الأرض؟ وماذا عن التمكين لأمم غابرة كالفراعنة والروم والفرس ؟ أو دول أمريكا، وروسيا والصين في عصرنا يأمرون ولا يؤمرون؟

والجواب على هذا السؤال إن الكفار المشركين والفاسقين في القرآن الكريم لا يعبر عن ظهورهم بألفاظ التمكين والاستخلاف، وعبر عنهم القرآن بألفاظ ودلالات اخرى منها في قوله تعالى: ﴿**لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلادِ ۞ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾[2] الخطاب للنبي و المقصود به الناس[3]، والتقلب هو كثرة الاضطراب في مختلف البلاد والتقلقل في الاسفار والانتقال من حال الى حال، بوفور النعمة و كثرة القوة والسلطة في دولة المال ام دولة الحال وتغلبا في اي تقلب، فإنّما ذلك على طوله فهو (مَتاعٌ قَلِيلٌ) فان الدنيا بكل متاعها بجنب الآخرة قليل ﴿**ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ**﴾[4].

إن التوازن بين لفظ (التقلب) في البلاد في الآية الكريمة ولفظ الاستخلاف والتمكين في الأرض في الآية:﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾ تستوحي وكأن العمارة الحقيقية المكتملة حضارتها الشاملة الكونية لا تكون إلاّ بروح (الإيمان) و(العبادة) و(عدم الإشراك)، أما عدها فمجرد تقليب في البلاد مهما كثر عددها، أو طال أمدها[5].

قال تعالى:﴿ **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾[6]، قسم مع تأكيد بالغ على نصره تعالى، والمعنى أقسم لينصرن الله من ينصره بالدفاع عن دينه إن الله لقوي لا يضعفه أحد ولا يمنعه شيء عما أراد[7]، وهذا النصر لا يكون إلاّ من خلال خلال ما يهيّئ له من وسائل من الله تعالى من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب، وما يثيره في داخل نفسه من عوامل القوّة الروحية، مما قد يحقق كثيرا من شروط النصر، على المستوى المادي والمعنوي، ولا يخفى تدخل القوّة الإلهية- في بعض الحالات- بطريقة غيبيّة تمهد بعض الأجواء التي قد لا تتحقق بدونها[8].

---

(1) سورة التوبة : الآية ١٠٥.
(2) سورة آل عمران، الآيات ١٩٦-١٩٧.
(3) ينظر: الطباطبائي، الميزان، ٨٩/٤.
(4) ينظر: الطهراني، الفرقان، ١٣٥/٦.
(5) ينظر: المقري،هند،الاستخلاف مفهومه وشروطه وثمراته،جريدة المحجة،العدد٣٣٩، ١٤٣١هـ، htt://almahajjafes.net
(6) سورة الحج : الآية ٤٠.
(7) ينظر: الطباطبائي، الميزان، ٣٨٦/١٤.
(8) ينظر: فضل الله، من وحي القرآن، ٨٥/١٦.

إنَّ جميع شروط الاستخلاف لا تحقق التمكين للناس مالم تكن العبادة جماعية وهذا لا يقلل من أهمية العبادة الفردية التي تحقق سعادة الفرد في الدارين؛ ولكنها ليست سبباً ومقدمة كافية للاستخلاف في الأرض، فلكي تتحقق السعادة للامة في الدنيا بالتمكين لها، ورضى الله في الاخرى لابد من العبادة الجماعية في الضرب في الأرض والعمل والتخطيط، في كافة الميادين، بالتمكين التام من الاقتصاد، ملكاً، وانتاجاً وتصنيعاً، وتوزيعاً عادلا متوازناً، وتنمية علمية شاملة، يشارك فيها كل افراد الامة وفق تخطيط محكم هادف؛ لأن القرة العلمية والمالية إحدى مرتكزات الاستخلاف الاقتصادي، والمرتكز الاخر هو الاستخلاف السياسي، أي اسناد السيادة والسلطة المطلقة لله وحده، فلا تصرف في أي شيء إلاّ وفق ما شرعه الله تعالى هذا من جهة ، والحق والقدرة في السيطرة وتوظيف الموارد وتوزيعها في عمران الأرض واستخلاف الله عز وجل للإنسان فيها من جهة اخرى [1].

وعليه فإنَّ التوازن التمكيني هو منظومة كاملة من مفاهيم بينها القرآن الكريم من العبادات، والاقتصاد، والرعاية الاجتماعية، وهي مفروضة على كل مسلم واجب القيام بها.

([1]) ينظر: المقري، الاستخلاف مفهومه وشروطه وثمراته، بتصرف .

الخاتمة

بتوفيق من الله أنهيت رسالتي الموسوم (قانون التوازن في القرآن الكريم)، وزاد في هذا التوفيق إنَّ مداره كان كتاب الله تعالى، أنَهلُ منه التوازن بصحبة علماء التفسير واللغة وعلوم القرآن، أنتقي من فيض علمهم درر الكلام، وقد انتهت فيه الباحثة إلى جملة من النتائج الآتية :

١- أن التوازن في القرآن الكريم هادف يحمل رؤية إسلامية للكون والحياة والإنسان، من هنا كان هذا التنويع في النظم القرآني، الذي شمل المفردة المنتقاة، والتركيب الجزْل، والصورة البارعة للحدث، والقصة الواعظة بحوارها الفني، ومستويات التشريع السامي والإعجاز، لتحقيق هذا الغرض الديني من التوازن.

٢- إنَّ قانون التوازن هو: كبريات الأمور الكلية التي تنطبق على مصاديق في القرآن الكريم تستخرج من نصوصه الكريمة في متقابلات مستوياته اللغوية، وآياته التكوينية، والتشريعية؛ لإعطاء كل ذي حق حقه ، لتحقيق أهداف القران وغاياته الشريفة بأحسن ما يكون.

٣- يكون قانون التوازن قائماً على المتقابلات في إعطاء كل طرف حقه من الاستحقاق بلا إفراط أو تفريط، ومن دون زيادة أو نقصان، ومن الخطأ تسمية التوازن بالوسطية أو الاعتدال أو التكافؤ أو المساواة.

٤- إن قانون التوازن هو سمة الكون، ومن ثم فهو سمة النظام والجمال وقوامهما، وبدونه لا فاعلية للكون والنظام والجمال، وهذه السمة أظهرت عظمة الخالق وقدرته، وزيادة الإيمان بالله وتعميقه في النفوس، والإقرار بوحدانيته من خلال أثارة دفائن العقول حول وجود الله والتوحيد عبر الموجودات التي تحيط بالإنسان، والتي تدخل ضمن اهتماماته، وتلامس حاجاته، والتي يقع عليها بصره وحواسه.

٥- كل شيء في الكون خاضع إلى قانون التوازن والتقدير، والقرآن الكريم بما يحويه من حروف وكلمات وجمل وآيات وسور وضعت في موضعها الذي أراده الله سبحانه بشكل هندسي بقدر مقدر، وكان هذا الوضع متوازناً مع الحدث القرآني لفظاً وأسلوباً وتركيباً وصوتاً، فكان قانوناً في أي موضع وضع فيه فهو مطرد، تراه في مستوياته العقدية والعبادية والتشريعية والتكوينية بكل مفرداتها وحدودها التي ينتهي اليها في أوامره ونواهيه.

٦- التوازن في القرآن الكريم أكد على تكاملية الإنسان بدءا من توازنه الخلقي وتوازنه العبادي والأخلاقي والاجتماعي، فهو يسعى إلى بناء الإنسان فكراً وعقلاً وشعوراً وسلوكاً في علاقته مع ربه ومع أفراد المجتمع ومحيطه.
٧- يعدّ قانون التوازن هو ضابطة للإعجاز؛ لأن تجلياته في كافة مخلوقات الله ابتداءً من الكون ومروراً بالكائنات الحية، لا يجعل للملحدين وأتباعُ القولِ بصدفة الخلق مجالاً في تصديق افتراءاتهم .
٨- إنَّ قانون التوازن قانون عام شامل لجميع السنن الإلهية، فلولا التوازن لانفرط عقد الكون واندثرت أجزاؤه وتبعثرت أركانه وانهارت السنن الكونية والأنظمة البيئية، ولوقعت السماء على الأرض، ولأنتهت الحياة قبل أن تبدأ، ومخالفة نظام السنن وخرق نواميس الكون هو خرق لقانون التوازن واضطراب النظام .
٩- وجود علاقة توازن بين السنن الإلهية والسلوك الإنساني، فصلاح النفس والأرض وعمارتها يكمن في البقاء في نطاق قانون التوازن، فإذا وظف الإنسان قانون التوازن في حياته، من طريقة تفكيره قبل سلوكه، فالسلوك المتوازن لا يمكن أن يجد حيزاً في الخارج مالم يكن قد تغلغل التوازن في طريقة تفكيره وقلبه، وعكس ذلك يؤدي إلى الفساد والاختلال، فآثار الانحراف عن قانون التوازن ماثلة للعيان.
١٠- إنَّ قانون التوازن نابع من القرآن الكريم، وأنَّ تطبيقه في حياتنا لا يكون إلا إذا عرفنا حقائق الأمور وأهميتها ومكانتها من حيث وضع الأعمال في مواضعها الدقيقة في علاقة الأفراد مع ربهم، وفي تصرفات الأفراد مع بعضهم البعض أو مع مجتمعهم المحيط بهم، سواء في العقيدة أو العبادة أو المعاملة، فلا يكون هناك تغليب شيء على شيء آخر، أو إهمال أو تهاون أو مبالغة في جزئية معينة على حساب شيء آخر، بل يكون الفعل أو السلوك على وفق ما تقتضيه أحقيته من القدر المتوازن، فتعيد السلوك إلى جادة الخير والصواب وتحقق له سعادة الحياة وفوز الآخرة .

التوصيات:

١- إنَّ كتاب الله العزيز لا تحصى نفائسه، ولا تنقضي عجائبه، وإنَّ رصد قانون التوازن فيه لا يمكن استيعابها في هذه الرسالة، بل قد يكون جمعه والوقوف عليه يحتاج إلى أكثر من كتاب، لأن فيه ابواب وفروع عدة، وآفاق ونهايات لا تدرك، ولا ينبغي بحال ان تترك، وعليه لابد من استفراغ الوسع من الباحثين في تتبع جزئيات التوازن في القرآن الكريم، لإظهار عظمته وفوائده في الحياة.
٢- استخراج كنوز التوازن في ميدان التربية والتعليم، وفي الأسرة، وفي العلاقات المجتمعية على شكل بحوث مستقلة، مع أمكانية تطبيقها في مناخ الكليات والمعاهد والمدارس.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم

١. ابن الاثير، نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (٦٣٧هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق احمد الحوفي وبدوي طبابة ، ط٢، دار النهضة، مصر (د ت).
٢. الازرقي، احمد زبون، منهج فهم القرآن عند الشيد الصدر، ط٢، مركز الهدف للدراسات، منشورات المجبين، الكوثر، ١٤٣٢هـ
٣. الاسترابادي، رضي الدين محمد بن الحسن (ت ٦٨٦هـ)، شرح شافية ابن الحاجب، تح محمد نور الحسن، محمد الزفراف، محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٠٢هـ.
٤. الالوسي، محمود شهاب الدين (ت ١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تح علي عبد الباري عطيه، ط١، دار الكتب العلمية بيروت،١٤١٥هـ.
٥. الاملي، عبد الله الجواد ي الطبري، تفسير تسنيم في القرآن الكريم، تعريب محمد حسين حكمت، ط١، دار الاسراء للنشر، مكتبة مؤمن قريش ، بيروت – لبنان ، ١٤٣٧هـ.
٦. الاملي، عبد الله الجوادي، التوحيد في القرآن، (د ط)، دار الصفوة، بيروت - لبنان، ١٤٢٩هـ.
٧. الاندلسي، محمد بن يوسف ابي حيان (ت ٧٤٥هـ)، البحر المحيط، تح عادل احمدعبد الموجود، علي محمد عوض، ط١، دار الكتب العالمية، بيروت – لبنان، ١٤٣١هـ.
٨. بادي ، محمد جمعة، القول الثابت، شركة ذو الجناح للانتاج الفني، الكويت، ١٤٢٩هـ.
٩. باطاهر، بن عيسى ، المقابلة في القرآن الكريم، ط١، دار عمار للنشر، عمان، ١٤٢٠هـ.
١٠. الباقلاني، ابي بكر محمد بن الطيب (ت٤٠٣هـ)، إعجاز القرآن، (د ط)، دار المعارف بمصر، ١٣٩١هـ.
١١. بدوي، احمد احمد، من بلاغة القرن ، منشورات نهضة مصر، ١٤٢٦هـ.
١٢. البجنوردي، محمد حسن، القواعد الفقهية، تح مهدي المهريزي، محمد حسين الدرايتي، ط١، دار الهادي، ايران – قم، ١٤١٨هـ.
١٣. البحراني، هاشم بن سليمان (ت ١١٠٧هـ)، البرهان في تفسير القرآن، ط١، مؤسسة البعثة، طهران، ١٤١٦هـ.
١٤. البروجردي، آقا حسين الطباطبائي(ت١٣٨٣هـ)، جامع احاديث الشيعة، (د ت)، مطبعة المهر، قم - ايران ١٤٠٩هـ.

١٥.البروسي، اسماعيل حقي (ت١١٢٧هـ)، تفسير روح البيان، ط١، دارالفكر، لبنان-بيروت، (دت).
١٦.البستاني، محمود (ت ١٤٣٢هـ)، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ط١، مؤسسة الطبع التابعة للاستانة الرضوية المقدسة، مكتبة مؤمن قريش، ١٤٢٤هـ.
١٧.البقاعي، برهان الدين ابو الحسن ابراهيم بن عمر (ت ٨٨٥هـ)، نظم الدرر في مناسبات الآيات والسور، تح محمد عبد الحميد ،(د ط)، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٨٩هـ.
١٨.البلاغي، محمد جواد بن حسن بن طالب (ت١٣٥٢هـ) ، الآء الرحمن في تفسير القرآن، ط١، مؤسسة البعثة، قم ،١٤٢٠هـ.
١٩.البلوشي، حسن جمال ، فلسفة الاخلاق في الفكر الشيعي مسكويه انموذجا، ط١ ، دار الرافدين، بيروت – لبنان ، ١٤٣٩هـ.
٢٠.البهادلي، جواد احمد، الوسيط في الوصايا والمواريث، ط١، مجمع اهل البيت (ع)، العراق - النجف، ١٤٣٧هـ.
٢١.البوطي، محمد سعيد رمضان(ت١٤٣٤هـ)، من روائع القرآن، ط١، دار الفارابي للمعارف، دمشق، ١٤٢٧هـ.
٢٢.البيضاوي، عبد الله بن عمر(ت٦٨٥هـ)، أنوار التنزيل و أسرار التأويل، تح محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط١ ، دار احياء التراث، بيروت – لبنان ، ١٤١٨هـ
٢٣.البيهقي ، احمد بن الحسين (ت٤٥٨هـ)، شعب الإيمان، تح محمد السعيد بسيوني ، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٠هـ .
٢٤.التسخيري، محمد علي (ت١٤٤١هـ)، من الظواهر العامة في الاسلام، ط٢، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب – المعاونية الثقافية، مكتبة نرجس، ايران – طهران، ١٤٣٠هـ.
٢٥.التهانوي، محمد علي (ت ١١٩١هـ)، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح علي دحروج، تقديم رفيق العجم، ط١، مكتبة بيروت ناشرون، لبنان – بيروت ، ١٤١٦هـ.
٢٦.الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ابو منصور(٤٢٩هـ)، فقه اللغة وسر العربية، تع خالد فهمي، تصدير: رمضان عبد التواب، ط١، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، مصر، ١٤١٨هـ.
٢٧.الجابري، فاضل، العدالة الاجتماعية في الاسلام، ط١، المركز العلمي للدراسات، ايران – قم، ١٤٢٢هـ.
٢٨.الجاحظ، ابي عثمان عمرو بن بحر(ت٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، ط٧، مطبعة المدني ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ١٤١٨هـ.
٢٩.الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ)، دلائل الاعجاز، تح محمود محمد شاكر، دار الناشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٤هـ.
٣٠.الجرجاني، عبد الله بن عدي (ت٣٦٥هـ)، الكامل في ضعفاء الرجال، تح يحيى مختار غزاوي، ط٣، دار الفكر للطباعة والنشروالتوزيع، بيروت – لينان ، ١٤٠٩هـ.

٣١.الجرجاني، علي بن محمد (ت٨١٦هـ)، التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي،(د ط)، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، مصر، ١٤٢٥هـ.
٣٢.جعفر، صادق، التمكين الشيعي استراتيجيات تمكين الشيعة وتعزيز اوضاعهم في العالم، ط١، منشورات دار الرضا، بيروت – لبنان، ١٤٣٦هـ.
٣٣.الجنابذي، سلطان محمد، تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة،ط٢، مؤسسة الاعلمي، مكتبة مؤمن قريش، بيروت – لبنان، ١٤٠٨هـ.
٣٤.ابن جني، ابي الفتح عثمان (ت٣٩٢هـ)، الخصائص، تح محمد علي النجار، (د ط)، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية،١٣٧١هـ.
٣٥.جورج، بيار، معجم المصطلحات الجغرافية، ترجمة حمد الطفيلي، ط٢،المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٤٢٢هـ.
٣٦.ابن الجوزي، ابي الفرج جمال الدين بن عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ)، زاد المسير في علم التفسير، ط١، المكتب الاسلامي دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ١٤٢٣هـ.
٣٧.الجيوسي، عبد الله محمد، التعبير القرآني والدلالة النفسية، دار الغوثاني، ط١، دمشق، ١٤٢٦هـ.
٣٨.ابن الحاجب، ابي عمرو عثمان بن عمر (ت ٦٤٦هـ)، الايضاح في شرح المفصل، تح موسى بناي العليلي، احياء التراث الإسلامي، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية، الجمهورية العراقية، (د ت).
٣٩.الحاكم الحسكاني، ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٤٠٥هـ)، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل،(د ط)، تح محمد باقر الحموي، مجمع احياء الثقافة الاسلامية (د ت).
٤٠.الحر العاملي، محمد بن الحسن بن علي (ت١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة، ط٢، مؤسسة ال البيت لإحياء التراث، قم، ١٤١٤هـ.
٤١.حسان، تمام، البيان في روائع القرآن، ط١، منشورات عالم الكتب، القاهرة، ١٤١٣هـ.
٤٢.ابو حسان، جمال ، الدلالات المعنوية لفواصل الآيات القرآنية، ، ط١، دار الفتح للدراسات والنشر، ١٤١٠هـ .
٤٣.الحسناوي، محمد، الفاصلة في القرآن، ط٢، دارعمارللنشروالتوزيع،عمان – الاردن، ١٤٢١هـ.
٤٤.حسني، عباس حسني، خصائص التشريع الاسلامي، ط١، مجلة الشريعة الاسلامية، الكويت، ١٤١٥هـ، مج ٩، ع ٢٤.
٤٥.الحكيم، محسن (ت ١٤١٤هـ)، القواعد الاصولية والفقهية في المستمسك، تح مهدي النيازي الشاهرودي، ط١، مؤمن قريش، قدس، قم، ١٣٨٢هـ.
٤٦.الحلبي، السمين ابو العباس شهاب الدين احمد بن يوسف (ت ٧٥٦هـ)، ،الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح احمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق(د ت).
٤٧.الحلي، محمد بن احمد ابن ادريس(ت٥٩٨هـ)، المنتخب من تفسير القرآن، تح السيد مهدي الرجائي ، ط١، مطبعة سيد الشهداء ،مكتبة المرعشي النجفي العامة - قم ، ١٤٠٩هـ.

٤٨.الحلي، محمد بن الحسن بن يوسف بن المطهر (ت٧٢٦هـ)، تحرير الاحكام، تح ابراهيم البهادري، ط١، مؤسسة الامام الصادق، مكتبة التوحيد، قم – ايران، ١٤٢٠هـ.
٤٩.حمدان،نذير،الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم،ط١،دار المنايرة، جدة – السعودية، ١٤١٢هـ.
٥٠.الحويزي، عبد علي بن جمعه (ت ١١١٢هـ)، تفسير نور الثقلين، تح هاشم رسولي محلاتي، ط٤، منشورات اسماعيليان، قم، ١٤١٥هـ.
٥١.خضر، عبد العليم عبد الرحمن، الظواهر الجغرافية، بين العلم والقرآن، ط١، الدار السعودية للنشر والتوزيع، السعودية – جدة، ١٤٠٤هـ.
٥٢.الخضري، محمد الامين، من اسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية،(د ط)،مكتبة فلسطين، القاهرة، ١٤١٤هـ.
٥٣.خطب الامام علي عليه السلام (ت ٤٠ هـ)، نهج البلاغة، شرح، محمد عبده، ط١، النهضة، دار الذخائر، قم،١٤١٢هـ.
٥٤.الخطيب، عبد الكريم(ت ١٤٠٦هـ)،التفسير القرآني للقرآن،ط١،دار الفكر العربي،بيروت، ١٣٩٠هـ.
٥٥.الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٣٩٥هـ.
٥٦.الخفاجي ، عبد الله بن سعيد بن سنان (٤٦٦هـ) ،سر الفصاحة ، تح داود غطاشة الشوابكة ، ط١ ، دار الفكر ، ١٤٢٧هـ.
٥٧.الخلخالي،محمد مهدي،الحاكمية في الإسلام، مجمع الفكر الإسلامي، ط١، إيران- قم، ١٤٢٥هـ.
٥٨.الخميني، مصطفى (ت ١٣٩٨هـ)، تفسير القرآن الكريم، تعليق محمد علي ايازي، ط١، مؤسسة تنظيم ونشر اثار الامام الخميني، مطبعة مؤسسة العروج، ايران – طهران، ١٤٣٥هـ .
٥٩.الخوئي، أبوالقاسم الموسوي(ت ١٤١٣هـ)، البيان في تفسير القرآن، فهرسة مرتضى الحكمي، ط٢، مطبعة النجف الاشرف ، ١٣٨٥هـ.
٦٠.الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن (ت٢٥٥هـ)، سنن الدارمي، تح محمد احمد دهمام، مطبعة دمشق الحديثة، ١٣٤٩هـ.
٦١.داود، محمد محمد، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب للطباعة والنشر، ١٤٢٢هـ.
٦٢.دراز، صباح عبيد، الاساليب الانشائية واسرارها البلاغية في القرآن الكريم ن ط١، مطبعة الامانة، مصر، ١٤٠٦هـ .
٦٣.دراز، محمد عبدالله، دستور الاخلاق في القرآن، تح شاهين، عبد الصبور، ط١٠، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ١٤١٨.
٦٤.الدرويش، محي الدين (ت١٤٠٣هـ)، اعراب القرآن وبيانه، ط٤، دار الارشاد، سورة - دمشق، ١٤١٥هـ.

٦٥.دفضع، بسام، الكون والانسان بين العلم والقرآن، مطبعة الشام ، دمشق – سوريا، ١٤١١هـ.
٦٦.الرازي ، محمد بن ابي بكر (ت٦٦٠هـ)، مختار الصحاح، (د ط) ، اخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان ، ١٤١٠ هـ .
٦٧. الرازي، محمد فخر الدين ضياء الدين عمر(٦٠٤هـ)،التفسير الكبير، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان- بيروت، ١٤٠١هـ.
٦٨. الراغب الاصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل (ت٥٠٢هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، تح صفوان داوودي، ط٣، دار القلم، (د ت).
٦٩. الراغب، عبد السلام احمد، وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم، ط١، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، سوريه - حلب، ١٤٢٢هـ.
٧٠. الرافعي، مصطفى صادق (١٣٥٥هـ)، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط٩، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان،١٣٩٣هـ.
٧١. رشيد، رضا محمد (ت١٣٥٣هـ)، تفسير المنار، ط٢، مطبعة دارالمنار، مصر- القاهرة،١٣٦٦هـ.
٧٢. الرماني، ابو الجسن علي بن عيسى (ت ٣٨٤هـ)، النكت في اعجاز القرآن، تصحيح عبد العليم، مكتبة الجامعة الملية الاسلامية، دلهي،(د ت).
٧٣. الرماني والخطابي وعبد القاهر، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط٣، دار المعارف بمصر، ١٣٧٦هـ.
٧٤. الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان،، خصائص القرآن الكريم،ط ٩، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية-الرياض، ١٤١٧هـ.
٧٥. الزحيلي، وهبة، التفسير الوسيط، ط٢، دار الفكر ، دمشق، ١٤٢٧هـ.
٧٦. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله (ت ٧٩٤هـ)، البرهان في تفسير القرآن، تح أبو الفضل الدمياطي، ط١، دار الحديث، مصر، ١٤٢٧هـ.
٧٧. الزعارير، غالب محمد رجا، الماء في القرآن الكريم، اشراف: محمد آدم محمد صديق، ط١، دار الزمان للنشر والتوزيع، السعودية – المدينة المنورة،١٤٢٤هـ.
٧٨. الزقيلي، عماد محمود، التوازن القرآني في الألفاظ والتراكيب والأسلوب، ط١، الذخائر لنشر التراث والدراسات العلمية، ١٤٤٠هـ ، الاردن – عمان.
٧٩. زكي، محمد رمضان خميس، سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، ط١، دار المقاصد، القاهرة، ١٤٢٦هـ.
٨٠. الزمخشري، ابو القاسم محمود بن عمروبن احمد (ت٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل، تح خليل مامون شيحا، ط٣، دار المعرفة، بيروت – لبنان ١٤٣٠هـ.
٨١. ابو زهرة، محمد (ت١٣٩٤هـ)، القرآن المعجزة الكبرى،(د ط)، دار الفكر العربي،١٣٩٠هـ.

٨٢. ابو زيد، احمد، التناسب البياني في القرآن الكريم، مطبعة النجاح، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة رسائل واطروحات رقم ١٩، الدار البيضاء، المملكة المغربية ، جامعة محمد الخامس ، ١٤١٣هـ.
٨٣. زيدان، عبد الكريم، السنن الإلهية في الامم والجماعات والافراد، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ١٤١٣هـ.
٨٤. الزيدي، ياسر كاصد، الطبيعة في القرآن الكريم، الدار الوطنية للتوزيع والنشر، العراق - بغداد،١٤١٠هـ.
٨٥. الزين، سميح عاطف، معجم تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مجمع البيان الحديث، ط٤، الدار الافريقية العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، ١٤٢٢هـ.
٨٦. الساعدي، طالب، الدروس التوضيحية في شرح عقائد الامامية، النجف الاشرف، كتاب الكتروني.
٨٧. السامرائي، فاضل صالح، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، (د ط)، دار الغرب الاسلامي، بيروت- لبنان، ١٤٢٨هـ.
٨٨. السامرائي، فاضل صالح، التعبير القرآني، (د ط)، دار البشائر، الاردن ،(د ت).
٨٩. السامرائي، فاضل، على طريق التفسير البياني، النشر العلمي، جامعة الشارقة، الامارات المتحدة العربية، ١٤٢٣هـ.
٩٠. السامرائي فاضل صالح، مراعاة المقام في التعبير القرآني، ط١، دار ابن كثير، بيروت –لبنان، ١٤٣٦هـ.
٩١. السبحاني، جعفر، الإلهيات، تقرير مكي، ط١ ، الدار الاسلامية، بيروت – لبنان، ١٤٠٩هـ.
٩٢. السبحاني، جعفر، مفاهيم القرآن ، ط١،مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت- لبنان، ١٤٣١هـ.
٩٣. السبزواري، عباس علي الزراعي، القواعد الفقهية في فقه الامامية، ط١، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين، قم، ١٤٣٧هـ.
٩٤. السبزواري، عبد الاعلى الموسوي (ت ١٤١٣هـ)، مواهب الرحمن في تفسير القران، ط٢، مؤسسة أهل البيت عليهم السلام، بيروت- لبنان،١٤٠٩هـ.
٩٥. السعد، عامر، دلالة الانساق البنائية في التركيب القرآني، ط١، الغدير للطباعة والنشر، مكتبة الواعي، العراق – البصرة، ١٤٣٦هـ.
٩٦. أبو سليمان، عبد الوهاب ابراهيم، البحث العلمي ومصادر الدراسات الاسلامية، دار المعارف، ١٤٠٧هـ .
٩٧. السكاكي، يوسف بن ابي بكربن محمد (ت ٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، تح عبد الحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ.
٩٨. آل سميسم، سلام عبد الكريم، التوازن الاقتصادي، ط١، دار مجدلاوي للنشر، الاردن، ١٤٣٢هـ.

٩٩. السهيلي، ابي القاسم عبد الرحمن بن عبدالله السهيلي (ت٥٨١هـ)،نتائج الفكر في النحو،تح عادل احمد عبد الموجود،علي محمد معوض،ط١،دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ١٤١٢هـ.
١٠٠. سويد، محمد نور عبد الحفيظ، منهج التربية النبوية للطفل، ط٣، دار طيبة، مكة المكرمة، ١٤٢١هـ.
١٠١. سيبويه، ابي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ)، الكتاب، تح عبد السلام محمد هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨هـ.
١٠٢. السيوطي، جلال الدين(٩١١هـ)، الاتقان في علوم القرآن، تح شعيب الارنؤوط، تعليق مصطفى شيخ مصطفى، ط١، موسسة الرسالة ناشرون، دمشق – سوريا، ١٤٢٩هـ.
١٠٣. الشاذلي، سيد قطب بن ابراهيم (ت ١٣٨٦هـ)، التصوير الفني ط١٧، دار الشروق، القاهرة، ١٤٢٥هـ.
١٠٤. الشاذلي، سيد قطب ابراهيم حسين (ت ١٣٨٦هـ)، خصائص التصور الاسلامي ومقوماته، دار الشروق، (د ت).
١٠٥. الشاذلي، سيد قطب بن ابراهيم (ت١٣٨٦هـ)، في ظلال القرآن ، ط١٧، دار الشروق، بيروت، ١٤١٢هـ.
١٠٦. الشاذلي، سيد قطب (ت١٣٨٦هـ)، مشاهد القيامة في القرآن، ط١٦، دارالشروق، ١٤٢٧هـ.
١٠٧. شبر، عبدالله بن السيد محمد رضا الحسيني(ت١٢٤٢هـ)، تفسير الجوهر الثمين، تعليق : اسامة الساعدي، ط١، منشورات ذوي القربي، قم، ١٤٣١هـ.
١٠٨. شرشر، محمد حسن، البناء الصوتي في البنيان القرآني، ط١ ، دار المحمدية، القاهرة، ١٤٠٨هـ.
١٠٩. الشعراوي، محمد متولي (١٤١٩هـ)، تفسير الشعراوي، (د ت)، منشورات اخبار اليوم، ١٤١١هـ
١١٠. الشمري، ثائر ابراهيم، الوسطية في العقيدة الاسلامية، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٦هـ.
١١١. الشهيد الاول العاملي، ابو عبد الله شمس الدين بن مكي بن محمد (٧٨٦هـ)، الدرة الباهرة من الاصداف الطاهرة، تصحيح عبد الهادي مسعودي، ط١، انتشارات زائر، قم (د ت).
١١٢. الشيرازي، ناصر مكارم، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط١، سليمان زاده، مدرسة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام، ايران - قم، ١٤٢٦هـ.
١١٣. الشيرازي، ناصر مكارم، نفحات القرآن، ط١، مدرسة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام، سليمان زاده، ايران – قم، ١٤٢٦هـ.
١١٤. الامام الصادق (ع)، جعفر بن محمد (ت ١٤٨هـ)، مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة، ط١، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان ،١٤٠٠هـ.

١١٥. صالح ، حكمت ، جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم ، ط١ ، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، الكويت ، ١٤٣١هـ .
١١٦. ابن الصباغ، علي بن محمد احمد المالكي(٨٥٥هـ) الفصول المهمة في معرفة الائمة، تح سامي الغريري، ط١، السرور، دار الحديث للطباعة والنشر، قم،١٤٢٢هـ.
١١٧. الصدر، محمد باقر(ت ١٤٠٠هـ)، الاسلام يقود الحياة، ط١، مركز الابحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، قم – ايران، (د ت).
١١٨. الصدر، محمد باقر(ت ١٤٠٠هـ)،الفتاوي الواضحة،مطبعة الآداب، النجف الاشرف، ١٣٩٦هـ.
١١٩. الصدر، محمد باقر(ت١٤٠٠هـ)، المدرسة القرآنية، تح لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، ط١، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصية للشهيد الصدر، ١٤٢١هـ.
١٢٠. الصدر، محمد صادق (ت ١٤١٩هـ)، منة المنان في الدفاع عن القرآن، ط١، مطبعة الكوثر مؤسسة المنتظر لأحياء تراث آل الصدر، ١٤٣٢هـ.
١٢١. الصدوق، ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، التوحيد، تع هاشم الحسيني الطهراني، (د ط)، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسي ، قم (د ت).
١٢٢. الصدوق، ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، ثواب الأعمال، تح السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، ط٢، منشورات الشريف الرضي، قم، ١٤١٠هـ.
١٢٣. الصدوق، ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، الخصال، تح علي اكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين، قم، ١٤٠٣هـ.
١٢٤. الصدوق، ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، عيون اخبار الرضاعليه السلام، تعليق حسين الاعلمي، (د ط)، مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، ١٤٠٤هـ.
١٢٥. الصدوق ، ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، كمال الدين وتمام النعمة، تح علي اكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤٠٥هـ.
١٢٦. الصدوق، ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، الهداية، ط١، اعتماد، مؤسسة الامام الهادي عليه السلام، قم، ١٤١٨هـ.
١٢٧. الصغير، محمد حسين، الصوت اللغوي في القرآن الكريم، ط١، دار المؤرخ العربي، بيروت– لبنان، ١٤٢٠هـ.
١٢٨. الصمدي، خالد، القيم الاسلامية في المنظومة التربوية، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ابيسكو، الرباط- المملكة المغربية، ١٤٢٩هـ.
١٢٩. بوضياف، عمار، المدخل للعلوم القانونية، ط٢، دار ريحانة، الجزائر، ١٤٤٢ هـ.
١٣٠. الطباطبائي، محمد حسين (ت١٣٤٤هـ)، القرآن في الاسلام، تعريب احمد الحسيني، ط١، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٣٩٣هـ.

١٣١. الطباطبائي ، محمد حسين (ت١٣٤٤هـ) ،الميزان في تفسير القرآن، تصحيح حسين الأعلمي، ط١، منشورات الاعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان ،١٤١٧هـ.
١٣٢. الطبرسي، الفضل بن الحسن(ت ٥٤٨هـ)، جامع الجوامع، ط٢،مؤسسة النشر الاسلامي، ١٤٢٣هـ.
١٣٣. الطبرسي، الفضل بن الحسن (ت٥٤٨هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، تقديم محسن الامين العاملي، ط١، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ١٤١٥هـ.
١٣٤. طبسي، ابراهيم حجازي (ت١٣٧٧هـ)، آيات العقائد، تح رامين الكلمكاني، ط ١، مجمع البحوث الإسلامية، مؤسسة الاستانة الرضوية المقدسة مشهد، ١٤٢٥هـ.
١٣٥. الطريبق، عبد المجيد، منظور الاسلام الى المحافظة على البيئة، ط١، دار ابي رقراق للطباعة والنشر، الرباط – المغرب، ١٤٣٨هـ.
١٣٦. الطهراني ، محمد الصادقي (ت ١٤٣٢هـ)، الفرقان في تفسير القرآن، ط٢، منشورات الثقافة الاسلامية، قم، ١٤٠٧هـ.
١٣٧. الطوسي، ابي جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القرآن، تح احمد قصير العاملي، ط١، دار احياء التراث العربي ، بيروت ،(د ت).
١٣٨. الطوسي ، ابي جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، الخلاف، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة الدرسين، قم، ١٤٠٧هـ.
١٣٩. ابن عاشور،محمد بن الطاهر(ت١٣٩٣هـ)التحريروالتنوير،ط١،مؤسسة التاريخ،بيروت،(د ت).
١٤٠. العاملي، محمد حسن القبيسي، تفسير البيان الصافي لكلام الله الوافي، مؤسسة البلاغ، لبنان –بيروت،(د ت).
١٤١. عالية، سمير، علم القانون والفقه الاسلامي، ط٢، مجد ، بيروت – لبنان، ١٤١٧هـ .
١٤٢. عباس، حسن فضل إعجاز القرآن، ط٢،منشورات جامعة القدس المفتوحة، مكتبة فلسطين، ١٤٢٨هـ.
١٤٣. عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، (د ط)، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦٤هـ.
١٤٤. عبد الرحمن، عائشة، الاعجاز البياني في القرآن الكريم ومسائل ابن الازرق، ط٣، دار المعارف، مكتبة الدراسات القرانية، (د ت).
١٤٥. عبد المطلب، محمد، البلاغة والاسلوبية، ط١، دار نوبار للطباعة، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، مكتبة لبنان ناشرون بيروت – لبنان، ١٤١٤هـ.
١٤٦. عبد المهدي،عادل وحسين الهموندي،الموسوعة الاقتصادية، ط١، دار ابن خلدون،١٤٠٠هـ.
١٤٧. عبد النور، جبور، المعجم الادبي، ط٢، دار الملايين، لبنان – بيروت، ١٤٠٤هـ.
١٤٨. عبده، محمد، الاسلام بين العلم والمدينة، ط١، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر-القاهرة، ١٤٣٣هـ.

١٤٩. العجم، رفيق، موسوعة مصطلحات اصول الفقه عند المسلمين، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت-لبنان، ١٤١٩هـ.
١٥٠. العراقي، اقا ضياء الدين (ت ١٣٦١هـ)، شرح تبصرة المتعلمين (كتاب القضاء)، تح محمد هادي معرفة، مهر، قم، (د ت).
١٥١. العسكري، ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥هـ)، الصناعتين الكتابة والشعر، تح محمد امين الحانجي، ط١، مطبعة محمود بك، ١٣١٩هـ.
١٥٢. العسكري، ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥هـ)، الفروق اللغوية والحاوي جزءا من كتاب السيد نور الدين الجزائري، معجم الفروق اللغوية، تح مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط٦، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ١٤٣٣هـ.
١٥٣. العقيدي، رضا هادي حسون، العموم الصرفي في القرآن الكريم، ط٢، المركز التقني، بغداد، ١٤٣٤هـ.
١٥٤. عكاوي، انعام فوال، المعجم المفصل في علوم البديع والبيان والمعاني، مراجعة احمد شمس الدين، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٧هـ.
١٥٥. العمادي، ابوالسعود محمد بن محمد بن مصطفى(ت٩٨٢هـ)، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت، (د ت).
١٥٦. عمر، احمد مختار،اسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدلالة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الاسرة، ١٤١٧هـ.
١٥٧. العمري، احمد جمال، مباحث في إعجاز القرآن، اهداءات مصطفى الصاوي الجويني، مكتبة الشباب، مصر- الاسكندرية، ١٤٢٣هـ.
١٥٨. ابو عودة، عودة خليل، شواهد في الاعجاز القرآني، ط١، دار عمار للنشر، عمان، ١٤١٩هـ.
١٥٩. عيد، محمد السقا ، موسوعة الاعجاز العلمي في القرآن والسنة، ط١، دار اليقين، مصر، ١٤٣٠هـ.
١٦٠. ابن فارس، ابي الحسن احمد (ت٣٩٥هـ)، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، (د ط)، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، (د ت).
١٦١. فتح الله، احمد، معجم الفاظ الفقه الجعفري، ط١، مطابع المدوخل، الدمام، ١٤١٥هـ.
١٦٢. الفراهيدي، الخليل بن احمد (ت١٧٠هـ)، العين، تح:عبد الحميد هنداوي، ط١، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العالمية، بيروت ، لبنان (د ت).
١٦٣. فضل الله، محمد حسين (ت ١٤٣١هـ)، من وحي القرآن، ط٢، دار الملاك بيروت –لبنان، ١٤١٩هـ.
١٦٤. الفقي، صبحي ابراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ط١، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢١هـ.
١٦٥. الفيومي، احمد بن محمد بن علي المقري (ت ٧٧٠هـ)، المصباح المنير، تح الشناوي، عبد العظيم، ط٢، دار المعارف، القاهرة (د ت).

١٦٦. القبانجي، حسن، شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، ١٤٢٢هـ.
١٦٧. قرائتي ، محسن علي نقي ، تفسير النور، ترجمة حسين صافي ، محمد حسن زراقط ، ط١ ، دار المؤرخ العربي ، بيروت – لبنان ، ١٤٣٥هـ.
١٦٨. القرعان ، فايز عارف ، التقابل والتماثل في القرآن الكريم ، ط١ ، عالم الكتب الحديث ، جدارا للكتاب العمي ، الاردن، ١٤٢٧هـ.
١٦٩. القطان، مناع بن خليل، تأريخ التشريع الاسلامي، ط٤، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٩هـ.
١٧٠. القمي، المشهدي محمد بن محمد رضا، تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، تح حسين دركاهي، ط١، مؤسسة الطباعة والنشر في وزارة الارشاد الاسلامي، طهران، ١٤٠٩هـ.
١٧١. قوش، سليمان عمر، الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم، ط١، دار الحرمين، مكتبة المهتدين، الدوحة – قطر، ١٤٠٧هـ.
١٧٢. القيرواني، ابي الحسن ابن رشيد، (ت ٤٦٣هـ)، العمدة في صناعة الشعر ونقده، ط١، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٥هـ.
١٧٣. ابن كثير، ابو الفداء اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن الكريم، ابن كثير ، تح محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ.
١٧٤. كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ١٤٣٦هـ.
١٧٥. الكليني، محمد بن يعقوب (ت٣٢٩هـ)، الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط٤، مطبعة الحيدري، دار الكتب الاسلامية، طهران،١٣٦٧هـ.
١٧٦. الكواز، محمد كريم، القصص القرآني محاضرات جامعية،(د ط)، مطبعة شفيق، بغداد- العراق، ١٤٣٥هـ.
١٧٧. كيرة، حسن، المدخل الى القانون، (د ط)، منشأة المعارف، الاسكندرية- مصر، ١٤٢١هـ.
١٧٨. المجلسي، محمد باقر(ت١١١٠هـ)، بحار الانوار، ط٣، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان،١٤٠٣هـ.
١٧٩. المجلسي، محمد باقر(ت ١١١٠هـ)، مرآة العقول في شرح اخبار آل الرسول، تح محسن الاميني الحسيني، ط٢ ، مروي، دار الكتب الاسلامية، ١٤٠٤هـ.
١٨٠. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ١٤٢٥هـ.
١٨١. آل محفوظ ، محمد جاسم، ملا مح حقوق الانسان في التشريع الاسلامي، افاق ثقافية، مؤمن قريش، الدمام – السعودية، ١٤٣٠هـ.
١٨٢. المدرسي، محمد تقي، من هدى القرآن، ط١، دار محبي الحسين، طهران، ١٤١٩هـ.
١٨٣. المراغى، محمد بن مصطفى (ت ١٣٦٤هـ)، تفسير المراغي، ط١، داراحياء التراث العربي، بيروت، (د ت).
١٨٤. مركز المعارف للتاليف والتحقيق، روح العبادة، ط١، دار المعارف الاسلامية الثقافية، بيروت– لبنان، ١٤٣٨هـ.

١٨٥. مسكويه، احمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ)، تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق، تح عماد الهلالي، ط١، طليعة النور، سليمان زاده، قم، ١٤٢٦هـ.
١٨٦. المصراتي، علي محمد الصلابي، الوسطية في القرآن الكريم، ط١، مكتبة الصحابة، الامارات -الشارقة، ١٤٢٢هـ.
١٨٧. مصطفوي، حسن محمد رحيم (ت١٤٢٦هـ)، التحقيق في كلمات القرآن، ط١، مركز نشر اثار العلامة المصطفوي، طهران، ١٤٣٥هـ.
١٨٨. مصطفوي، محمد كاظم، القواعد(مائة قاعدة فقهية)، مؤسسة النشر الإسلامي، ط٤، إيران-قم، ١٤٢١هـ.
١٨٩. مصطفوي، محمد، الاصول العامة لنظام التشريع / دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون الوضعي، ط١، مركز الحضارة للتنمية الاسلامية، مكتبة مؤمن قريش، ١٤٢٩هـ.
١٩٠. مصطفى، ابراهيم، والزيات، احمد حسن، والنجار، محمد علي، المعجم الوسيط، تح مجمع اللغة العربية، ط٤، دارة الدعوة، ١٤٢٥هـ.
١٩١. المطعني، عبد العظيم ابراهيم محمد، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٣هـ.
١٩٢. المطعني، عبد العظيم ابراهيم ، مبادئ التعايش السلمي في الاسلام منهجا وسيرة، دار الفتح للاعلام العربي، القاهرة، ١٤١٧هـ.
١٩٣. مطلوب، احمد(ت١٤٣٩هـ)، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، (د ط)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٦هـ.
١٩٤. مطهري، مرتضى محمد حسين (ت ١٣٩٩هـ)، التكامل الاجتماعي للإنسان، ط٤، دار الهادي، بيروت – لبنان، ١٤٢٦هـ.
١٩٥. مطهري، مرتضى محمد حسين (ت ١٣٩٩هـ) ،الهدف السامي للحياة الإنسانية، ط١، مكتبة الفقيه، الكويت،١٤٠٦هـ.
١٩٦. المظفر، محمد رضا (ت ١٣٢٢هـ)، عقائد الامامية في ثوبه الجديد، ط١، الاميرة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٤٢٩هـ.
١٩٧. المعلم، محمد علي صالح، العدالة في فقه أهل البيت عليهم السلام، تقرير مسلم الداوري، تح حسن العبودي، ط١، سرور، مدين، ايران – قم، ١٤٢٥هـ.
١٩٨. مغنية، محمد جواد (ت ١٤٠٠هـ)، الكاشف، ط١، دار الكتب الاسلامية، ايران – طهران، ١٤٢٤هـ .
١٩٩. المفيد، محمد بن محمد بن النعمان(٤١٣هـ)، تفسير القرآن الكريم، تح محمد علي ايازي، ط١، مؤسسة بوستان مكتب الاعلام الاسلامي، قم،١٤٢٤هـ.
٢٠٠. المفيد، محمد بن محمد بن النعمان (٤١٣هـ)، النكت الاعتقادية، ط١،دار المفيد للنشر، ١٤٣١هـ.
٢٠١. المنجد، محمد صالح، سنن الله في خلقه، ط١، مجموعة زاد للنشر، ١٤٣٧هـ.

٢٠٢. ابن منظور، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)، لسان العرب، ط٣، دار صادر، بيروت ، (د ت).
٢٠٣. موسى، محمد بن حسن بن عقيل، التنازع والتوازن في حياة المسلم،(د ط)، مؤسسة الطباعة والصحافة للنشر، المملكة العربية السعودية – جده، (د ت).
٢٠٤. ابو موسى، محمد محمد، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ط٤، مكتبة وهبة، ١٤١٦هـ .
٢٠٥. الموسوي، محمد، منهج الفقه الاسلامي في المسائل المستحدثة، ط١، مكتبة الصدوق، مؤسسة بوستان، قم، ١٤٣٠هـ.
٢٠٦. الناصر، سعاد عبدالله، بلاغة القص في القرآن الكريم وافاق التلقي، ط١، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، دار الكتب القطرية، ١٤٣٦هـ.
٢٠٧. النجار، زعلول، من آيات الاعجاز العلمي في القرآن الكريم، تقديم احمد فراج، (د ط)، مكتبة الشروق الدولية (د ت).
٢٠٨. النجار، زغلول، المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم، ط٨، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة - مصر، ١٤٢٦هـ.
٢٠٩. النراقي، محمد مهدي (١٢٠٩هـ)، جامع السعادات، ط٧، انتشارات اسماعيليان، مطبعة سرور، قم، ١٤٢٨هـ.
٢١٠. النسفي، ابو البركات محمد عبد الحق بن شاه الهندي الحنفي (١٣٣٣هـ)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تح محي الدين اسامة البيرقدار، ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٣٣هـ.
٢١١. النشار، مصطفى، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، (د ط)، دار قباء للطباعة والنشر،١٤٢١هـ.
٢١٢. النشار، مصطفى، فكرة الالوهية عند افلاطون واثرها في الفلسفة الاسلامية والغربية، (د ط)، دار روابط للنشر وتقنية المعلومات ودار الشقري، ١٤٣٩هـ.
٢١٣. النشواتي، محمد نبيل، الاعجاز الالهي في خلق الإنسان وتفنيد نظرية داروين، ط١، دار القلم، دمشق، ١٤٢٨هـ.
٢١٤. النقوى، محمد تقي قائنى (ت ١٤٤٠هـ)، ضياء الفرقان في تفسير القرآن، ط١، مطبعة كوهر انديشه، دار الكتب الاسلامية، ١٣٩٧هـ.
٢١٥. النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد (ت ٨٥٠هـ)، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تح زكريا عميرات، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٦هـ.
٢١٦. هلال، هيثم، معجم المصطلح الاصولي، مراجعة محمد التونجي، ط١، دار الجيل للنشر والطباعة، بيروت، ١٤٢٤هـ.
٢١٧. ياسوف، احمد ، جماليات المفردة القرآنية، ط٢، دار المكتبي للطباعة والنشر، ١٤١٩هـ.
٢١٨. اليزدي، محمد تقي مصباح، الحرب والجهاد في القرآن الكريم، ط١، مؤسسة العرفان للثقافة الاسلامية، دار الولاء، ١٤٣٦هـ.

رسائل الماجستير والدكتوراه

١- الفتلاوي، محمد كاظم حسين، المنظور القرآني في بناء الانسان، أطروحة دكتوراه جامعة الكوفة/ كلية الفقه ، ١٤٣٣هـ.

٢- نجم، اقبال وافي، التناسب ودروه في الإعجاز، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة/كلية الفقه، مكتبة الروضة الحيدرية، المكتبة الرقمية للرسائل الجامعية، ١٤٣٠هـ.

٣- اليحيصي، عبد السلام محمد عبدالله، التوازن في ضوء القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه، جامعة ام درمان الاسلامية، كلية اصول الدين قسم التفسير وعلوم القرآن ، ١٤٣١هـ.

المؤتمرات العلمية:

١. صالح، احمد محي الدين، احكام التعايش السلمي في منظور القرآن الكريم خلال الدعوة المكية، بحث الى المؤتمر العلمي الدولي، الجامعة العراقية، كلية الآداب.

٢. علي، تهاني وداعة عثمان، القيم الاجتماعية التربوية، المؤتمر العالمي للقرآن الكريم ودوره في بناء الحضارة الانسانية، الكتاب الثالث، جامعة افريقيا العالمية، الخرطوم -السودان، ١٤٣٣هـ.

٣. العوضي، عبد العزيز، القواعد الكبرى للتعايش السلمي من خلال القواعد الكلية، بحث مقدم الى وزارة الاوقاف في سلطنة عمان.

٤. معروف، محمد علم الدين، مضامين التربية البيئية في القرآن الكريم، المؤتمر العالمي للقرآن الكريم ودوره في بناء الحضارة الانسانية، جامعة افريقيا العالمية، الخرطوم - السودان، ١٤٣٣هـ.

المجلات العلمية

١. ديري، عبد الامام نصار، محمد ، فارس مهدي، البيئة الطبيعية والتوازن البيئي في القرآن الكريم، بحث مقدم إلى جامعة المثنى، كلية التربية / قسم الجغرافيا.

٢. الراوي، ساطع محمود، تلوث البيئة في الشريعة الاسلامية، مجلة دراسات اسلامية، العدد ٩، السنة الثالثة، ١٤٢٣هـ.

٣. زاهد، زهير غازي، الفاصلة القرآنية طبيعتها الايقاعية وانواعها ووظيفتها، مجلة كلية التربية للبنات، المجلد ٢٠ (٣)، ١٤٣٠هـ.

٤. زعبوب، فريدة، حيدروسي، عمر، السنن الإلهية ومدى ارتباطها بحياة الناس، كلية العلوم الاسلامية - جامعة باتنة، مجلة الاحياء، المجلد ١٩، العدد ٢٣، ١٤٤١هـ.

٥. سلامة، محمد عبد الغني عبد العزيز، علم المناسبات القرآنية دراسة نظرية ونماذج تطبيقية، مجلة كلية التربية، جامعة الازهر، العدد١٤٤،الجزء الثاني،١٤٣١هـ.

٦. العامري، خليل خلف بشير، جوانب تركيبية في تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، مجلة جامعة بابل، العلوم الانسانية، المجلد١٨/العدد٢، ١٤٣١هـ.
٧. عبد القادر، فراس عبد العزيز، علاقة الصوت بالمعنى في صيغة الفعل الرباعي المضاعف، مجلة ادب الرافدين، العدد ٤٨،١٤٢٨هـ.
٨. غوري، محمد علي، مدخل الى نظرية الجمال في النقد العربي، مجلة القسم العربي، العدد الثامن عشر، جامعة بنجاب، لاهور، باكستان، ١٤٣٢هـ.
٩. الغويل، المهدي ابراهيم، جماليات البنية الايقاعية دراسة في الجزء الاخير من سورة مريم، بحث الجامعة الاسمرية، العدد ٢١، ١٤٣٢هـ.
١٠. فرحات، احمد حسن، مناسبات الآيات والسور، مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١٠، المكتبة الشاملة ، http//www.shamela.ws.
١١. قدة، كمال، السنن الكونية والاجتماعية من خلال القرآن الكريم، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، بحث جامعة الشهيد حمة الأخضر- الوادي، العدد ١٥، ١٤٣٧هـ.
١٢. قيطون، قويدر، دور جرس اللفظة القرآنية في التناسق الفني في آيات البعث والحشر، بحث في جامعة الوادي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، المجلد ١١، ١٤٤٠هـ.
١٣. نهمار، فاطمة الزهراء، البناء المحكم للنظم القرآني وادق المصطلحات وصفا له، جامعة البليدة ٢، مجلة الصوتيات، المجلد ١٦، العدد ٢، ١٤٤٢هـ.

المواقع الالكترونية

١. البرغوثي، عائد عبد المجيد، روعة التوازن في الاسلام، نشر على موقع وقفية الامير غازي موقع الفكر القرآني، QuranicThought.com.
٢. بكار، عبد الكريم محمد الحسن، مقال النمط العزيز، موقع أ.د عبد الكريم محمد الحسن بكار، http//www.drbakar.com.
٣. الجازي، هايل، ظواهر كونية، موقع الكتروني، موضوع أكبر موقع عربي بالعالم، آخر تحديث بتاريخ ١٣ حمادي الاولى، ١٤٣٧هـ. https://mawdoo3.com.
٤. الحاج،عبدالرحمن، المفردة اداة لتحليل الخطاب القرآني، بحث من موقع alhaaj@gmail.com.
٥. حسين ، كاصد ياسر، الجرس والايقاع في تعبير القران، مركز البحوث الالكترونية للعلوم الاسلامية، Electronic Research Center for Islamic Sciences.

٦. الحلايقة، غادة، الظواهر الطبيعية، موقع الكتروني، موضوع أكبر موقع عربي بالعالم، آخر تحديث بتاريخ ٢٣ جمادي الاولى، ١٤٣٨هـ، https://mawdoo3.co.
٧. زكي، رمضان خميس، مفهوم السنن الربانية دراسة في ضوء القرآن الكريم، شبكة الألوكة، كتاب الكتروني، www.alukah.net، 81.
٨. عثمان، سمية السيد، التوازن في الاسلام، مكتبة عين الجامعة المعارف الاسلامية، كتاب الكتروني.
٩. عرجون، محمد الصادق، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم، بحث الكتروني.
١٠. بوعياد ، صباح ادريس، الاستخلاف والعلم في القرآن، بحث في المكتبة الشاملة http://www.shamela.ws.
١١. فضل الله ، محمد حسين(ت١٤٣١هـ)، موقع بينات،arabic.bayynat.org.lb.
١٢. مبدا التقابل في القران الكريم، موقع البلاغ، balagh.comkK،1442هـ.
١٣. النيه، بشرى، القانون وخصائص القاعدة القانونية، كلية العلوم العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، فاس المغرب، موقع htts: elearning.univ، 1438هـ.

المحاضرات الجامعية

١. بدوي، عمرو طه، نظرية القانون ،محاضرات كلية الحقوق جامعة القاهرة،١٤٢٩هـ https://boubidi.blogspot.com.
٢. الموسوي، ضرغام كريم ، محاضرات الدراسات العليا لطلبة الماجستير لمادة تحليل النص القرآني، ١٤٤١هـ.

Summary

The events of the world and its happenings do not happen in this world by chance or random confusion, but rather the occurrence of accidents is according to a general, accurate, and fixed law, which does not deviate from its provisions, which is the law of balance, and creatures, including humans, are subject to this law in their material existence and all material accidents, so He created Man and the stages he goes through in his mother's womb, and what happens to him in his growth and movement of his organs, his sickness and his old age and the requirements for his survival are subject to the law of balance, and the cosmic phenomena in the horizons verses of the Holy Qur'an, indicative of the Creator of this universe, and they are subject in their movement and regular dimensions to this Hard law.

The balance that I discussed between the verses and the surahs of the Noble Qur'an has nothing to do with the concept of moderation or moderation, that it is always the middle of the distance between opposites. You may believe that the balance is in the middle of its opposites at a certain point, but it does not mean moderation or moderation of these opposites, and perhaps it is not affected by the jurisprudence of all humankind. Balance is a point between two or more opposites, and this point achieves the desired benefit and is most beneficial, but it is not in the middle.

The research included an introduction and an introductory chapter of five sections, as well as three chapters that included the first chapter: the law of balance in the Qur'anic systems and it consisted of six sections, while the second chapter: the levels of the law of balance and included six sections as well, and the third chapter: the law of balance, the miraculous control, and included five sections with Conclusion and sources.

Republic of Iraq
Ministry of Higher Education
and Scientific Research
University of Karbala
College of Education for Humanities

The Law of equilibrium in the Quran Perspective Interpretive Study

A thesis submitted by

(Fatima Ali Hassan Alshawi)

To the Council of the College of Islamic Sciences at the University of Kerbala in partial fulfillment of the requirements of the master degree

in Shariaa and Islamic Sciences

Supervised by

Asst. Prof. Dr.

Mohammad Hussien Abud Altaai

A.D. 2021 **1442 H.**